من روائع الأدب السويدي

زيارة طبيب صاحب الجلالة

بير أولوف إينكويست

دار المنى

Mathematician
25.10.2018

من روائع الأدب السويدي

زيارة طبيب صاحب الجلالة

بير أولوف إينكويست

ترجمة: سوسن كردوش ـ قسيس

مراجعة دار المنى

دار المنى

ISBN: 978-91-87333-30-9
© Arabic Edition Bokförlaget Dar-Al-Muna AB, 2015
LIVLÄKARENS BESÖK © Per Olov Enquist
© Per Olov Enquist 1999
Translation has been supported by Swedish Art Council
First published by Norstedts, Sweden 1999
Published by agreement with Norstedts Agency
Printed at ScandBook AB, Sweden 2015

www.daralmuna.com

Mathematician
25.10.2018

"التّنوير، هو انطلاق الفرد من حالة الدّونيّة الفكريّة العاجزة الّتي يقيّد نفسه بها طوعاً. يكون الإنسان قاصراً حين يفقد المقدرة على استخدام قدراته الذّاتيّة للفهم والإدراك بشكلّ مستقلّ ودون توجيه الآخرين. هذا العجز الطّوعي هو نتيجة للجبن والكسل في استخدام العقل. شرط التّنوير هو الحرّية ولا شيء إلاّ الحرّيّة. الحرّيّة بمعنى حق الفرد في أن يستخدم عقله. إنّما دعوة لكلّ إنسان بأن يكون سيّد نفسه فكريّاً".

إيمانويل كانت (١٧٨٣)

"عهد لي الملك بوجود امرأة قويّة تسيطر بطريقة سريّة على الكون، وأن هناك جماعة من الرّجال الّذين تم اختيارهم كي يقوموا بكل ما هو شرٌّ في هذا العالم. من بين هؤلاء، تم اختيار سبعة، هو أحدهم. كل صداقة يقيمها، تعتمد على انتماء الشّخص المعني لتلك الجماعة".

أولريك أدولف هولشتاين "مذكرات"

الجزء الأول

الأربعة

الفصل الأول

دائس المعصرة

١

عُيّن يوهان فريدريخ سْترونْزي طبيباً لصاحب الجلالة؛ الملك كريستيان السابع ملك الدنمارك، في الخامس من نيسان/أبريل ١٧٦٨، وبعد أربع سنوات تم إعدامه.

في ٢١ أيلول/سبتمبر ١٧٨٢، أي بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ، وحينما أصبح المصطلح «فترة سترونزي» مصطلحاً مألوفاً، أرسل روبرت موري كيث - السفير البريطاني في الدنمارك- تقريراً لحكومته حول حادثة شهدها واعتبرها «مُحَيِّرَة».

وقعت الحادثة حين حضر كيث عرضاً مسرحيّاً على خشبة المسرح الملكيّ في كوبنهاغن، وكان الملك كريستيان السابع بين الحضور وقد وقف إلى جانب أوفِه هوغ-غولدبيرغ ، الرّجل الّذي آلت إليه مقاليد الحكم في الدنمارك وكان المُسيطر الفعلي على البلاد، وقد اتّخذ لقب «رئيس الوزراء».

دار التقرير حول اللقاء الذي جرى بين السّفير كيث والملك.

بدأ كيث تقريره بتسجيل انطباعاته عن مظهر الملك: «بدا كريستيان السابع، والذي لا يزيد عمره على ٣٣ ربيعاً، عجوزاً، قصير القامة جدّاً ،هزيل الجسم، غائر الوجنتين، تشهد عيناه - وقد ذوى بريقهما - على حالة عقله المريض».

يضيف كيث أن الملك «المجنون» أخذ يجول بين الحضور في القاعة قُبيل العرض وهو يتمتم ويأتي بحركات عصبية غريبةٍ ظهرت على قسمات وجهه.

ظلت عينا غولدبيرغ تراقبان الملك طول الوقت.

الأمر الغريب كان في العلاقة بين الرجلين؛ كريستيان وغولدبيرغ، الّتي يمكن

تشبيهها بالعلاقة بين مريض وشخص يعتني به، أو بين شقيقين، أو كأن غولدبيرغ هو والد هذا الطفل المشاكِس المعتلّ. يستعمل كيث تعبيرا خاصّاً لوصف علاقة غولدبيرغ بالملك إذ يقول إنه: «يكاد يحبّه».

يصف أيضا العلاقة بين الرجلين على أنها «غير طبيعية».

«غير طبيعي» في العلاقة لم يكن في أن هذين الرّجلين اللذين كانا عدوين لدودين أثناء الثورة الدنماركية وقد لعبا فيها دوراً مهماً جداً، قد تحولا إلى شخصين يَعتمدُ الواحد منهما على الآخر بهذه الطريقة، أنما الـ«غير طبيعي» هو أنّ الملك أخذ يتصرّف ككلب خائف لكنه مطيع، وتصرّف غولدبيرغ كسيّده الصارم والحنون.

كان جلالته يتصرّف بذُلّ وتملّق، بل إنه كاد ينحني خشيةً وتذللاً لدرجةٍ تثير التقزّز. لم يُبْدِ الحاضرون من أفراد البلاط أي اهتمامٍ بالملك، بل تجاهلوه أو تراجعوا للخلف ضاحكين كلما اقترب منهم كأنما أرادوا تجنّب حضورِه المحرِج.

بدا الملك وكأنه طفل مزعج تعب منه المحيطون به.

وحده غولدبيرغ أبدى اهتماماً بالملك.

كان الملك يتبع غولدبيرغ طول الوقت على بعد ثلاثة أمتار أو أربعة ، فيسير خلفه بخنوعٍ، والقلقُ واضحٌ على محيّاه خشيةَ أن يُترك وحيداً. أما غولدبيرغ فكان يبعث للملك بإشارةٍ صغيرةٍ بيده بين الفينة والأخرى أو إيماءة بالرأس أو نظرة، كلما صدرتْ عن الملك تمتمةٌ عاليةٌ أو تصرّفٌ مزعجٌ أو ابتعد الملكُ عن غولدبيرغ أكثرَ مما يجب.

وكان الملكُ يستجيبُ حالَ صدورِ الإشارةِ و«يأتي مُهرولاً».

ذات مرّة، صدرت عن الملك تمتمةٌ عالية ومزعجة بشكل ملحوظ ، فذهب إليه غولدبيرغ ،وأخذه من ذراعه برفقٍ وهمس في أُذنه. عندها، أخذ الملك ينحني بشكل آليّ ويكرّر حركته تلك، المرة تلوَ الأُخرى بشكل عصبيّ أشبه بتشنّجات الصَّرَع. بدا ملكُ الدنماركِ كأنّه كلب يريد التّعبير عن خضوعه التامّ وخنوعه المطلقِ لسيّده الأثيرِ بكلّ وسيلةٍ ممكنة. ظلّ الملك يكرّر الانحناء إلى أن همس غولدبيرغ في أذنه ثانيةً،

فتوقفَ عندها عن القيام بتلك الحركات الغريبة وغير اللاّئقة بالملكيّة.

عندها، ربَّت غولدبيرغ على خدّ الملك برفقٍ، فكافأه الأخيرُ بابتسامة ملؤها الامتنانُ والخنوع. كان المشهد مؤثّراً لدرجة أنَّ عيني السفيرِ كيث « ترقرقتا بالدموع». كتبَ السّفيرُ البريطانيّ واصفا المشهد على أنه «تراجيدي مفعم باليأس» لدرجةٍ لا تكاد لا تُحتمل. كذلك علّقَ السّفيرُ على لُطفِ غولدبيرغ قائلاً إن الرّجل «مستعدّ لتحمّل مسؤوليّة هذا الملك الصّغير والمريض» وإنّ السّخريةَ والازدراءَ اللّذين ظهرا على الحاضرين لم يكن لهما أثر على ملامحِ غولدبيرغ، وإنّه الوحيد الذي اعتنى بالملك.

مع ذلك فإنّ تعبير «مثل الكلب» تكرّر في التّقرير. كان الحاكمُ المطلقُ للدّنمارك يُعاملُ من قِبَلِ الجميع مثل الكلب. الفرق بينهم وبين غولدبيرغ هو أنه تحمّل المسؤوليّة، وبمحبّة، تجاه هذا الكلب.

وصف كيث المشهد كالتالي: « أثارت رؤيتُهما معا- وكلاهما صاحبُ بنية أكديّة وقامة قصيرة بشكلٍ لافت للنظر- مشاعرَ غريبةً يشوبها القلق، خاصّة وأنّ السّلطة كلها؛ رسميّا وعمليّا، كانت بيد هذين القزمين العجيبين».

على أيّ حالٍ،ركّزَ التقريرُ بشكل خاصٍّ على ما حدث خلال العرض المسرحيّ وبعده . ففي منتصف العرض- الذي كان لمسرحيّة بعنوان «الشرّير» للكاتب الفرنسيّ غريسيه - «قام كريستيان من مقعده في الصفّ الأوّل وصعد مترنّحا إلى المسرح وأخذ يتصرّف كما لو كان أحدَ الممثلين. أخذ يتلو على خشبة المسرح كلاماً كأنه سطور من نصّ المسرحية. لم يُفْهَم من كل ما قاله بالفرنسيّة إلاّ كلمة: « متوحّشون» وكلمة: « آكلة لحوم البشر».استطاع كيث أن يفهم الثانية من بين الكلمتين الفرنسيتين، والتي تعني «أكل الإنسان لحم أخيه الإنسان». كان من الواضح أن الملك مندمجٌ تماماً بالمسرحية، بل إنّه ظن نفسه أحد الممثّلين، إلى أن صعد غولدبيرغ بهدوءٍ إلى خشبة المسرح وأخذ الملك من يده بلطفٍ. هدأ الملك

في الحال ولم يعترض على إعادته، وقد اقتاده غولدبيرغ، إلى مقعده.

بدا على الحضور، وكلّهم من أفراد الحاشية، أنهم قد اعتادوا هذا النموذج من التّشويش. لم يُصَبْ أحدٌ بالهلع كردّ فعلٍ على المشهد، إلاّ أن بعض الضحكات قد انطلقت هنا وهناك.

قُدِّمَ النّبيذُ للحضور بعد العرض. وحَدَثَ أن وقف كيث قُربَ الملك. التفتَ الملكُ إليه- وكان يعرف على ما يبدو أنّ كيث هو السّفير البريطانيّ - وقام بمحاولةٍ متلعثمةٍ لشرح العقدة الأساسيّة للمسرحيّة. يقول كيث: «أخبَرَني الملكُ أن المسرحيّة تدور حول الشرّ المُستفحل إلى أبعد الحدود بين أفراد حاشيةِ البلاطِ، لدرجة أنهم باتوا أشبه بالقردة أو بالشّياطين، فهم يبتهجون لسوء طالع الآخرين ويحزنون لنجاحاتهم. هذا ما كان يُسمّى في زمن الكهنة والعرّافين على أنّه نَهشٌ للحوم البشر ولهذا نجد أنفسنا بين أُناسٍ مُفترسين».

«انفلات» زمام الملك — الذي اعتُبِر مجنوناً - في الكلام، نَمّ في الواقع عن معرفةٍ جيّدة باللّغة، إذ صاغ كلامه بأسلوب دقيق ومتميّز. هزّ كيث رأسه معبّرا عن اهتمامه بشرح الملك لمعاني المسرحية؛ وكأن كلَّ ما قاله هذا الأخير كان مهماً وله معنى. لاحظ كيث مع ذلك، أن تحليل كريستيان للفحوى السّاخر للمسرحيّة لم يكن بعيداً عن الصواب.

كان الملك يُكلّم كيث بصوت هامسٍ وكأنّه يأتمنه على سرٍّ مهمّ.

تابع غولدبيرغ الحديثَ الدائرَ بين الرّجلين بنظرةِ عدم ارتياح، وبينما لم يُخْفِ أنه يراقب الوضع عن كثب، تقدّم نحوهما ببطء.

لاحظ كريستيان ذلك وحاول أن ينهي المحادثة، رافعاً عندها صوته بلهجة مستفزّة نوعاً ما؛ إذ قال:

« إنّهم يكذبون، يكذبون! براندت كان رجلا ذكيّاً لكنه جريء. سترونزي كان شهماً. لست أنا من قتلهما. أتفهم؟».

ما كان من كيث إلا أن انحنى بصمت.

أضاف كريستيان:

«لكنّه حيّ! يظنّون أنّه أُعْدِم! لكنّ سترونزي حيّ. هل تعلم ذلك؟»

لكن غولدبيرغ كان قريبا جدّاً هذه المرّة واستطاع أن يسمع الكلمات الأخيرة. قبض عندها على ذراعِ الملك قبضةً حازمة وبابتسامةٍ صارمة وحانيةٍ في آن قال:

« لقد مات سترونزي، يا صاحب الجلالة. إننا نعلم ذلك، أليس كذلك؟ ألا نعلم ذلك؟ لقد اتّفقنا على هذا الأمر، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟»

كانت لهجته لطيفة ومعنِّفة في آن معا. فجأةً أخذ كريستيان يقوم بحركته الغريبة إذ صار ينحني بشكل آليّ متكرّر، ثم توقّف وقال:

«لكنّ النّاس تتحدّث عن فترة سترونزي، أليس هذا صحيحا؟ لا يتحدّثون عن فترة غولدبيرغ. فترة سترونزي، نعم !!! يا للعجب!!!»

نظر غولدبيرغ إلى الملك بصمتٍ للحظةٍ، وكأنّه أُصيب بالبُكم أو كأنّهُ لم يعرف ماذا يقول. لاحظ كيث التوتر والحرج اللّذين اعتريا غولدبيرغ، إلا أن الأخير تمالك نفسه وقال بهدوء:

« على جلالته أن يُهدّئ من روعه. نعتقد أن على جلالته أن يخلو إلى نفسه، أن يذهب للنوم. بل إننا متأكّدون من ذلك».

أومأ غولدبيرغ عندئذ بإشارة من يده وانسحب. بدأ كريستيان انحناءه البهلوانيّ من جديد ثم توقّف كأنّما أتته فكرة ما. التفت نحو السفير كيث وقال بصوت هادئٍ وبمنتهى الوقار:

«أنا في خَطَر. لذلك عليَّ أن أطلب المساعدة من شفيعتي، سيدةِ الكون». بعدها بدقائق اختفى الملك.

هذا هو الحدث كاملاً، كما جاء في التّقرير الذي بعثه السّفير البريطاني إلى حكومته.

٢

لا يوجد في الدّنمارك اليوم نصب تذكاريّ واحد للمدعوّ سترونزي.

أثناء الفترة التي مكثها في الدّنمارك طبيباً زائراً للبلاط، ظهر سترونزي في لوحات وأعمال فنية عديدة شملت الحفرَ على الخشب أو الرسمَ بالفحم أو اللوحاتِ الزيتية. فيما بعد، وُصِفت مُعظمُ تلك الأعمال بالمثاليّة وبافتقارها للحرفية، وهو ما لا يمكن دحضه خاصة وأنه لم يبقَ أيُّ أثر يدل على هيئة سترونزي، كما أنّ أحداً لم يرسم له صورة ولو بعد مماته. الأمر طبيعيّ، فسترونزي لم يكن من أصحاب السّلطة قَبل زيارته للدنمارك وبالتالي لم يكن هناك ما يستدعي تخليدَه، أما بعد وفاته فإن أحدا لم يرغب في أن يتذّكر أنّه كان موجودا أصلاً.

لماذا تقام النُصُب التذكارية؟ لم التماثيل التي تصور الفارس ممتطيا صهوة فرسه مثلا؟

من بين كل حكّام الدّنمارك الذين خُلّدوا كفرسانٍ مُمتطين صهوات جيادهم، كان سترونزي دون أدنى شكّ، أقدرهم جميعاً على ركوب الخيل بل أكثرهم عشقاً لها.

حين اقتيد سترونزي إلى المقصلة التي أُعِدَّت لإعدامه في حديقة أوسترا فيليذ، قام العميدُ آيخستيد بحركة قَصَدَ بها إهانة سترونزي أو إيذاءه بتلميح لا يقبل الشّك، إذ ظهر ممتطياً صهوة فرس سترونزي؛ تلك المهرة البيضاء التي أطلق عليها سترونزي اسم مارغريت، وهو ليس من الأسماء المألوفة لفرس. ولكن، إن كان المقصود مما فعله الجنرال هو إلحاق المزيد من الألم بالرجل ، فإنه حتماً قد فشل. لقد أشعّت عينا سترونزي ببريق لامع حين رأى فرسه، فتوقّف، رفع يده كمن يريد أن يربّت على خطمها، وابتسامة خفيفة – تعبّر عن سعادة هادئة– ترتسم على وجهه، معتبراً حضورها لفتة إخلاص له وقد أتته مودعة.

أراد أن يلمس مُقدّمة رأس مهرته، لكن المسافة بينهما حالت دون ذلك

لكن هل من سبب يدعو لإقامة نصب لسترونزي على هيئة فارس يمتطي فرسه وهذا النمط من التّماثيل لا يقام إلاّ للمنتصرين الّذين يستحقّون التّكريم؟.

يمكن لخيالنا أن يصوّر لنا تمثالاً كهذا؛ تمثالاً لسترونزي ممتطياً فرسه مارغريت المحببة إلى قلبه، وقد نُصب التمثالُ في المُتنزّه ذاته حيث أُعْدِم الرّجل، وهو المتنزّه الذي ما زال قائماً حتى يومنا هذا ؛ تقام فيه التظاهرات والاحتفالات الشعبية بجانب مساحة شاسعة أقيمت عليها ملاعب رياضيّة . يكاد هذا المتنزّه يشبه المتنزّهات الملكيّة التي فتحها سترونزي في أحد الأيام أمام الجماهير التي لم تلقَ قبلَ مجيئه الدنمارك أي تقدير أو اهتمام. في هذا المتنزه قام الفيزيائيان وعالما الذرة؛ الدنماركي نيلْسْ بُورْ والألماني هايزِنْبِرغ، بمشوارهما الشهير في إحدى أُمسيات تشرين الأول/أكتوبر سنة ١٩٤١ ، حيث دارت بينهما المحادثة الغامضة التي خرجا على إثرها بنتيجة مفادها أن هتلر لم ينجح في صناعة القنبلة النووية أبدا. إنها لحظة فارقة في التاريخ.

ورغم أن المتنزّه ما زال موجوداً، إلاّ أنّه لا يوجد أيّ أثر لمنصّة الإعدام ولا لذكرى سترونزي. ما من نصب تذكاريّ للفارس، فمن ذا الّذي يُخلّد ذكرى رَجُلٍ انكسر؟

غولدبيرغ أيضا لم يحظَ بنصب تذكاريّ، رغم كونه المنتصر؛ لقد سحق الثّورة الدنماركيّة. إلاّ أنّ النصب التذكاريّ لا يقام لرجل ضئيل القامة والقيمة ؛رجل سُمّي في الأصل هوغ، قبل أن يتّخِذ لنفسه اسم غولدبيرغ؛ وهو إلى ذلك ليس إلاّ ابن متعهّد جنازات من «هورسنز»، تلك البلدة الدنماركيّة الصغيرة والنائية.

صحيح أن كلا الرّجلين – سترونزي وغولدبيرغ – كانا حديثي العهد بالمناصب والنّعم، لكنّ قلّة من الرّجال يتركون بصمةً واضحةً على صفحات التّاريخ كما فعلا، مما يجعلهما يستحقّان أن تقام لهما النّصب التذكاريّة. أمّا القولُ بأنّ النّاس «لا يتحدّثون عن فترة غولدبيرغ» — فهو قول غير منصف.

كان غولدبيرغ مُحِقّا في ردّة فعله، فهو في نهاية الأمر من خرج منتصراً. وستتحدّثُ الأجيالُ القادمةُ بالتّأكيد عن «فترة غولدبيرغ»، فترة استمرت اثنتي عشرة سنة.

ثم...انتهت!

٣

تعلّم غولدبيرغ مع الوقت كيف يُواجه الازدراء بهدوءٍ وسكينة.

كان يعرف هويّة أعدائه. إنّهم رجال تحدثّوا عن النّور ونشروا الظّلام. لا شكّ في أنّ هؤلاء ظنّوا أنّ عهد سترونزي لن ينتهي أبداً. كان اللّؤم الذي أخذ منهم كلّ مأخذٍ قد جعلهم يغرقون في ظنونهم التّي لا تمتّ للواقع بصلةٍ و لم تزد على كونها مجرّد أمنيات. لكن غولدبيرغ عرف كيف يتماسكُ ويسيطرُ على انفعالاته، كما حدث يوم وقف السّفير البريطاني يصغي للملك. كان هذا التّماسك ضروريّا بالنّسبة لرجلٍ قد توحي هيئته الضّئيلة بضآلة شأنه.

صحيح أن غولدبيرغ كان ضئيل الجسم، لكنّ الّدور الذي لعبه أثناء الثوّرة الدّنماركية والفترة الّتي تلتها لم يكن ضئيلاً قطّ.

لطالما تمنّى غولدبيرغ أن تُكتب سيرته الذّاتية مستهلّة بالكلمات التّالية: «كان مرة رجلّ يدعى غولدبيرغ». إنّها الدّيباجة الّتي نجدها في مقدِّمات الحكايات الآيسلنديّة، والّتي لا تقيس عظمة الرِّجال بالمظهر الخارجيّ.

لم تزد قامة غولدبيرغ على ١٤٨ سنتمتراً، وكانت بشرته الدّاكنة الـ «رماديّة اللّون» تعاني من شيخوخةٍ مُبكرةٍ ؛إذ اكتسى وجهه بتجاعيد دقيقةٍ تقاطعت على صفحته طولاً وعرضاً. بدا عجوزاً في شبابه، احتقره النّاس ولم يكترثوا له بسبب ذلك بادئ الأمر ، إلا أنهم خافوه لاحقا.

تعلّم النّاس التّغاضي عن ضآلة هيئته بعد أن صار من رجال السّلطة، وقد تعمّد أن يظهر بصورة رجلٍ له سطوة هائلة وقبضةٍ من حديد. أفضل اللّوحات التي رُسِمت له، تمّ إنجازها أثناء وجوده في السّلطة، وتعكس تلك اللوحاتُ شخصيّةً تتحلّى بالعظمة من الدّاخل وبالقوة الصارمة من الخارج. عكست اللوحات عبقريّته، وسِعةَ ثقافته ووحشيّته في آن، دون الإشارة إلى ضآلة حجمه. وله الحقّ، كلّ الحقِّ في ذلك، فهذا حسب رأيه هو الهدف من الفنّ.

كانت عيناه كعينيّ الثّعلب. عينان رماديّتا اللّون كالزجاج، لا ترمشان أبداً حين

كان يُحدّق في مُحدّثه.

قبل أن يسحق الثّورة الدّنماركيّة كان غولدبيرغ يلقَّبُ بـ«السّحليّة».

بعدها، لم ينطق أحد بتلك الكلمة أبداً.

في الحقيقة كان هناك مرّة رجل، وكان اسمه غولدبيرغ؛ لم يكن مظهره الخارجيّ يوحي بالعظمة أبدا، لكنّ داخله كان مفعماً بها.

أمّا مصطلح «الثّورة الدّنماركيّة» فلم يأت على لسان الرّجل مُطلقا.

كل اللّوحات الّتي بقيت لنا من تلك الفترة تصوّرُ الشّخصيات التي رسمها الفنّانون وقد اتّبعوا الأسلوب ذاته؛ فالعيون بارزة وكبيرة بشكل مبالغ به. وبما أنّ العيون هي مرآة الرّوح، فقد بدت لِكِبَر حجمها وكأنّها تحاول الخروج من الحدقة بل من الوجه كله. كلّ العيون لامعة، فَطِنةٌ وبها مزيج عجيب من الإصرار. تعكس العيون أعماق الشخصيّة فتكشف بواطنها. أما تفسير مكنون تلك العيون فيتعلّق بفهم الناظر إليها.

يُعتَقَدُ أنّ غولدبيرغ نفسه استبعد فكرة صُنع تمثال له كفارس على صهوة فرسه، فقد كره الرّجلُ الخيل وأضمر خوفاً حقيقياً منها. في حياته كلها لم يَعتلِ صهوة جواد.

اعتبر أنّ كتبه وكتاباته، ما خطّه قبل أن يصبح رجل سياسة وبعد ذلك، كانت بحد ذاتها نُصُباً تذكاريةً كافية. يظهر غولدبيرغ في كلّ اللّوحات التي رُسِمت له على أنّه قويّ، متين الجسد، وليس رجلاً شاخ قبل أوانِه أبداً. مَكّنَتْه السّلطةُ الّتي ملك زمامها من أن يتحكّم في المظهر الّذي صوّره به الفنّانون. لم يضطّر لإعطائهم التّعليمات بذلك، فالفنّانون يمتثلون لأوامر المتنفّذين دون أن تُلقى عليهم؛ ذلك هو حالهم دائما.

اعتبر غولدبيرغ الفنّانين والرّسّامين خدّاما لرجال السّياسة. كان عليهم أن

يصوِّروا الحقائق، الحقائق الدّاخليّة؛ إذ ما هيئة الرّجل الخارجيّة الضّئيلة إلا تمويه لحقيقة أخرى تكمن في الأعماق، كما هي حاله.

مع ذلك فقد عادتْ عليه ضآلةُ الشّكل هذه بالفائدة لفترة طويلة. فبينما سقط أصحاب المراكز الرّفيعة خلال الثّورة الدّنماركيّة وقد أوقع واحدهم بالآخر، كُتِبتْ له النجاةُ بفضل قلة شأنه. لقد سقطوا تِباعاً ولم يبق إلاّ هو، غولدبيرغ؛ الرّجل الذي لا أهمّيّة له، لكنه الأكبر في غابةٍ من الأشجار الباسقة والمطروحةِ أرضاً من حوله.

وجد أنّ هذا المشهد، مشهد الأشجار الباسقة الّتي تهاوت أرضاً هو مشهدٌ مضلل. كتب غولدبيرغ في إحدى رسائله عن الأشجار العظيمة الحيّة وعن صغرها مُقارنةً بالأشجار العظيمة البائدة وكيفيّة فنائها. لقد اجتَثّ التّاج الملكيّ كلّ الأشجار الكبيرة في الدّنمارك وعلى مدى مئات السنين. وهذا ما حدث فعلاً لأشجار البّلوط الّتي اجتُثَّت لغرض بناء السّفن، حتى أنّه لم يعد على أراضي المملكة شجر بلوطٍ ذو قيمة. تحدّث غولدبيرغ عن ترعرُعه في ظلّ مشهدٍ طبيعيّ طاله الخراب كهذا، فكان مثل شجيرة تنمو على جذوع أشجارٍ عظيمةٍ إنّما مبتورة ومندثرة.

لم يصرِّح بهذه الخلاصة في كتاباته، لكنّ المعنى واضحٌ: هكذا يصير ضئيل الشّأن رجلاً عظيماً !

اعتبر غولدبيرغ نفسه فنّاناً تخلّى عن الفنِّ لمصلحة مسرحٍ آخر هو السّياسة. لهذا أُعْجب بالفنّانين وازدراهُم في آن.

أُطروحته حول الفردوس المفقود لميلتون، والّتي نُشرت سنة ١٧٦١ عندما كان أُستاذاً في أكاديميّة سورو، هي عبارة عن تحليل يستنكر توصيف ميلتون الخياليّ للجنّة؛ بمعنى أنّ القصيدة تتناول الحقائق كما وردت في التّوراة بتصرّف. يكتب غولدبيرغ واصفاً ميلتون بالشّاعر الرّائع الّذي يجب أن يُوَبَّخ بسبب فكره الوجدانيّ.

إنّه يكتب بتصرّف؛ وما سمّاه «الشّعر المقدّس» هو تحريفٌ للنصّ التّوراتيّ. في الفصل السّادس عشر من أُطروحته، يقدِّم نقاشاً حاداً يستنكر فيه أقوال «حُوارِيّي الفكر التحرري» واصفا إياهم بال «مُفترين»، الذين يتسبَّبون في إشاعة الغموض، إذ تتسرّب القذارة الّتي تحملها قصائدهم، مخترقةً الحواجز المتعارف عليها فتلوّثُ كل شيءٍ. على القصيدة ألا تحرّف الوثيقة، القصيدة هي تدنيس للوثيقة؛ ووفق ما يرى، اللّوحة الفنّية لا تفعل ذلك.

لطالما تصرّف الفنّانون بحريّة أدّت للقلاقل والفوضى والدّنس. ممّا يَسْتوجب توبيخ الشعراء، حتّى الورعين منهم . مع ذلك كلّه أُعْجِب بميلتون – ولو بتحفّظ– واصفاً إيّاهُ بالرّائع. «إنّه شاعر رائع يكتب بتصرّف».

بالمقابل فإن نظرته للشّاعر والفيلسوف هولدبيرغ كانت نظرةَ احتقار.

كتاب غولدبيرغ عن ميلتون أَكسبه الاحترام. نال الكتاب إعجاب الملكة الأرملة بالذّات، وهي الأرملة التّقية التي امتدحت التّحليل الورع والدّقيق الذي جاء في كتاب غولدبيرغ؛ فعيّنته مربِّيا لابنها وليّ العهد، والأخ غير الشّقيق للملك كريستيان. كان الصبيّ مُخْتلّ العقل، وقد وصف بال «مغفّل».

هكذا بدأت مسيرة غولدبيرغ في عالم السِّياسة، أي بفضل تحليل العلاقة بين الحقائق كما أثْبتتها التّوراةُ بوضوحٍ وبين ما عرضه ميلتون من خيالٍ في كتابه «الفردوس المفقود».

٤

لا نُصب تذكاريّةً للرّجُل إذن، إنّما استطاع غولدبيرغ أن يحصل في مسيرته على فردوسه وقد بدأ كمتعهّد جنازات في هورسنز وانتهى كصاحب نفوذٍ في قصر كريستيانسبورغ. مسيرة جعلت منه شخصاً مُتشبّثاً برأيه،كارهاً ومواجهاً لما اعتبره رذيلة ودَنَساً.

فردوس غولدبيرغ كان فردوساً حصّلهُ بذاته؛ لم يرثه، بل ناله بجدارته.

في المقابل، لاحقت غولدبيرغ إشاعةٌ مُغرضة لسنين عديدة، إذ فسّر النّاس هيئته المتواضعة بطريقة لئيمةٍ- وهي الهيئة نفسها الّتي عادوا وقدّروها وعظّموها بمساعدة الفنّانين فيما بعد، عندما أمسك الرّجل بمقاليد السّلطة سنة ١٧٧٢-. تقول الإشاعة إن صوت غولدبيرغ نال إعجاب الجميع وأبهرهم حين كان في الرّابعة من عمره ، فقام والداه المحبّان والفقيران، بإجراء عمليّة بترٍ لخصيتيه، اعتقاداً منهما بأنهما بذلك يحفظان له رخامة الصوت بعد أن سمعا أنّ مستقبلاً واعداً ينتظر المغنين في إيطاليا. لكن، ولخيبة أمل الوالدين،رفض غولدبيرغ الغناء حين بلغ الخامسة عشرة من عمره ودخل عالم السّياسة.

الواقع أن كل هذه الأقاويل كانت ضرباً من الخيال وبعيدة كل البعد عن الحقيقة. ذلك أن والده الفقير ومتعهّد الجنازات المقيم في هورسنز، لم يحضر في حياته كلّها عرضاً لأوبرا ولا حلم يوما بجمع المال بفضل ابن مخصيّ. كان غولدبرغ مقتنعا بأنّ من وقف وراء حملة تشويه سمعته بهذا الشّكل، لم يكن إلاّ نجمات الأوبرا الإيطاليّة والمتواجدات في القصر في كوبنهاغن، وكُن جميعا عاهرات. كلّ الكفرة ورجال التّنوير- خاصّة في ألتونا الّتي كانت وكراً لأفاعي التّنوير- استغلّوا العاهرات الإيطاليّات. لقد انبعثت القذارة كلّها من العاهرات ومن بينها هذه الإشاعة الدّنيئة.

أمّا تلك الشّيخوخة المبكّرة والعجيبة، والتي ظهرت منذ أن بلغ غولدبيرغ الخامسة عشرة من عُمره وأثّرت على شكله الخارجي فقط، فلم يستطع الأطباء أن يجدوا لها تفسيراً. لهذا السبب احتقرَ غولدبيرغ الأطباء. وكان سترونزي طبيبا.

أما الإشاعة حول تلك «العمليّة»، فقد لاحقته ولم يستطع التخلّص منها حتّى بعد أن وصل قمّة السّلطة . رُسوخُ فكرةٍ أنّه قد «بُتِر»،سبّب للجميع شعوراً بالحرج وعدم الارتياح. كان يعلم ذلك إلا أنّه تعلّم كيف يتعايش مع الأمر. مع ذلك فقد تمسّك من الإشاعة – رغم عدم صحّتها- بالجوهر، والّذي مفاده أنّ والديه التقيّين كانا قد رتّبا له عملاً كمتعهّد للجنازات، وأنّه قد رفضه.

لقد اختار لنفسه الخوض في مجال السياسة.

تُعَبّر الصّورةُ التي رسمها السّفير البريطانيّ سنة ١٧٨٢ لكُلِّ من الملك وغولدبيرغ عن حقيقةٍ جوهريةٍ رغم غرابتها.

لقد أبدى السّفيرُ تعجّبه من «حُبّ» غولدبيرغ للملك وهو الّذي اختطف من جلالته السُّلطةَ وحطّم سمعته، ولأنّه – أي غولدبيرغ- كان يستهجن التعبير عن الحبّ وإظهار العواطف أصلاً. كيف يمكننا وصفُ الوضع؟ لقد كان غولدبيرغ يتساءل دائما عن أمر النّاس الّذين يتحلّون بالوسامة ومظاهر الأبّهة، أولئك المحظوظين المُمَيّزين الذين عرفوا الحب؛ وإن لم يكونوا في حقيقة الأمر أشخاصاً أصيبوا بالعمى؟!

السّياسة واضحة، إنها آليّة يمكن تفكيكها وتركيبها، وهي بهذا المعنى أداة. أمّا هؤلاء البارزون أصحاب الشّان، العُشّاق المستسلمون لما يسمى حباً، فبأيّ سذاجة يسمحون لشرّ الشّغف المُستفحل بأن يضع غشاوة على عيونهم فلا يتبينون اللّعبة السياسيّة رغم وضوحها؟!

يا لهذا الخلط الدائم بين العواطف والسّياسة لدى المفكّرين من جماعة التّنوير! كان غولدبيرغ يُدركُ أن هذه هي نقطة الضّعف في بطن الوحش، ويدرك أنّه هو نفسه كاد أن يُذعن لعدوى الخطيئة يوماً ما.

كانت عدوى الخطيئة ستصيبه عن طريق «العاهرة الإنجليزيّة الصّغيرة». يوم اضطّر للركوع على ركبتيه عند حافّة سريره مُستغفراً ربّه طالباً الصّفح.

لن ينسّى ذلك اليوم! لن ينساه أبداً!

الحديث عن الشّجر العِملاق وقد طُرح أرضاً، بينما بقيت الشّجيرات الضّحلة منتصبة مُنتصرة، يأتي في هذا السّياق؛ إذ يصف ما حدث للغابة فيما بعد وكيف استطاع هو – ضئيل الحجم عديم الأهمّيّة مثل تلك الشّجيرات الصغيرة- أن يكبر ويسود ويراقب الأحداث لحظة وقوعها من موقعه بين الجذوع المجتثة.

اعتقد غولدبيرغ أنّه الوحيد الّذي كان يرى ما يحدث.

٥

يجب ألاّ نُقلّل في الواقع من شأن غولدبيرغ، فرغم أنّ الرّجل كان لا يزال في الظّل حتّى اللحظة، إلاّ أنّ نجمه سيسطع بعد فترة وستسلّط الأضواءُ عليه. كانت الصّورة واضحة بالنّسبة له وقد استوعبها منذ البداية.

كتب غولدبيرغ في خريف عام ١٧٦٩ ملاحظة تتعلّقُ بالملكة الفتيّة، جاء فيها أنّ الصبيّة تُشكّل له «حالة من الغموض المتزايد».

أطلق عليها لقب «العاهرة الإنجليزيّة الصّغيرة». كان غولدبيرغ معتاداً على مشاهد القرف المستشري في القصر، وكان يعرف تاريخ هذا القرف. فالملك فريدريك الرابع كان «تقيّاً» وكان عدد عشيقاته لا يُحصى. وكريستيان السّادس، الذي «دعا إلى التّقوى»، عاش حياة كلّها شبق. أمّا فريدريك الخامس فقد تردّد ليليّاً على بيوت الدّعارة في كوبنهاغن، وكان يعاقر كؤوس الخمر ويلعب القمار متلذّذاً بالكلام الفاحش الفاجر، لقد تحلّقت حول سريره العاهرات وشرب حتّى... الموت. وضْعُ القصور كان متشابهاً في أوروبا كلّها. بدأ الأمر في باريس ومنها انتشر إلى كلّ العروش كالوباء، فلم يسلم من القذارة مكان.

في المقابل، هل كان هناك مَن دافَعَ عن الطّهارة؟

تعلّم غولدبيرغ منذ نعومة أظفاره أن يعيش مع الجثث. سمح له والده الذي امتهن معالجة الجثث، أن يساعده في عمله. كم من طرفٍ متصلبٍ، متجمدٍ كالثلج، وقع تحت قبضة غولدبيرغ فأطبق عليه ليدفنه! الموتى طاهرون. لم تكن أجسادهم تتمرّغُ في القذارة، بل كانت جاهزة في حالة انتظارٍ للنّار المُطهّرة؛ فإمّا أن تُكتبَ لأصحابها النّجاةُ أو يُبتلون بالآفات إلى الأبد.

لقد رأى قذارة، لكنها لم تكن أبداً كتلك الّتي شهدها في البلاط.

بعد أن وصلت « العاهرة الإنجليزيّة الصّغيرة» إلى الدّنمارك ليُعقَدَ قرانُها على الملك، عُيّنت الآنسة فون بليسين وصيفةً أولى لها.

كانت الآنسة فون بليسين طاهرة، وتمنّت أن تحمي الفتاة الصّغيرة من الرّذيلة وقد نجحت في ذلك لفترة طويلة.

في حزيران/يونيو من سنة ١٧٦٧، أثارَ حدثٌ ما، امتعاض غولدبيرغ. كان من المهمّ بمكان ألاّ تقوم بين صاحبيّ الجلالة علاقةٌ جنسيّة حتى ذلك التاريخ، مع أنّه قد مضى على زواجهما سبعةُ أشهر.

في صبيحة الثالث من حزيران/يونيو ١٧٦٧، حضرت الآنسة فون بليسين إلى غولدبيرغ شاكيةً. دخلت الآنسةُ إلى الغرفة الّتي كان غولدبيرغ يستعملها للتّدريس دون سابق إنذار، وأخذت تصف له تصرّفات الملكةِ ناعتةً إيّاها بكلمات قاسية نابية دون حرص على انتقاءِ مفرداتها. يُقال إن غولدبيرغ كان يعتبر الآنسة فون بليسين مخلوقاً منفّراً تماماً، لكنّ طهارتها الدّاخليّة منَحَتها قيمةً بالغةً كوصيفةٍ للملكة. كانت تنبعث من جسد الآنسة رائحة ما، ليست كرائحة مربط الدواب تماما ولا هي رائحة عرق أو أي رائحة غامضة أخرى، بل مجرد رائحة امرأة عجوز، رائحة كالعثّ رغم أن عمرها لم يزد على واحد وأربعين عاماً.

كانت الملكة، كارولين ماتيلدا،ابنة خمسة عشر ربيعاً في ذلك الوقت. ذهبت فون بليسين كالعادة إلى مخدع الملكة لمسامرتها وللعب الشطرنج معها كي تخفّف عنها وحدتها، فوجدتها مستلقيةً على سريرها الضّخم، مرتدية كامل ثيابها وعيناها تحدّقان في السقف. سألتها الوصيفة المذكورة عن سبب صمتها. بقيت الملكة صامتة فترة طويلة دون أن تحرّك رأسها أو جسدها المكسوّ كليّا بالثّياب. أخيرا قالت الملكة:

« أشعر بالكآبة».

عندئذ سألت الآنسة فون بليسين الملكة عما أثقل قلبها لهذا الحدّ. قالت

الملكة: «إنّه لا يأتي إلي. لماذا لا يأتي؟».

كانت برودة الغرفة تثير القشعريرة. حملقت الآنسة فون بليسين بسيدتها للحظة ثم قالت:

«لا شكّ بأنّ الملك سيأتي في الوقت المناسب، وإلى أن يحين ذلك الوقت، على جلالتها أن تتمتّع بالحريّة قبل الوقوع في شباك الشّغف. عليها ألا تجزع».

«ماذا تقصدين؟» سألت الملكة.

أجابت الآنسة فون بليسين بنبرة لطيفة جدّاً تعبّر تماماً عمّا رمت إليه قائلة: « الملك... سيتغلّب الملك... على خجله دون شك. وحتى ذلك الحين، تستطيع جلالتها أن تستمتع بالحريّة من شغفه».

« وكيف أستمتع؟» سألت الملكة الشّابّة.

أجابت الآنسة فون بليسين عندها بلهجة غضب غير متوقّعة: «حين يفرض الإنسان على نفسه الحزن، فإن الأمر يتحوّل إلى عذاب».

« اتركيني»، جاء جواب الملكة فجأة بعد لحظة صمت.

غادرت الآنسة فون بليسين الغرفة تبتلع الإهانة.

الحدث الّذي تسبّب في إهانة غولدبيرغ والحطّ من قدره، جرى بالضّبط في مساء ذلك اليوم.

كان غولدبيرغ يومها جالساً في الممرّ الذي يفصل بين الغرفة الخارجيّة لديوان رئيس الوزراء والّتي كانت إلى يساره، ومكتبة سكرتير الملك الواقعة إلى يمينه، متظاهراً بالقراءة – (لا يشرح غولدبيرغ في مدوناته لماذا وصف نفسه بأنّه كان «متظاهرا بالقراءة»). في تلك الأثناء ظهرت الملكة. وقف غولدبيرغ وانحنى لها فأشارت إليه بيدها أن يجلس، فجلس وجلست هي أيضا بقربه.

كانت ترتدي عباءةً وردية الّلون، تكشف عن كتفيها.

«سيّد غولدبيرغ» قالت بصوت خفيض « هل تسمح لي بأن أطرح عليك

سؤالاً شخصيّاً جدّاً؟».

هزّ برأسه موافقاً دون أن يفهم ما تريد.

«قيل لي» قالت هامسة «إنّه قد تمّ تحريرك في طفولتك ممّا يثير... عذاب الشّغف. لهذاالسّبب أود لو أسألك...»

أمسكت الملكة عن الكلام برهة. بقي غولدبيرغ صامتاً لكنه شعر بغضبٍ عارم يغلي في داخله، لكنّه استطاع أن يستجمع عزيمته ويتمالك نفسه.

«أردتُ فقط أن أعرف...»

انتظر غولدبيرغ. أخيراً، وحين لم يعد الصّمت محتملاً، قال:

«نعم، جلالتكِ؟»

«أردتُ فقط أن أعرف... إن كان هذا التّحرر من الشّغف... يجلب راحة كبرى؟ أم... فراغاً كبيراً؟»

لم يُجب.

«سيد غولدبيرغ» همست الملكة: « أهو فراغٌ؟ أم عذاب؟»

مالت نحوه. كان جذعُها الملتوي قريباً جداً منه. شعر بمهانة «أكثر مما قد يتصوّره عقل». أدركَ لحظتَها حقيقةَ هذه الفتاة، وما أدركَهُ عنها سيفيده جدّا خلال الأحداث الّتي ستأتي لاحقا. لقد كان كيدُها حقيقةً لا تحتمل الشّك؛ فها هو لحمها العاري، جذعها المتلوي ونعومة جسدها الغضّ الذي أوشك أن يلامس جسده. لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي يدركُ فيها أنّ إشاعةً مغرضةً حول السّبب في ضآلة جسده كانت قد انتشرت في أرجاء القصر. كم بدا عاجزاً عن مواجهتهم! كم كان مستحيلاً أن يشرح لهم بأن الخصيان يشبهون القطيع السّمين، المتورّم، المنتفخ، ويفتقرون لأجسادٍ واضحة المعالم، دقيقة، نحيفة، رماديّة اللّون وتعكس الحكمة، كجسده!

النّميمة التي دارت حوله وصلت إلى مسامع الملكة. هذه الفاجرة الصّغيرة تعتبره غير مؤذٍ، رجلاً يُؤتمَن! وها هي تميل نحوه بكلّ ما أوتي كيدها الفتيّ من حيلةٍ،

واستطاع هو أن يرى ثدييها بامتلائهما. بدت وكأنّها تريد أن تتفحصه، أن ترى إن كان هناك أثر للحياة فيه، وإن كان ثدياها المثيران المغريان يستطيعان استحضار ما يمكن أن يكون قد تبقى من رجولةٍ في أعماقه.

نعم، أرادت أن تفحص إن كانت تستطيع أن تستثير رجولته إن كان قد تبقّى منها ما يُستثار، أم أنّه بات مجردّ حيوان مخصيّ.

نظرتها إليه في تلك اللّحظة -كما لو كان حيوانا- كشفتْ له عمّا في داخلها. كانت كمن أراد أن يقول: «أعرف الحقيقة!». وأن ما تعرفه عنه ليس فقط مظهره كرجل قصير القامة أكديّ ومُزدرى، بل إنه لم يعد بشراً ولم تعد الغريزة تعرف طريقها إليه. فعلت فعلتها تلك بوعي تامّ وبسوءِ نيّةٍ واضحة.

في تلك اللحظة كان وجهُها قريباً جداً من وجه غولدبيرغ، وكاد ثدياها العاريان أن يصرُخا بالإهانةِ في وجهِهِ. وبينما كان يحاول السيطرة على أعصابه ردّد بينه وبين نفسه الدعاء التّالي ملء قلبه: «ليُعاقبْكِ الله! لتتعذّبي في نار الجحيم الأبديّة! ليدقّ خازوقٌ لئيمٌ رحَمك السائب! ولتعاقبْ شهوتك الماكرةُ بألمٍ وعذابٍ أبديّين!»

كان اضطرابه شديداً حتّى أن الدّموع ترقرقت في عينيه. خاف أن تلحظ العاهرة الصّغيرة ذلك.

لكن، هل يكون أساء فهمها؟ فهو يصف مباشرة بعد ذلك، كيف أنها استدركت الأمر وسارعت لملامسة خدّه بيدها بخفّة الفراشة وهمست:

«اعذرني. آه. اعذرني. سيد...غولدبيرغ. لم أقصد أن...»

عندها انتصب غولدبيرغ واقفا على قدميه وغادر المكان.

تمتّعَ في طفولته بصوت رخيم جداً. هذه حقيقةٌ لا شكَّ فيها. كره الفنّانين. وكره الدّنس.

تذكّرَ الأجسادَ المتصلّبةَ الطاهرةَ، والّتي لا تعبث بالنّظام الكونيّ أبداً.

تجلّت عظمة الله القادر على كل شيءٍ باختياره أشخاصاً قليلي القيمة ضئيلي

القامة، أشخاصاً وضيعين في أعين الناس، ليكونوا أدوات له. هذا هو بالضّبط ما كان يثير العجب. إنّها المعجزة الإلهيّة التي لا تفسير لها. فالملك كريستيان، هذا الشّاب الذي يبدو ضئيلَ الجسم صغيرَ الحجم، وربما مُختلَ العقل أيضا، هو من وقع عليه الاختيار.

لقد منحه الله السّلطةَ كلها. هذه السّلطة، هذا الاختيار، أتى من عند الله. لم يُمنح العرش للوسيمين أو للأقوياء، ولا للمتميّزين الذين كانوا في الحقيقة حديثي العهد بالنّعمة. بل وقع الاختيار على من هم قليلو الشّأن في ظاهر الأمر. إنّها معجزة الخالق.

أدرك غولدبيرغ ذلك. اعتبر نفسه، كما الملك، جزءاً من تلك المعجزة الإلهيّة. أثلجت هذه الفكرة قلبه.

أولّ مرّة وقعت عينا غولدبيرغ على سترونزي كانت في ألتونا سنة ١٧٦٦، يوم وصلت الملكةُ الشابّةُ المدينةَ، في طريقها من لندن إلى كوبنهاغن قُبيل زواجها. كان سترونزي هناك، يقف بين الجماهير، محاطا بأصدقائه من جماعة التنوير.

لكنّ غولدبيرغ رآه: رأى شابّاً مهيبَ الشكل، جميلَ الطلعة، شهوانياً.

الخلفيّة الّتي أتى منها غولدبيرغ من حيث المهنة المتوارثة عائليا، ارتبطت بمادة الخشب. يومها، كان رجلاً عديم الشّأن، وكان يعلم مثل كلّ من عمل بالخشب، أن المهنة تنطوي على تحالفات من نوع ما، وأن هناك تنسيقاً بين العاملين بها. السّياسة أيضا تنطوي على تحالفات وعلى تنسيق، وهذا ما جعله كخبير في مهنة الخشب، يراقب وينقل ما يسمع وما يرى.

لطالما آمن بالعدالة، واعتقد أن الشّر سيُسحق على يدِ شخصٍ ضئيلِ الحجم، وضيعِ الشّأنِ لا يلفت انتباه أحد.

شكّل ذلك حافزاً قويّاً له كي يتحرّك. رأى أن الله سبحانه وتعالى قد اختاره

فجعله في هيئة قزمٍ وضيعٍ باهتِ اللّون، يحسن مع ذلك ربط الخيوط تماماً كما العنكبوت، ولله في خلقه شؤون!

الله سبحانه وتعالى، هو السّياسيّ الأول بلا منازع.

منذ البدء، كره غولدبيرغ النجاسة ومقت الشر. الأشرار هم الفاسقون الذين يزدرون الله. هم السّفهاء، المبذّرون، المنشغلون بأمور العالم الماديّ، وهم القوّادون والسّكارى. وكل هؤلاء موجودون في القصر. كان البلاط مليئا بالشرّ. لذلك افترّ وجه غولدبيرغ عن ابتسامة خجولة، ودودة، تكاد تكون خنوعة، كلّما لاحظ شرّا. اعتقد الجميع أنّه كان يراقب حفلات الجنس والعربدة بعين الحسد. ظنّوا أن غولدبيرغ، هذا الرّجل الضّئيل، ربما كان يتمنّى مشاركتهم لولا عجزه. إذ كانت تنقصه... الأداة. لذلك أراد فقط أن يتفرّج.

يا لهذه الابتسامات الهازئة الباهتة على وجوههم!

«لا بدّ من أن تؤول الأمور إليه وتقع السّلطة بيده يوماً ما»، فكّر في نفسه. «عندها سيتحكّم بكلّ شيء. لن يكون للابتسامات مكان، ويحين زمن الاستئصال، زمن التّطهير. يومها ستُجْتَثُّ الأشجارُ العقيمةُ وتُلقى بعيداً. وسيُخصى الشرُّ نهائياً وتحلّ الطّهارة. وسيتمّ أيضا التخلّص من النساء اللواتي لا لزوم لهنّ».

احتار غولدبيرغ بما يمكن أن يفعله بالنساء تحديدا، إذ لا يمكن خصي النّساء! لكن ربّما يكون عقاب السّاقطات في تركهنّ ليغُصن في وحدتهنّ دون رفيق، ليتعفنّ مثل حبات الفطر في فصل الخريف.

أعجبته كثيراً هذه الصورة؛ صورة النّساء السّاقطات وقد تُركن وحدهنّ كي يغُصن في الوحدة حتى يذوين مثل حبّات الفطر في فصل الخريف.

كان غولدبيرغ يحلم بالعفّة.

لم يعرف المتطرّفون في ألتونا معنى العفّة ولا قيمة الطّهارة. كانوا يُقَيِّمون النّاسَ حسب مظهرهم، وكانوا يحلمون بالسّلطة سرّاً ويجهرون باحتقارها في العلن. لقد

كشفت دواخلهم الجشعة عن شُعلةٍ من الظلام بينما تحدّثوا عن النور، فكان ما حملته مشاعلُهم هو الظّلام بعينه.

سبق لغولدبيرغ وأن زار ألتونا، تلك المدينة الخطيرة وسيئة السّمعة. وإن كان ستروتزي هذا من ألتونا فَلِلأَمْرِ مغزى، وإن كانت باريس وكر أفاعي الموسوعيّين فإن ألتونا، وكر المتنورين، أسوأ منها وأخطر. كأن العالم كلّه بيت، وضع هؤلاء رافعة تحت أحد أطرافه فصار يتأرجح وينبثق منه القلقُ والغثيانُ والدخانُ. لكن الله القادر على كل شيء وضع قدرته في أصغر خلقه، في غولدبيرغ قليل الشأن ذاته، ليكون أداةَ العليّ في مواجهة الشرّ واستئصال كلِّ إثم قد يُصيب الملكَ الذي حباه الله بنعمته، فينقذه من الأشرار كما جاء في سفر أشعياء النبي:

من ذا الآتي من أدوم بثياب حُمْرٍ مِنْ بُصْرَة هذا البهيُّ بملابسه المُتعَظِّم بكثرةِ قُوَّتِهِ. أنا المُتكَلّم بِالبرّ العظيمُ للخلاص. ما بالُ لباسِكَ مُحَمَّرٌ وثيابُكَ كدائس المِعْصَرةِ؟ قد دُستُ المعصرة وحدي ومن الشعوب لم يكن معي أحدٌ. فَدُسْتُهُمْ بغضبي ووطِئْتُهُم بغيظي فَرشَّ عَصيرُهُم على ثيابي فلطّختُ كلَّ ملابسي. لأن يوم النّقمة في قلبي وسَنَةُ مفديّي قد أتت. فنظرت ولم يكن معين وتحيرتُ إذ لم يكن عاضدٌ فخلصت لي ذراعي وغيظي عَضَدَني. فدست شعوباً بغضبي وأسكرتهم بغيظي وأجريت على الأرض عصيرهم ».

سيصبح منبوذو اليوم حكامَ الغد، كما جاء في الكتب المقدّسة.

لقد اختاره الله هو بالذّات لهذه المهمّة. هذا الرجل «السّحلية». سيسيطر الرّعب على العالم حين يقبض أقلُّ النّاس شأناً وأكثرُهم حقارةً على مقاليد السّلطة، وستكون سلطة متعطّشة للانتقام. فيصب الله سخطه على الآثمين جميعا ويقضي عليهم.

حين يتمّ استئصال الأشرار المنغمسين بالملّذات، سيبرأ الملك. حتّى لو كان الشر قد أضر بالملك، فأنّه سيعود طفلاً مرة أخرى. كان غولدبيرغ يعرف أن كريستيان كان دائما طفلاً في الصّميم. لم يكن مجنوناً بل طفلاً. وعندما ينتهي الموضوع برمّته وينجو الطفل الذي اختاره الله، فإنّ الملك سيتبع غولدبيرغ كظلّه. سيعود الملك طفلاً طاهراً وسيكون واحداً من المنبوذين وأحد الحكام.

وسيدافع غولدبيرغ عن الملك ضدّ الفاسقين، فهذا الملك المنبوذ هو أكثر من وقع فريسةً للازدراء.

رغم ذلك، ما كان تمثال فارس على فرسه ليُقام لمن يقوم بالتطهير، لدائس معصرة!

٦

كان غولدبيرغ حاضراً عندما كان والد كريستيان، الملك فريدريك، على سرير الموت.

توفّي الملك صبيحة الرّابع عشر من تشرين الثاني/ يناير ١٧٦٦.

في سنواته الأخيرة، ازدادت همّة الملك فريدريك ثقلاً، فقد شرب الخمر بشكل متواصل، وصارت يداه ترتجفان باستمرار وتورّم جسده حتى صار منتفخاً كالعجين المتخمّر. صار لونه رمادياً ووجهه أشبه بوجوه السكارى – بدا وكأنّه من الممكن اقتطاع كتلِ اللحمِ من وجهه – وغاصت عيناه عميقاً وقد بهت لونهما، وأخذت عصارةٌ صفراء تنزّ منهما، كما لو أنّ جسده قد بدأ يجفّ.

كان الهلع والخوف قد سيطرا عليه، فأمر بإحضار العاهرات إلى فراشه بشكل متلاحق للتّخفيف من روعه.

صار هذا الأمر يثير بالتّدريج غضب المزيد من الكهنة المتحلّقين حول سريره، والذين كانوا قد تلقّوا الأمر بالحضور للصّلاة في حضرة الملك بغرض التّخفيف عنه أيضا. إلا أنّ ما رأوه أصباهم بالقرف. ما عاد الملك قادراً، وقد خارت قواه الجسديّة، على إرضاء غرائزه. لكنّه رغم ذلك أمر بإحضار العاهرات من المدينة إلى فراشه كي يشاركنه الفراش وهنّ عاريات. كان ذلك بالضّبط ما أشعر الكهنة بأن صلواتهم، ومناولة القربان المقدّس بالذّات، صارت كفراً. لقد بصق الملك جسدَ المسيح المقدّس وشرب حتى الارتواء من دمه، بينما كانت العاهرات يداعبن جسده باشمئزاز فشلنَ في إخفائه.

الأسوأ من ذلك كله، كان انتشار الشائعات بين العامّة حول وضع الملك وما يدور في القصر، مما جعل الكهنة يشعرون بأن النّميمة التي تتناولها الألسن تلطّخ سمعتهم.

في الأسبوع الأخير من حياته، شعر الملك بخوف عظيم.

استعمل الملك أبسط الكلمات للتعبير عما اعتراه من «خوف» لوصف حاله؛ مبتعداً عن كلمة «فزع» أو «هلع»، وكانت وتيرة نوبات القيء قد ازدادت. أمر يوم وفاته بأن يُحضَرَ إليه وهو على فراش الموت بوليّ العهد، الأمير كريستيان.

أمر أسقف المدينة بإبعاد كل العاهرات.

حملق الملك طويلاً وبصمتٍ في الحاضرين، بمن فيهم الصبيان القائمون على خدمته وأسقف المدينة وكاهنان، ثم صرخ فجأةً بصوتٍ مفعم بكراهية عارمة، صرخة أوشكت أن تدفع بهم جميعاً إلى الخلف، قائلا إنّ النّساء ستكون معه في الجنّة ذات يوم. تمنّى بالمقابل أن يكون عذاب الجحيم الأبديّ من نصيب هؤلاء المتحلّقين حول سريره في تلك اللّحظة، وبالذّات رئيس أساقفة مدينة أورهوس. ما لم يدركه الملك جيداً على أي حال هو أن رئيس أساقفة أورهوس كان قد قفل عائداً إلى رعيّته في اليوم السّابق.

عاد الملك وتقيّأ ، ثم بذل جهده حتى يستجمع قواه، ويعود ليشرب من جديد.

بعد مرور ساعةٍ من الزّمن صار مرة أخرى صعب المراس، وصرخ طالباً رؤية ابنه كي يمنحه بركته هذه المرّة.

اقتيد كريستيان؛ وليّ العهد، لوداع والده حوالي السّاعة التاسعة صباحا. رافقه مربيه السويسريّ، ريفيرديل، المؤتمن عليه، وكان عمر كريستيان يومها ست عشرة سنة. نظر كريستيان إلى والده نظرة كلّها رعب.

أخيراً تنبه الملك لوجود ابنه وأشار اليه بأن يقترب، لكن كريستيان بقي متسمّراً في مكانه جزعاً. عندها أخذه ريفيرديل من ذراعه ليقرّبه من سرير الملك، لكن كريستيان تمسّك بمربّيه وتمتم بضع كلماتٍ غير مسموعةٍ. تحرّكت شفتاه وكان يحاول أن يقول شيئاً لكن صوته لم يخرج من حنجرته.

«اقترب...منّي...يا ابني...الحبيب» تمتم الملك، وقد قام في اللحظة نفسها، وبدفعةٍ شديدةٍ من يده، بالإطاحة أرضاً بزقّ نبيذٍ فارغ كان موجوداً إلى جانبه.

حين رفض كريستيان الانصياع لأمر أبيه، بدأ الملك بالصّراخ الوحشي... صراخِ رجل يتوجّع؛ عندها أشفق عليه أحد الكهنة وسأله إن كان هناك أي شيء يريده، كرر الملك:

«أريد...بحقّ الشّيطان...أن أمنح بركتي ...لهذا الـ...هذا...المسكين».

بعد لحظاتٍ قليلةٍ، اقتيد كريستيان إلى سرير الملك دون مقاومة تقريباً هذه المرّة. أمسك الملك بكريستيان وسحبه من رأسه وعنقه محاولاً أن يقرّبه إليه أكثر.

«إلى أين ستودي ...بك ...الأمور...أيّها...الصّغير...الصّغير...المسكين؟»

وجد الملك صعوبة في إيجاد الكلمات عندها، إلى أن عاد الكلام وتدفّق من فيه من جديد.

«يا أيّتها الدّودة الصّغيرة! عليك أن تكون صلباً...صلباً...صلباً!!!

يا أيّها الصغير... هل أنت صلبٌ؟ أنت صلب؟ يجب ألاّ تكون رخواً، يجب ألاّ تكون هشّاً، يجب أن تكون...غير قابل للكسر!!! وإلاّ...»

لم يستطع كريستيان التفوّه بكلمة، وقد أطبق أبوه على عنقه وضغط على رأسه فلاصق الخصر العاري لوالده الملك. أخذ الملك عندها يلهث بصوت عالٍ كما لو كان عاجزا عن التّنفس، ثم قال بصوت أجشّ:

«كريستيان! يجب أن تكون صلباً...صلباً...صلباً!!! وإلاّ ابتلعوك!!! وإلاّ أكلوك لحما نيئاً...وإلا سحقوا...»

ارتد جسد الملك إلى الخلف فجأة وغاص رأسه في الوسائد. خيّم صمت تام على الغرفة، وكان الصوت الوحيد المسموع هو صوت كريستيان يبكي بحرقة.

أما الملك، الذي كانت السوائل تنزّ من جسده وكان رأسه ملقىً على وسادته، فقد أطلق كلمات متتالية لا تكاد تكون بينها أيّ فواصل، وبصوت لا يكاد يسمع قال:

«لستَ صلباً كفاية، أيّها الصّغير المسكين. إني أمنحك بركتي».

نزّ سائل أصفر من فم الملك وبعدها بدقائق كان فريدريك الخامس قد فارق الحياة.

لقد رأى غولدبيرغ كلّ شيء وتذكّر كلّ شيء. رأى أيضا كيف أنّ المربيّ السويسريّ ريفيرديل سحب الصبيّ من يده، وكأنّ هذا الملك الجديد كان لا يزال طفلاً صغيراً. جرّه كالطفل، مما أثار استغراب الجميع وبات موضوعَ نقاشٍ طويل فيما بعد. غادرا الغرفة وسارا في الممرّات مجتازين الحرس الذي قدّم تحيّة السِّلاح، إلى أن وصلا الباحة الخارجيّة للقصر. كان النَّهار قد انتصف، وشمس الشّتاء تلوح منخفضة في السّماء بينما غَطَّتْ طبقةٌ من الثلج الخفيف ،الذي سقط خلال الليل، أرضَ الباحة. كان الولد ما زال يجهش بالبكاء وفي حالة يرثى لها، بينما يده متشبّثة بقوّة بيد مربيّه السويسريّ ريفيرديل.

توقّفا فجأة وسط السّاحة. كان جمعٌ كبيرٌ من النّاس يراقبهما. لماذا توقّفا يا ترى؟ إلى أين أرادا الذّهاب؟

كان الصبيّ نحيفا وقصير القامة. وعند سماع أفراد الحاشية نبأ وفاة الملك المأساويّة وغير المتوقّعة، تدفّقوا إلى الباحة الخارجيّة. كانوا حوالي المئة، وقد وقفوا هناك، بصمت وفضول.

كان غولدبيرغ من بينهم، وكان أقلّ الموجودين شأنا حتى ذلك الحين. لم يكن من أصحاب الامتيازات بعد. كان موجودا بصفته معلم وليّ العهد الغبيّ، الأمير فريدريك، ليس إلاّ. لم يتمتّع بأيّ حقّ من الحقوق الكثيرة الأخرى الّتي مُنحت لغيره. لم يكن يملك من القوّة شيئاً، إلّا ذلك اليقين الثابت بأنّ الأشجار الكبيرة ستقع يوماً، وبأنّ لديه الوقت والقدرة على الانتظار.

وقف كريستيان ومربّيه جامِدَيْن، والحيرة باديةٌ عليهما، وكانا ينتظران... لا شيء! فقط وقفا هناك، والشّمس المنخفضة تبعث بأشعّتها على ساحة القصر المكسوّة بطبقة خفيفة من الثّلج. انتظرا لا شيء بينما الصبيّ يبكي دون توقّف.

أمسك ريفيرديل بيد الصبيّ بقوة. كم صغير هو ملك الدنمارك الجديد، كأنّه طفلٌ. شعر غولدبيرغ بحزن لا حدود له حين نظر إليهما. لقد حلّ شخص آخر في المكان الذي كان من المفروض أن يشغله هو، أي غولدبيرغ، كرفيق للملك. عليه من الآن فصاعداً أن يقوم بجهد مضنٍ كي يحتل ذلك الموقع. ما زال حزنه يفوق كلّ حد. إلا أنه عاد واستجمع شجاعته.

سيحين وقته ، لا شك سيحين!

هذا ما كان في ذلك اليوم... لقد نال كريستيان البركة.

وفي عصر ذلك اليوم أُعلن عن كريستيان السّابع ملكاً جديداً على الدّنمارك.

الفصل الثاني

الرجل الذي لا يقهر

١

كان المربّي السّويسريّ ،ذو الجسد الضئيل والقامة المحنية، صاحبَ حلم كبير. لقد حلم الرّجل بالتّنوير واعتبره أشبه بفجر هادئ رائع الجمال، وإن صعُب تحديد ملامحه في مراحله الأولى، إلا أنّه سيتبلور حتماً وتّدريجيّاً إلى أن يبزغ ضوء الصباح مبشّراً بنهار جديد.

هكذا إذن رأى التّغيير: لطيفاً هادئاً كالفجر ودون عنف.

بل هكذا يجب أن تتمّ الأمور، دائماً.

كان اسم هذا المربيّ فرانسوا ريفيرديل. وهو من وقف مع كريستيان في ساحة القصر في ذلك اليوم المصيريّ.

أمسك ريفيرديل يومَها بيد الصّبيّ الّذي سيصبح ملكاً، ونسي لحظة رأى الدّموع في عيني كريستيان أسس نظام التّشريفات، إذ إنّ مشاعر الأسى العميق سيطرت عليه.

وقفا هناك دون حراك، وسط ساحة القصر المغطاة بالثلوج، بعد أن منح الملك بركته لكريستيان، ومات!

في عصر ذلك اليوم، ومن شرفة ذاك القصر، نودي بكريستيان السابع ملكا على الدّنمارك.

كان ريفيرديل واقفاً خلف كريستيان، إلى الجانب قليلاً وعلى بعد خطواتٍ

قليلةٍ منه، حين بدأ كريستيان يلوّح بكلتا يديه ويضحك بصوت عالٍ. استفزّت تصرفاتُ الملك الجديد الحاضرين الّذين استهجنوا حركاته، معتبرين هذه التصرفات غير لائقة ولا تبرير لها.

كان المعلّم السّويسريّ فرانسوا ريفيرديل قد عُيّن سنة ١٧٦٠ مربّياً خاصّاً لوليّ العهد، الأمير كريستيان والبالغ من العمر عندها إحدى عشرة سنة. كان ريفيرديل قد نجح في إخفاء حقيقة جذوره اليهوديّة لفترة طويلة،ولم يُذكر اسمه (إيلي) ولا اسم عائلته (سالومون) في اتفاقيّة العمل.

ربما لم تكن هذه الاحتياطات ضروريّة آنذاك، إذ إنّ يهود الدّنمارك لم يتعرّضوا للاضطهاد لما يزيد على عقدٍ من الزمن سبق تاريخ تسلّم ريفرديل لمنصبه.

كذلك لم يأت الرجل في سيرته الذاتيّة على ذكر كونه أحد رجال التّنوير، فهو لم يرَ أنّ لهذه المواضيع علاقة بطبيعة عمله، ورأى أنّ ذكرها قد يسبّب له الأذى. ثمّ إنّ الآراء السياسية هي أمور شخصية.

أما مبدؤه الأساس فكان: الحذر.

الانطباع الأوّل الذي تركه الصبيّ كريستيان على ريفرديل كان إيجابيّاً.

كان كريستيان «قريباً إلى القلب»، على حد تعبير ريفرديل. فقد بدا رقيقاً، نحيف البنية، خفيف الحركة وأنيقَها، فيه مسحة من الأنوثة، ولا يخلو من جاذبية تجعله «قريباً إلى القلب». وكان، إلى ذلك، مهذباً تمتّع بذكاء متحفّز، كما أنّه أتقن الدّنماركية والألمانية إلى جانب الفرنسية.

لكن هذه الصّورة البسيطة ما لبثت أن تغيّرت بعد أسابيع قليلة لتبدو أكثر تعقيداً.

من الواضح أن الصبيّ تعلّق بسرعة بريفيرديل، وبعد شهر واحد فقط أسرّ إليه دون غيره بأنّه لا يشعر بـ«الرّعب».

عندما استفهم ريفيرديل — محتاراً– عما قصده كريستيان بـ«الرّعب»، تلقّى من

الأخير جواباً يحمل ما معناه أنّ الخوف أو الرّعب هو الحالة الطبيعيّة للصبيّ.

مع الوقت لم تعد كلمة «جذّاب» هي الكلمة الصحيحة لوصف الصّورة الشّاملة لكريستيان.

خلال نزهات المشي الّتي كانت ضمن البرنامج المفروض على الأمير، وبينما كان يسير برفقة مربّيه بإيقاع سريع ودون مرافقين من البلاط، عبّر الأميرُ ابن الحادية عشرة عن مشاعر وآراء قرعت جرس إنذار في عقل ريفيرديل. بدت هذه المشاعر والآراء وكأنّها ملفوفة بثوب لغويّ خاصّ. كان كريستيان يردّد بشكل مَرَضيّ مفردات معيّنة تُعبّر عن صفات يأمل أن يتّصف بها مثل: «قويّ» و» صلب».

لم تكن هذه الصّفات تعبّر بأي شكلٍ من الأشكال عن رغبة الصّبيّ في تحسين بنيته الجسديّة بمعنى اللياقة البدنيّة والصحّة؛ بل عنت شيئاً آخر كلّيّاً. أراد كريستيان أن يُحدث «تحسّنا»، لكن تفسير هذا المصطلح بطريقة عقلانية بقي متعذّراً. بدت لغة كريستيان وكأنّها خليطٌ هائلٌ من المفردات المجتمعة وقد تمّت صياغتها برموز سريّة لا يستطيع فكّها إلاّ الخبراء.

خلال المحادثات التي تمّت بوجود طرف ثالث أو في البلاط، اختفت هذه اللّغة السريّة تماماً. أمّا حين كان الملك برفقة ريفيدريل دون ثالثٍ لهما، فقد كان يردّد هذه اللّغة العجيبة بشكل يكاد يلامس الجنون.

أكثر هذه العبارات غرابةً كانت: «الجسد»، «آكلو لحوم البشر»، و»العقاب»، وهي عبارات لم يكن كريستيان يستعملها بشكل مترابط . رغم ذلك، كان بالإمكان فهم بعضها بسهولة.

بعد نزهات المشي تلك، كان على الصّبيّ العودة للدّرس. أحياناً كان يقول لمعلمه في طريق العودة إنّهما عائدان الآن «للفحص المركّز» أو «للتّحقيق المركّز»، وهو المصطلح الذي حمل في لغة القضاء الدّنماركيّ معنى «التّعذيب»، والّذي سمحتْ به السّلطة القضائيّة بل شجّعت على استعماله. وقد ذكر ريفيرديل أنّه سأل الصبيّ إن كان يعتقد أنه يتعرّض للتّعذيب بواسطة ملاقط الجمر أو بالكمّاشات.

فاجأه الصبي حين أجاب على الفور: «نعم».

بات الأمر واضحاً.

أدرك ريفيرديل بعد فترة أن هذا المصطلح بالذّات لم يكن كلمة سرّ أخفت معاني مبهمة، إنّما هو تصريح بحقيقة واقعة.

كان الصبيّ يتعرض للتعذيب إذن. ولم يكن هذا الأمر مستغرباً.

٢

كانت وظيفة المربّي المؤتمن على وليّ عهد الدّنمارك هي تدريبه ليكون ملكا يتمتع بسلطة مطلقة.

لكنه لم يكن الوحيد في هذه المهمة.

تقلّد ريفيرديل منصبه في ذكرى مرور مئة عام على ثورة سنة ١٦٦٠، التي سحقتْ سلطةَ النبلاء وقلصتها إلى أبعد حدٍ، وأعادت الحكم المطلق للملك. عمل ريفيرديل جهده كي يجعل الأمير الشاب يدرك ما لموقعه من أهميّة؛ ذلك أن مستقبل البلاد سيكون بيده. مع ذلك، فقد فشل في شرح خلفيّة هذا الدّور المهمّ لوليّ العهد لأسباب تتعلّق بوجوب التكتم على ما يجري، ومختصره أنّ تراجع الملكيّة وتقلّص سلطة الملوك السابقين، وما أصابهم من تدهور وانحلال، أدّى إلى أن تؤول السلطة المطلقة إلى المحيطين بالأمير في القصر، وهؤلاء هم الذين تحكّموا بتنشئته وتعليمه، وهم من رسم له طريقة تفكيره.

كل ما عرفه «الصبيّ» وشعر به — حسب تعبير ريفرديل - نحو الدور الذّي ينتظره مستقبلا كملك، هو القلق والنفور واليأس.

صحيح أن الملك هو الحاكم المطلق، وصحيح أنّه نال تلك السلطة من الله، لكن الملك لم يمارس سلطته تلك، بل انتدب آخرين للقيام بالمهمّة، فمن مارس السّلطة في الواقع كان كبار موظّفي الحكومة. اعتبر الجميع هذا الأمر طبيعياً، وكان

التّعليم الذي تلقّاه كريستيان يتلاءم مع هذا الوضع. لم يكن هذا الأمر أمرا عادياً، إذ إنه كي يُجرَّد الملوك من سلطاتهم الممنوحة لهم من الله، يتوجّب أن يكون الملك مجنوناً، أو مدمناً على الكحول بشكل مزرٍ، أو كسولاً غير راغب في العمل. وفي حال لم يعانِ الملك ممّا سبق، كان من الضروريّ كسر إرادته. هكذا تكون لامبالاة الملك ناتجة إمّا عن تدهور حالته أو بسبب صفاته الوراثيّة أو نتيجة فكرة غُرِست في ذهنه.

أوحت شخصية كريستيان لمن حوله بأنه لا بد من أن يتحوّل إلى إنسان سلبي وأن تُغرس السلبيّةُ فيه. يصف ريفيردِيل الوسائل التي مورست على «الصبيّ» بأنّها «نظام تربوي مدروس ومنهجٌ مُعدّ يُستخدم بغرض خلق حالة من الوهن وفقدان السّيطرة لدى الشّخص المعنيّ، ممّا يؤدي إلى خلق فراغ في السّلطة يملؤه الحكّام الحقيقيّون ويسيطرون على مقاليد الحكم». سرعان ما لاحظ ريفيرديل أيضا أنّ رجال البلاط مستعدّون للتضحية بسلامة عقل الأمير الشّاب من أجل تحقيق النّتائج التي تمّ التوصّل إليها من قبل مع الملوك السّابقين.

وكما كتب ريفرديل في مذكراته لاحقاً، كان الهدف هو تحويل هذا الصبيّ إلى «فريدريك جديد». ما لم يخطر لهم على بال هو أنّه سيأتي يوماً ما طبيبٌ خاصّ لصاحب الجلالة، يحمل اسم «سترونزي»، وسيحلّ زائرا في جوّ فراغ السّلطة ذاك».

كان ريفيرديل هو من استخدم مصطلح «طبيب صاحب الجلالة الزائر» كلّما ذُكر سترونزي. لم يقصد السّخرية بل العكس، إذ كان شاهداً على ما يتعرض له الصّبي من عمليّة تحطيم واضحة ومثيرة للغضب.

ما عُرف عن عائلة كريستيان هو أنّ والدته توفّيت حين كان في الثّانية من عمره، وأنّ ما عرفه كريستيان عن والده هو أنّه كان صاحب سمعةٍ سيئة، وأنّ من أشرف على تربيته وخطط لها ووجّهها هو الكونت ديتليف ريفينتلو، المعروف باستقامته وبشخصيته القوية.

وحسب نظرية ريفنتلو في التّربية فإنّ «التّدريب هو ما يجعل حتّى أكثر الفلاّحين

بلاهة قادراً على القيام بعمل ما، ما دام المدرّب يحمل سوطاً بيده»، ولهذا السّبب، حمل ريفينتلو السّوط. يجب إعطاء أهمّية قصوى لـ« الإخضاع المعنويّ» أيضاً، كما يجب «القضاء على كل مظاهر الاستقلالية».

لم يتردّد ريفينتلو في تطبيق مبادئه هذه على الصّغير كريستيان، ولم تكن هذه الأساليب في تربية الأطفال مُستهجنة يومها. الفريد والمدهش في الأمر، حتى بمعايير تلك الأيّام، هو أن هذا الصّبيّ الذي يريدون كسر إرادته من خلال التدريب، وتحطيم معنوياته بالسوط للقضاء على كل ذرة من الاستقلالية في شخصيته، هذا الصبي لم يكن ابن أحد النّبلاء أو من الطّبقة المتوسّطة، بل كان العاهل الدنماركيّ صاحب الحقّ في الحكم المطلق، والّذي اختاره الله لهذه المهمّة. وحين يقبض عاهل كهذا على مقاليد السلطة سيكون محطّماً بما يكفي، خاضعاً كما يجب، ومشتّت الإرادة إلى الحّد الذي يجعله يتنازل عن تلك السّلطة لمصلحة من قاموا بتربيته وأوصلوه إلى ما وصل إليه.

في وقت لاحق وبعد أن مرّ وقت طويل على انتهاء الثورة الدنماركية، كتب ريفيرديل في مذكّراته متسائلاً عن السّبب الذي جعله يُحجِم عن التدّخل في هذا الموضوع في حينه. لم يعطِ ريفرديل جواباً لتساؤله، رغم أنّه وصف نفسه بالمفكّر، وقال إن تحليله للحالة كان واضحاً.

تقلّد ريفيرديل منصبه كمعلّم إضافيّ لتدريس اللّغتين؛ الفرنسية والألمانية. كتب بعد وصوله ملاحظات حول نتائج السّنوات العشر الأولى له في مجال التّربية والتّعليم. لم يكن في الحقيقة المعلّم الأساسّي للأمير بل كان تحت إمرة صاحب القرار، الكونت ريفينتلو. جاء فيما كتب:

وهكذا كنت أغادر القصر يوميّاً ولمدّة خمس سنوات، والحزن يعتصرني. رأيت كيف كانوا يحاولون تحطيم الصّمود المعنويّ لتلميذي بشكل متواصل ومدروس حتى لا يتعلّم شيئاً يمكّنه من لعب دوره كملك أو كمن ستقع مقاليد السّلطة في يده مستقبلاً. لم يتلقّ علوماً في القوانين المدنيّة لبلاده؛ لم تُوضّح له طريقة تقاسم

المهام بين الوزارات، ولم تُشرح له تفاصيل نظام الحُكم في البلاد، أو أن السّلطة قد انبثقت أصلاً من العرش ومنه توزّعت على الموظّفين. لم يشرح له أحد يوماً طبيعة العلاقات مع الدّول المجاورة والّتي من الممكن أن يجد نفسه فجأة في حرب معها. كان كريستيان يجهل تماماً وضع المملكة عسكريّاً وبحريّاً. مستشارُه الأوّل، والذي راقب تعليمه وأشرف يومياً على الدّروس التي أُعطيت له، صار وزيراً للاقتصاد دون أن يتخلّى عن موقعه كمدير مدرسة. لم يُعلِّم هذا المستشارُ تلميذَه الذي يحتاج لمشورته أيَّ شيء عن واجبات هذا التّلميذ، وعن المهمة الّتي تنتظره. لم يُطلعه على الأموال التي دخلت لحساب العرش عن طريق التبرّعات والجباية من داخل البلاد وكيف أُضيفت هذه الأموال للخزينة الملكيّة، ولا على الأمور التي كان من المفروض أن تُصرف عليها هذه النّقود. لم يَعلَم الشّخصُ الذي سيصير يوما الحاكمَ المطلقَ للبلاد والمسيطرَ على كّل الأمور في المملكة شيئاً من هذا كلّه. قبل ذلك بعدّة سنوات كان الملك السّابق، والد كريستيان، قد منح ابنه بيتاً ريفيّاً، لكنّ الأمير لم يُعيّن حارساً يعتني بالمنزل ولم يُنفق هو شخصياً عليه ولو قطعةً نقدية واحدةً أو يزرع في حديقته ولو حتّى شجرة. لقد تصرّف المستشار الأوّل ووزير الماليّة ريفينتلو بكلّ شيء كما رآه مناسباً، وكان هذا سبباً كافياً لأن نسمعه يردّد في حديثه عن المنزل والحديقه قائلاً: «تيناتي» و «بطيخاتي».

توصّل المربّي إلى نتيجة مفادها أنّ الدّور الذي لعبه السّيّد ريفينتلو — الـ «كونت» الّذي شغل منصب وزير المالية وصاحب العزبة– في تعليم الملك، كان دوراً مركزياً. هكذا تمكن ريفيرديل إلى حدّ ما، من حلّ الغموض الذي سبّبته الكلمات التي تردّدت على لسان الصّبي.

أخذت الحركات الجسديّة الغريبة التي يقوم بها الأمير تزداد وضوحاً. كأنّما كان جسده مسكوناً بالحركة، فكان يحرّك يديه باعثاً بالإشارات بشكلٍ متواصل، مع حركة عقصٍ عنيفٍ لمنطقة البطن، وكان ينقر بأصابعه على جسده متمتماً بأنه سوف «يتحسّن قريباً» وعندها سيصل إلى «الكمال»، وهي المرحلة التي ستمكّنه

من أن يصبح «مثل الممثّلين الإيطاليين».

اختلط على الصّغير كريستيان مفهوم «المسرح» والـ «باساور كونست». قد يكون التّفسير المنطقي الوحيد لذلك هو تشابك «الاستجوابات المركّزة» في ذهن الصّبي.

من بين المعتقدات الغريبة التي انتشرت في بلاط ملوك أوروبا في تلك الفترة كان الاعتقاد بأن هناك طريقة تجعل الإنسان غير قابل للقهر، تجعله لا يُكْسَر. اختُلقتْ هذه الأسطورة خلال حرب الثلاثين عاماً في ألمانيا؛ حاملةً حلم المناعة من الانكسار، ولعبت هذه الفكرة دوراً مهمّاً بين الملوك تحديداً. استحوذ الإيمان بهذا الفن —الذي سمي «باساور كونست» – على والد كريستيان كما على جدّه من قبل.

بالنسبة لكريستيان فإنّ الإيمان بهذا الـ « باساور كونست»صار كنزه السرّي الذي أخفاه في أعماقه.

كان يتفحّص يديه وبطنه باستمرار ليرى إن كان قد تحسن (« سيل أفونسي»)– كما قالها بالفرنسية– نحو تحقيق المناعة من الانكسار.

كان آكلو اللحوم من حوله أعداءً له، يتهدّدونه باستمرار. إن صار «قويّاً» وصار جسده «منيعاً لا يُقهر» فسيصبح عندها غير مبالٍ بما يلقاه من سوء معاملة أعدائه له.

كلّهم كانوا أعداءه، وخاصّة الحاكم المطلق فعلياً؛ ريفينتلو.

السّبب الذي جعل كريستيان يذكُر «الممثّلين الإيطاليّين» كأشباه آلهة له علاقة بحلم المناعة هذا. فبالنّسبة لكريستيان الشّاب، بدا له هؤلاء الممثّلون المسرحيوّن كشخصيّات لا تُقهر. والآلهة قويّة... لا تُقهر ولا تُكسر.

لعبت هذه «الآلهة» الأدوار على الخشبة كما رُسمتْ لها. أدوارٌ جعلت الشّخصيات التي قامت بتمثيلها ترتفع إلى عالمٍ آخر، عالم أعلى من عالمنا الواقعيّ.

شاهد كريستيان حين كان في الخامسة من عمره عرضاً خاصّاً قامت به فرقةُ مسرحيّةٌ إيطاليّة.

ترك المظهر الأنيق للممثّلين وتلك الأبّهة التي اتّسم بها مظهرهم على خشبة المسرح بعماماتهم الطّويلة وثيابهم الخلّابة، ترك لدى كريستيان انطباعاً قوياً جعله يستنتج أن هذه المخلوقات من طينة أخرى أرقى من البشر. لقد شابهوا الآلهة. وإن كان هو، الذي قيل إنه قد اختير من الله، يستطيع أن يقوّي نفسه، أن يتحسّن، فإنّه سيتمكّن عندها بالتّأكيد من أن ينضمّ لهذه الآلهة... سيصير ممثّلا، وسيتحرّر بالتالي من «عذابات الملكيّة».

ما اعتُبر حقّاً له بالولادة كان في الواقع جملة من العذابات الأليمة.

تبلورت لديه مع الوقت فكرةٌ أخرى مفادها أنّه قد تمّ استبداله لحظة ولادته بطفلٍ آخر. تخيّل كريستيان أنّه كان في الأصل ابن فلّاح، وقد ترسّخت هذه الفكرة في ذهنه مع مرور الوقت. أما الاختيار الإلهي الذي وقع عليه ليكون ملكاً فقد سبّب له العذاب الأليم، وكانت «التّحقيقات المركّزة» من صنوف هذا العذاب. لكن بما أنّه قد استُبدل عند ولادته بطفل آخر، أفلا يحقّ له أن يتحرّر من هذا العذاب إذن؟

لا يختارالله شخصاً عاديّاً وينصّبه حاكماً. لهذا السّبب كان كريستيان يبحث باستمرار وبطريقة محمومة عن علامة تثبت له أنّه مجرّد إنسان عاديّ. تتردّد كلمة «علامة» على لسانه المرّة تلو الأخرى... كان يبحث عن علامة. إن استطاع أن يجد علامة تثبت أنّه إنسان عاديّ، وليس الشّخص الذي وقع عليه الاختيار، فسيتحرّر عندها من دوره كملك... سيتحرّر من الشكّ... من العذاب، ومن عمليّة الاستجواب المكثّف التي يخضع لها. إن استطاع، من ناحية أخرى، أن يجعل من نفسه شخصاً منيعاً... شخصا قويّاً غير هشّ، مثل الممثّلين الإيطاليّين، فقد يستطيع عندها أن يتحمّل حقيقة كونه الشّخص الذي وقع عليه الاختيار.

هذا ما استطاع ريفيرديل أن يستخلصه من أفكار كريستيان، ولو أنّه لم يكن على يقين من أنّه قد فهمه بالفعل. الأمر الذي كان ريفيرديل على يقين منه هو أن هذا الصّبيّ الماثل أمامه، هو صبيّ يشكو من تقييم ذاتيّ مُدَمِّر.

أما يقين كريستيان بأنّ المسرحَ، الذي لم يكن إلا خيالا، هو الشكلُ الحقيقيُ الوحيد للحياة،فقد أخذ يزداد رسوخاً. هكذا يصبح فهم ما يحدث في الواقع ممكناً ما دام المسرح هو الواقع. ذلك ما استنتجه ريفيرديل- وإن بصعوبة- من تفكير كريستيان، إذ إنّ المنطق وراء هذا التفكير لم يكن واضحاً تماماً.

تتحرّك الشّخصيات على المسرح كما الآلهة، وتقوم بتلاوة سطور من نصوص حفظتها عن ظهر قلب؛ وذلك أمر طبيعي. الشيء الحقيقي على المسرح هو الممثلون. كريستيان أيضاً أُعطي دوراً ليلعبه، وهو دور الملك، وذلك بفضل الله. ولا علاقة لهذا الدّور بالحقيقة؛ إنه مجرّد وهم. ولهذا السّبب عليه ألا يشعر بالخجل حين يمثّل دوره.

فيما عدا ذلك كان الخجل هو السّمة التي طُبع عليها.

خلال أحد الدّروس الأولى، والذي دار باللغة الفرنسيّة، اكتشف السيد ريفيرديل أن تلميذه لم يفهم المصطلح الفرنسي «كورفيه». في محاولة بأن يقرِّب له المعنى من خلال تجربة الصبيّ الخاصة، حاول أن يشرح للأمير دور المسرح في حياته كالتّالي:«كان عليّ أن أعلّمه بأن الرحلات الّتي يقوم بها تشبه الغارات العسكريّة، وأنه يتمّ استدعاء أعضاء الكشّافة وإرسالهم في مهمّة مستعجلة إلى كل المقاطعات من أجل حشد الفلاحين للوقوف عند جوانب الطريق الّتي يمرّ بها الموكب، فيحضر بعضهم مع خيولهم والبعض بعربات صغيرة؛ وأنّه كان على هؤلاء الفلاّحين أن ينتظروا بعد ذلك لساعاتٍ وحتى لأيّام قرب عرباتهم في الأماكن التي تجمّعوا بها، مضيّعين بذلك الكثير من الوقت دونَ هدف، وأنّ هؤلاء النّاس، وكلّ ما وقعت عليه عيناه في هذه الغارات، كان وهماً وحالة مصطنعة وليست حقيقةً».

حين عَلِم المستشارُ الأوّل ووزيرُ الماليّة، ريفينتلو، بأسلوب التّعليم هذا استشاط غضباً وأخذ يجأر بأنّ هذا الأسلوب لا يجدي. كثيراً ما جأر الكونت ريفينتلو، الّذي لم تفاجئ تصرّفاته –كمشرف على تعليم الأمير- المربّي اليهوديّ السّويسريّ، الّذي لم يجرؤ رغم ذلك ولأسبابٍ معروفة، على الاعتراض على نظريّات وزير الماليّة أبداً.

كلّ شيء حول كريستيان كان غير منطقيّ وكان الشيء الطّبيعيّ الوحيد هو المسرح. كان على الأمير أن يحفظ دوره، لا أن يحاول الفهم. عليه وقع اختيار الله، لمكان فوق الجميع، وكان مع ذلك أكثر النّاس تعاسةً. الشّيء الوحيد الثّابت في حياته كان ضرب السّياط الذي تعرّض له.

عُرف ريفينتلو بسمعته كرجلٍ «مستقيم». بما أنّه اعتبر الحفظ عن ظهر قلب يفوق الفهم أهميّة، فقد أوصى جازماً بأنّ على الأمير حفظ النّظريّات والفرضيّات بالضّبط كما تُحفظ نصوص المسرح. من النّاحية الأخرى، فإن فهم الأمير لما كان يتعلّمه لم يكن مهّماً أبداً. الهدف الأساسي من استخدام المسرح كوسيلة للتّعليم هو حفظ النّص عن ظهر قلب. بالرغم من استقامته وتقواه كما طبيعته القاسية، فقد عمل السّيد ريفينتلو على جلب أزياء لوليّ العهد كانت تصنع في باريس خصّيصاً له. بعد ذلك، وحين كان الصّبي يقف ليقدّمَ عرضاً وينجح بإلقائه للسّطور التي حفظها من الذّاكرة، كان وزير الماليّة يشعر بالرّضا؛ وقُبيل كلّ استعراضٍ لمهارات وليّ العهد في الحفظ كان ريفينتلو يتبجّح قائلا:

«هاكُم دميتي! ستقوم دميتي الآن بتأدية الدّور!».

جاء في كتابات ريفيرديل أنّ هذه العروض كانت تسبّب لكريستيان العذاب في أغلب الأحيان. في أحد الأيّام، وحين كان عليه أن يستعرض مهارته في الرّقص، صُدِمَ الصّبيّ إذ أساء فهم ما سيحدث على المسرح. كتب ريفرديل:

كان ذلك يوماً مشهوداً بالنّسبة للأمير. انهالت عليه اللّعنات والضّرب، فبكى بتواصل إلى أن اقترب موعد العرض. اختلطت في عقله الصّور بين ما هو على وشك الحدوث في إطار المسرحية وبين أفكار عالقة في ذهنه: صار يتخيّل أنّهم يقتادونه إلى سجن وصارت النّياشين العسكريّة التي دلّت على مكانته عند دخوله القاعة، وكذلك قارعو الطّبول والحرس الّذين أحاطوا بعربته، سببا إضافيّاً لتأكيد شكوكه وإثارة قلقه. اضّطربت أفكاره بشكل خطير ولم يعرف النّوم لليالٍ بعدها وقد أمضاها كلها باكيا.

تدخّل ريفينتلو في الدّروس، وواظب على ذلك، خاصّةً حين انحدر مستوى التّعليم حسب رأيه، فبدل الحفظ تحوّل الدّرس إلى ما سمّاه «مُحادثة». يصف ريفيرديل الوضع مفصّلا:

كلّما لاحظ ريفينتلو أنّ الدّروس تدنّت إلى مستوى المحادثة، أي أنّها دارت بهدوء وبلا هرج ومرج، وأنّها أثارت اهتمام تلميذي، كان يصرخ بالألمانيّة بصوت مرعب من جانب الغرفة حيث كان يجلس قائلا: «جلالتك، لن أدع شيئاً يمرّ، إنْ لم أعرف كلّ ما يدور!» ثم يقترب منّا ويجعل الأمير يعيد الدّرس، مُضيفاً تعليقاته الخاصّة، ومسبّباً الألم للأمير، إذ كان يقرصه بقسوة، ويضغط على كلتا يديّ الأمير معاً، فيعصرهما عصراً، ثم يضرب الأمير بقبضتيّ يديه بقسوة. كان الصبيّ عندها يصاب بالارتباك والخوف مما يزيد أداءه سوءاً. عندها كان التّعنيف يزداد وتقسو المعاملة، إمّا بذريعة أنّ الأمير كان يعيد تلاوة النّصوص حرفياً أو بذريعة أنّه كان حرّاً أكثر ممّا يجب، أو لأنّه أسقط حرفاً ما، بل حتّى لأنّه أعطى الإجابة الصّحيحة على سؤال لم يكن معذّبه نفسه يعرفها. غالبا ما كان غضب المستشار الأوّل يزداد ويتصاعد إلى أن يصرخ مزمجراً عبر القاعة طالباً الخيزرانة («هاتوا العصا»!) الّتي كان ينزل بها ضرباً على جسد الطّفل، والتي داوم على استعمالها لهذه الغاية لفترة طويلة. نوبات الغضب المُنفلت هذه كانت معروفة للجميع، إذ كان من الممكن سماعها تجلجل إلى أن تصل فناء القصر، فتتناهى إلى مسامع كلّ من في البلاط أينما كانوا. كانت الجماهير التي اعتادت أن تتجمّع في ساحة القصر الخارجيّة مُهللة لنور الشمس الساطع عليهم، أي لذلك الطّفل الذي كان يتعرّض لحظتها للعقاب ويصرخ باكياً، وهو الطّفل نفسه الذي أتيحت لي فرصة التعرّف إليه فوجدته طفلاً نبيلاً قريباً من القلب. هؤلاء النّاس أصغوا لكلّ ذلك بينما الصّبي، بعينيه الواسعتين الممتلئتين بالدّموع، كان يحاول أن يقرأ في وجه معذّبه ما الذي أراده بالضّبط، وما هو المطلوب منه أن يقوله حتى يكون ما يقول صحيحاً. عند العشاء كان مرشده هذا يستمرّ في عمليّة الاستحواذ على انتباه الطفل، بل احتكاره، إذ لم يتوقّف عن

إلقاءِ سيل من الأسئلة عليه ناعتاً إيّاه بأسوأ الصّفات بعد كل جواب. هكذا كان الصبيّ عُرضةً لسخرية الخدم المتواجدين هناك مما سبّب له الشعور الدائم بالخجل. حتى أيام الآحاد لم تكن أيام استراحة؛ فكان السيد ريفينتلو يصطحب تلميذه إلى الكنيسة مرتين في اليوم، مكرراً على مسامعه النقاط الأهم في عظة القس وبصوت مجلجل يخترق أذني الصبي، وكان يقرصه ويخش جسده بإصبعه، مشدّداً على سطور وجمل معينة لتأكيد أهميّتها. بعدها كان يُجبِرُ الأميرَ على إعادة ما سمع، وإن حدث ونسي أو لم يفهم الصّبيّ شيئاً، كان يسيء معاملته بما يتفق مع أهمية ذلك الشيء.

هذا هو «الاستجواب المركّز» كما جاء على لسان الصبيّ. يُسجّل ريفيرديل في ملاحظاته أن ريفينتلو غالباً ما أساء معاملة وليّ العهد بقسوةٍ بالغة حتى أنّ «الزّبد كان يظهر على طرفي شفتيّ الرّجُل». أمّا الصبيّ فهو من ستنتقل إليه السّلطة المطلقة فيما بعد. إنّها سُلطةٌ من عند الله الّذي اختاره لهذا المنصب دون أيّ وسيط.

لهذا السّبب كان الصّبي يبحث عن «شفيعٍ» يُحسن إليه. ولم يكن قد وجد ذلك «الشفيع» بعد.

كانت نزهات المشي التي قام بها كريستيان وريفيرديل وحدهما، هي المناسبة الوحيدة التي استطاع بها ريفيرديل أن يشرح الأمور لتلميذه دون رقيب. لكن الصبيّ كان يبدو أكثر وأكثر ارتباكاً وحيرة.

لم يكن هناك منطق لأي شيء، فخلال خلوات المشي هذه الّتي قاما بها وحدهما أحياناً، وبصحبة حاجب أو أكثر «على مسافة تقارب الثلاثين خطوة حفظاً لبعض الخصوصية» أحياناً أخرى، كان الصبيّ يعبّر عن ارتباكه بحريّة أكبر.

من الممكن القول إنّه كان يتخلّى عن الرّموز الّتي تغلّف لغته السريّة. بدأ ريفيرديل يلاحظ أيضاً أنّ كلّ ما له علاقة بمفهوم «الاستقامة» كان مرتبطاً في معجم الصّبي اللغويّ بسوء المعاملة وبالسّفاح، والأمران كانا يحدثان دائما في البلاط.

في محاولة عنيدة منه لتفسير الأمور، شبّهَ كريستيان حال القصر بالمسرح، وبأنّ

عليه أن يقوم بحفظ السّطور المطلوبة منه، لأنه سيلقى العقاب إن لم يحفظها عن ظهر قلب.

لكن هل كان كريستيان شخصاً واحداً أم اثنين؟

في ذهن كريستيان عاش الممثّلون الإيطاليّون الّذين أُعجب بهم حالتين منفصلتين: حالة الدّور الذي لعبوه على خشبة المسرح، والحالة الأخرى هي دور آخر لعبوه «في الخارج» بعد انتهاء المسرحية. أما الصبيّ فقد قال إن دوره لا ينتهي أبداً، أَليس كذلك؟ حين يكون «في الخارج»؟ هل كان عليه أن يبذل جهده باستمرار كي يكون «صلباً» وكي «يتحسّن»؟ بينما الدّور الّذي عليه أن يلعبه هو في الوقت ذاته «في الدّاخل»؟. إن لم يكن الأمر إلا سطوراً يجب أن تُحفظ، وإن الأمر برمّته موجّه كما قال ريفيرديل وأن هناك من يتحّكم بكل شي وإن حياته ليست إلاّ نصوصاً عليه أن يحفظها وأن «يؤدّيها»، فهل لديه أمل بأن يخرج من هذه المسرحية يوماً؟

مع ذلك، فقد كان كل واحد من الممثّلين الإيطاليّين الذين رآهم عبارةً عن شخصيّتين منفصلتين، شخصية على المسرح وشخصية خارجه. فماذا بشأنه هو إذن؟

لم يكن هناك منطق في تفكيره، ومع ذلك فقد انطوى هذا التّفكير على معنى ما واحتمل أكثر من تفسير. سأل كريستيان ريفيرديل عن ماهيّة الإنسان. وإن كان الإنسان فرداً؟ لقد بعث الله بابنه الوحيد إلى الأرض، لكن الله قد اختاره هو، أي كريستيان، كي يكون الحاكم المطلق. فهل كتب الله السّطور التي يتم تلقينها لكريستيان كي يحفظها الآن؟ هل كانت مشيئة الله في أن يصبح الفلاّحون الذين يتم استدعاؤهم ليصطفوا على جانبيّ الطريق حيثما تجوّل الملك، زملاء له في المسرحيّة وجزءاً منها؟ ثمّ ما هو دوره بالضّبط؟ هل هو ابن الله؟ وإن كان كذلك، فمن يكون والده المسمّى فريدريك إذن؟

هل اختار له الله والده أيضاً وجعل الوالد رجلاً يكاد يكون «مستقيما»، مثل السيد ريفيرديل؟ هل هناك إله عليّ قدير، مُحسن، شفيع، كونيّ، سيرحمه في لحظات الضّيق إن احتاجه؟

قال له السيد ريفيرديل إن تكريسه ملكا جاء من عند الله وإنّه ليس المسيح؛ بل إن ريفيرديل، كيهوديّ، لم يؤمن بالمسيح أصلاً؛ وإن عليه ألاّ يُلمّح أبداً وتحت أيّ ظرف بأنّه ابن الله. فذلك، هو الكفر بعينه.

لكنّ وليّ العهد اعترض عندها قائلاً بأنّ الملكة الأرملة، التي كانت من الأتقياء أتباع العقيدة المورافيّة، قالت إن المسيحيّين الحقيقيّين هم أولئك الّذين تعمّدوا بدم الحَمَل، وإنّ جروح المسيح هي كهوف اختبأ فيها الخاطئون، وإنّ هذا هو الخلاص. فأين الرابط بين كل ما ورد؟

طلب منه ريفيرديل أن يمسح كلّ هذه الأفكار من رأسه حالا.

قال كريستيان إنه يخاف العقاب لأنّ ذنبه كان عظيماً جدّاً، بريمو (أولاً) لأنه لم يحفظ سطوره، سيكوندو (ثانياً) لقبوله بالإدّعاء أنّه المختار من قِبَل الله، بينما هو في الواقع طفل فلاحين دسيس تمّ استبداله. كانت حالة التشنّج تعاوده عندها، ليعاود عقص بطنه بأصابعه ونفض قدميه بعصبيّة، رافعاً يده باتجاه السماء، متفوهاً بكلمة، ثم مكرّراً إياها كأنّه يصرخ مستنجدا أو مبتهلاً بالصّلاة.

نعم، ربما كانت هذه طريقته في الصّلاة: يكرّر الكلمة ويرفع يده مشيراً إلى الأعالي باتجاه شيء أو شخص يبدو بالنّسبة له مصدر رعب وارتباك ويتفوه بكلام لا معنى له. صرخ كريستيان مكرّراً:

«علامة»!!! «علامة»!!!.

تابع كريستيان مناجاته بإصرار. بدا وكأنّه لن يستسلم. إذا عوقِب شخص ما فهل يكفي ذلك للتكفير عن ذنوبه؟ هل من شفيع؟ إذا أدرك الشّخص أن عاره كبير وأن أخطاءه عديدة، فما هي العلاقة بين الذّنب والعقاب؟ بأي شكل يُعاقَب؟ هل كان كلّ من حوله، ممّن مارسوا الدّعارة والسّكر حتى الثّمالة واتّصفوا في الوقت نفسه بالاستقامة، أيضا جزءاً من مسرحيّة خطّها الله؟ في نهاية الأمر، حتى المسيح ذاته وُلد في مذود. لماذا يُستغرَب إذن أن يكون هو نفسه طفلاً دسيساً صار ملكاً؟ أما كان من الممكن أن يعيش حياة مختلفة كليّاً مع والدين محبيّن من

الفلاّحين، والحيوانات جميعها من حوله؟

المسيح كان ابن نجّار. أمّا كريستيان فابن من يكون؟

ازداد قلق ريفيرديل لأقصى الحدود، لكنّه حاول جهده أن يجيب الصبيّ بمنطق وبهدوء، مع أنه شعر أن ارتباك الأخير يزداد شدّة ويصبح بالتّالي أكثر إزعاجاً.

في أحدى خلوات المشي سأل كريستيان ريفيرديل: «ألم يَطرُد المسيحُ المُرابين والباعة المتجوّلين من الهيكل؟ هؤلاء الذين كانوا يرتكبون الخطيئة ويمارسون العهر. ألَم يطردهم المسيح خارجاً؟ كيف يُوصفُ من ارتكب الخطيئة والعهر في القصر بالاستقامة؟ ومن كان هذا المسيح؟»

«رجل ثوري» أجاب ريفيرديل.

أصرّ كريستيان بعناد على السّؤال حول إن كانت مهمّته - كمن اختاره الله كحاكم مطلق في هذا البلاط، حيث ثمل الرّجال والنّساء ومارسوا الدّعارة والفجور- أن يحطّم هؤلاء جميعاً ويسحقهم؟ هل بُعث حتى يَطرد خارجاً... يُحطّم ويَسحق رجال الاستقامة هؤلاء؟ ريفينتلو كان من رجال الاستقامة، أليس كذلك؟ هل من الممكن أن يقوم شفيعٌ، قد يكون سيّد الكون أجمع، بالشّفقة عليه وهو في وضعه هذا، فيبذل الوقت حتّى يعينه في مهامّه؟ هل سيقوم ريفيرديل بمساعدته حتّى يجد هذا الشفيع ليستطيع القضاء على هذه الزّمرة برمّتها؟

«لماذا تريد أن تقوم بذلك؟» سأله ريفيرديل.

عندها بدأ الصبي بالبكاء.

مشيا مدة طويلة صامتين.

أخيراً قال السيد ريفيرديل: «لا، مهمّتك ليست في أن تَسْحَقَ».

لكنه أدرك أنه لم يجب عن السؤال.

٣

أخذ الصّغير كريستيان يتكلّم أكثر حول موضوع الذنب والعقاب. كان معتاداً على العقاب الصّغير بالطّبع، أي على «العَصا» التي لوّح بها المستشار الأوّل، والتي كانت طيّعة في يده. العقاب الصّغير شمل أيضاً الشعور بالعار أو الخزي لما تعرّض له من ضحكات الخدم من الصّبيان و»المقرّبين» كلما أخطأ. أمّا العقاب الكبير فلا بدّ من أنّه كان من نصيب الزّناة الذين كانوا أسوأ منه بكثير.

اتّخذ تطوّر الصّبي انعطافةً تُثير القلق فيما يتعلّق بتعذيب الرّقيب مورل وإعدامه. وهذا ما حدث:

أثناء حادثة تنمّ عن تقصير في الواجب بشكل يُرثى له، قام الرّقيب المدعو مورل، بقتل الرّجل الذي أحسن إليه وآواه في منزله، وذلك حين قام الرقيب بمحاولة سرقة جدول مرتبات كتائب الجيش. حوكم مورل بموجب مرسوم ملكيّ وقّعه الملك فريدريك، وكان حكما بأشنع أنواع الإعدام والّذي صدر ضدّ جرائم مُحدّدة.

رأى كثيرون في ذلك عملاً بربرياً وغير إنساني. كان مرسوم الحُكم عبارةً عن وثيقةٍ تقشعرّ لها النّفوس. أُحيط وليّ العهد -الأمير كريستيان- عِلما بالحدث، وأبدى اهتماماً خاصّاً به. حدث ذلك في السّنة ما قبل الأخيرة لحكم الملك فريدريك وكان كريستيان يومها في الخامسة عشرة من عمره. ذكر كريستيان أمام ريفيرديل أنّه يود لو يشهد عمليّة الإعدام. أُصيب ريفيرديل بقلقٍ بالغٍ وحثّ تلميذه على عدم فعل ذلك.

لكن الصبيّ – ما زال ريفيرديل يدعوه بالصبيّ –كان قد قرأ نصّ الحكم وشعر بأنه ينطوي على حدث مشوّق وجذّاب جدّاً. في الواقع كان الرّقيب مورل قد أمضى ثلاثة أشهر في السّجن قبل إعدامه، مما منحه الوقت الكافي لتلقّي الإرشاد الديني.

لحسن حظّه، فقد وقع مورل في السّجن تحت تأثير قسّ شارك الكونت زينزيندورف معتقده الديني، وهو المعتقد المعروف لدى العّامة باسم المعتقد المورافياني،

والّذي كانت الملكة الأرملة من أتباعه أيضاً. أثناء حديثها مع كريستيان — جرت بينهما أحياناً أحاديث اتّصفت بالتّقوى البحتة — بحثت معه الملكة موضوع الحكم بالتّفصيل والوسائل الّتي سيتمّ استخدامها قريباً في عمليّة الإعدام بشكل دقيق، كما أعلمته بأنّ الرّقيب قد تحوّل في سجنه إلى المذهب الموارفياني.

بات السّجين مورل يعتقد أنّ التّعذيب الشّنيع في اللّحظات الأخيرة من الحياة سيجعله يتوحّد شخصيّاً وعمليّاً مع جروح المسيح. نعم، فحتّى العذاب والألم والجراح ستتيح له الفرصة ليغوص في جسد المسيح... ليغرق في جروح المسيح... لينعم بدفء دم المسيح.

الدّم والجراح — وكلّ ما صوّرته كلمات الملكة الأرملة — اتخذ أشكالاً وصفها كريستيان على أنّها «مُبهجة» وأنّها قد سيطرت على أحلامه.

بدت العربة التي نقلت المحكوم عليه وكأنها عربة نصر ملكيّة. الملاقط المتوهّجة بالنّار والّتي ستلتقط جسده، السّياط الّتي ستنهال عليه، المسامير، وأخيرا دولاب التّعذيب- ستكون كلّها بمثابة الصّليب الذي سيوحّده مع دم المسيح المسفوك. أثناء فترة سجنه ألّفَ مورل أيضاً تسابيح وتراتيل من أجل تهذيب النّفوس وقد طُبعت ووزّعت على الجماهير.

توطّدت العلاقة بين الملكة الأرملة والصبيّ خلال تلك الأشهر، وقد وصف ريفيرديل ذلك بأنه وضع تشمئزّ له النفوس، إذ كان الاهتمام بالإعدام هو الأساس الذي قامت عليه هذه العلاقة. لم يستطيع ريفيرديل أن يمنع كريستيان من مشاهدة الحدث، سراً.

المصطلح «سرّاً» له مغزى خاص من الناحية القانونية في هذه الحالة. فحسب العادة، إنْ حدث ومرّ الملك أو وليّ العهد بموقع يتم به تنفيذ الحكم بالإعدام، فإنّ العفو عن السّجين يتمّ تلقائيّاً. رغم ذلك، فقد شهد كريستيان الإعدام من داخل عربة مغلقة تمّ استئجارها. ولم يلحظ وجودَه أحد.

رتّلَ الرقيب مورل التراتيل بصوت عالٍ، معلناً عن إيمانه المتّقد وعن رغبته الملتهبة

في الغرق في جراح المسيح. لكن حين بدأ التّعذيب الطّويل على منصّة الإعدام، ما عاد يستطيع الاحتمال دون أن ينهار ويصرخ صرخات الألم، خاصّة حين هرزت المسامير «في تلك الأعضاء من جسده ومعدته حيث مركز الرغّبات الكبرى ومصدر كل ألم». عندها وهو في حالة يأسه هذا لم يعد مكان للتّقوى وبلغ به الضيّق مبلغاً أسكت صلوات الجماهير وتراتيلهم. نعم، اضمحلّت قدرة كثيرين من الحضور على الصمود، وقد حضر هؤلاء الأتقياء لرؤية شهيدٍ مؤمن لحظة انتقاله من هذه الدنيا، فكانت النتيجة أن تركوا المكان مهرولين.

لكنّ كريستيان بقي جالساً في عربته إلى أن أسلم الرّقيب مورل الرّوح في النّهاية. عاد بعدها إلى القصر وبحث عن ريفيرديل. ركع على ركبتيه أمامه، أمسك بكفيّ يديه ووضعهما بين كفّيه، وبألمٍ شديدٍ وحيرة، حملق في وجه معلمه دون أن ينبس بكلمة واحدة.

لم ينبس بأيّ كلمةٍ ذلك المساء.

أمّا في اللّيلة التّالية فهاكُم ما حدث.

صدف أن مرّ ريفيرديل بجناح كريستيان ليُخبره عن تغيير في جدول دروس اليوم التّالي. وقف عند فتحة الباب وقد شهد منظراً «شلّ حركته» كما قال. كان كريستيان مستلقياً على الأرض، ممّدداً على شيءٍ شبيهٍ بدولاب التّعذيب. وكان اثنان من حُجّابه على وشك أن «يطحنا مفاصله» في مشهد تمثيليّ لعمليّة الإعدام، وذلك باستعمال لفّائف الورق كبديل للعصيّ بقصد تهشيم عظامه. وقد لعب دورَ المجرم المقيّد للدّولاب وكان يئنّ ويتوسّل باكياً.

تجمّد ريفيرديل في مكانه مستغرباً، ثم خطا إلى داخل الغرفة وأمر الحاجبين بأن يتوقّفا عن ذلك. قام كريستيان عندئذٍ من مكانه وهرب، رافضاً التحدّث عن الأمر فيما بعد.

بعد شهر، وحين ذكر كريستيان لريفيرديل أنّه لا يستطيع النّوم في اللّيل، طلب منه ريفيرديل أن يخبره عن أسباب عذابه. أجاب كريستيان والدّموع تنهمر من

عينيه، إنّه يعتقد بأنّه قد «تحوّل هو إلى الرقيب مورل وهرب من يد العدالة، بينما من تلقّى العذاب كقصاص هو في الواقع شبحٌ أُعدم بطريق الخطأ. التمثيلية التي قام بها كريستيان، حيث لعب دور شخص وُضِع على دولاب التّعذيب وعُذّب، ملأت رأسه بالأفكار السّوداء وزادت إمكانيّة إصابته بالسّوداويّة».

٤

يعود ريفيرديل مرة بعد أخرى ليحلم بشعاع التّنوير وهو يتسلّل خلسةً وببطءٍ. يرى النّور يبزغ تدريجياً كفجرٍ جديدٍ يسطع بنوره على سطح الماء.

حلم بالتّغيير، إذ لا مناص منه. استطاع أن يرى ومنذ زمن بأنّه لا بدّ من الانتقال من الظّلمة إلى النّور وبأنّ العمليّة ستحدث بسلاسةٍ ودون أيّ مظهرٍ من مظاهر العُنف.

فيما بعد، تخلّى عن الفكرة.

حاول السّيد ريفيرديل، كأحد رجال التّنوير، أن يغرس في عقل وليّ العهد وبكثيرٍ من الحذر، بعض البذور التي أمِل أن تثمر فيما بعد. حين سأل الصّبي مدفوعاً بحب الاستطلاع إن كان بإمكانه التّواصل مع بعض الفلاسفة الّذين أسّسوا الموسوعة الفرنسيّة العظيمة، أجاب ريفيرديل بأن هناك رجلاً ما يُدعى السّيد فولتير، وهو فرنسيّ، وقد يكون مهتمّاً بوليّ عهد العرش الدنماركيّ الشّاب.

كتب كريستيان عندها رسالة إلى المسيو فولتير. وتسلّم منه جواباً!

هكذا بدأت المراسلات بين فولتير والملك الدنماركيّ المختلّ، كريستيان السّابع، والتي أثارت استغراب الأجيال اللاّحقة؛ مراسلات تُوّجت بقصيدةٍ كتبها فولتير سنة ١٧٧١ يُعلن فيها الطّاعة لكريستيان، ويُنادي به أميراً للعقل وللتّنوير في بلاد الشّمال. وصلت القصيدة مساء أحد الأيام بينما كان كريستيان في قصر هيرشهولم غارقاً في إحدى نوبات ضياعه، إلاّ أنّ القصيدة أسعدته. أرفق السّيد فولتير مع

إحدى رسائله الأولى للملك كتاباً كان قد كتبه بنفسه. خلال جولة له مع أستاذه في عصر أحد الأيام، أخرج كريستيان — وقد حثّه ريفيرديل على إبقاء المراسلات بينه وبين فولتير سريّة تماماً — الكتاب الذي كان قد قرأه حال وصوله وتلا منه على ريفيرديل مقطعاً نال إعجابه:

«لكن، أليس الاعتقاد أنّه من الممكن تحويل عقائد الناس والتحكم بتفكيرهم أو التّلاعب بعقولهم وإرضاخهم عن طريق الافتراء عليهم واضّطهادهم، أو عن طريق فرض أعمال السّخرة عليهم بعيداً عن عائلاتهم، وتهديدهم بحبل المشنقة، أو بالسّحل وبالخازوق، هو الجنون بعينه؟»

صرخ كريستيان مزهواً بعد أن أتمّ قراءة الفقرة: «هذا هو رأي السّيد فولتير! هذا ما يعتقده الرّجل! لقد أرسل إليّ بهذا الكتاب! أرسل هذا الكتاب ... إليّ!!!»

همس ريفيرديل لتلميذه بأن يخفض صوته خشية إثارة شكوك الحجّاب المرافقين على بعد ثلاثين خطوةً منهما. أخفى كريستيان الكتاب في سترته في الحال، وقال هامساً إن السّيد فولتير أخبره في الرّسالة بأنه يعاني من وضع صعب بسبب الإجراءات القانونية التي يتعرّض لها والتي تتعلّق بحريّة الفكر. وأضاف كريستيان أنّه وبعد قراءته لما جاء في الرّسالة، فكّر بأن يبعث بألف قطعةٍ فضية من العملة دعماً للسّيد فولتير في نضاله من أجل حرّية التّعبير.

طرح كريستيان فكرته هذه على معلّمه لمعرفة وجهة نظره متسائلاً إن كان يشاطره الرأي، وإن كان عليه أن يبعث بالمبلغ. كتم ريفيرديل استغرابه حين سمع كلام الملك، ثم استجمع شجاعته وصرّح برأيه المؤيّد لمبادرة وليّ العرش هذه.

أُرْسِلَ المبلغُ بالفعل فيما بعد.

وجّه ريفيرديل لكريستيان سؤالاً حول سبب رغبته بالانضمام للسّيد فولتير في معركته التّي لم تكن تخلو من المجازفات، والتي قد يُساء فهمها ليس فقط في باريس.

«لماذا؟» سأل ريفيرديل. «ما الهدف؟»

عندها أجاب كريستيان وبكلّ بساطةٍ مستغرباً:

«لماذا! من أجل الطّهارة. وهل هناك غير ذلك؟ من أجل طهارة الهيكل!!!»

كتب ريفيرديل في أوراقه قائلاً أنّ هذا الجواب ملأه بمشاعر متضاربة من السّرور والقلق.

لقد تأكّدت شكوكه في تلك الأمسية.

استطاع ريفيرديل أن يسمع من غرفته جَلَبةً غير عاديّة تدور في باحة القصر. سمع صراخاً وصوت ارتطام قطع أثاثٍ وتحطم زجاج. حين قفز واقفاً رأى جمهوراً من الناس وقد أخذ يتجمّع في الخارج. هرع إلى جناح الأمير فوجد أن كريستيان، وعلى أثر نوبة ارتباك واضحة، قد حطّم أثاث غرفة الاستقبال الملاصقة لغرفة نومه وقذف بالقطع من النّافذة. كان الزجاج المحطّم مُبعثراً في كل مكان، واثنان من «الخاصّة»- كما كان يُطلق على بعض حجّاب البلاط - يحاولان عبثاً أن يهدّئا وليّ العرش كي يتوقّف عن أعمال «الشّطط» هذه.

لكنّ كريستيان لم يتوقّف إلاّ عندما كلّمه ريفيرديل بصوتٍ ملؤه القوّة والرّجاء، عندها فقط توقّف عن رمي قطع الأثاث من النّافذة.

«يا بني» قال ريفيرديل، «يا ولدي العزيز، لماذا تفعل ذلك؟»

حملق كريستيان فيه بصمت كأنّه لا يفهم كيف يمكن لريفيرديل أن يسأله سؤالا كهذا، فبالنّسبة لكريستيان بدا الأمر واضحاً تمام الوضوح.

كان أمين سرّ الملكة الأرملة؛ البروفسور غولدبيرغ قد دخل إلى الغرفة مسرعاً في تلك اللّحظة. وغولدبيرغ هذا شغل منصب أستاذ في أكاديمية «سورو» إلى أن استدعي ليصير معلماً ومرافقا شخصيّاً لوليّ العهد، الأمير فريذريك. وقد امتاز غولدبيرغ بعينيه الجليديّتين إذ لم تكن له أيّ صفة أخرى تميّزه. حين رآه ريفرديل وهو يدخل الغرفة لم يستطع إلاّ أن يهمس في أذن الأمير:

«يا ولدي العزيز، ليس هكذا! ليس هكذا!!!»

كان الصبيّ قد هدأ في تلك اللّحظة. بينما جرت عملية جمع الشّظايا على قدمٍ وساق في ساحة القصر.

قام غولدبيرغ فيما بعد بجذب ريفيرديل من ذراعه، قاصداً أن يكلّمه. سارا معاً إلى أنْ وصلا أحد ممرّات القصر.

«سيّد ريفيرديل،» قال غولدبيرغ، «جلالته بحاجة لطبيب خاصّ».

«لماذا؟»

«نحتاج لطبيبٍ خاصّ بجلالته. يجب أن نجد شخصاً يستطيع أن يكسب ثقته ويمنع هذه النّوبات».

«من؟» سأل ريفيرديل.

أجاب غولدبيرغ: «يجب أن نبدأ البحث. ابحث بحذر شديد عن الشّخص الملائم... عن شخص ليس يهوديّاً».

«لكن لماذا؟» سأل ريفيرديل مستغرباً.

«لأنّ جلالته مجنون»، قال غولدبيرغ.

لم يستطع ريفيرديل أن يفكّر بجواب.

٥

في ١٨ كانون الثاني/يناير ١٧٦٥، أخبر وزير الخارجيّة بيرنستورف وليّ العهد الشابّ بأنّ الحكومة قد قررت في اجتماعها الأسبوعيّ، المنعقد يوم الثلاثاء، وبعد إنهاء السّنتين من المفاوضات مع حكومة إنجلترا، بأن تزوّجه من الأميرة الإنجليزية «كارولين ماتيلدا» ابنة الثلاثة عشر ربيعاً، وأخت الملك جورج الثالث ملك إنكلترا.

سيتمّ الزواج في تشرين ثاني/ نوفمبر ١٧٦٦.

حال سماعه اسم العروس، بدأ كريستيان يقوم بحركاتٍ تنمّ عن اضّطراب. صار يهتز بطنه وينقر بأصابعه على جسده ويحرّك قدميه بتشنّج ملحوظ. ثمّ سأل:

«هل علي أن أحفظ سطوراً أو نصّاً محدّداً لهذا الغرض؟»

لم يفهم الكونت بيرنستورف تماماً معنى السؤال لكنه أجاب بابتسامة لطيفة:

«فقط فيما يتعلّق بالحبّ، جلالتك».

عند وفاة الملك فريدريك وحين تمّ تسمية كريستيان ملكاً، توقّفت التربية الصّارمة التي كان كريستيان يتلقّاها. وها هو الملك الشّاب قد صار جاهزاً لممارسة مهامّه وبيده كلّ السّلطات الّتي يتمتّع بها حاكمٌ مطلق.

كان يبلغ لحظة تسلّمه دوره الجديد ستة عشر عاما.

ريفيرديل، الذي رافق الأمير عند وداعه لوالده قبيل وفاته، كان شاهداً على منح البركة ورافق كريستيان بعد ذلك إلى الخارج. وقفا وحدهما وقتاً طويلاً هناك، يداً بيد، في ساحة القصر المغطّاة بثلج خفيف، إلى أن توقّف الصبيّ عن البكاء.

في عصر ذلك اليوم نُودِي بكريستيان ملكاً وأُطلِق عليه لقب الملك كريستيان السّابع.

وقف ريفيرديل خلفه، إلى الجانب قليلاً، على شرفة القصر. أراد كريستيان أن يمسك بيده، لكنّ ريفيرديل أشار إليه بأنّ هذا لن يكون مناسباً وأنّه يتعارض مع نظام التّشريفات.

لكن، قبل أن يخطوا إلى الخارج، وجّه كريستيان لريفيرديل سؤالاً وهو يرتجف من رأسه حتى قدميه:

«ما هو الشّعور الّذي يجب أن أُعبّر عنه في هذه اللّحظات؟»

«الحزن»، أجاب ريفيرديل، «وبعد ذلك الفرح عندما تستقبلك الجماهير بتحيّاتها».

لكن كريستيان ارتبك ونسي كلّ ما يتعلّق بالتأثّر وبالحزن على والده المتوفى صبيحة ذلك اليوم، فارتسمت على وجهه ابتسامة انبهار لازمته، وأخذ يلوّح بيديه تحيّة للجماهير.

شعر كثيرون بالإهانة لهذا التّصرف. إذ إن الملك المتوّج حديثاً لم يعبّر عن حزنه للمصاب الأليم، وحين سُئل كريستيان لاحقاً عن ذلك، أجاب بتأثّر أنه كان قد نسي السّطر الأوّل.

الفصل الثالث

الطفلة الإنجليزية

١

كان اسم الفتاة التي وقع عليها الاختيار لتكون زوجةً للملك كريستيان السّابع هو؛ كارولين ماتيلدا. وُلدت كارولين في ٢٢ تموز/يوليو ١٧٥١، في قصر ليستر في لندن، ولم تكن تتحلى بأي موهبة تميّزها على الإطلاق.

هذا هو الانطباع الذي تركته لدى كل من عرفها. مع ذلك،فقد لعبت كارولين دوراً رئيسيّاً في الأحداث التي جرت فيما بعد، مما أثار هلع الجميع، فمن ذا الذي كان يتوقّع كل ذلك من فتاة تفتقر لأيّ موهبة كما سبق وذُكِر؟!

فيما بعد، أجمع هؤلاء على أنّه من سوء الحظ أنّها كانت في واقعِ الأمر تتمتّع بالموهبة فعلاً، وأنه كان بالإمكان تجنّب المصيبة برمّتها لو أُحسِنَ تخمين موهبتها منذ البداية؛ وبالتّالي إدراك ما لديها من قدرات.

لكن ما من أحد استطاع أن يتنبّأ بذلك في حينه.

لاحقاً، وبعد أن أُبعدت عن الدّنمارك،، وُجد شعارٌ يُعتَقَد أنها كانت قد كتبته في الأيام الأولى من وصولها لهذا البلد، وقد حُفِر على زجاج غرفة نومها في قصر فريدريكسبرغ، ويقول:

«آه، دع البراءة لي، والعظمة لغيري».

"O, keep me innocent, make others great"

وصلت كارولين ماتيلدا إلى كوبنهاغن في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٦٦،

وكانت الأخت الصغرى لجورج الثالث، ملك أنجلترا، الذي عانى من نوبات جنون حادّة في السّنوات ١٧٦٥، ١٧٨٨ و١٨٠١. الأمر الآخر الّذي عُرف عنه، كان إخلاصه الدّائم والمُطلق لزوجته، شارلوت فون ميكلينبارغ- ستريليتز. وجورج هذا، هو الملك الذي ستصبح له فيما بعد حفيدة، هي الملكة فكتوريا.

كان والد كارولين ماتيلدا قد توفي قبل ولادتها بشهرين، تاركاً تسعة أبناء، هي أصغرهم. أما الأثر الوحيد الآخر الذي تركه الملك جورج الثاني —والد كارولين- للتّاريخ، فهو ذلك المديح الذي أسبغه على ابنه المذكور أعلاه، حين قال: «ابني البكر العزيز هذا، هو أكبر حمار، أفظع كاذب، أعظم محتال، وأسوأ بهيمة على وجه الأرض، وأتمنى من كل قلبي أن يختفي عن الوجود».

أمّا أمّها فقد كانت امرأة صارمة، حادّة الطّباع ومحافظة. لهذا كان لها عشيق واحد فقط، هو اللورد «بيُوتْ»، مدرّس ابنها البكر. كانت الأم مؤمنة بشكل محموم. كرّست حياتها لواجباتها الدّينيّة وحافظت على أولادها التّسعة داخل البيت في عزلة تامّة عن العالم الخارجيّ مما جعل البيت أشبه بـ«دَيْر». قلما سُمح لكارولين ماتيلدا أن تطأ بقدميها عتبة باب البيت، وإن حدث وفعلت ذلك فَتَحْتَ المراقبة الشّديدة.

جاء في تقرير السّفير الدّنماركي الذي سُمح له أن يزور الأميرة ويتحدّث إليها لبضع دقائق بعد إعلان الخطوبة أنّ الأميرة بدت خجولة، ملامحها خارقة الجمال، شعرها طويل أشقر، عيناها زرقاوان جميلتان وشفتاها ممتلئتان رغم أن السّفلى منهما عريضة بعض الشّيء، كما أنّها تحلّت بصوت رخيم.

أكثر ما ركز عليه السفير في تقريره على كُلّ حال، كان المحادثة التي جرت بينه وبين أم الأميرة والّتي يصفها بالـ«جَلفة».

الوحيد الذي تنبّه في تلك الفترة إلى مواهب كارولين ماتيلدا وأشار إليها، كان رسّام البلاط المدعو رينولدز، وقد رسمها في لوحة قبل أن تغادر منزل والديها. يصف رينولدز العمل على تلك اللّوحة بـ«الشّاق» لأنها كانت تبكي طيلة الوقت.

الخُصلتان السّلبيّتان المُثبتتان من فترة ما قبل مغادرتها لبلادها كانت إذن: شفة سفلى شديدة الامتلاء وبكاء متواصل.

٢

أُصيبت كارولين ماتيلدا بالرّعب عند سماعها بنبأ زفافها. فالدّور الوحيد لها والمبرّر لوجودها في هذه الحياة، كان حسب رأيها أن تكون أختاً لملك إنجلترا، ولهذا السّبب بالذّات اتّخذت لنفسها شعار: «آه، دع البراءة لي، والعظمة لغيري».

".O, keep me innocent, make others great"

أمّا بقيّة الوقت فكانت تبكي. كانت مجرّد مخلوق نكرة، أو بالأحرى أختاً لشخص، ولا شيء أكثر من ذلك. قبل أن تبلغ الخامسة عشرة من عمرها، لم يكن لها وجود. فيما بعد رفضت أن تتحدّث بصراحة عن تلك المرحلة الأولى من حياتها – باستثناء ما قالته حول الصّدمة التي أصابتها حين علمت عن علاقة الحب التي كانت على وشك أن تقيمها مع ملك الدنمارك. لقد نشأت في دير. كانت أمّها قد قررت أن لا مناص من ذلك، فالعهر الذي يمارس بشكل عادي في القصر لا يليق بالابنة التي اعتبرت أنّه قد وقع عليها الاختيار. أما إن كان هذا الاختيار لشأن عظيم أم لا، فذلك أمر لم يكن واضحاً لها.

ما كان واضحاً لكارولين ماتيلدا وأدركته جيّداً هو أنّ عليها أن تنجب نسلاً للسّلالة الملكيّة. ستزوّد هذا البلد الصغير العجيب المدعو الدّنمارك بملك. لذلك ستُقدّم لها الخدمات. ولذلك قام رجال من البلاط الإنجليزيّ بتقصّي المعلومات عمّن يكون هذا الثّور وبعد ذلك نقلوا لها تلك المعلومات. أدركت أن «الثّور» الذي سيقوم على خدمتها هو صبيّ صغير رقيق؛ لقد رأت صورة له. بدا قريباً من القلب وليس كالثّور. قال الناس إنه في أغلب الظّنّ مجنون ولولا أنّه أحد أولئك الحكّام ذوي السّلطة المطلقة ممّن اختارهم الله، لكان قد وُضع خلف القضبان.

عُرف أُمراء الدّنمارك بالجنون. كانت كارولين ماتيلدا قد شاهدت مسرحيّة هاملت والّتي لعب فيها ديفيد غاريك دور البطل (هاملت) على خشبة مسرح دروري لين. أصيبت بالاحباط وقد أدركت أن هذا هو قدرها بلا شك.

حضرت الآنسة فون بليسين؛ الوصيفة الأولى، في خريف عام ١٧٦٥ كي تساعد الأميرة فيما يلزم من تحضيرات للعرس. جاء في أوراق اعتماد هذه الآنسة أنها تتّصف بالاستقامة. أثارت الآنسة فون بليسين ذعر الأميرة إلى حدّ قارب الجنون حين صرّحت لها حال وصولها ودون أن يُطلب منها ذلك، بأن ما قيل عن وليّ العهد الدنماركيّ كان كله كذباً وافتراء وإنّ «شطط» من سيؤول إليه المُلك أمر لا وجود له، وإنه لم يقم بتحطيم الأثاث ولا النوافذ، وإن مزاجه سويّ ومستقرّ وما قد يعنّ على باله لا يُثير أدنى قلق. بما أن أحدًا لم يطلب منها كل هذا النّفي، وبما أن هذه المعلومات بالتّالي لم تكن ضرورية، فقد أُصيبت الفتاة بالذّعر، وهو أمر يسهل فهمه.

كانت كارولين ماتيلدا تدرك في سرّها أنّها تمتّعت في واقع الأمر ببعض المواهب.

حين كانت الأميرة في طريقها من إنجلترا إلى الدّنمارك، بكت طيلة الرّحلة ولم يُسمح لأيّ من وصيفاتها بمرافقتها إلى أبعد من «ألتونا»، اعتقاداً بأنها ستفهم العقليّة الدنماركيّة وستتعلّم اللّغة فقط لو تعرّضت للواقع وواجهته كما هو وبشكل مباشر. كان اسم الأميرة- أي الطّفلة الإنجليزيّة الّتي وقع عليها الاختيار- هو كارولين ماتيلدا، وكانت في الخامسة عشرة من عمرها عند زفافها. أمّا أخوها؛ الملك الإنجليزيّ الّذي أحبّته وأُعجبت به، فقد تحمّلها رغم أنّ عقله لم يسعفه على أن يتذكّر اسمها، واعتبرها رائعة، خجولة، طيّعة ويكاد المرء لا يراها ولا يشعر بها. لهذا السّبب صدر القرار بضرورة تزويجها من الملك الدّنماركي. ذلك أنّ الدّنمارك كانت قد خسرت كل أهميتها الدوليّة ومعظم أراضيها نتيجة «الحرب الإمبريالية» التي خاضتها في سنوات الـ ١٦٠٠ تحت حكم الملك كريستيان الرابع ، والذي كان

ململاً معظم الوقت. قيل في البلاط الإنجليزيّ إنّ الملك الدنماركي كريستيان الرابع كان يُصابُ بنوبة من السّوداوية كلّما ظنّ أنّ زوجته قد خانته. وغالباً ما كانت تخونه، فيكتئب. وكلّما اكتأب شنّ حرباً جديدة كي يُغالب حزنه وسوداويّته وكان في كلّ مرّة يخسر الحرب. بالتّالي، تقلّصت مساحة البلاد بالتّدريج، نتيجة عدم اكتفاء رغبات زوجة الملك الجنسيّة. كانت هذه حالة ملازمة للمملكة الدّنماركية، ولهذا صنّفت كبلد عديم الشأن.

قيل للأميرة كلّ هذا الكلام. قيل لها إن الدنمارك تحولت إلى بلد صغير جداً وإن المملكة ضعفت دولياً منذ تلك الفترة، بسبب نوبات الكآبة المتكرّرة التي أصابت ملوكها، وهو ما يفسّر اختيار أميرة لا تتحلّى بأيّ موهبة أو أهميّة لتكون زوجة لمليكها.

استوعبت كارولين- ماتيلدا الأمر. بدأت تفهم أيضاً وبالتّدريج أنّ مستقبلها لن يكون مشرقاً في هذا البلد الشماليّ، الّذي وُصف بمستشفى للمجانين.لذلك كانت تبكي طول الوقت. كانت دموعها هي موهبتها. لم تُخِفْ أحداً. أما ذكاؤها فلم تُجمِع عليه الآراء. اعتُبرت إلى ذلك إنسانة تفتقر للإرادة كليّاً، بل ربما عديمة الشّخصية. وهكذا فإن الدّور الذي لعبته لاحقاً فيما يتعلّق بأحداث الثّورة الدّنماركية، أثار استغراب الجميع وجزعهم أيضا.

تحولّت كارولين ماتيلدا إلى شخص آخر وهذا ما لم يكن متوقعاً. أما في فترة زفافها، فكانت ما تزال فيما اعتُبر المرحلة الأولى؛ والتي اتصّفت بها كارولين بضعف الإرادة وانعدام الشّخصية.

يبدو أنها كانت تحلم في صغرها بالعفّة. لم تكن الطّريقة التي شبّت بها عن ذلك الطّوق متوقّعة، إذ كان من الطّبيعي بمكان لامرأة دون مواهب أن تحلم، بالضبط كما فعلت حين اعتبرت البراءة نقيضاً للعظمة واختارت الأولى. ما أخاف الجميع كان التّحوّل الذي طرأ عليها فحوّلها إلى شخص مختلف بعد أن كانت قد اعتُبرت مسلوبة الإرادة عديمة الموهبة.

«آه، دع البراءة لي، والعظمة لغيري».

"O, keep me innocent, make others great"

٣

انطلقت كارولين–ماتيلدا في رحلتها من إنجلترا إلى الدّنمارك مع مرافقيها في موكب إنجليزي؛ وبعد رحلة بحرية صعبة استمرت ستّة أيام، وصل الموكب إلى ميناء روتردام، ثم أكمل الرّحلة برّاً إلى ألتونا، وذلك في الثامن عشر من تشرين الأول/ أكتوبر، حيث انتهت مهمّة المرافقين الإنجليز.

تولّت البعثة الدّنماركية أمر الأميرة في «ألتونا» فأقلّتها ومرافقيها عربةٌ مرّت عبر «سليسفي» وشبه جزيرة «فون» و«كانت الجماهير تحيّيها بحماس في كل مكان». إنّها جماهير حُشدت كي تقف في الطريق لاستقبالها. في الثالث من تشرين الثاني/ نوفمبر وصلت إلى مدينة روسكلده،» حيث كانت ستلتقي بالملك كريستيان السّابع، ملك الدّنمارك، لأوّل مرّة.

نُصبت لهذا الغرض خيمةٌ في السّاحة عند سوق المدينة، وكانت الخيمة أشبه بغرفة من الزّجاج لها قبّةٌ وبابان في جهتيها المتقابلتين. كان على كلا العاشقين اليافعين أن يدخلا الخيمة كلٌّ من باب، وأن يمشيا إلى الأمام باتّجاه المركز، بحيث يلتقيان في الوسط. هناك ستلتقي عيونهما للمرّة الأولى. كانت الاستعدادات للقيام بالواجبات نحو من هي على وشك أن تصبح ملكة الدنمارك، قد تمت في بيت أحد التّجار، ويقع بمحاذاة «القصر الزّجاجي» (وهي تسمية غير مناسبة أطلقت على الخيمة، خلال فترة وجودها هناك، وذلك لبضعة أسابيع). من ضمن تلك الواجبات كان طمأنة الأميرة، وقامت الوصيفة الأولى، لويز فون بليسين – والتي ألقيت مسؤولية البعثة المرافقة على عاتقها – بمجهود مضنٍ لتهدئة الطّفلة الإنجليزية التي كانت تذرف الدّموع (مصطلح «الطّفلة الإنجليزية» صار مصطلحاً انتشر

استعماله في القصر) ولحثّها على ألا تُظهِر ذعرَها أمام الناس.

كان جواب الطفلة الإنجليزية بأنّ لا علاقة للبلاط الدّنماركيّ أو للملك بالذّعر الذي شعرت به، إنما له علاقة بالحبّ. وبعد مزيد من الاستفسار تبيّن أنّها لا تستطيع أن تميّز بوضوح بين هذه المفاهيم الثّلاثة المختلفة، فالبلاط، والملك، والحبّ، عناصر ثلاثة اختلطت معا في مفهومها للعالم، وارتبطت كلها بـ«الذّعر».

اضّطرت الآنسة فون بليسين في النهاية إلى مراجعة كل الحركات التي ستقوم بها الأميرة أثناء مراسيم الحفل، علّ حفظ هذه التّفاصيل سيُدخل الطمأنينة إلى قلب الفتاة.

تحدثت الوصيفة بلهجة لطيفة كي تطيّب خاطر ابنة الخمسة عشر ربيعاً، والتي كانت تذوب في دموعها: «لتكن خطواتك صغيرة، بطيئة، نحو جلالته» قالت لها ناصحة، «أبقي عينيك مخفضتين، عدّي خمس عشرة خطوة ثم ارفعي عينيك، وانظري إليه، ابتسمي ابتسامة متواضعة تنمّ عن سعادة، تقدّمي ثلاث خطوات أخرى إلى الأمام، ثم توقفي. ساكون على بعد عشر خطوات خلفك».

هزّت الفتاة برأسها موافقة وهي تبكي، وقالت بالفرنسية وهي تجهش بالبكاء: «خمس عشرة خطوة. ابتسمي بسعادة».

حين اعتلى كريستيان السّابع العرش في بداية العام، تلقّى هدية من معلّمه الخاصّ «ريفيرديل»، وكانت عبارة عن كلب من نوع «شناوزر». تعلّق الملك بهذا الكلب تدريجيّاً إلى أن وصل تعلّقه به إلى أقصى الحدود فبات الكلب يلازم صاحبه. كان من المفروض أن يصل الملك إلى روسكلده بعربة قادمة مباشرة من كوبنهاغن ضمن موكب ضخم وذلك للقاء عروسه الإنجليزيّة الصّغيرة هناك.

بالإضافة إلى كريستيان، جلس في العربة كلّ من الأستاذ السّابق في أكاديميّة «سورو» والمدعو «غولدبيرغ» ومربّي الملك المدعو «ريفيرديل»، و»براندت» الذي أتى كمرافق للملك والّذي سيلعب فيما بعد دوراً مهمّاً في مجريات الأحداث.

لم يكن غولدبيرغ ذو الشأن المحدود جدّاً في القصر ليحظى بالجلوس في عربة الملك لو كان الظّرف عاديّاً، وستتضّح لاحقاً أسبابُ حضوره بصحبة هؤلاء الرّجال.

كان الكلب الصّغير أيضاً في العربة، وقد جلس في حضن كريستيان طيلة الوقت.

أما «غولدبيرغ»، المتمرّس بالأدب الكلاسيكي، فقد ألّف نصّاً يعبّر عن الحبّ، كتبه خصّيصاً لمناسبة هذا اللّقاء الأوّل بين العروسين، معتمداً على مقاطع من مسرحيّة للفرنسي «راسين». جلس غولدبيرغ في العربة وراح يلقي على مسامع الملك ما وصفه ريفيرديل في مذكراته بـ التّعليمات الأخيرة ما قبل لقاء الحب، بغرض الاطمئنان على مسار الأمور».

«ابدأ بصوت قويّ»، قال غولدبيرغ لجلالته الذي بدا شارد الذّهن دائم الانشغال بكلبه الصّغير، وقد حمله بين ذراعيه وضمّه إلى صدره. «عليك أن تجعل الأميرة تدرك مدى شغف الملك بها منذ ما قبل اللقاء الأول. ثم الإيقاع! تذكّر الإيقاع! للكلام إيقاع!، هكذا:

«انحنِ لإله الحب..انحنِ»(تشديد على انحنِ) لإله الحب...» « إيقاع! إيقاع!» «

كان المزاج ثقيلاً في العربة، وقد بدت الاختلاجات واضحة على قسمات الملك بشكل يفوق ما بدت عليه في السابق. أشار غولدبيرغ حال وصولهم إلى ضرورة عدم وجود الكلب في مشهد لقاء الحبّ بين العروسين، أي أنه يجب أن يُترك في العربة. رفض كريستيان التّخلي عن الكلب في البداية إلا أنّه اضطر للرضوخ في نهاية الأمر.

صدر عن الكلب صوت بكاء خافت في أوّل الأمر ثم أخذ نباحه يزدادُ قوّة فيما بعد وكان بالإمكان رؤيته من خلف زجاج العربة.

كتب ريفيردل قائلا إن «هذه اللّحظات كانت الأكثر عذاباً في حياة الصّبيّ وقد بدا في نهاية الأمر غير عابئ بشيء وأخذ يسير كما لو كان في حلم».

رغم أن كلمة «عذاب» ترددت كثيرا في وصف المشهد، إلا أن الأميرة كارولين ماتيلدا وخطيبها كريستيان السابع قاما بالمهمّة على أتمّ وجهٍ تقريباً.

خُصّص للأوركسترا المصغّرة مكانٌ بجانب الخيمة الزّجاجية. كان الغسق ساحراً. امتلأت السّاحة العامّة حول الخيمة بالآلاف من النّاس؛ وكان الجنود قد وقفوا في صفّين متوازيين لتشكيل حاجز بين الخيمة والجماهير.

خطا كل من صاحبيّ السّمو الملكيّ، اليافعان، على أنغام الموسيقا وبتزامُنٍ، عَبْرَ البابين المخصّصين لذلك. اقتربا من بعضهما حسب المراسيم بالضّبط. عندما وقفا على مسافة خطواتٍ ثلاث بينهما، توقفت الموسيقا وساد الصّمت. نظرت الأميرة بثباتٍ إلى كريستيان دون أي تعبير في عينيها، وكأنها – هي أيضا –كانت تسير في حلم.

أخيراً أمسك كريستيان بورقة في يده وقد خُطّت عليها القصيدة، وقال حين وقفا بسكون وجهاً لوجه:

« أميرتي الغالية، سأصرّح لك الآن بحبّي».

انتظرَ عندئذ أن تقول هي كلمة ما، لكن كلّ ما فعلته العروس هو أن نظرت إليه بصمت تام. كانت يداه ترتجفان إلا أنّه نجح في أن يستجمع شجاعته في النّهاية ويبوح بحبّه حسب النصّ الذي كان غولدبيرغ قد كتبه بالفرنسيّة، وهي لغة المسرحيّة التي استُقي منها النصّ:

«لإله الحبّ انحنِ حيثما توجّهت
لسلطان حبّك اخضع حيثما ذهبت
لجمالك عقلي وقلبي مال
يسكنني حبّك إن كنتِ معي أو في الخيال
هناك في عتمة الغابات ينير طيفك لي الطريق
إن في النهار أو في ظلمة الليل يشعّ كالبريق
نور حبّك حبيبتي نور لا يغيب
وبرباط مقدس جمعنا الإله الحبيب»

أشارت العروس بيدها عندئذٍ ربما بطريق الخطأ، لكن الملك فهم الإشارة كعلامة له بأن يتوقّف، فتوقّف عن القراءة ونظر إليها نظرة تساؤل. بعد لحظة قالت له: «شكراً».

همس قائلاً: «ربّما يكفي هكذا».

«نعم ، يكفي».

«بهذه الكلمات أودّ أن أُعلن لك عن رغبتي بقربك» قال لها.

«أشعر بنفس الرّغبة تجاهك، جلالتك»، همست قائلة وشفتاها تتحركان كأنّما دون وعي. كان وجهها شاحباً تماماً وقد غطّت المساحيق ما سال على وجهها من دموع، وخلت صفحة وجهها البيضاء من أيّ تعبير:

«أشكرك».

«هل ننهي المراسيم الآن؟» سألته.

انحنى الملك. عادت الموسيقا لتعزف من جديد بإشارة من المسؤول عن ترتيبات الحفل. قام العروسان وكلاهما في حالة ذعر لكن بانسجام تام. ومن هناك ومن تلك اللحظة، كان الانتقال إلى سلسلة من المراسيم الّتي ستتم على نطاق واسع. مراسيم تخللتها تحيّات الجماهير ثم الوصول إلى كوبنهاغن حيث العرس الرسمي، وبعدها أحداث متسارعة من «الثّورة الدّنماركية» وزواج لم يدم طويلاً.

في الثّامن من تشرين ثاني/نوفمبر وفي تمام السّاعة السّابعة والنّصف، دخل العروسان إلى كاتدرائية كوبنهاغن حيث تمّ تكريس الزّواج رسميّاً. استمرت الاحتفالات لمدة ستّة أيّام و»عقدت أكبر الآمال على الملكة الإنجليزيّة السّاحرة».

جاء في التّقرير الذي بعثه السّفير الإنجليزي إلى لندن حول الحدث والأميرة:

«لم يكن هناك ما يعيب تصرفاتها. لا احتجاج على كريستيان. لا انفعالات جياشة، لا خطوات خاطئة. كذلك فقد استبعد الكلب عن مشهد الاحتفال..»

ي

كان كريستيان يزداد ارتباكاً، وكلّما ازداد ارتباكه ازدادت قناعاته بأنّ الحياة في البلاط تشبه ما يدور على خشبة المسرح، وما يقوم به مع الفتاة الإنجليزيّة هو أيضا مسرحيّة استعراض للأخلاق. حملت «الاستقامة» بالنّسبة لكريستيان معنىً مرادفاً لانعدام الأخلاق وذلك وفق ما شهده في القصر، وبالتالي كان هذا هو موضوع المسرحيّة؛ مسرحيته؛ لكن السّؤال المُحيّر بالنّسبة له كان «هل التقوى هي ما يحثّ على الفسق أم أن السأم هو السّبب؟»

أيّ تحتّك أخلاقيّ نستطيع أن نجد فيما خلّفته لنا أدبيّات ذلك العصر بأقلام من وصفه من معاصريه، أي فسق وملل سادا البلاط! ذلك العالم المنعزل عن الجماهير، عالم الحاشية والمرافقين، العشيقات والعاهرات، عالم حفلات التنكّر المقنّعة حيث يسرح ويمرح مثيرو الدّسائس والمكائد طمعاً في لقبٍ أو هِبَةٍ مجّانيّة دون أن يقوموا بأيّ عمل. مشهد أشبه برقصة طويلة تختال بها مكائد اللاّمعقول متشابكة كلّها معاً. مشهدٌ انتقل للأجيال اللاّحقة كما شاءت النّصوص الرسميّة أن تصوّره: شخصيات محترمة، متعلّمة، تجيد فنّ التّراسل بالفرنسيّة طبعاً، وقد جُمعت هذه النّصوص في مجلّدات فاخرة. إنها تزوّدنا بوصفٍ للطّريقة التي قام بها الممثّلون في مشافي المجانين تلك بتصرفاتٍ لامعقولة، مملّة وثقيلة على النّفس في آن معاً.

كم بدت نوبات جنون الملك كريستيان وتصرّفاته الغريبة ملائمة لمسرح مستشفى المجانين ذاك في عيون الأجيال اللاحقة.

كم كانت الخيوط التي ربطت بين متناقضات التّقوى والفسق في عالم أناس أُصيبوا بالتّلف والفساد حتّى النُّخاع، متشابكة وعصيّة على الحلّ.

كان الاهتمام بحياة كريستيان الجنسيّة كبيراً جدّاً.

أحد التفسيرات التي أعطيت لذلك يومها، يعود للسوداوية التي اعترته، لنوبات الغضب الغريبة التي أصابته، لحالات اليأس التي لا تفسير لها، وأخيرا لما أصابه من

حالة عدم اكتراث استمرت لأيام. تعرّف كريستيان يوم بلغ الثالثة عشرة من عمره إلى إحدى الرّذائل بواسطة أحد المقربين منه، والمدعو سبيرلنغ، الذي اختفى اسمه بعد ذلك من التاريخ. أما الرّذيلة فقد أصابت إرادة الصّبيّ بالشّلل وحفّزت اختلال عقله كما زادت من ضعف جسده. تظهر هذه الرّذيلة في كل شهادات تلك المرحلة. قلّما استُعمِل مُصطلحٌ صريحٌ لوصف الرّذيلة المقصودة، رغم أن شهادات عدّة غامرت حين انفلت لسانها فقالت بوضوح إن: «الرّذيلة هي العادة السّريّة، إنّه الاستمناء».

انغماس كريستيان الجنوني في هذه الممارسة للتّخلص من سوداويته أضعف ظهره وسبّب لقلبه الأذى، كما ساهم في المأساة التي ستقع. كان يحاول وبجنون أن يستمني لساعات «نوعاً من التّماسك»، أن «يستمني» حالة من عدم الارتباك. لكنّ ذلك لم يبد كافياً. ولم يزد قدوم الفتاة الإنجليزيّة الطّين إلاّ بلّةً.

لقد انكسر به شيء ما وبدا كأنّه قد بات على حافّة الجنون تماماً».

كانت ملاحظات المربّي ريفيرديل تعبّر عن الأسى بل أكثر، إذ يقول: «أخيراً اكتشفت أن ما كنت أسمّيه بـ'التنشئة' التي تعرّض لها كريستيان، اشتملت في مفهومه للحياة وعلى تجارب اعتبر أنها 'تقوّيه' وتجعله بالتّالي 'يتحسّن'! كانت هذه تعني بالأساس الثّورة على كل ما ارتبط بطفولته وبمراهقته، بل ربّما بالبّلاط ذاته الذي يعيش فيه. لم يتورّع كريستيان على الإتيان بأيّ تصرّف منحرف، مبالغ به أو عنيف لتحقيق ذلك. وضع هذه التّصرّفات كلها تحت عنوانٍ واحدٍ هو «التّمتّع بصحّة جيّدة»، ممّا قصد به التّخلص من تأنيب الضّمير، والتمتّع بالكرامة وبفصاحة اللّسان. أخبرتُه عندئذ أن مهمّته هي أن يجعل المملكة تقف على قدميها من جديد، فالمملكة التي ورثها كانت وبعد خمسٍ وثمانين سنة من السّلام تحت وطأة ديون أكبر وضرائب أكثر مما لو كانت قد خرجت من حرب. قلت له إنّ عليه أن يحاول حلّ مشكلة ديون الأمّة والتخفيف من أعباء الشّعب، وهو هدف يمكن تحقيقه إن استغنت العائلة المالكة عن كلّ المصاريف التي لا ضرورة لها. وإن

تقليص حجم الجيش وتحرير الفلاحين في الدنمارك، إلى جانب إصدار تشريعات حكيمة يتم بموجبها التعهّد برعاية مقدّرات التّرويج؛ المشتملة على صيد الأسماك، المناجم والأحراش لهي أمور ضروريّة.

كان جوابه أن ذهب إلى غرفته... ليستمني!

رفض كريسيتان أن يزور الملكة. الشّعور الوحيد الذي شعر به نحوها كان الرّعب.

كان لكريستيان أكثر من وجه. فقد بدا متعباً مرتبكاً حيناً، متواضعاً بسيطاً حيناً آخر، وكان يظهر أحيانا بمظهر مختلف كلّياً حين يبدو هادئاً وقد جلس محنيّ الظّهر، منهمكاً في خط ّرسالةٍ للسيّد فولتير، الذي كان باعتراف كريستيان، الرّجل الّذي علّمه أن يفكّر.

من بين الرّجال الّذين ركبوا العربة الملكيّة المتوجّهة إلى روسكلده يوم لقاء الملك بعروسه، كان الكونت أينيفولد براندت.

كان براندت هذا واحداً من جماعة ألتونا؛ جماعة رجال التّنوير الّذين تحلّقوا حول كل من الكونت رانتزاو والطّبيب الألماني الشّاب سترونزي في بداية الـ ١٧٦٠. ها هو براندت المتسلّق الطّفيليّ قد صار في كوبنهاغن الآن.

لقد دفعته رغبته الجامحة في نيل رضا السّيدات وفي الحصول على منصب رفيع في القصر، إلى السّعي وراء لقب لا يستطيع من دونه أن يحقّق أيّ رغبة من رغباته تلك. كتب ريفيرديل في إحدى رسائله اللاحقة لفولتير قائلا إن البلاط الدنماركيّ، أكثر من أي بلاط آخر، حكمته شخصيات جائعة للألقاب. «هناك مثل يقول إنّه عند السّؤال عن شخص ما، فإنّ النّاس تسأل في فرنسا: هل هذا الشّخص مثقف؟ في ألمانيا: هل هو من عائلة جيدة؟ في هولندا: كم تبلغ ثروته؟ أما في الدنمارك فالسّؤال هو: ما هو اللّقب الذي يحمله؟ هنا قيمة الرجل بل قيمة حياته، تكمن في اللّقب الذي يحمله وفي الموقع الذي يحتلّه هذا اللقب في سلّم الألقاب.

كلّ شيء يتمّ حسب اللّقب؛ التّنقّل من غرفة إلى أخرى يتمّ حسب مرتبة اللّقب، الجلوس حول المائدة يتمّ على الأساس نفسه، حتى الخدم يقدّمون الأطباق تبعاً لتراتبيّة الألقاب، وإن التقيتَ برجلٍ متعلّم أو ذكيّ فإنّك تجده يقف في نهاية الصّفّ الّذي يصل حتى الباب ممّا يدلّ على أنّه ليس بصاحب لقب، وحين تسأل عمّن يكون، يأتيك الجواب بأنه: «لا أحد»! في المقابل، فإن الّذين اعتُبِروا مُهمّين، تمتّعوا بالجاه وحظوا بالهباتِ حسب ألقابهم، كقطع الأرض الّتي مُنِحت لهم مثلاً، دون أن ينتجوا أو أن يقدّموا أي شيءٍ بالمقابل، فما هم إلا طفيليّون همّهم الوحيد هو حماية مواقعهم تلك».

اعتبر إينيفولد براندت نفسه فنّاناً. تمتّع الرّجل بشخصيّةٍ حيويّة وكان يُجيد العزف على النّاي، ونجح في الحصول على لقب «مدير المسرح» وفيما بعد على لقب « ميتر دو بليزير» بمعنى «وزير الثّقافة». كذلك عيّن «المسؤول الأوّل عن خزانة الثّياب الملكيّة» مما منحه الحقّ بلقب صاحب «السّعادة».

شملت واجبات «وزير الثّقافة» القيام بواجبات عمليّة بخلاف الألقاب الأخرى مما يعني أن من يحظى بهذه المهمة كان يتمتع بسلطة ما. من بين تلك الواجبات كانت دعوة الفرق الفرنسيّة وتنظيم حفلات التّرفيه والحفلات التنكريّة المقنّعة في البلاط. هكذا استطاع براندت التأثير على السّيدات المشاركات في الفرق المسرحيّة، وقد مكنّه منصبه من التّواصل معهنّ مباشرةً ولعبت تلك السّيدات دوراً مهماً في حثّ الكثيرين كي يدعموا الفنّ المسرحيّ.

لذلك كان لقب ميتر دو بليزير لقباً مرغوباً فيه جدّاً.

شغلت حياة الملك الجنسيّة بال براندت أيضاً وذلك لعدّة أسباب، منها أنّه لم يحدث وأن قامت بين الزّوجين علاقة جنسيّة بعد، رغم مرور خمسة أشهر على زواج الملك كريستيان السّابع بكارولين ماتيلدا.

كان هذا الأمر مرعباً.

أشرف براندت في تلك الفترة على الاستعدادات لإقامة مباراة في الفروسيّة في

باحة القصر. أقيم مدرج خشبيّ لجلوس المدعوّين كي يشاهدوا الحدث، ودعي أفراد البلاط لأخذ مواقعهم حسب تراتبيّة الألقاب. تطاعن الفرسان المكلّلون بالدّروع الواقية برماحهم من على ظهور الخيل، وجرت مباريات متنوّعة حسب البرنامج المرسوم.

إحدى هذه المباريات كانت عبارة عن حلقات معلّقة وعلى الفرسان أن يكرّوا بخيولهم ثم يرموا برماحهم بحيث تخترق الرّماح تلك الحلقات. كانت الحلقات معلّقة بحبال تتأرجح للأمام وللخلف، مما جعل مهمّة المتبارين صعبة للغاية.

أخطأ أحد المتبارين في أوّل محاولتين لكنّه نجح في أن يخترق برمحه الحلقة الثالثة. أدار الفارس المزهوّ بانتصاره حصانه للخلف، عاد به إلى الوراء، وأمسك برمحه بحيث جعل رأس الرّمح ينتصب في زاوية مائلة.

كانت الملكة تجلس إلى جانب الملك كريستيان. خلفها، وإلى الجانب قليلاً جلس إنيفولد براندت. أما خلف الملك فجلس المربّي غولدبيرغ؛ والّذي كان في الأشهر الأخيرة قد اقترب بشكل غريب من مركز الحلقة الضّيقة المحيطة بالملك، رغم أنّه كان ما زال غير ذي شأنٍ يُذكر.

شاهد الزّوجان؛ الملك والملكة، المباراة دون أن يرتسم أيّ تعبير على وجه أيّ منهما. بدا كريستيان، والذي كان سيستمتع بهذه المناسبة الاحتفاليّة لو اختلفت الظّروف بالتّأكيد، بدا مشلولاً من الخجل والامتعاض بسبب حضور الملكة بهذا الشّكل الحميم، وقد جلست على مقربةٍ منه، إذ لم تزد المسافة بينهما على عشرة سنتميترات. مال براندت إلى الأمام وهمس في أذن الملكة:

« إني لأحتفل مسبقاً بمناسبة الانتصار المشابه الذي سيحققّه رمح الملك».

قامت الملكة بامتعاض واضح وغادرت المكان.

سأل غولدبيرغ بعدئذٍ براندت عمّا قاله للملكة، فصرّح الأخير بالحقيقة. لم يُلقِ عليه غولدبيرغ بالمواعظ إنما قال له:

«يحتاج جلالته وهو في حالة الارتباك والألم المبرح هذا لمن يساعده ويسانده».

اعتبر براندت هذا الكلام نوعاً من النّصيحة والتوجيه. لكن من يكون غولدبييرغ هذا غير شخص لا شأن له؟! بل كيف يُمكن أن يُترجم هذا الكلام على أنّه نصيحة وقد أتى من شخص مثله؟

ربّما كان براندت قد رأى عينيّ هذا الرّجل.

في اليوم التّالي كانت الملكة تجلس على كرسيّ في باحة القصر.

تقدّم منها كريستيان وهو يسير ببطء.

كل ما فعله حين مرّ بها هو أن انحنى انحناءةً خفيفة دون أن ينبس ولو بكلمة، فقالت بصوتٍ خفيض:

«كريستيان؟»

تظاهر بأنّه لم يسمع.

أعادت ما قالته بصوت أعلى، أقرب إلى الصّراخ:

«كريستيان!!!»

كل ما فعله عندها، هو أن أسرع الخُطى مبتعِداً.

كان ذلك مروّعاً حقّاً. لكنّ ذلك لم يكن كل شيء.

خلال زيارة الآنسة فون بليسين الأولى لإنجلترا قُبيل العُرس الملكي، دارت بينها وبين والدة كارولين ماتيلدا محادثة طويلة اكتشفت السيدتان من خلالها أنّ آراءهما متطابقة حول عدّة أمور، فالبلاط مرتعٌ للوباء ولسوء الأخلاق، ممّا يستوجب الحفاظ على العّفة وحماية الطّهارة.

بمرور الوقت وشهراً بعد شهر، تعلّقت الآنسة فون بليسين بالفتاة الصّغيرة. تحت تأثير مشاعر الإخلاص العميق والملتهب، نشأ رباط قوي بين السّيدتين، عزّزته عزلة الملك. لم تتأسّف الآنسة فون بليسين على برودة الملك هذه، بل على العكس، فقد أدّت هذه البرودة لأن تزداد الملكة تعلّقاً بوصيفتها واعتماداً عليها، ورأت الوصيفة أنّها قد تكسب مع الوقت حبّ الملكة أيضاً.

أما بالنّسبة للملكة، فقد ارتأت الآنسة فون بليسين بأن الحّل لما آلت إليه

أوضاع الزوجين، يكمن باتّباع استراتيجيّة تعتمد على «إشاعة» خبر حبّ الملك للملكة بهدف كسر حاجز الجليد الذي قام بينهما دون سبب مفهوم كما يبدو. من ناحية أخرى أشارت على الملكة بأنّ عليها أن تبدو صعبة المنال عصيّةً أمام الملك، مما سيضاعف من رغبته بها.

بعد وصول الملكة إلى الدّنمارك بخمسة أشهر وقع حادث كان له أثر حاسم على العلاقة بين الزّوجين.

في مساء أحد الأيّام، وحوالي السّاعة العاشرة ليلاً، حضر كريستيان إلى جناح الملكة أمام دهشة الجميع، وأعلن عن رغبته في لقاء الملكة قبل أن تختلي بنفسها تلك اللّيلة.

كان هدفه واضحاً لأبعد الحدود.

شرحت له الآنسة فون بليسين أنّ الملكة كانت قد خطّطت للعب الشّطرنج معها، وأنّ على كريستيان أن ينتظر .

بدأتا اللّعب.

أخذ كريستيان يدور في الغرفة وتعابير الانزعاج بادية عليه، مما أثار رضا المرأتين. انتهت اللعبة عند منتصف الليل؛ وبناءً على نصيحة همست بها الآنسة فون بليسين في أذن الملكة، قالت الأخيرة بينما كانت تتبادل مع وصيفتها ضحكات سرية تنم عن مؤامرة مرسومة، قالت إنها تريد اللعب مرة أخرى.

أبلغت الآنسة فون بليسين الملك بذلك و«ابتسامة النصر» ترتسم على وجهها، بينما ترك الملك الغرفة غاضباً، وصَفَقَ البابَ خلفه.

رفض الملك التحدّث إلى الملكة لمدّة أسبوعين بعد ذلك الحادث. أشاح بوجهه عنها كلما التقيا؛ ولم يتفوّه بكلمة. تملّك الملكة اليأس عندئذ، وشعرت بالضّغينة تجاه الآنسة فون بليسين.

الحدث الذي جاء في تقرير غولدبيرغ، كان قد وقع بعد هذه الحادثة.

كانت الملكة تستلقي على سريرها بلا مبالاة يومها، ثم سألت عن سبب عدم

مجيء كريستيان إليها وأمرت الآنسة فون بليسين أن تترك الغرفة. بعد ذلك جرت تلك المحادثة غير الموفّقة التي بادرت إليها الملكة مع غولدبيرغ، حين سألته عن «التّحرر» من الشغف، وعن السّكينة والفراغ؛ وقد مالت نحوه بطريقة استفزازية جداً حتى كاد جذعها العاري تقريباً يصرخ بوجهه بالإهانة المتعمدة، ممّا نبّه الرّجل لما في الفاجرة الإنجليزيّة الصّغيرة من خلاعة، ولمدى الخطورة التي تنطوي عليها، فهي مصدر للخطيئة وهي معدية كما المرض.

لقد رأى ذلك بنفسه. رأى أنْ ها هنا يكمن أساس البلاء.

البلاء الذي بسببه حدث فيما بعد كل ما حدث.

٥

كان ريفيرديل هو الشّخص الذي نجح أخيرا بإقناع كريستيان في التّغلب على رعبه.

لقد توسّل إلى كريستيان أن يتغلّب على ما عافته نفسه وأن يكون قوياً ولو لمرّة واحدة فقط، حتى يُسكت الشائعات ويُثبت أنّه حقّاً رجل. في وقت متأخّر من اليوم نفسه رأى ريفيرديل أن كريستيان قد جلس على الأرض وكلبه أمامه، وراح يتأمّل الكلب بتركيز ويتمتم كما لو كان يشرح له مشكلةً مستعصيةً؛ بينما الكلب يقرأ تعابير وجه صاحبه بانتباه.

قام الملك في نفس تلك اللّيلة بزيارة لمخدع الملكة.

لم يتفوّه ولو بكلمة، لكنّها فهمت.

قام بتنفيذ عمليّة الجماع بعينين مغلقتين وبغضب. حاولت الملكة الشّابّة أن تداعب ظهره العاري ببشرته الفاتحة اللّون، لكن دون طائل. إلا أنّه والحقّ يُقال، قدّم خدماته رغم ذلك كلّه بكلّ جدارةٍ. فبعد تسعة أشهر من هذا التاريخ أنجبت الملكة صبيّاً، ودُعي الصبيّ فريذريك.

وكانت تلك هي الزيارة الوحيدة التي قام بها.

الفصل الرابع

سيدة الكون

١

اللّوحات الفنّيّة الّتي بقيت لنا من تلك الفترة، تصوّر لنا شخصيات تلك المرحلة بأسلوب مضلّل نوعاً ما، إذ تبدو جميع الشّخصيات ناضجة بالغة، وإن لم تكن في الحقيقة دائماً كذلك.

في ربيع عام ١٧٦٧، وحين احتدم الصّراع بين الملك والملكة، كان الملك كريستيان في الثّامنة عشرة من عُمره وكانت زوجته كارولين ماتيلدا في الخامسة عشرة من عمرها.

بمعنى آخر كانا مجرّد مراهقين، وإن كانت تلك حقيقة من السّهل أن تغيب عن البال، ولو كانت اللّوحات صادقة فيما نقلته، لبان الجزع والقلق، إلى جانب التّشكك والتّرقب واضحاً كلّه على محيّاهما.

لم تكن الأمور قد استتبّت بالنّسبة إليهما بعد، وكان المجال مفتوحاً على كلّ الاحتمالات.

وجود الآنسة فون بليسين كان بحدّ ذاته مشكلة.

شيء ما في رعايتها المبالغ بها للملكة جعل الأخيرة تأمرها بأن تغادر الغرفة في لحظة غضب وارتباك. من ناحية أخرى، كانت الآنسة فون بليسين الوحيدة الّتي اهتمّت بالملكة الشّابة، ممّا لم يترك أمام الأخيرة من خيارات أخرى؛ فإمّا الصّمت أو كلام القصور المنمّق الّذي يدور تبعاً لقواعد وأصول البلاط، والّذي اعتبر الملكة

مجرّد أداة، فما الخيار إذن؟ الشخص الوحيد في البلاط الذي تحدث مع الملكة الصّبيّة كان الآنسة فون بليسين. وحدها الّتي أسدت النُّصح للملكة الشّابة، وهي الّتي قلقت عليها وأصغت لها.

كانت الآنسة فون بليسين هي الحلّ وكانت المشكلة في الوقت عينه. مع ذلك فقد كانت الشّخص «الحقيقي» الوحيد الموجود مع الملكة الشّابّة، ولهذا عادت الأمور إلى مجاريها واستعيدت علاقة الزّمالة الوطيدة بينهما بعد ذلك الحادث اليتيم.

بعد ثلاثة أسابيع من العلاقة الجنسيّة التي قامت بين الملك والملكة، جرى حدث صغير بدا تافهاً وانتهى بأن تسبّب بأزمة كبيرة.

ما حدث كان التّالي:

حضر كريستيان ذات صباح لرؤية الملكة، بينما كانت ترتدي ثيابها، منشغلة في عقد شال حريريّ حول عنقها، بمساعدة الآنسة فون بليسين. قام الملك بإزاحة الشّال قليلاً ملامساً عنق الملكة «بوجهه» وضاغطاً على عنقها بشفتيه. أشاحت الآنسة فون بليسين بوجهها بعيدا، معبّرة عن استنكار واضح لتصرّف اعتبرته يفتقر إلى أدنى حدود اللّياقة، وأرسلت بإشارة إلى الملكة التي قامت بدورها بالتّعبير عن الغضب إزاء هذا التصرّف غير اللّائق والّذي سيؤدي لتجعّد شال الحرير.

شعر كريستيان بالمهانة. بدا الوضع صبيانيّاً ومثيراً للضّحك ولا يليق بملك أبداً. لقد تمّ تأنيبه كما لو كان طفلاً. لم يخطّط لهذه الحركة المعبّرة عن الحبّ والتي ربما بدت كما لو كانت مدروسة وعن سبق إصرار، أكثر منها حركة طبيعيّة تلقائيّة.

لقد جعل من نفسه موضع سخرية وعرضة للتّأنيب كما لو كان طفلاً. حاول أن يقبّل عنقها فإذا به يبدو سخيفاً ويشعر بالحرج. لقد انتصرت الآنسة فون بليسين. كان من الواضح أن المرأتين تتآمران عليه فيما بينهما.

ثار غضب كريستيان لما اعتبره إهانة؛ وانتزع الشال، أو بالأحرى شطره حين نزعه عن عنق الملكة، ثم نتفه نتفاً وغادر الغرفة غاضباً.

هذا هو الحدث المهمّ. علينا أن نتذكّر مرّة أخرى أنّنا نتحدث عن صبي في الثامنة عشرة وفتاة في الخامسة عشرة من العمر..

أصدر الملك في اليوم التالي مرسوماً يعلن به أنّ الآنسة فون بليسين لم تعد شخصيّة مرغوباً فيها؛ وأُبعدت عن القصر بل عن كوبنهاغن كلها وجاء في أمر الإبعاد أن ذلك يجب أن يتم «حالاً».

لم تُمنح لها فرصة لوداع الملكة، وسينتهي بها المقام في «تسيلي».

عرفت الملكة في اليوم التّالي بأمر الإبعاد الذي أتى نتيجة لتصرّفها المتهوّر. تملّكها غضب عارم، فدخلت مسرعةً إلى زوجها الملك وأمطرته بوابلٍ من الإهانات. أُصيب كريستيان بحالة من التّوتر الشّديد الّذي بدا واضحاً من خلال حركات التشنّج في عضلات وجهه وجسده. قال متأتئاً إنّه يعتقد أنّ الآنسة فون بليسين هي إنسانة سيّئة، نزقة ومكابرة أضمرت للملكة حبّاً غير طبيعيّ. صرخت الملكة قائلة إنّ هذا كذب وإنّها لا تكترث في الواقع لما هو طبيعيّ أو غير طبيعيّ أو لما هو نزِقٌ أو مشاكسٌ فيما يتعلّق بصديقتها، خاصّة في بلاطٍ غارقٍ في النّزق والسّوء. أضافت بأن الآنسة فون بليسين هي الوحيدة من بين كل من في القصر،التي استطاعت كارولين أن تتحدث إليها وهي الوحيدة التي أصغت لها، بل إنها الشّخص الوحيد الذي تحدّث إليها كمخلوق طبيعيّ.

كان ذلك الأداء رائعاً. وبعد أن انهالت الملكة على كريستيان بالإهانات الّتي أغرقته بها حتى أذنيه، خرجت من عنده غاضبة. وفي الأسابيع التالية، عاملته بجفاء، حتى تحيّاتها له اتسّمت بالإهانة وبالصّد.

بكت كثيراً في تلك الفترة ورفضت أن تأكل. فقط بكت. قالت إنّها تشعر بالحزن، خاصّة وأنّها لم تُعطَ فرصة وداع صديقتها.

فيما بعد، وبعد وقتٍ طويل ستلتقي السّيدتان ثانية، في «تسيلي».

٢

تلت هذه الحادثة الفاصلة حادثة أخرى حين التقى الملك بـ «كاترين أمّ البوط» .

كانت البداية في ساعة متأخّرة من مساء الرّابع من أيّار/مايو سنة ١٧٦٧.

كان اسمها أنّا كاترين بنتهاغن؛ وكان والدها بالتّبني صانع أحذية. من هنا جاء اللقب «أم البوط» نسبة لكلمة «بوط» الفرنسيّة والتي تعني الحذاء الذي يصل حتى الكاحل. كانت ممثّلة في يوم من الأيام «ولكنّها انزلقت من هذه المهنة إلى امتهان الرّذيلة».

كانت...عاهرة!

تمتّعت كاترين بطول قوامٍ يفوق المعدّل بالنسبة للنّساء، وبِبنيةٍ صلبةٍ، وبثنايا جدّ أنثويّة. حين التقاها كريستيان السّابع لأول مرّة كانت كاترين في الرابعة والعشرين من عمرها و»أسوأ الناس سمعةً في كوبنهاغن كلّها».

تبدو في اللّوحات الفنّية كصاحبة وجهٍ جميلٍ به ملامح زُنجية؛ إذ يُعتقد بأن دماً إفريقيا جرى في عروقهامن جهة أمّها. تحلّت كاترين بإرادة قويّة ، وعُرف عنها أنّها لم تكن تتورّع عن إهانة أو ضرب أيّ كان من الرّجال وبقوّة مذهلة، إن تعرّض لها، حتّى أولئك الّذين لم تتجرأ امرأة غيرها على مواجهتم.

في تلك الفترة كان الوضع المتأزّم بين الملك والملكة هو موضوع حديث القصر. كان جليّاً أنّ الملك ينشُد العزلة بشكلٍ غير طبيعي؛ ويغرق في سوداويّته. صار يجلس وحيداً، مسمّراً على كرسيّه، يُحدّقُ في الحائط ويغمغم بكلامٍ غير مفهوم. استحوذت عليه نوبات غضبٍ غير مُبَرَّر وأخذ يصدر أوامر اعتباطية، كما سيطرت عليه الشّكوك حتّى حول أقرب النّاس إليه.

كذلك راح الملك يُمضي وقتاً أطول في التّحدّث إلى كلبه، متمتماً بكلماتٍ مثل «الذّنب» و«العقاب». لكنّ أحداً لم يكن ليتخيّل العقاب العجيب الذي اختاره كريستيان للتّكفير عن ذنبه.

لقد وقعت الفأس على رأس الشّخص الأقرب إلى قلبه؛ ألا وهو: ريفيرديل.

بعد فترة وجيزة من إبعاد الآنسة فون بليسين، وحين وصلت البرودة في العلاقة بين الزّوجين الشّابّين إلى حدّ لا يُحتمل، توجّه كريستيان أثناء عرض مسرحيّ إلى معلمه السّويسريّ السّابق ريفيرديل والّذي كان من بين الحضور، وضمّه إليه مؤكّداً له، والدّموع في عينيه على أنّه يُكنّ له كلّ الحبّ والاحترام، وعلى أنّ ريفيرديل هو الأقرب إلى قلبه. ثم قام كريستيان وسلّم ريفيرديل رسالة، طالباً منه أن يقرأها في وقتٍ لاحق من ذلك المساء.

جاء في الرّسالة أنّ ريفيرديل لم يعد يتمتّع برضى الملك، وأنّ عليه إنهاء خدماته ومغادرة القصر للتو، وأنّه لن يسمح له بالبقاء في الدّنمارك.

كان الأمر في غاية الغموض! عاد ريفيرديل إلى سويسرا في الحال.

في اليوم التّالي ذهب كريستيان وزار كارولين ماتيلدا في غرفتها وأخبرها ما فعل. جلس على كرسيّ قرب الباب ضاغطاً يديه بين ركبتيه وكأنّه يريد أن يكتم تشنّجاته وعصبيّته، ثم أخبرها أنّه قد أبعد ريفيرديل. خيّم الصّمت عليه وانتظر. لم تفهم الملكة سبب هذا القرار وكلّ ما فعلته هو أن سألت عن السّبب.

لماذا فعل ما فعله مع ريفيرديل؟

أجاب أنّ ذلك هو العقاب. «عقاب ماذا؟» سألته.

أجاب ببساطة أنّ هذا كان العقاب، وأنّ العقاب كان ضرورياً.

حملقت به وقالت إنّه مجنون.

جلسا صامتين على كرسيّين منفصلين في غرفة جلوس الملكة لفترة طالت قليلاً، وكلّ يحملق في عينيّ الآخر. بعد حين ترك كريستيان الغرفة .

كان من المستحيل فهم ما يدور، فلا شيء تغيّر بينهما، ولا هي فهمت ما عناه بكلمة «عقاب». لكنّ الأكيد هو أن هذا العقاب لم يغير شيئاً.

٣

كان اسمها أنا كاترين بِنتْهاغِن، ولُقِّبَت بـ«كاترين أم البوط»، وكانت عاهرة. عدم اتزّان الملك وكآبته لا شكّ فيهما. بالتّالي، قرّر كلّ من أينيفولد براندت ومرافقٌ آخر في البلاط يُدعى «هولك» - عُرِف باهتمامه بالمسرح وبالممثّلات الإيطاليّات - أن المَخْرَج من حالة الكآبة الّتي يعاني منها الملك قد يكون عند كاترين أم البوط.

وهكذا عقدا النّية على أن يُعرّفا الملك بكاترين بشكل مفاجئ، ودون أن يأتيا على ذكرها قبل اللقاء. وفي مساء أحد الأيام، اصطحب براندت العاهرة المعروفة؛ كاترين أم البوط، إلى جناح الملك.

كانت كاترين ترتدي ثياب الرّجال. شعرها طويلٌ وبلون الحنّاء. وأوّل ما لاحظه الملك عندما رآها هو أنّها أطول من كلا الرجلين بمقدار رأس.

لفته جمالها الخارق، لكنّه أُصيب بتَعْتَعَتِه المُزعجة.

علم للتّو ما الّذي سيحدث.

لم يكن مفهوم كلمة «البراءة» واضحاً لكريستيان. بدا وكأنه يخلط ما بين «البراءة» وكلمات مثل «الطّهارة» أو «العفّة» من جهة، و»عدم الخضوع» أو «الحصانة» و» المناعة» و»عدم الانكسار» أو الصمود، من جهة أخرى. كان ينظر إلى نفسه على أنّه ما يزال بريئاً حتّى ذلك الحين، أي أنه لم يمارس الرّذيلة، عدا تلك التّجربة اليتيمة التي خاضها عندما قدّم خدماته إلى الملكة ذات ليلة. دار لغطٌ كثيرٌ في البلاط حول هذا الموضوع؛ موضوع عدم خبرة «الصبي»، وقد انتشر الخبر. حتّى أنّ بعض السّيّدات، ومن ضمنهن عشيقات وغانيات دُعين للحفلات التّنكريّة على عجل، قُمنَ بالتّحدّث إلى الملك وعرض خدماتهنّ عليه من خلف الأقنعة دون تردّد.

ساد الانطباع بأنّه يبدو ودوداً، خجولاً، ولكنّ فكرة القيام بممارسة ما اقترحنه عليه بشكل عمليّ، أرعبته! قيل الكثير عن ممارسته لتلك الرّذيلة وإنّما أدّت إلى

ضعف قواه، مما أثار حزن الكثيرين على حاله.

ها هي كاترين أم البوط تُؤخذ إلى مخدعه. الأمر جادّ إذن!

أحضر براندت معه كؤوس النّبيذ، وحاول بالهزل والمرح أن يخفّف من توتّر الجوّ. لم يكن أحدٌ ليعلم كيف سيكون ردّ فعل الملك لما سُيطرح أمامه من اقتراحات في تلك اللحظات.

توجهت كاترين نحو السّرير، تفحّصته بهدوء، وقالت للملك برفق:

«هيّا بنا، جلالتك!»

مشت عندئذ ببطءٍ نحو كريستيان وأخذت تنزع ثيابها. بدأت بسترتها تاركة إيّاها تسقط أرضاً، نازعةً عن جسدها القطعة تلو القطعة إلى أن وقفت أخيراً، عارية تماماً أمام جلالته. كانت حقّاً حمراء الشّعر، ذات عجيزة عريضةٍ رحبةٍ وثديين كبيرين. تعرّت ببطءٍ وبثقةٍ دون لفٍّ أو دوران، وها هي الآن تنتظر كريستيان، الذي اكتفى بأن حملق فيها.

«كريستيان؟» قالت بصوت ناعم. «ألا تريد، عزيزي؟»

هذه الحميميّة غير المتوقّعة في الطّريقة الّتي كلّمته بها مستعملة كلمة «عزيزي»، صدمت الجميع، لكنّ أحداً لم ينبس بحرف. استدار كريستيان ببساطةٍ على عقبيه واتّجه في البداية نحو الباب لكنّه، عاد واستدار ثانية، ربّما لأنّه تذكّر أنّ هناك حرّاساً يقفون في الخارج، وتوجّه نحو الشّباك المُغطى بالسّتائر. أخذ يلفُّ ويدور في الغرفة دون هدف.

بدأ ينتر جسده بيديه ويقوم بالحركات العصبيّة الّتي عُرفَ بها. ربّت بأصابعه على بطنه دون أن يقول شيئاً.

ران الصّمت لوقت طويل. حدّق كريستيان بالستائر.

قال هولك عندها لبراندت:

«أرِه!»

بدأ براندت، والّذي وجد نفسه في وضع حرجٍ، يقرأ بصوتٍ متأثّرٍ نصّاً كان قد

أعدّه للمناسبة، لكنّ النّص بدا في غير موضعه بوجود كاترين. قال:

«جلالتُك، بما أن الملكة، وبسبب صِغر سنّها، قد تكون متردّدة فيما يتعلّق بالخصوصيّة المقدّسة لما قد يُقدمه العضو الملكيّ، فإنّ التّاريخ لا يبخل علينا بقصص تستحقّ أن تُستحضر. فحتّى العظيم باراسيلزوس يقول في كتابه...»

«ألا يريد؟» سألت كاترين دون لفّ أو دوران.

اتجه براندت نحو كاترين، ضمّها إليه، وبدأ بمداعبتها وهو يُطلق ضحكةً عالية تصمّ الأذن.

«ماذا تفعل بحقّ جهنم؟» سألته.

كانت تنظر طول الوقت إلى كريستيان الواقف عند النافذة. استدار كريستيان ونظر إلى كاترين نظرةً تحمِل تعبيراً لم يستطع أيّ من الموجودين تفسيره.

أكمل براندت: «سوف أستعرض الآن على النموذج الذي بين أيدينا ما يتوجّب على الملكة القيام به... إن كان الخوف يستحوذُ عليها أمام العضو الملكيّ...»

«الخوف؟» أجاب كريستيان بشكل تلقائيّ، كما لو أنّه لم يفهم كلمةً ممّا قيل.

«انحني» قال براندت لكاترين. «سوف أُريه».

لكن كاترين استشاطت غضباً فجأةً ودون سابق إنذار؛ انتزعت جسدها بعيداً عن براندت وبصقت في وجهه.

«ألا ترى أنّه خائف؟؟؟ دعهُ وشأنه!»

«اخرسي!»، زمجر براندت.

رغم كونه أقصر منها بمقدار رأسٍ، فقد حاول إجبارها على الاستلقاء على السّرير وأخذ ينزع ملابسه؛ إلا أنّ كاترين استدارت بغضبٍ، رفعت ركبتها بعنفٍ، وركلت ما بين فخذي براندت بدقّةٍ وبمهارةٍ جعلته يسقط أرضاً وهو يولول.

«لن تستعرض شيئاً على أيّ نموذجٍ لعينٍ» قالت له كاترين بوحشيّة.

ارتمى براندت على الأرض متكوّراً والغضب يقدح من عينيه، وتلمّس المساعدة كي يستطيع الوقوف. حينها سمع الجميع كريستيان وقد أخذ يضحك بصوتٍ عالٍ ينمّ عن سعادةٍ. بعد بُرهة قصيرة من التّردد انضمّت إليه كاترين وأخذت تضحك هي أيضاً.

لم يضحك أحد غيرهما.

اخرجا!!!» أمر كريستيان كلا الرّجلين المقرّبين منه. «انصرفا»!!!

غادر هولك وبراندت الغرفة بصمت.

تردّدت كاترين أم البوط، لكنها بدأت ترتدي ثيابها بعد برهة. عندما غطّت الجزء الأعلى من جسدها بينما كان الجزء الأسفل ما زال عارياً، وكان شعرُها الأحمر هو الأبرز للعيان، وقفت ساكنة دون أن تنبس بكلمة، وكلّ ما فعلته هو أنْ نظرت إلى كريستيان. أخيراً قالت للملك بصوتٍ بدا خجولاً لحدٍ بعيدٍ لا يشبه بأيّ شكل ذلك الصّوت الّذي صدر عنها نحو براندت منذ قليل:

«اللّعنة على كلّ شيء» قالت له. «يجب ألاّ تخاف منّي».

عندها قال كريستيان وأثر الاستغراب بادٍ على صوته:

«لقد...طرحْتِهِ...أرضاً».

«نعم. هذا ما فعلته بالضبط».

«لقد طهَّرْتِ...طَهّرْتِ... الهيكل».

نظرت إليه نظرة استفهامٍ، ثم مشت نحوه إلى أن وقفت قريبةً جدّاً منه ولامست خدّه.

«الهيكل؟» سألت.

لم يقل شيئاً. لم يشرح لها شيئاً. فقط نظر إليها، وكان جسده ما يزال يرتعد. ثم قالت له بصوتٍ هامسٍ:

«عزيزي، عليك ألاّ تتأثر بهذا الهراء، جلالتك».

لم يغضب لأنّها توجهت إليه بكلمتي «عزيزي» ثم «جلالتك». كلُ ما فعله

هو أن حملق بها وصار أكثر هدوءاً. استكانت يداه تدريجيّاً ولم تعودا ترتجفان، كما بدا أنّ خوفه قد زال.

«يجب ألاّ تخاف منّي» قالت له. «يجب أن تخاف من أولئك الخنازير. إنّهم خنازير. حسناً فعلتَ إذ قلت وبحزم لهذين الخنزيرين أن يخرجا».

«بحزم؟»

أخذت بيده وقادته بحذر إلى السّرير حيث جلسا.

«إنّك بالغ الرّقة...» قالت له «...مثل زهرة».

حملق بها، وسأل باستغراب وهو عاجزٌ عن التّعبير:

« ز...زهرة؟»

صار يبكي، خلسةً، كأنّه خجل من ذلك؛ أمّا هي، فلم تكترث بل أخذت تنزع عنه ثيابه ببطء.

لم يحاول أن يمنعها.

نزعت عنه ملابسه قطعةً بعد أخرى. لم يمنعها. بدا جسده ضئيلاً، هشّاً، ونحيفاً بالمقارنة مع جسمها، لكنّه تركها تفعل ما تريد.

اضطجعا على السّرير. أمسكت بجسده بين ذرعيها لوقت طويل، طويل جداً، تداعبه بهدوء، فتوقّف أخيراً عن البكاء. أسدلت الغطاء المحشو بزغب البطّ على جسديهما. فاستغرق كريستيان في النّوم.

في ساعات الصّباح الأولى، مارسا الحبّ، بكل ارتياح وهدوء. وحين غادرت كاترين الغرفة، كان الملك يغطّ في النّوم كطفل سعيد.

٤

بعد يومين، ذهب كريستيان باحثاً عن كاترين، ووجدها!

تلفّع بعباءة رماديّة، مقنعاً نفسه بأنّ أحداً لن يتعرّف على هويّته؛ متجاهلاً

حقيقة أنّ جنديّين اثنين كانا يتبعانه على مسافةٍ ما، حتّى في تلك اللّحظات.

لقد وجدها في منطقة كريستيانس هاون.

استيقظ في عصر اليوم التاّلي لتلك اللّيلة الأولى الّتي قضاها مع كاترين، وبقي مستيقظاً في فراشه لوقت طويل.

لم يستطع أن يتذكّر ما حدث. بدا وكأنه من المستحيل أن يتذكر ما حدث. لهذا الدّور جديد عليه. دَوْرٌ لم يُؤدّه من قبل.

لكن لعلّه لم يكن دوراً ليُؤدّى، ربما كان شيئاً من نوع آخر!

أحسّ أنّه يعوم في مياه دافئة، كأنّه جنين يسبح في رحم أمّه، وعلم أن هذا التّكاسل والتلكّؤ كان بسببها؛ بسبب كاترين. حين سبق وقدّم خدماته للملكة ذات مرّة، شعر بعدم النظافة وكان رُعبه عظيماً. شعر بأنه ما عاد «بريئاً» «عفيفاً». أمّا الآن، ولشدّة استغرابه فإنه لم يشعر بالفخر؛ لا لم يكن فخوراً فهو يعلم أنّ الجميع يخسرون براءتهم. لكن من هو القادر على استرداد براءته؟ أمّا هو فقد فعلها. لقد استردّ براءته في تلك اللّيلة، وها هو يعود جنيناً. ها هو يولدُ من جديد، ربّما سيولد على هيئة طيرٍ، ربّما على هيئة حصانٍ، وربّما على هيئة إنسانٍ. يرجّح مع ذلك أنه سيولد فلاحاً يجول في الحقول. سيولد طاهراً، دون ذنب وسيخرج من الرّحم من جديد. إنّها البداية.

لقد استعاد مع كاترين براءته الّتي كان قد خسرها مع الملكة.

كانت اللحظات الّتي شعر بها بخوفٍ عظيم هي تلك التي تخيّل فيها أن البلاط هو العالم كلّه، وأنّه لا وجود لشيء خارج حدود البلاط. في تلك اللّحظات دهمته الكوابيس التي ظهر بها الرقيب مورل.

قبل أن يحصل على الكلب، لم يعرف للنّوم العادي طعماً. تحسّن وضعه حين أهدوه كلباً. نام الكلب في سرير الملك، بينما راح الملك يلقي على مسامع كلبه

نصوصاً يجب أن يحفظها.

كان يعود ويتلو سطور النّص على مسمع الكلب بقصد التّدريب، فيغطُّ الكلب في النّوم ويستكين هو من حالات رعبه.

الوضع خارج القصر بالنّسبة لكريستيان، كان أسوأ منه داخله، فلطالما خاف هذا الملك من الدّنمارك. الدّنمارك كانت «خارج النّص» الذي عرفه. هناك في الخارج لم تكن النصوص مكتوبة كي يحفظها، وما كان في الخارج لم يتماشَ مع ما كان في الدّاخل.

كان الخارج قذراً ومحيّراً لدرجة يصعب استيعابها، فقد كان الجميع منشغلاً ومنهمكاً كما يبدو، وما كانت هناك طقوس تمارس. لكنّه شعر بإعجاب كبير لكلّ ما هو في الخارج وحلم بأن يهرب إليه إذ كان السّيد فولتير قد أخبره من خلال كتاباته ورسائله كيف يجب أن تكون الأمور في الخارج. شيء آخر كان أيضاً في الخارج، وكان اسم ذلك الشيء «الخير».

في الخارج كان الخير الأكبر والشّر الأكبر، مثل إعدام الرقيب مورل مثلاً. لكن، مهما كان شكل الخارج، فإنّه من المستحيل أن يُحفظ عن ظهر قلبٍ كما لو كان نصّاً مكتوباً.

ما أعجبه وأخافه في الوقت نفسه، هو غياب تلك الطقوس.

كانت كاترين هي المثال الأعلى للخير. مثالٌ أعلى لأنّ لا مثيل لها، ولأنّ خيرها شمله هو وحده واستبعد كل ما عداه.

لهذا السّبب ذهب يبحث عنها، ولهذا السّبب أيضاً...وجدها.

٥

عندما جاء إليها، قدّمت له كاترين كأساً من الحليب وقطع خبزٍ كُرَوِيّة. لم يكن من وراء ذلك أي مغزى مُحدّد.

شرب كريستيان الحليب وتناول الخبز، كما لو كان يتناول القربان المقدّس.

صحيح أنه لم يعرف العالم كلّه من خلال البلاط، أما الجنّة، فقد اعتقد كريستيان أنّه قد وجدها، وجدها كلّها؛ وأنها تكمن هناك، في غرفة صغيرة خلف بيت للدّعارة في شارع ستوديسترذ رقم ١٢.

إنه المكان الذي وجدها فيه.

لم تكن جدران غرفتها مكسوّة بالمطرّزات المنجّدة كما في البلاط، بل اقتصر الأثاث على سرير واحد. راح يتخيّل للحظات شابها الألم، ما كان يحدث على ذلك السّرير ويتخيّل نوعية النّاس الذين استعملوه. لمعت في مخيّلته صورٌ تشبه ما رآه في الرّسومات التي أحضرها له المدعو «هولك» ذات مرّة، والّتي قام هو فيما بعد باستعارتها كلّما رغب في ممارسة الرّذيلة إيّاها؛ حيث مسّ عضوه وهو يتمّعن في تلك الرسومات. لماذا منحه الله جلّ جلاله القدرة على هذه الرذيلة؟ هل كانت إشارة له إلى أنّه ينتمي للسّبعة الكبار؟ وكيف لمن وقع اختيار الله عليه أن يقوم بممارسة رذيلة هي أسوأ من السّفاح الذي يدور في القصر؟ لمعت الصّور في مخيلته عندما رأى سريرها، لكنه تماسك كي لا يضعف ولا ينكسر، فاختفت الصّور في الحال.

كان يمارس تلك الرّذيلة فقط عندما كان يشعر بالقلق ويفكّر بالذّنب. كانت تلك الرّذيلة بالذّات تهدّئه. اعتبرها وسيلة منحه إيّاها الخالق كي يهدأ. لمعت الصّور في مخيلته ثانية، لكنّه عاد ومحاها.

لم تكن كاترين جزءاً من تلك الصور التي اقترنت بالرّذيلة وبمشاعر الذّنب.

كلّما نظر إلى سريرها، عادت الصّور، ليعود ويستجمع قواه ثانية فتختفي الصّوَر من جديد. لقد أعطته كاترين العلامة الّتي كان يبحث عنها؛ الحليب والخبز. حين نظر إليها عاد إلى داخل الرّحم الدّافئ ثانية فاختفت الصّور. لم تسأله كاترين ولو حتى سؤالاً واحداً. فقط؛ خلعا ملابسهما.

ها هنا لا سطور لتُحفظ ولا أخرى لتُنسى.

مارسا الحبّ. زحف عليها مثل ساق نحيلةٍ لزهرةٍ بيضاء يتسلّق على جسدها الأسمر. تذكّر قولها له بأنّه «مثل زهرة» وإن لم يفهمه. كانت كاترين هي الوحيدة الّتي بإمكانها أن تقول شيئاً كهذا دون أن تجعله يضحك. كل ما يتعلق بها طاهر. لقد طردت الزّناة وتجّار الرّذيلة. طهّرت نفسها وطهّرته! طهّرت نفسها من الخطيئة!!!

إذن فقد كانت هي بحد ذاتها هيكلاً.

فيما بعد، وحين استلقى عليها مبلّلا بالعرق، مُفرغاً، أخذ يهمس إليها سائلاً: «هل أنا قويّ فعلا؟ كاترين، يجب أن تصدقيني القَول، هل أنا قويّ فعلا؟ فعلا قويّ؟؟؟». «أحمق»، قالت له في البداية لكن بطريقة أفرحته. ثم أعاد عليها السؤال أجابت: «نعم، عزيزي. اصمت الآن. يجب أن تتعلم ألا تسأل، ألا تتكلم، هل تسأل هذا النوع من الأسئلة في القصر؟ نَم الآن!» سألها ثانية: «هل تعلمين من أكون؟» فما كان منها إلا أن ضحكت. أمّا هو فقال: «أنا ! أنا ! أنا ابن فلاح ولد قبل ثمانية عشر ربيعاً في هيرتس هالس لوالدين فقيرين. أنا شخص آخر غير الذي تظنين.» «نعم، نعم» قالت هامسة. «ألا تظنين، وأنت التي لك دراية بالناس على أنواعها، أنّني ابن فلاح؟»

ساد صمت مطبق لوقت طويل.

«بلى،» أجابت أخيرا. «إنّك تشبه صبيّا فلاّحاً صغيراً عرفتُه ذات مرّة».

«من قَبل...؟»

«من قبل أن آتي إلى هنا».

«من قبل...؟»

«من قبل أن آتي إلى هنا».

« كاترين، من قبل...»

كان عرقه قد جفّ، لكنّه كان ما يزال مستلقياً عليها، ثم سمعها تهمس:

« ما كان عليّ أن أتركه أبداً، أبدًا، أبداً».

أخذ كريستيان يتمتم فجأةً بكلامٍ لم يُفهم منه شيءٌ في البداية إلى أن اتّضح

كلامه تدريجيّاً وتصاعد غضبه في آنٍ معاً. لم يكن الكلام موجّهاً إليها، لكنّه كان يدور حول فكرة الابتعاد أو الإبعاد تلك. هل ما فكّر به في تلك اللّحظة هو أنّه قد تمّ التّخلي عنه يوما؟ كم قاسيةٌ فكرة الطّفل الدّسيس التي راودته تلك! استمر في التّمتمة. قال إنّه قد تم استبداله وإنّه لم يعرف طعم النّوم. تكلّم عن رذيلته وقال إنّ الرّذيلة مشت نحوه في إحدى اللّيالي المظلمة ويدها بيد الرّقيب مورل، وإن الرّقيب طالب بضرورة إخضاع كريستيان للعقاب.

لقد كان كريستيان على ضلال!

« هل تعلمين؟» سألها قبل استسلامه لنومٍ عميق: «هل تعلمين إن كان في هذا الكون من لا يطاله غضب الله؟ هل تعلمين إن كان هناك شفيع؟»

«نعم» قالت.

«ومن يكون؟» سألها وهو يغالب النّعاس.

« أنا!» أجابته.

« أتكونين شفيعتي؟ ألديك الوقت من أجلي؟»

« لديّ الوقت» همست. «كل الوقت.. والوقت كله».

الآن فهم. ها هي سيّدة الكون إذن، ولديها الوقت. بل إنها هي الزّمن! هي الوقت!

بعد أن انتصف اللّيلُ بلحظات، سُمع صوت قرع على الباب. كان الجنديّان التّابعان للحرس الملكيّ واللذان وقفا في الخارج عند الباب، قد ضاقا ذرعاً بهذا الوضع.

تدحرج كريستيان مِن على جسد كاترين، بينما طَرقُ الباب يزداد عُنفاً. قامت عن السّرير ولفّت جسدها بشال وقالت له:

«إنّهم يبحثون عنك. كُن صلباً متماسكاً يا كريستيان!»

ارتديا ثيابهما بسرعة. توقّف عند الباب وقد استحوذ عليه الخوف. مدّت يدها

ومسّدت على خدّه، ففتح هو الباب بحذر.

نظر كلّ من الحارسَين اللّذين كانا يرتديان البزّة الخاصّة بحرس القصر إلى هذا الزّوج غير المتكافئ من البشر نظرة فضول واضحة، وقاما بتأدية التّحية احتراماً للملك، إلا أن واحدا منهما أخذ يضحك فجأةً.

دسّت كاترين أمّ البوط يدها في جيبها خلسة، واستلّت برشاقة موسىً رفيعة جدًا لاحت فجأة للعيان ورمت بها بسرعة وبخفّة أذهلتهم جميعاً، فكأنّ السّكين ريشة طير وجدت طريقها إلى خدّ الرّجل الذي كان للحظة خلت قد وجد في الموقف ما يستحقّ الضّحك.

مال الرّجل صاحب البزّة الملكيّة إلى الخلف وسقط أرضاً. كان الجرح باللّون الأحمر الفاتح لكنّ الدّم سال منه دون توقّف وعلى الوتيرة نفسها. ولول الرّجل بغضب ودهشة مادّاً يده إلى مقبض سيفه. لكنّ الملك كريستيان السّابع- والّذي كان الجميع يعتبره في تلك الأيّام حاكماً مطلق الصّلاحيّات ومختاراً من الله لهذا المنصب- راح يضحك عليه.

بالتّالي، ما كان من الممكن لهذا العنصر من الحرس الملكيّ أن يسحب سيفه من غمده؛ ليس عندما يكون ردّ فعل الملك هو الضّحك بهذه الطّريقة.

«والآن يا كريستيان» قالت كاترين أمّ البوط بهدوء «الآن سنصبغ المدينة كلّها بالأحمر».

قيل الكثير عمّا جرى بعد ذلك. كانت رغبات الملك أوامر بالنّسبة للجميع، وكانت كاترين هي ملكة الليل.

رافقته طول الطّريق إلى أن أوصلته إلى بيته. تعثّر في مشيته، وتمرّغ في الوحل. كان ثملاً حتى النّخاع. وكانت إحدى يديه ملطّخة بالدّم.

أمّا هي، فكانت ما تزال بكامل أناقتها. اكتشف الحرس عند بوّابة القصر أنّ القادم ما هو إلاّ الملك بعينه؛ وهكذا كان باستطاعتها أن تتركه بأيدٍ أمينةٍ وتقفل

عائدةً. لم يكن يعنيهم إلى أين ذهبت. أما كريستيان فما كان بالإمكان التّخفيف من حزنه حين أدرك أنّها قد غابت.

لقد حمله الحرس إلى الدّاخل.

٦

دامت العلاقة بينهما ستّة أشهر تقريباً، وكان كريستيان مقتنعاً بأنّها علاقة لن تنتهي أبداً.

إلا أنّه لم يكن هناك بدٌّ لتلك العلاقة من أن تنتهي.

حدثت نقطة التّحول ليلة عُرضت كوميديا « الحديقة العجيبة» لـ «سيريل» في المسرح الملكي. اصطحب الملك كاترين أمّ البوط معه إلى الحفلات التنكريّة الّتي أقيمت في القصر؛ وكانت تجلس في مقصورته الخاصة المطلّة على خشبة المسرح، حيث لعبا الورق ولعبة «الفرعون» بالذّات، وعلى مرأى من الجميع. قاما بعدها بالتبختر بين الحضور من أفراد الحاشية الملكيّة. أمّا هذه المرة فقد جاوزت كاترين حدود اللّياقة كلّها حين قامت بنزع قناعها. كانت يد الملك تحيط بخصرها، وكانا يضحكان ويتحادثان دون التّقيّد بالأصول أو بالرّسميات.

أُصيب أفراد الحاشية بالصّدمة، ليس بسبب وجود غانية بينهم. إنّما بسبب الشّك المتزايد حول مدى الخطورة الكامنة وراء طموحات هذه المرأة التي لا يمكن الاستهانة بما لها من أثر على جلالته في السّرير، والّتي لن تكتفي بدورها كعشيقة للملك في حال تمّ الاعتراف بها كمن تحتلّ هذا الدّور.

لقد ضحكت ملء شدقيها في وجوههم.

يا له من حقد! حقد مفزع! أيّ نوع من الحقد كان يحتقن في داخلها؟ أيّ غبن لاقت فأخفت خلف صمتها ووراء تلك الابتسامات؟ ما الّذي مرّ عليها واحتملته ليثير بها كل هذه الكراهية؟ أخاف ذلك الجميع ولم يفهموا سرّ النّظرة الّتي التَمَعَت

في عينيها حين مشت بينهم، ويد الملك الصّغير الأشبه بصبيّ تحيط بخاصرتها؟
أيّ وعيد كانت تخفي في عينيها؟

أمّا وقد رأت الملكة الأرملة «جوليان ماري» — أرملة والد كريستيان، وأمّ وليّ العهد «فريدريك»، الذي عملت جاهدة على أمل أن يرث العرش — رأت ما حملته تلك العيون من وعد ووعيد، فقد استدعت أوفه–هوغ– غولدبيرغ كي تناقش معه– كما جاء في رسالة الاستدعاء– أمراً لا يحتمل التّأجيل.

المكان الذي اختارته الملكة الأرملة للّقاء كان كنيسة القصر. فوجئ غولدبيرغ بهذا الاختيار، لكن– وكما كتب في أوراقه– «ربما كانت جلالتها ترغب بسريّة مطلقة، وما كان تحقيق ذلك ممكناً إلّا تحت ناظريّ العناية الإلهيّة». عندما وصل غولدبيرغ، وجد الكنيسة فارغة مهجورة لولا هيئة بانت لشخصٍ وحيدٍ يجلس على كرسي عالٍ في الصّف الأوّل.
مشى إلى الأمام، فكانت الملكة الأرملة هي ذاك الشّخص ودعته للجلوس.
المشكلة كما تبيّن كانت :«كاترين أمّ البوط».
شرحت الملكة الأرملة المشكلة بسرعة، وبلُغةٍ فجّة صريحة إلى درجة غريبة، لهجة ما كان ليتوقّعها، خاصّة في كنيسة.
«أتى مخبري بالخبر اليقين. إنّه يذهب إليها كلّ ليلة تقريباً. صار الأمر معروفاً للجميع في كوبنهاغن. صار الملك، وكلّ العائلة المالكة، نعم، بل حتّى البلاط، موضع سخرية في أعين الجميع».
جلس غولدبيرغ بهدوء تام، محملقاً في الصّليب والمسيح المتألّم معلّق عليه.
«أنا أيضا سمعت ذلك» أجاب. «أخشى عظمتك، أن يكون مخبروك صادقين».
«أتوسّل إليك أن تتدخّل في الموضوع. لا يحقّ لهذه الشّابة التي تعاشر الملك

بأن تحظى ببذور الزّرع الملكيّ».

لم يصدّق غولدبيرغ ما سمع! لكن هذا هو بالضّبط ما قالته وأكملت:

«الوضع خطير. إنّه يسكب بذور زرعه الملكيّ في رحم كاترين أم البوط القذر ولا شيء جديد في ذلك. لكن يجب إجباره على القيام بإسداء خدماته للملكة أيضاً. يُقال إن ذلك قد حدث مرة واحدة وهذا لا يكفي. ولاية العرش في خطر. إنّها ولاية العرش!»

استدار غولدبيرغ في تلك اللحظة ونظر إليها وجهاً لوجهٍ وقال:

«لكن في هذه الحالة هناك ابن جلالتك... ، ممكن أن يعتلي هو...»

لم تتفوّه بأيّ كلمة.

علم كلاهما تمام العلم أنّ ذلك مستحيل. أم أنّها لم تكن تعلم؟ هل كانت تتجاهل حقيقة معلومةً؟ ذلك أن ابنها الوحيد، وليّ العهد والأخ غير الشّقيق للملك، قد وُلد مشوّهاً جسديّاً. رأسه يتحرك باستمرار بشكل لا إرادي ويميل إلى الجانب دون أن يثبت في مكانه. عرف الجميع أن الصبي ينقاد بسهولة لكلّ من لاطفه، واعتبره البعض مغفّلاً لا أمل يُرجى منه. في رسالة كتبها السفير الإنجليزي للملك جورج الثالث، وصف ولي العهد بالكلمات التالية: «مشوّه الرّأس، لعابه يسيل دون توقّف، وكلّما أراد أن يقول شيئا تأتأ وأصدر صوت نخراتٍ متقطعة والابتسامة البلهاء لا تفارق شفتيه». كان ذلك الوصف قاسياً، لكنّه صادق. كانت الملكة الأرملة ومثلها غولدبيرغ يدركان ذلك، فقد شغل غولدبيرغ دور معلّم الصّبيّ لمدّة سنوات ستّ.

لكنّه كان يعلم تماماً أيضاً مدى حبّها لابنها المشوّه ذاك.

لطالما شهد كيف كان حبّها لابنها يجد له الأعذار، لكنّه كان يلحظ دموعها أيضاً. لا شكّ في أنّه حتّى هذه الأم الحنون، لم تعتقد أنّ هذا «المسخ» المشوّه كما كانوا يسمّونه في القصر أحيانا، قادرٌ فعلاً على أن يصير ملك الدنمارك في يوم من الأيّام.

لكن، ما أدراه؟

كلّ ما عدا ذلك ممّا قالته! كلّ ما عدا ذلك، كان في الحقيقة على قدر من البراعة أفقدته القدرة على الرّد.

بدا غريباً أن تثار حفيظتها بسبب بعثرة وبعزقة الزّرع الملكيّ بهذا الشكل، فقد أمضت الملكة الأرملة جوليان ماري هذه حياتها مقترنة بملك بعثر زرعه الملكيّ على كل عاهرات كوبنهاغن تقريباً. لم تكن تجهل هذه الحقيقة، بل احتملتها أيضاً. زوجها الملك كان مُجبراً هو أيضاً على أداء خدماته لها، وكانت بالتّالي تُجبر نفسها على الرضوخ، وهذا أيضاً احتملته. أنجبت صبيّاً واحداً، صبيّاً مغفّلاً، مسكيناً، يسيل لعابه باستمرار، وأحبّته!

لم يكن الموضوع مجرد «تقبّل» لابن مشوّه، إنّما محبة أمّ.

«ابني..» قالت أخيراً وبصوتٍ واضح معدنيّ النبرة «.. يستطيع القيام بمهمّته كملك أفضل من هذا... الضّائع والسّافل...ابني يستطيع... ابني حبيبي يستطيع...»

فجأةً لم تعد تجد ما تقول. خيّم الصّمت. جلسا صامتين لوقت طويل إلى أن شدّت همّتها ووقفت قائلة:

«غولديبرغ. إن منحتني دعمك ! إن دعمت ابني أيضاً ...ابني أنا، فسأُكافئُك بكرم، بكرم! إنّي أرى في ذكائك الحادّ ما يمكّننا من إنقاذ العرش. إنّك، مثل ابني، لا تبدو...عظيم الشأن... في الظّاهر. أمّا في الدّاخل...»

لم تُكمل. ران الصّمت على غولدبيرغ.

« كنتَ معلّم وليّ العهد طيلة سنواتٍ ست» همست أخيراً. «شكله الذي يبدو تافهاً من الخارج يجعل الكثيرين يحتقرونه. لكن أرجوك، هل تستطيع أن تحبّه قدر محبّتي أنا له؟»

لم يتوقّع سؤالاً كهذا، سؤالاً عاطفيّاً لهذا الحدّ. بعد لحظة، وحين لم يُجب، أعادت عليه السّؤال:

« أمن الممكن أن تحبّ ابني من الآن فصاعداً مقدار حبّي له؟ لن يكون أبونا القادر على كلّ شيء، واهبنا الخير كلّه فقط من سيكافئك عندها على حُسن صنيعك ذاك، بل سأكافئك أنا أيضاً».

أضافت بعد لحظة صمت:

«سنتولّى ثلاثتنا إنقاذ هذه المملكة المسكينة».

أجاب غولدبيرغ:

«ليكن ما تريدين جلالتك، ما دمتُ حيّاً».

أخذت بيده في تلك اللّحظة وضغطت عليها. كتب يقول إنّ تلك كانت لحظة عظيمة وفاصلة في حياته الّتي أخذت منحىً آخر منذئذ وإلى الأبد: «أحطتُ وليّ العهد الأمير فريدريك، قليل الحظّ، بقدْرٍ غير محدود من المحبّة منذ تلك اللحظة، جعلتُه بل جعلت أمّه الملكة الأرملة أيضاً، يضعان بي ثقتهما العمياء».

عادت الملكة الأرملة بعد ذلك على ذكر كاترين أم البوط مرّة واحدة فقط، لكشّرت فعلاً عن أنيابها وقالت أخيراً وبصوت عالٍ لدرجة جعلت أصداءه تتردّد لفترة طويلة في كنيسة القصر:

«تخلّص منها! نهائيّاً !!!»

ألقى أربعة من رجال الشّرطة القبض على كاترين في منزلها الواقع في منطقة كريستيانس هاون ليلة عيد الغطاس(٧٧) الموافق ٥ كانون الثاني/ يناير من سنة ١٧٦٨. كان الوقت متأخّراً، وكان مطر الشتاء البارد يهطل في تلك الليلة.

وصلوا إلى بيتها حوالي العاشرة ليلاً وجرّوها خارجاً حيث رموا بها داخل عربةٍ مغلقة بينما قام جنود آخرون بمهمّة إبعاد العيون الفضوليّة عن المكان.

بكت في البداية، ثم شتمت الشّرطة بغضب ولم تلاحظ وجود غولدبيرغ إلا بعد أن جلست في العربة، وكان قد أشرف بنفسه على العمليّة.

«كنتُ متأكّدة!» صرخت. «أيّها الجرذ الصّغير الحقير، كنتُ متأكّدة!»

خطا غولدبيرغ إلى الأمام وقذف بكيس نقود صغير به قطع عملة ذهبيّة إلى أرضيّة العربة.

«ستتاح لك فرصة التّعرف على هامبورغ» قال بصوت خفيض. «لا تحظى كل عاهرة بمبلغ سخيّ كهذا».

.

صَفق باب العربة بقوّة كي يغلقها، وبدأت الجياد تتحرّك لتنطلق بكاترين أمّ البوط في رحلة طويلة خارج حدود البلاد.

٧

مضت بضعة أيّام وكريستيان يرفض تصديق فكرة غياب كاترين، وعندما بدأ يستوعب ما يدور ثارت أعصابه من جديد.

فجأة، ودون سابق إنذار، قام كريستيان بأمرٍ أثار استغراب البلاط، إذ زار الكونت بيرنستورف وتناول عنده طعام العشاء دون أن توجّه إليه دعوة بذلك. تكلّم أثناء العشاء بارتباك واضح عن آكلة لحوم البشر. فُسّر هذا التصرّف على أنّه تعبير عن عصبيّة كريستيان الذي كانت الشائعات حوله تقول إنّه يشكو من حالات مُبهمةٍ من السّوداوية إلى جانب الثّورات العصبيّة والعنف، الأمر الّذي بات معروفاً للجميع. قام بعد تلك الحادثة بالتّجوال ليليّا وبشكل متواصل في شوارع كوبنهاغن، وكان الجميع قد فهم أنّه يبحث عن كاترين.

بعد أسبوعين، وحين بلغ القلق العامّ على صحّة الملك أشدّه، وصلته رسالة مفادها أنّ كاترين تقوم بجولة خارج البلاد دون تحديد لمكان وجودها، وأنّها تبعث إليه بتحيّاتها.

لازم الملك غرفته لمدّة ثلاثة أيام. ثمّ، وفي صباح أحد الأيّام... اختفى!

الكلب أيضا اختفى!

بدأ البحث عن الملك في الحال. بعد مرور بضع ساعات وصل خبر مفاده أنّ الملك قد وُجد؛ فقد شوهد يتجوّل على ساحل خليج «كوي» وأنّ الجنود يقومون بمراقبته عن بُعد. بعثت الملكة الأرملة عندها بغولدبيرغ كي يشرح فحوى الرّسالة للملك ويقنعه بالعودة إلى القصر.

جلس كريستيان على الشاطئ.

كان منظره يثير الشّفقة وكان كلبُه إلى جانبه وقد أخذ يهمّر لحظة رأى غولدبيرغ.

تحدّث غولدبيرغ إلى الملك كما لو كان يتحدّث إلى صديق.

قال لكريستيان إنّ عليه أن يستعيد هيبته الملكيّة لما في ذلك من مصلحة البلاد. قال إنه لا داعي لليأس أو للكآبة وإنّ البلاط والملكة الأرملة — نعم، الجميع!– يرى أنّ فضل الملك على كاترين تحوّل إلى مصدر عدم ارتياح وإنّ هذا الفضل والإحسان قد يؤثّران سلباً على مشاعر الملك الرّقيقة والتي لا شك فيها نحو الملكة الصبيّة، مما قد يهدّد مستقبل العرش. نعم، بل ربما كانت الآنسة المحترمة فِنْتهاغِن قد فكّرت هي نفسها في هذا الأمر! ولعلّ هذا يفسّر ما حدث. وربما كان سفرها المفاجئ ناتجاً عن رغبتها في خدمة بلدها، مملكة الدّنمارك، وأنّها رأت أنّها تقف عائقاً في سبيل تحقيق رغبة العرش بأكمله في أن يُنجب الملك وريثاً يضمن استمراريّة السّلالة الملكيّة. بل قال إنّه يكاد يكون متأكّداً من أنّ هذا هو بالفعل ما حدث.

« أينها؟» سأل كريستيان.

«قد تعود...» أجاب غولدبيرغ «... إن صارت وراثة العرش مضمونة». مضيفاً إنّه مقتنع تماماً بأنّ ترفُّعها عن أنانيّتها هو لمصلحة الدنمارك، وأنّ سفرها المفاجئ وكلّ عدم الارتياح هذا هو أمر مؤقّت، فسيعود الوضع إلى طبيعته. وستعود

هي وتستعيد صداقتها العميقة مع الملك، والّتي...

« أينها؟» زعق كريستيان. « هل تعرف أنّهم يضحكون عليك ويسخرون منك؟ أيّها الحقير... الصّغير... التّافه.. هل تعرف أنهم يلقّبونك بالسّحليّة الذّهبيّة؟»

ران عليه الصمت بعدها كأنّه شعر بالخوف وسأل غولدبيرغ:

« هل سأُعاقَب الآن؟»

كتب غولدبيرغ يقول إنّ مشاعر الحزن العميق والتّعاطف الشّديد نحو الملك استحوذت عليه في تلك اللّحظة.

جلس بالقرب من كريستيان. ما قاله الملك كان صحيحاً: فهو من الخارج – مثل الملك! تماماً مثل الملك! – لا قيمة له، محتَقَرٌ. وكما كان الملك أعظم الرّجال في الظّاهر لأنه ملك، لكنّه كان أكثرهم تعاسةً في الدّاخل، فقد كان هو أيضا تعيس رغم مظهره. لو لم يكن غولدبيرغ ملتزماً بآداب اللياقة وشروط الاحترام الواجبة للملك وما تمليه عليه الأصول، لرغب في أن يصرّح لهذا الفتى الصّغير بأنّه هو أيضاً من أكثر الناس شقاءً. وأنّه مثله، يمقت عدم الطّهارة وقلّة العفّة، ويرى أنّه يجب اجتثاث كل من هو غير طاهر عفيف، بالضّبط كما أنّ العضو الذي يقود بصاحبه إلى التّصرف الشّاذ يجب اجتثاثه. نعم، سيأتي وقت الاجتثاث وسيتمّ عندها حرمان كلّ العاهرين والطّفيليّين في البلاط وحوله من النّعم التي حباهم الله إيّاها. سيُعاقب المبذّرون، المُلحدون، السّكارى والقوّادون الموجودون في قصر الملك. سيكون العرش في مأمن أكيد. ستتعزّز قوّة الملك كريستيان السّابع وستشتعل نار التّطهير آخذة في طريقها كلّ ما هو نتنٌ. عندها سيبرز على السّطح من هم اليوم في القاع.

عندها سيقف هو بجانب من اختاره الله، وسيكونان فرحَيْن بما أتته أيديهما إذ قاما بإضرام النّار المطهّرة من كلّ شرّ.

لكن كل ما قاله غولدبيرغ في تلك اللحظة كان:

« نعم، جلالتك، أنا شخص صغير وعديم الشّأن كليّاً. لكنّي مع ذلك من البشر».

نظر الملك إليه وتعابير الاستغراب على وجهه. سأله ثانية:

« أينها؟»

« ربّما في ألتونا... هامبورغ... باريس... لندن... إنّها شخصيّة عظيمة وراقية، يرهقها القلق حول مصير جلالتك... وينشغل بالها بما يمليه عليها الواجب نحو الدّنمارك...وقد تعود إن تناهت إلى مسامعها أخبار ضمان مستقبل العرش. وإن علمت بأن مستقبل العرش قد أُنقذ».

«في كل أوروبا؟» همس الملك بيأس. «في القارّة كلها؟»

« باريس... لندن...»

سأل الملك:

« هل عليّ أن أبحث عنها في...كلّ أوروبا؟»

همّر الكلب. غطّى الضّباب مياه بحر «الأورسوند»؛ فما عادت رؤية الشّاطئ السويديّ المقابل ممكنة. لوّح غولدبيرغ بيده مشيراً للجنود بالاقتراب. تمّ إنقاذ ملك الدّنمارك من قمّة اليأس والضّلال.

٨

لم يحدث تغيير في مزاج الملك. لكن، وأثناء جلسةٍ خاصّةٍ واستثنائية دُعِي إليها مجلس الوزراء؛ أعلن الملك عن رغبته في القيام بجولةٍ كبرى تشمل كلّ أوروبا.

وضع خارطة أوروبا على الطّاولة في غرفة مجلس الوزراء وكان من بين الحضور إلى جانب غولدبيرغ ورجل يُدعى «رانتزاو» ثلاثة مستشارين حكوميّين. قام الملك باستعراض مسار رحلته بشكلٍ حاسم وغير مسبوق، موضّحاً بأن الغرض من الجولة هو أن تكون ثقافيّة شاملة. الوحيد الّذي بدا مهموماً كان غولدبيرغ، لكنّه لم ينبس بكلمة. اتّفق الباقون على أنّ ملوك أوروبا سيرحّبون بالملك الدنماركيّ الشّاب كندٍّ لهم دون أدنى شكّ.

بعد أن حظي بموافقتهم، تنقّل الملك بإصبعه على الخارطة وتمتم:

« ألتونا... هامبورغ... باريس... أوروبا...»

بعد أن غادر الملك الغرفة، بقي غولدبيرغ ورانتزاو هناك. قام رانتزاو بسؤال غولدبيرغ حول سبب انشغال باله فقد بدا مهموماً إلى أبعد حدّ.

«لا نستطيع أن ندع الملك يسافر دون أن نتخذ الاحتياطات اللّازمة» أجاب غولدبيرغ بعد لحظة صمت. «المخاطر جمّة. عصبيّته... نوبات غضبه الفجائيّة... قد يثير ذلك انتباه جهاتٍ غير مرغوب فيها».

« يجب تأمين طبيب لصاحب الجلالة» قال الكونت رانتزاو عندها «طبيب يستطيع مراقبته وتطييب خاطره».

« لكن من يا ترى؟»

« أعرف طبيباً ماهراً جدّاً» أجاب رانتزاو. « طبيباً مهذّباً، يمارس الطّبّ في ألتونا، وهو مختصّ بالحجامة. ألمانيّ. والداه ملتزمان بالتّقوى، أبوه عالم لاهوت. اسمه «سترونزي.» إنّه ماهرٌ جدّاً. جدّاً».

«أهو صديق؟» سأل غولدبيرغ بوجهٍ خالٍ من أيّ تعبير.» أهو أحد رعاياك؟»

«بالضّبط».

«وقد وقع تحت تأثير أفكارك... التّنويريّة؟»

«لا علاقة له بالسّياسة أبداً» أجابه رانتزاو. « لا علاقة له بالسّياسة... أبداً. مُختصٌّ بالحجامة وصحّة الأطراف. ذلك كان موضوع أطروحته».

«وليس يهوديّاً، مثل ريفيرديل؟»

«لا».

«شابٌّ وسيمٌ، على ما أظنّ؟»

تنبّه رانتزاو فجأة؛ إذ لم يفهم تماماً القصد من هذا السؤال، فكان جوابه مراوغاً لحدّ بعيد، وبلهجةٍ باردةٍ عبّرت عن عدم استعداده لتحمّل أيّ همزٍ أو لمزٍ قال:

«مختصٌّ بالحجامة».

«هل تكفَله؟»

«أُعطيك كلمة شرف!!!»

«كلمة الشّرف لا تساوي الكثير عادة، إنْ أنت من أحد رجال التّنوير».

خيّم جوّ من الصّمت البارد على الغرفة. قطع غولدبيرغ الصّمت بإحدى ابتساماته النادرة قائلاً:

«أمزحُ طبعاً. هل قلتَ إنّ اسمه... سترونزي؟»

وهكذا بدأت الحكاية.

الجزء الثاني

طبيب صاحب الجلالة

الفصل الخامس

الرجل الصّموت من ألتونا

١

لقّبه أصدقاؤه بـ«الرّجل الصّموت». لم يُكثر من الكلام ولم يتكلّم دون سبب، لكنّه ودون شكّ، أتقن الإصغاء.

كان صمتُه لافتا، أو ربّما كان انتباهه لما يُقال هو المهمّ.

وكان اسمه «يوهان فريدريخ سترونزي».

تقع عزبة «أشيبرغ» في منطقة «هولستين» على بعد ثلاثين ميلاً من مدينة هامبورغ وعلى مقربةٍ من مدينةٍ أصغر تُدعى «ألتونا».

أُنشئت في هذه المقاطعة في نهاية سنوات الـ ١٧٣٠ حدائق اكتسبت شهرة في مختلف أرجاء أوروبا وكانت ملكيّة العزبة والحدائق تعود لعائلة تدعى «رانتزاو».

يعود السّبب وراء شهرة الحدائق للأسلوب الخاصّ في هندسة البستنة الّذي طُبّق بها، إذ شُقّت القنوات وأُقيمت المسارب بين الأحواض المستطيلة الشّكل، وزُرعت الشُجيرات الكثيفة الملتفّة. صُمّمت الحدائق بخطوط مستقيمة حسب نماذج تعود لبداية مرحلة «الباروك».

كانت «حدائق أشيبيرغ» نموذجاً رائعاً لهندسة البستنة. لكنّ ما جعل الحدائق تكتسب تلك السّمعة، هي الطّريقة التي استُعملت بها طبيعة الأرض ذات التّضاريس المتميّزة. تمّت عمليّة دمج بين العناصر الطّبيعيّة وبين ما هو مُصطنع. وللحصول على الإيحاء بالأبعاد تماشياً مع طراز الباروك، كان مركز الحديقة هو النّقطة الّتي

انطلقت منها القنوات والمسارب بمحاذاة شاطئ البحيرة. خلف هذا كلّه شمخ متنٌ أُطلق عليه اسم «الجبل»؛ وهو عبارة عن متن به ثنياتٌ عميقة تخلّلتها أودية غريبة الشّكل تشبه نتوءات منحنية كأنّها أرنبة أُذْنٍ تتعرّج عند السّفح.ارتفعتْ هذه البقعة من الأرض خلف المبنى الرئيسيّ للحديقة والخالي من مظاهر الأبّهة. امتازت المنطقة -التّابعة يومها للتّاج الدّنماركي- بوحشيّة طبيعيّة غريبة كل الغرابة عن طبيعة الدّنمارك ذات التضاريس الرّتيبة.

كان الجبل مكسواً بالغابات وتُركت انحداراته على طبيعتها، إذ إنه رغم عمليّة تطويع المكان لفنون البستنة إلا أن الطّبيعة الأصليّة لم تُمَسّ. أودية عميقة متناغمة دون حِدّة. مساطب مستوية تتدرّج على سفح الجبل وأحراش! إنّها الطّبيعة في كمالها، وقد جمعت بين جُهود الإنسان في تطويعها وتشكيلها وبين وحشيّتها وتعابير الحرّيّة الأصليّة فيها في آن معاً. يستطيع المرء أن يطلّ على المنظر كلّه من على قمّة الجبل. بإمكانه أيضاً أن يرى من هناك ما استطاع الإنسان أن يحققه من إعادة إنتاج للطّبيعة المتوحّشة بطريقة جدّ طبيعيّة. امتدّ فرع من «جذع» الجبل إلى الحديقة. هكذا تداخل الوحشيّ بالمروّض من عناصر الطّبيعة. إنّه الحلم المتمدّن، حلم جمع السّلطة والتّطويع من جهة بالحرية والتّفرّد من جهة أخرى.

في إحدى «ثنيات» الجبل، في واد ذي غور، تمّ العثور على كوخين قديمين جدّاً. ربّما كانا في الماضي البعيد بيتّين لفلاحين أو ربّما– وكما صوّر خيال النّاس – كوخين لبعض الرّعاة.

رُمّم أحدُ هذين الكوخين وذلك لسبب خاصّ جدّاً!

بدأت رحلة نفي روسّو سنة ١٧٦٢، حين قرّرت الجمعيّة في باريس إحراق كتابه « إميل».

بحث الرّجل لنفسه يومها عن ملجأ في عّدة أماكن من أوروبا، وكان مالك أشيبيرغ المتقدّم في السن نسبيّاً والشّغوف دائماً بالفكر الإصلاحّي؛ «الكونت

رانتزاو»، قد دعا هذا الرّجل المُضطهد ليُقيم في عزبته. سيقدِّمُ له كوخ الجبل ذاك؛ حيث بإمكان روسّو؛ هذا الفيلسوف العظيم، أن يقيم ويكمل كتاباته -كما زعم البعض- في أجواء تتميّز بالحياة البدائيّة، حيث تتجلّى الطّبيعة التي سبق وأشاد روسّو بذكرها ولطالما أمل بالعودة إليها. ستتاح الفرصة في هذا المكان لأن تتّحد حاجات الفيلسوف اليوميّة مع أفكاره بسلام.

أُقيم «حوض ملفوف» قرب الكوخ لهذه الغاية أيضاً. هنا سيزرع روسو ملفوفاته، وهنا سيعتني بحديقته. لا نعرف بالضبط إن كان حوض الملفوف هذا قد عُدّ إشارةً لما ورد في مثل شعبيّ معروف عن رجل ما «راح يزرع ملفوفاته بسلام وهدوءٍ غير عابئٍ بالسّياسة». على كلّ حال، أُعدّ حوض الملفوف. كان الكونت مطّلعا دون شكٍّ على رواية سابقة لروسّو بعنوان «لا نوفيل أيلواز» والفقرة التي تقول: «تهرب الطّبيعة من الأماكن المطروقة لتكشف عن سحرها على رؤوس الجبال وفي أعماق الغابات أو في الجزر النائية. من أحبّ الطبيعة وما استطاع إليها سبيلا إذ حالت بينه وبينها المسافات، عليه أن يقترب هو منها باذلاً جهده في استحضارها، منسجماً معها بإرادته، وهو ما يستحيل تحقيقه دون قدر وافر من الخيال».

كانت حدائق أشيبيرغ خيرَ مثال لخيالٍ تحقّق فصار على الطّبيعة واقعاً.

لم يأت روسو إلى أشيبيرغ مطلقا، إلاّ أنّ اسمه ارتبط بالحدائق كما بالأسطورة، مما ساهم في منح تلك الحدائق سمعة حسنة على نطاق أوروبا، خاصّة بين المتحمّسين لأفكار الطّبيعة والحرّية. اتخذت الحدائق أهميّة مرموقة على لائحة أسماء «المواقع الرومانسيّة» المشهورة في أوروبا. وتحول «كوخ الفلاّح» المُعدّ لروسّو إلى مكانٍ يلجأ إليه النّاس؛ الكوخ الواقع في أخدود الوادي وحوض الملفوف الّذي أُهمِل تدريجيّاً، أصبح كلّه موقعاً يستحقّ الزّيارة.

لم يعد لموضوع الرّاعي وكوخه أيّ أهميّة؛ بل صار المكان مقصداً ومزاراً لأصحاب الفكر في مرحلة انتقالهم من طور الهيام بالطّبيعة إلى طور اعتناق الفكر التّنويريّ. ازدانت الممرّات كما الأبواب وحوافّ الشّبابيك بالاقتباسات الأنيقة من الشّعر

الفرنسيّ والألمانيّ، وبأشطر من الشّعر المعاصر وما جادت به قريحة الشعراء الشباب.

حتّى والد كريستيان، فريدريك الخامس، صعد إلى كوخ روسّو. سُمّي الجبل منذئذ بجبل الملك» كونيغس بيرغ».

كان الكوخ يومها قد تحوّل إلى ما يشبه المزار المقدّس بالنّسبة لرجال التّنوير الدّنماركيين والألمان الذين التقوا في مقاطعة أشيبيرغ وصعدوا في مسيرة نحو كوخ روسّو، حيث ناقشوا مسائل المرحلة وشؤونها. من بين الأسماء كان «أهليفيلد» و «بيركينتين»، ومن بينها أيضاً «شاك كارل رانتزاو»، «فون فالكينسكيولد»، «كلود لوي دو سان-جيرما»، «أولريخ أدولف هولشتاين»، وكذلك «أينيفولد براندت». عد هؤلاء أنفسهم رجال تنوير.

كان من بينهم أيضاً رجلٌ يُدعى سترونزي.

هنا، في هذا الكوخ بالذّات، وبعد فترة لا بأس بها من الزّمن، سيقرأ سترونزي على مسامع كارولين ماتيلدا، ملكة الدّنمارك، مقطعاً من كتاب لـ «هولبيرغ» بعنوان: « مفهوم الأخلاق».

تمّ اللقاء الأول بين سترونزي والملكة في ألتونا، وهذا القدر من الحكاية معروف للجميع. ما حدث في الواقع هو أنّ سترونزي كان قد رأى كارولين ماتيلدا حين وصلت إلى ألتونا في طريقها إلى الدّنمارك ليعُقد قرانها على ملك البلاد، وقد لاحظ يومها آثار الدموع على وجه الأميرة.

أمّا هي، فلم تلحظ سترونزي يومها. كان واحداً من بين كثيرين تواجدوا في المكان. كانا يقفان في الغرفة نفسها لكنّها لم تره. يبدو أنّ أحداً لم يره في تلك المرحلة، وقليلون هم الّذين استطاعوا حتّى أن يصفوه. كان لطيفاً وصَموتاً، طوله يزيد على المعدّل بقليل، أشقر الشّعر، صاحب فم جميل وأسنان جيدة. ذكر معاصروه أنّه كان من بين أوّل من استعمل معجون تنظيف الأسنان. كان ذلك كلّ ما يمكن أن يقال عنه عندها، تقريباً!.

ريفيرديل، والّذي كان قد التقاه قبل ذلك في «هولستين» صيف سنة ١٧٦٧، علّق قائلاً إنّ سترونزي؛ هذا الطّبيب الألماني الشّاب، يتصرّف بأسلوبٍ محافظ، وإنه صموت ورصين.

مرّة أخرى ترد الصّفات ذاتها إذن: شابّ، صموتٌ، يقِظٌ ورصين.

٢

بعد ثلاثة أسابيع من قرار كريستيان السّابع القيام بجولته الأوروبيّة، قام الكونت رانتزاو وبطلب من الحكومة الدّنماركيّة، بزيارة للطّبيب الألماني يوهان فريدريخ سترونزي في ألتونا عارضاً عليه العمل كطبيب خاصّ للعاهل الدّنماركيّ.

كان الرّجلان على معرفة جيّدة، إذ سبق وأمضيا معاً عدّة أسابيع في أشيبيرغ، ومعاً صعدا إلى كوخ روسو. كانا ينتميان للجماعة ذاتها، وكان رانتزاو متقدّما في السّن، تفصله عن سترونزي الشّاب سنوات عدّة.

سكن سترونزي يومئذ في شقّة صغيرة عند زاوية تقاطع شارعي «باباغوين شتراسه» و»رايخ شتراسه». ويوم أتاه رانتزاو حاملاً له عرض العمل هذا، كان خارج شقّته، يتفقّد المرضى كعادته. نجح رانتزاو في الاهتداء إليه بعد بعض الجهد، لوجده في بيتٍ لا يكاد يصلح لسكنى البشر في إحدى عشوائيّات ألتونا، وذلك أثناء قيامه بحجامة أطفال الحيّ. شرح له رانتزاو الهدف من زيارته دون لفّ أو دوران، وكان جواب سترونزي المباشر ودون تردّد هو: الرّفض.

اعتبر المهمّة غير ذات أهميّة.

كان على وشك أن ينتهي من حجامة أرملة وأولادها الثّلاثة. بدا في مزاج جيّد، لكنّه وبكلّ بساطةٍ لم يعبأ بالعرض.

«لا» قال الطّبيب الشابّ». هذا العرض لا يهمّني». لَمْلَمَ أغراضه وربّت على

رؤوس الأطفال والابتسامه على وجهه. تقبّل من والدتهم كلمات الامتنان، وقبل الدّعوة التي وجّهتها له ولصديقه المحترم لاحتساء كأسٍ من النّبيذ الأبيض في المطبخ.

كانت أرض المطبخ ترابيّة وتمّ إخراج الأولاد إلى الخارج.

انتظر الكونت رانتزاو بصبر ثم قال لسترونزي:

«إنّك تتصرّف بعاطفة جيّاشة يا صديقي. كأنّك «القدّيس فرنسيس» وفقراء ألتونا من حولك. لكن تذكّر أنّك من رجال التّنوير. يجب أن تنظر لبعيد. ما تراه الآن هو الفقراء الموجودون أمامك، ارفع عينيك! انظر عبرهم! لك عقل يتمتّع بذكاءٍ قلّما شهدتُ مثله، وفي هذه الحياة رسالة مهمّة تنتظرك. لا تستطيع رفض عرضٍ كهذا. المرض موجود في كلّ مكان. كوبنهاغن كلّها مريضة».

لم يردّ سترونزي على هذا الكلام، بل... ابتسم!

«عليك القيام بتحدّيات أعظم من هذه. يستطيع الطّبيب الخاص للملك أن يؤثّر في أمور كثيرة. تستطيع من موقعك ذاك أن تضع أفكارك إيّاها حيّز التّطبيق... أن تجعلها حقيقة، حقيقة ملموسة».

لا جواب.

« أيمكنك أن تشرح لي لِمَ علّمتك كل ما علّمتك إيّاه إذن؟» أكمل رانتزاو بنبرةٍ بدت حادّة بعض الشيء. «كل تلك النّقاشات! تلك الدّراسات! أكانت مجرّد نظريات؟ لماذا لا تقوم بتطبيقها؟ لم لا تفعل شيئاً... ملموساً؟»

أثارت تلك الكلمات ردّ فعل سترونزي الذي بدأ يتحدّث بعد لحظة صمتٍ بصوتٍ خفيضٍ جدّاً لكنّه واضحٌ تماماً، عن حياته.

من الواضح أن عبارة «شيئا ملموساً»، أثارت حفيظته.

تحدّث بأسلوب مهذّب، إنّما مبطّن بلهجة ساخرة: «يا صديقي ومعلّمي القدير»، قال: « كنت أظن أنني «أفعل» شيئاً! فأنا أمارس مهنتي. لكن بالإضافة لذلك!... بالإضافة لذلك!... أنا «أفعل» أشياءً عديدةً أخرى. أشياء ملموسة! أقوم بإحصاء وتسجيل كل المشاكل الصّحيّة في ألتونا. أراقب الصّيدليّات العموميّة

الثّلاث الموجودة في هذه المدينة التي يبلغ عدد سكّانها ثمانية عشر ألف مواطن. أساعد الجرحى وضحايا الحوادث. أشرف على علاج المختلّين عقلياً. أُراقب وأساعد في عمليّات التّشريح في معهد التّشريح. أزحف زحفاً في مساكن الأحياء الفقيرة وفي الأوكار القذرة التي لا تصلح للسّكن حيث يرقد النّاس في قرف مُنْتن، وأقدّم المعونة لمن لا حيلة ولا قوة له. أصغي لاحتياجات الفقراء والمرضى. أزور المريضات في سجن النّساء وفي المشفى العموميّ، والسّجن الآخر؛ أعالج المرضى المحكوم عليهم بالإعدام والخاضعين للرّقابة الدّائمة. أولئك المحكوم عليهم هم أيضاً بشر وأيضاً يمرضون، ولهم أقدّم المساعدة كي يبقوا على قيد الحياة بشكل مقبول، على الأقلّ إلى أن تقع فأس السّفاح على رقابهم آتية لهم بالخلاص. أُعالجُ يوميّاً ما بين ثمانية إلى عشرة فقراء ممّن لا يستطيعون دفع ثمن العلاج ويتلقّون المساعدة من صندوق إعانة المحتاجين. أعالج المزارعين القادمين من مناطق خارج ألتونا للعمل بها. أعالج ضحايا الأمراض المعدية. أُحاضر في علم التّشريح. أظنّك تستطيع القول» – قال سترونزي مختتما جوابه –»أنّني معتاد على ما هو ليس تماماً ضمن حقل التنوير الحقيقي في هذه المدينة. هذا كلّه ليس تنويرياً تماماً! ليس على مستوى التّنوير».

«هل أنهيت كلامك؟» سأل رانتزاو بابتسامة.

«نعم. أنهيته».

«إنّي لمعجب حقّاً بك» قال رانتزاو عندئذ.

كانت تلك أطول خطبة سمعها على لسان «الرجل الصّموت». مع ذلك، استمر في محاولة إقناعه. « انظر لبعيد»، قال له. «بإمكانك أنت الطّبيب، أن تعالج الدّنمارك أيضاً. الدّنمارك عبارة عن مستشفى مجانين. البلاط الملكيّ مستشفى مجانين. الملك ذكيّ لكن ربما...مجنون. وجود رجلٍ ذكيٍ متنوّر إلى جانبه قد يُنظّف البيت المقرف هذا والذي اسمه الدّنمارك».

لمعت على شفتيّ سترونزي ابتسامة خفيفة، لكنّ كلّ ما فعله هو أن هزّ رأسه صامتاً.

«كلّ ما تستطيعه حاليّاً» قال رانتزاو «هو عمل الخير على نطاقٍ ضيّقٍ وهذا ما تقوم به فعلاً. إنّي معجب بك حقّاً. لكنّك تستطيع أن تغيّر العالم وذلك حين تقوم بالعمل على نطاق أوسع، لا أن تكتفي بالحلم. ستكون لديك المقدرة على ذلك. لا يمكنك أن تفوّت الفرصة».

جلسا بهدوء لفترة لا بأس بها.

«يا صديقي الصّموت والكتوم» قال رانتزاو أخيراً بنبرة لطيفة:

«يا صديقي الكتوم. ماذا الذي تحمله لك الأيّام؟ أيا صاحب الأحلام النّبيلة الّتي لا حصر لها والّتي يقف الخوف الكامن بك حاجزاً بينك وبين تحقيقها. لكنّك في النهاية صاحب فكرٍ مثلي، وأنّي لأفهمك. إنّنا لا نرغب في تلطيخ أفكارنا بالواقع».

التفت سترونزي عندها إلى رانتزاو ونظر إليه نظرة توجّس، كمن أُصيب بلسعة سوط وتمتم:

«أصحاب الفكر. نعم أصحاب الفكر. أمّا أنا فلا أعتبر نفسي من أصحاب الفكر. أنا بكلّ بساطة طبيب».

في مساء ذلك اليوم، قَبِلَ سترونزي العرض.

مقطع صغير ورد في نصّ اعترافات سترونزي والّتي كتبها لاحقاً أثناء فترة سجنه، يلقي الضّوء على غرابة هذه الحادثة.

يقول سترونزي إنّه صار طبيباً خاصّاً للملك «بالصّدفة!» لم يكن هذا ما تمنّاه أو سعى إليه بالفعل. كانت لديه خطط أخرى تختلف تماماً. كان يفكّر في مغادرة ألتونا والسّفر إلى خارج البلاد «إلى ملقه الإسبانية مثلاً أو إلى الهند الشرقيّة».

لا يوجد تفسير لرغبته تلك. ربّما كانت مجرد رغبة بالفرار إلى شيء ما.

٣

لا، لم يكن سترونزي يعتبر نفسه مفكّراً. كان هناك من هم أكثر جدارة منه بهذا التّصنيف من بين أعضاء جماعة ألتونا.

أحد هؤلاء كان صديقه ومعلمه الكونت رانتزاو. هذا...مفكّر!

امتلك رانتزاو عزبة أشيبيرغ التي ورثها عن والده. كانت العزبة تقع على بعد خمسة عشر ميلاً من ألتونا، والّتي كانت مدينة دنماركيّة في حينه. اعتمدت العزبة من النّاحية الاقتصاديّة على الخدم، وعلى عبوديّة الفلاّحين أو ما عُرف بنظام «صكوك الإعفاء». مع ذلك فقد عومل الفلاّحون بها كما في عزَب ومزارع أخرى كثيرة في منطقة هولستين، معاملة أقلّ وحشية مما عوملوا بها في أماكن أخرى ووفق مبادئ أكثر إنسانيّة.

اعتبر الكونت رانتزاو نفسه صاحب فكر ورجل تنوير.

السّبب في ذلك هو التّالي:

حين كان في الخامسة والثّلاثين من عمره، متزوّجاً وأباً لابنة وحيدة، عُيّنَ قائد كتيبة في الجيش الّدنماركي. جاء هذا التّعيين بسبب خبرته العسكريّة الّتي سبق واكتسبها تحت إمرة المشير «لوفيندال» أثناء خدمته في الجيش الفرنسيّ؛ وهي خبرة مزعومة، صعُب التّحقّق من صحتها. كان الجيش الدنماركيّ بالمقابل ملاذاً آمناً إذا ما قورن بالتّجربة العسكريّة سابقة الذّكر للرّجل. لم تُخفه الحروب، وهو «قائد كتيبة»، كفاه منها وقار اللّقب! بالرّغم من اللّقب وما إلى ذلك، وقع الرّجل في حب مغنّية إيطاليّة مما حطّم سمعته؛ ليس فقط لأنّه جعل منها عشيقة له، بل لأنّه رافق فرقة المسرح الغنائيّ الذي عملت معه في رحلات قامت بها تلك الفرقة إلى جنوب أوروبا. تنقّلت الفرقة من بلد إلى بلد، ولم يستطع قائد الكتيبة أن يتحكّم بتصرّفاته ولا أن يُحكّم عقله. غيّر هيئته وهندامه باستمرار كي يُخفي هويّته؛ فظهر بمظهر «متألّق» مرّة، وكاهن مرّة أخرى؛ وكان ذلك ضروريّاً لأنّه كان قد تكبّد ديوناً فادحةً أينما حلّ.

اتُّهِمَ بالاحتيال في مدينتين من مدن جزيرة صقلية ولكن عبثاً، فقد استطاع أن يترك الجزيرة عائدا إلى يابسة القارّة الأوروبية حيث وصل مدينة نابولي في إيطاليا. وفي مدينة جَنَوَة قام بتزييف اعتماد ماليّ جاء في نصّه: «والدي، حاكم النرويج..،» لكنّه لم يُقَدّم للمحاكمة لأنّه كان في تلك الأثناء قد فرّ ووصل إلى مدينة بيزا، حيث وُجِّهَ له اتهام آخر بينما كان في طريقه إلى آرل الفرنسية. توصلت الشرطة فيما بعد لنتيجة مفادها أن تعقّبه يكاد يكون مستحيلاً.

ترك الكونت المغنّية الأيطاليّة في آرل إثر مشادّة سببها الغيرة، وعاد لفترة وجيزة إلى عزبته كي يتزوّد بالنّقود من جديد. سهّل عليه هذا الأمر وصول هبة ملكيّة إضافيّة له، وصلته بالتّزامن مع وصوله إلى عزبته. بعد زيارته تلك لأشبيرغ، حيث جدّد الاتصال بزوجته وابنته، انطلق إلى روسيا. هناك زار «إليزابيت»، قيصرة روسيا التي كانت على فراش الموت. حسب تحليله، فإنّ من سيخلفها على الحكم سيحتاج إليه- أي إلى رانتزاو- كخبير في الشّؤون الدّنماركيّة والأوروبّية. الهدف الآخر من وراء رحلته هذه إلى روسيا، كان الاستفادة مما تناقلته إشاعة دارت حول حرب وشيكة بين الدّنمارك وروسيا عند تولي الحاكم الجديد لروسيا العرش، وعندها سيكون باستطاعة رانتزاو تقديم خدمات معيّنة لذلك الحاكم الرّوسيّ الجديد، خاصّة وأنّ معرفته بالجيشين الدنماركيّ والفرنسيّ بالغة الأهمّية.

رغم هذا العرض الذي كان سيأتي بالفائدة على روسيا، فقد نظر كثيرون من الرّوس نظرة عداوة لهذا النّبيل الدّنماركيّ. عدم نشوب الحرب، إلى جانب علاقاته النّسائية الكثيرة، اجتمعت كلّها ضده وأثارت الشّك بهذا «الجاسوس الدنماركيّ». اضطر رانتزاو إلى الفرار من روسيا إثر خلاف مع البلاط الرّوسيّ حول امتيازات حصل عليها «من سيّدة رفيعة المقام»، فانتهى به الأمر في غدانسك البولونية، حيث فرغت جعبته من النّقود.

هناك التقى برجل يعمل في التّصنيع.

كان هذا الرّجل يأمل بأن يستقرّ في الّدنمارك بغرض الاستثمار، وأن يكون

تحت حماية حكومة تشجّع الاستثمار التّجاري الأجنبيّ. أكّد الكونت رانتزاو لهذا المُصَنّع بأنّه يستطيع أن يضمن له الحصول على الحماية المطلوبة من خلال علاقات تربطه بشخصيّات في البلاط. بعد أن تصرّف بجزء من رأس المال الّذي وضعه المستثمر المذكور تحت تصرّفه، دون أن يؤمّنَ له الحماية المطلوبة، نجح الكونت رانتزاو في العودة إلى الدّنمارك، المملكة الّتي لم يعد يرغب في خيانتها لمصلحة القيصريّة الروسيّة. قدّم له البلاط عندئذ الهبة السنويّة الّتي يقدمها لبعض الوجهاء من أصحاب الألقاب والمراتب وهو منهم. برّر رانتزاو ما قام به في روسيا قائلاً إنّه كان قد ذهب إلى هناك كجاسوس دنماركيّ، وإنّ في جعبته الآن أسراراً قيّمة تفيد الدّنمارك.

بقيت زوجته وابنته طيلة تلك الفترة في عزبة أشيبيرغ، بينما جمع هو حوله مجموعة من أصحاب الفكر ورجال التّنوير هناك.

كان الطّبيب الشّاب والمدعو سترونزي أحد هؤلاء.

عدّ الكونت رانتزاو نفسه «رجل فكر» بفضل المسار الّذي سلكه في حياته والعلاقات الدّولية الواسعة الّتي أقامها، إلى جانب ما تبقّى له من تأثير مارسه على البلاط.

كذلك لعب بعد فترة وجيزة دوراً مركزيّاً في الأحداث التي أحاطت بالثّورة الدّنماركيّة، وهو دور اتّسم بالتقلّب وتغيير المواقف، الأمر الّذي لا يمكن فهمه إلاّ من خلال سيرته الّتي تقدّم ذكرُها.

أمّا الدّور الذي لعبه فكان دور... «المفكّر!»

أوّل خدمة قدّمها للدّنمارك كانت أن أوصى بالطّبيب الألماني ي. ف. سترونزي، ليكون الطّبيب الخاصّ لصاحب الجلالة؛ الملك كريستيان السّابع.

٤
غريبة حقاً ألتونا هذه!

تقع المدينة بالقرب من مصبّ نهر «إلبه». كانت يومها مركزاً تجارياً وعدد سكّانها ثمانية عشر ألفاً، وقد حصلت في منتصف سنوات الـ ١٦٠٠ على براءة الاعتراف بها كمدينة. تطوّرت ألتونا وصار ميناؤها أوّل ميناء حرّ في الشّمال، حرّ أيضاً بفضل التيّارات الفكريّة العديدة التي انتشرت هناك. فالفكر الليبرالي مهمّ أيضاً للتّجارة.

يبدو أن جوّ الانفتاح يجذب الخير من طرفين؛ الفكر والمال, وهكذا صارت ألتونا بمثابة بوّابة الّدنمارك على أوروبا، والمدينة الثّانية في أهمّيتها بعد كوبنهاغن. تقع ألتونا قريباً من هامبورغ؛ الميناء الألمانيّ الكبير والمفتوح على التّجارة الحرّة. عُرفت المدينة في نظر المحافظين بسمعتها كوكر أفاعٍ من أصحاب الفكر المتطرّف أو الرّاديكالي.

كان هذا هو الرّأي السّائد عن ألتونا؛ وكرُ أفاعٍ. لكن بما أنّ الفكر الراديكاليّ أثبت ربحيّة ماديّة، فقد سُمح للمدينة بأن تحافظ على حريتها الفكريّة.

وُلد سترونزي سنة ١٧٣٧، وفي عمر الخامسة عشرة انتسب إلى جامعة «هال» لدراسة الطّب. كان والده، المدعو آدم سترونزي، عالم لاهوت سبق وأن سُجن بسبب مبدأ «التّقوى» الذي اتّبعه، وصار بعد ذلك أستاذ لاهوت في جامعة هال. كان الوالد تقيّاً، ورعاً، متقّفاً، بدا عليه الغمّ والميل للكآبة، بينما وُصفت والدة سترونزي كصاحبة مزاج أقلّ حدّة. مبدأ التّقوى الذي انتميا إليه كان حسب مدرسة «فرانك»، الذي قال بأهميّة الرّفاه الاجتماعي، وتأثّر بفكرة تحفيز العقل؛ وهي النّظريّة الّتي ميّزت جامعة هال في حينه. كان هذا البيت؛ أي أفراد عائلة سترونزي، بيتاً «يخضع» للسّلطة؛ سلطة الفضيلة والأخلاق الحسنة.

لكنّ الأمر انتهى بأن تمرّد سترونزي الشّاب وصار ليبراليّاً متحرّراً وملحداً، فلو أتيحَ المجال للبشر بأن يختاروا بحريّة حسب رأيه، لوقع اختيارهم وبمعونة العقل،

على فعل الخير. كتب فيما بعد يقول إنّه سبق وتبنّى فكرة مفادها أنّ الأنسان بمثابة «آلة»، وهو مصطلح عبّر عن حلم أصحاب الفكرة التي قالت في ذلك الحين بتحكيم العقل. لقد استخدم هذا المصطلح في الواقع وقال إنّ التّركيب العضوي للإنسان هو ما يؤديّ لوجود الرّوح والعواطف، الخير والشّر.

يبدو أن ما قصده هو أن مضاء الذّهن والرّوحانيّة لا تُمنح للبشر بواسطة كينونة أعلى، إنّما تتشكّل عن طريق خبراتهم الحياتيّة. أمّا التزاماتنا نحو الآخرين فهي ما يُعطي للأشياء معنىً ويمنحنا القناعة الذّاتيّة الدّاخلية بل يجعل للحياة هدفاً كما أن هذا الالتزام هو ما يُحدد تصرّفات البشر.

هكذا يكون مصطلح «آلة» مصطلحاً مُمَوّهاً، إذ يجب النظر إليه بالأحرى كمصطلح له بعد شاعريّ.

كتب سترونزي أطروحته لنيل درجة الدّكتوراة، وكانت بعنوان «حول مخاطر الحركات الشّاذّة للأطراف».

أتى تحليله شكليّاً لكن نموذجيّاً وتميّزت أطروحته – والّتي كتبت بخطّ اليد على كل حال– بميزة واحدة غريبة من نوعها إذ رسم سترونزي في الحواشي وجوهاً لأشخاص بلون حبر يختلف عن لون كلمات النص. بهذا يكون الرّجل قد قدّم صورة لذاته الدّاخليّة، عكست الطّموح والارتباك معاً. لقد سمح للوضوح الفكري الكبير الوارد في الأطروحة بأن يُحجب بصور لوجوه أشخاص.

بالمناسبة، ناقشت الأطروحة أهمّيّة الطّب الوقائي بالأساس وضرورة ممارسة التّمارين الرّياضيّة مع الإشارة إلى أهمّيّة توخّي الحذر الشّديد في حال أُصيب المرءُ بالمرض أو تعرّض للجرح.

تكشف الأطروحة عن أنّه فنّان موهوب، فالوجوه الّتي رسمها لافتة.

انتقّل سترونزي إلى ألتونا وهو في العشرين من عمره حيث مارس مهنة الطّب.

لطالما اعتبر نفسه طبيباً حتّى في مراحل لاحقة.

ليس فنّاناً إذن، ليس سياسيّا، وليس مفكّراً؛ أنّما طبيب.

لكن الجانب الآخر من شخصيته هو جانب الخبير بالشّؤون العامّة.

إن كان الفكر التّنويري قد بدا صارماً متشدّداً لاعتماده العقل والحجّة ولاعتقاده بأهميّة المعاينة العلميّة المبنيّة على التجارب، إن في إطار الطّبّ أو الرّياضيّات أو الفيزياء وعلم الفلك، فإن هذا الفكر قد بدا ليّناً سمحاً من جانب آخر، وهو جانب الحرّيّة الفكريّة، الانعتاق من القيود، والتّسامح مع الآخر.

في ألتونا، ابتعد سترونزي عن الجانب الصّارم للفكر التّنويري، ومال إلى الجانب اللّيّن الدّاعي للحرّيّة كضرورة حتميّة.

في العدد الأوّل من أوّل صحيفة أصدرها (موناتشرفت تسوم نوتسن أوند فيرجنوجن) نجد تحليلاً مطوّلاً حول مخاطر انتقال الجماهير من القرية إلى المدينة. إنّه تحليل طبّيّ-اجتماعيّ.

هنا أيضاً يقف الطّبيب موقف السّياسيّ.

«التّمدين» كما كتب، «هو خطرٌ طبّيّ بتفرّعاتٍ سياسيّة. نظام الضّرائب، الخدمة العسكريّة وتبعاتها الخطيرة، العلاج الطّبيّ التّعيس، الإدمان على الكحول، كلّها عوامل تخلق بروليتاريا المدن — وهي ظاهرة يمكن تجنّبها عن طريق نظام صحّيّ أكثر تطوّراً وأكثر نجاعة في خدمة الفلاّحين». يُعطي الكاتب صورة مقزّزة لكن هائلة في الواقع عن الحالة الاجتماعية للدّنمارك كبلدٍ في طور الانحطاط: «هناك تراجع حادّ في عدد السّكّان بينما وباء الجدري يستشري وينتشر». يلفت الانتباه أيضاً إلى ظاهرة أخرى إذ يقول إنّ «عدد الشّحّادين من بين الفلاّحين يزيد على السّتّين ألف شخص».

لسترونزي مقالات أخرى تحمل عناوين مثل:«حول ظاهرة النّزوح» «حول النّاموس» و«حول ضربة الشّمس».

لكن نصّاً ساخراً وغير مُهذّب نشره بعنوان « مديح لما للكلاب ولبراز الكلاب من أثرٍ سحريّ»، تسبب في تحطيم سمعته. اعتُبرَ النصّ —وبحقّ— تهجّماً شخصيّاً على طبيبٍ معروفٍ في ألتونا كان قد جمع أموالاً طائلة لقاء دواءٍ مريبٍ صُنعَ من خلاصة براز الكلاب لعلاج الإمساك!

صودرت الصحيفة.

أصدر على أيّ حال صحيفة أخرى في السّنة التّالية، بذل فيها جهده للامتناع عن استعمال ملاحظات التّشهير أو عن التّصريحات التي قد تُفسّر على أنها انتقاد للحالة الدينيّة في البلاد. ولكنه فشل في ذلك، إذ تسبّب مقال له حول الحمّى القلاعيّة، في إثارة النّقد الدينيّ.

صودرت الصحيفة هذه المرّة أيضاً.

تناول سترونزي في آخر كتاباته، والّتي كتبها في السّجن وأنهاها يوماً قبل إعدامه، ما يمكن تسميته بالفترة الصّحافية من حياته: «التطوّر الّذي حدث على تفكيري من حيث معاني الأخلاق ومفاهيمها في تلك المرحلة، حدث أثناء دراستي لكتابات فولتير، روسّو، هيلفيتيوس، وبولونجيه. صرت مفكّراً حرّاً، أؤمن بأنّ قدرةً عُليا قد خلقت العالم والبشر دون شكّ، لكنّي لم أقتنع بفكرة وجود حياةٍ ما بعد هذه الحياة، كما صرتُ أعتقد بأنّ الواحد منّا يمتلك سلطةً أخلاقيّة فقط إذا أثّر على المجتمع بالطّريقة المناسبة. لم أجد منطقاً في الاعتقاد بالعقاب في الحياة الآخرة. يُعاقبُ النّاس في الحياة الدّنيا بما فيه الكفاية. الإنسان الفاضل هو ذلك الّذي يقوم بعمل مفيد. مبادئ المسيحية صارمة جدا وما أتت به من حقائق يمكن أن نجدها موضّحةً بشكلٍ لا يقلّ جودة في كتابات الفلاسفة. ما اعتبرته المسيحية آثاماً تثيرها الشهوانية الكامنة فينا، هو في نظري ضعف مقبولٌ ما دام لا يضرُّ بصاحبه أو بالآخرين».

كتب المناوئون لسترونزي تلخيصاً لأفكاره بشكل مقتضب جدا قائلين: «البشر بالنّسبة لسترونزي مجرّد آلات».

على كلّ حال، فإنّ أكثر الكتب شأناً في نظر سترونزي نفسه، كان كتاب لودفيغ هولبيرغ «مفهوم الأخلاق». بعد إعدام سترونزي، وُجدت نسخة من الكتاب باللّغة الألمانية، وقد اهترأت صفحاتها من كثرة القراءة وامتلأت بآثار أصابعه وما خطّه بقلمه تحت السّطور.

فصل من فصول ذلك الكتاب سيغيّر حياته.

٥

انطلق الملك كريستيان السّابع في جولته الأوروبيّة بتاريخ ٦ أيار/مايو ١٧٦٨، وقد أُعلِنَ أن الغاية من الرّحلة هي القيام بـ»جولة ثقافية». ضمّ موكب الملك ما يقارب خمسة وخمسين من الحاشية، وكان جوّ الرّحلة جوّ محبّة على طريقة «شتيرن» (زُعِم فيما بعد بأن كريستيان كان قد تأثّر جدّاً بالجزء السّابع من كتاب شتيرن الشهير « تريسترام شاندي»). هدفت الرّحلة أيضاً إلى ترك انطباع عميق لدى العالم خارج الدّنمارك بأنّ البلد ما زال بخير، لا ينقصه من الغنى والقوة شيء، وذلك بفضل ما يتمتّع به الموكب الملكيّ من عظمة وأبّهة سيراها النّاس حيثما حلّ.

كان من المفروض في بداية الأمر أن يضمّ الموكب عدداً أكبر من الحاشية، إلاّ انّه قُلّصَ بالتّدريج. أحد المرافقين الّذين تمّ الاستغناء عنهم من بداية الرّحلة كان «أندرياس يورت». أُعيد هذا إلى العاصمة ثم نُفيَ إلى جزيرة «بورنهولم»، لأنّه حين ثمل، كشف بـ«فلتة لسان» وعلى مسمع كلّ من حوله، بأن الملك كان قد كلّفه بالبحث عن كاترين أم البوط خلال تلك الرّحلة.

انضمّ سترونزي إلى الموكب في ألتونا.

كان اللّقاء الأوّل بين سترونزي والملك غريباً جدّاً.

نزل الملك في بيت رئيس البلديّة، وفي مساء أحد الأيّام حين بعث في طلب أحد مرافقيه المدعو أندرياس يورت، قيلَ له إن يورت قد استُدعيَ للوطن. لم يُعطَ

كريستيان أي تفسير لهذا التصرّف، واعتُبر تصرّف المرافق المذكور غامضاً، قد يكون لنتيجة مرض فجائي لأحد أفراد أسرته.

عادت التشنّجات الغريبة لتظهر على كريستيان الّذي أخذ يحطّم بعنفٍ كلّ ما في الغرفة، قاذفاً الكراسي ومهشّماً النّوافذ. تناول يومها أيضاً من المدفأة قطعة فحم خلفتها جمرة قد انطفأت، وكتب بها على السّجاد الحريريّ البارع الجمال اسم غولدبيرغ مع خطأٍ مقصودٍ في التّهجئة. أُصيبت يدُ الملك خلال هذه الجلبة بجرح وبدأت تنزف دماً. هكذا قام سترونزي بأوّل مهمّة له في هذه الرّحلة، ألا وهي مهمّة تضميد جروح يد الملك.

استُدعيَ الطّبيب الجديد الخاصّ بصاحب الجلالة.

الصّورة التي علقت في ذهن سترونزي من أوّل لقاء له بكريستيان كانت كالتّالي: صبيّ هادئ، نحيف، يجلس على كرسيّ ويده دامية بينما عيناه تحملقان ببساطة إلى الأمام وفي .... لا شيء!

بعد صمتٍ طويل سأله سترونزي بلطف:

«جلالتك، هل تستطيع أن تفسّر هذا الـ...غضب الفجائيّ؟ لست ملزما بالطبع، لكن...»

«لا، لست ملزماً».

أضاف كريستيان بعد برهة:

«لقد خدعوني. لا وجود لها في أيّ مكان. حتى لو كانت في مكان ما، فهو ليس المكان الذي نتوجّه إليه. وإن كانت هناك، فسيأخذونها إلى مكان آخر. ربّما ماتت. إنّه خطئي. يجب أن أُعاقَب!»

يكتب سترونزي في ملاحظاته بأنّه لم يفهم شيئاً حينها (لكنّه فهم جيّداً فيما بعد) وبأنّه أخذ بكلّ بساطة وهدوء يضمّد يد الملك.

«هل وُلدت في ألتونا؟» سأله كريستيان.

أجاب سترونزي:

«ولدتُ في هال. لكنّي أتيت إلى ألتونا في عمر مبكر».

«يقولون» أضاف كريستيان «أن لا شيء في ألتونا غير المفكّرين الأحرار ورجال تنوير يريدون تحطيم المجتمع وتحويله إلى أنقاضٍ ورماد».

ما كان من سترونزي إلاّ أن هزّ رأسه بهدوء بينما أعاد الملك قوله: «تحطيم!!! المجتمع الحالي!!!»

«نعم، جلالتك،» أجاب سترونزي. «هذا ما يقولون. آخرون يقولون إنّها مركز أوروبيّ للفكر التّنويريّ».

«وماذا تقول أنت يا دكتور سترونزي؟»

كان الطبيب قد انتهى من تضميد الجرح وما زال جاثياً على ركبتيه مقابل كريستيان حين قال:

«أنا من رجال التّنوير» قال سترونزي،»لكن أوّلاً وقبل كلّ شيء أنا طبيب. إن رغبت جلالتك، فسأترك وظيفتي في الحال وأعود لممارسة مهنتي كالعادة».

في تلك اللّحظة، نظر كريستيان إلى سترونزي نظرة اهتمامٍ مفاجئ دون أن يبدو عليه أي انزعاج أو ضيق من صراحة الرّجل، والتي كان من الممكن اعتبارها تطاولاً.

«ألم ترغب يوماً، يا دكتور سترونزي، بأن تطهّر المعبد من الفاسقين؟» سأل بصوت خفيض.

لم يتلقّ جواباً. ثم أضاف:

«أن تطرد الباعة والمنتفعين من المعبد؟ أن تحطّم كل شيء؟ حتى يعود كلّ شيء طاهراً من جديد ويُبعث من الرماد ثانية... كالعنقاء؟»

«واضح أنّ جلالتك على اطّلاع جيّد بما ورد في التوراة» أجاب سترونزي دون توضيح.

«ألا تظن أنّه من المستحيل أن يحدث تحسّن؟ تحسّن! إن لم تكن صلباً... ولم تُحَطِّم... كل شيء حتى يصير المعبد...»

فجأةً أخذ يروح ويجيء في الغرفة المفروشة بحطام المقاعد والزّجاج. الانطباع الذي تركه على سترونزي كان أنه يثير الحزن والأسى، فمن الصّعب أن يصدّق المرء أنّ هذا الدّمار كلّه قد أتى من هذا الصّبيّ النّحيل ذي الهيئة الضّئيلة والهزيلة.

اقترب الملك حينها من سترونزي ووقف قريبا منه ثم همس:

«تسلّمت رسالةً من مسيو فولتير. إنّه فيلسوف له وزنه. بعثتُ له بالنقود لسداد مصاريف المحكمة. لقد حيّاني في رسالته. وصفني بـ... بـ....»

انتظر سترونزي، ثم نطق كريستيان بلطف مطلقاً أول رسالة سريّة ستجمع ما بين الرّجلين. نعم، سيتذكّر سترونزي هذه اللّحظة فيما بعد، وسيصفها في الملاحظات التي سيدوّنها في زنزانة سجنه لاحقاً على أنها كانت لحظة حميميّة بالمطلق، لحظة أفضى هذا الصّبي الصّغير والمجنون، الملك بفضل الله، بسرّ قيّم لسترونزي دون سابق معرفة، وأن هذا السرّ سيوحّد بينهما إلى الأبد.

«... لقد حيّاني إذ وصفني بـ... رجل تنوير».

لم يكن هناك أثر لصوت في الغرفة. استمرّ الملك مع ذلك قائلاً بالصوت الهامس ذاته:

«قرّرت أن ألتقي بالسّيد فولتير في باريس. لقد تعرفت عليه عبر مراسلاتنا المتبادلة. هل أستطيع أن أصطحبك معي؟»

أجاب سترونزي وابتسامة صغيرة ارتسمت على وجه:

«سيكون ذلك من دواعي سروري، جلالتك».

«هل أستطيع أن أثق بك؟»

أجاب سترونزي ببساطة وهدوء:

«نعم، جلالتك. أكثر ممّا تتصوّر».

الفصل السادس

رفيق الدرب

١

كان من المتوقّع أن تطول الرّحلة المُزمع القيام بها، فتستمر لمدّة ثمانية شهور على الأقلّ، يجتاز بها الخمسة والخمسون مرافقاً مسافةً تتعدّى الأربعة آلاف كيلومتر على ظهور الخيل وبالعربات. القسم الأكبر من الطريق كان في حالة سيّئة، بل في غاية السّوء، وسيحل على المسافرين صيف وسيأتي خريف يتبعهما في النّهاية شتاء. كذلك، فإن العربات لم تكن مُدَفّأة، مما يعني أنّ تيّار الهواء الشّديد البرودة كان سينفذ إلى داخلها. ثمّ إنّ الغاية من هذه الرّحلة كانت مجهولة للجميع — كل ما عُرف عنها هو أنّه كان يجب القيام بها وأنه على الجماهير وكذلك على الفلاّحين (مع التّمييز بين الجماهير والفلاّحين) — أن يقفوا على امتداد خطّ سير الرّحلة فاغرين أفواههم وهاتفين بالتّحيّة أو صامتين بصبر على هذا العذاب.

كانت الرّحلة ستستمرّ وتستمرّ وتستمر، ولا بد من قصد وراءها.

أمّا القصد فهو المضيّ بالملك الصّغير المطلق الصّلاحيّات قُدُماً عبر وابل الأمطار. وهو ملك يعيش حالة عدم اكتراث متزايد، يكره منصبه ويختبئ في عربته، يعاني من حالة تشنج ويحلم بشيء آخر لا يعلم أحد ما قد يكون. كان على الموكب الضّخم أن يحمل هذا الملك ويتنقّل به من بلد إلى بلد في أوروبا بحثاً عن شيء ما، لعلّه حلمٌ دفين في أعماق هذا الشّاب التائق لاكتشاف سيّدة الكون الّتي ستعيد الأمور إلى ترابطها المنطقيّ؛ حلم باطنيٌّ قد بهت، مُحِي واضمحل، كبقايا غضب ما عادت الكلمات تطيق أن تفصح عنه.

شقّ الموكب طريقه كاليراعة تحت أمطار أوروبا المنهمرة، متوجّهاً نحو العدم. انطلقت الرحلة من كوبنهاغن عبر «كولينغ»، «غوتورب»، «ألتونا»، «تسيلي»، «هاناو»، «فرانكفورت»، «دارمشتادت»، «ستراسبورغ»، «نانسي»، «ميتس»، «فيردان»، «باريس»، «كامبري»، «ليل»، «كاليه»، «دوفر»، «لندن»، «أكسفورد»، «نيو ماركت»، «يورك»، «ليدز»، «مانشيستر»، «ديربي»، «روتردام»، «أمستردام»، «أنتفيربين»، «غينت»، و «نايمنغن». لا، لا، لم تكن الرّحلة بهذا التّرتيب! بدت الصّورة وكأنّها قد تشوّشت بعد فترة؛ ألم تأت «نايمنغن» قبل «مانهايم»؟ و«أمستردام» قبل «ميتز»؟!

نعم، ذلك بالفعل ما حصل.

لكن السؤال المحيّر هو: ما القصد من وراء هذه الجولة الغريبة العجيبة تحت أمطار أوروبّا المنهمرة بغزارة؟

صحيح أن أمستردام أتت قبل نايمنغن في التّرتيب وأن ذلك كان في بداية هذه الرّحلة الغامضة كما يذكر سترونزي جيّداً. يومها، وعلى مشارف أمستردام، كان الملك في عربته حين أسَرَّ لسترونزي في لحظة مكاشفة صادقة، بأنه: «قد نوى أن يتحرّر من قيود رتبته كملك ومن نظام التّشريفات وقواعد السّلوك الرّسمية. سيحقّق فكرة الهرب الّتي سبق وراودته فناقشها في أحد الأيام مع مربّيه ريفيرديل».

يسجّل سترونزي في ملاحظاته أيضاً التّالي: « اقترح عليّ وبكلّ جديّة أن أهرب معه. سيصبح جندياً ولن يكون تابعاً لأحدٍ بل سيّد نفسه.»

حدث ذلك على مقربة من أمستردام. أصغى سترونزي بصبر ثم أقنع كريستيان بأن ينتظر بضعة أسابيع أو على الأقلّ إلى ما بعد لقائه المزمع بفولتير وبالموسوعيّين.

أصغى كريستيان وكأنّه يسمع نداء إغراء واهن لأمر كان في أحد الأيام على قَدرٍ كبير من الأهميّة وصار الآن بعيداً كلّ البُعد.

- «فولتير؟»

ران الصّمت عليهما بينما أكملت العربة طريقها إلى أمستردام. استرق الملك

النّظر من الشبّاك إلى الخارج وكان يرى عدداً لا حصر له من الوجوه.

« إنّهم يحملقون بي وأنا أيضاً أحملق بهم. لكنّي لا أرى كاترين».

لم يعد الملك يذكر خطّة الهرب تلك.

لم يُرسَل تقريرٌ بهذا الحدث بالذّات، إلى كوبنهاغن.

غطّت التقارير كل شيء عداه. أُرسلت رسائل لا حصر لها وقُرئت كلها بتمعّن.

اعتادت الملكات الثّلاث لعب الورق ثلاث مرّات في الأسبوع. كانت اللُّعبة هي لعبة «التّاروت». حملت الأشكال المرسومة على الورق إيحاءات مختلفة، خاصّة الرّسم الذي صوّر رجلاً مشنوقاً. كانت الملكات الثلاث المشاركات في اللعب هنّ: «صوفي ماجدولين»، أرملة الملك كريستيان السّادس والّتي عاشت أربعاً وعشرين سنة بعد وفاته؛ «جوليان ماري»، أرملة الملك فريدريك الخامس؛ وكارولين ماتيلدا.

اعتُبرَ وجود ثلاث ملكات من ثلاثة أجيال في الوقت نفسه في القصر أمراً عادياً لأنّه كان من الطبيعيّ في العائلات المالكة أن يقضي الملوك حتفهم بسبب الخمر وألاّ يترمّلوا، وإن حدث وماتت ملكة أثناء الوضع، فإن الملك الأرمل كان يتزوّج ثانيةً، ويعيد الكرّة، تاركاً في نهاية المطاف ملكةً أرملة هي أشبهُ بمحارةٍ مُهملة ملقاة على الرّمال.

لطالما تحّدث الخَلَف عن تقوى الملكات الأرامل وشدة التزامهن. وهو ما لم يؤثر، حقيقة، على مستوى الكلام الذي تفوّهن به. طوّرت جوليان ماري بالتحديد، لغةً تعتمدُ كلاماً نابياً بشكلٍ غير عاديّ لدرجة أن اعتُبر كلامها سوقيّاً.

قد يقول المرء إنّ من متطلبات الدّين قول الحقيقة، وإنّ التّجارب الخاصّة والمروّعة الّتي مرّت بها الملكة، شحنت لغتها بمفردات صريحة ومباشرة بشكل غريب لدرجة صدمت الكثيرين.

أسدت جوليان ماري التّوجيه والنّصح للمكلة الشّابة كارولين ماتيلدا خلال

أمسيات التّاروت، إذ كانت ما تزال تنظر إليها على أنها عديمة المواهب، تفتقر للإرادة.

فيما بعد، ستغيّر الأرملة رأيها.

في إحدى أمسيات التاروت قالت جوليان ماري :» لقد وصلتنا عدّة برقيّات غير مطمئنة من موكب الملك. لقد كسب الطّبيب الّذي عُيّنَ في ألتونا كمرافق خاصّ ومؤقّت للملك، ثقة جلالته. إنّهما يجلسان معاً في عربة الملك طول الوقت. يُقال إنّ سترونزي هذا من جماعة التّنوير. إن صحّ ذلك، فإنّها كارثة وطنية. إبعاد ريفيرديل كان خطوة إيجابية وغير متوقعة، لكنّها لم تُجدِ لأنّ وكر الأفاعي ما يزال موجوداً».

لم تجب كارولين ماتيلدا بأيّ كلمة – وهي الّتي اعتقدت أنّها تدرك السّبب وراء الطرد الفجائي لريفيدريل –.

«سترونزي؟» سألت كارولين ماتيلدا ببساطة. « أهو ألمانيّ؟»

«لست مرتاحة لذلك» قالت الملكة الأرملة ثم أضافت: «حسب الوصف، فإن الرّجل ذكيٌّ، ساحر للنّساء، سيّء الأخلاق وأصله من ألتونا، التي كانت دائماً وكر أفاع. لا يخرج شيء صالح من ألتونا».

«جاء في البرقيّات أيضاً،» قالت صوفي-مجدلين؛ الملكة الأرملة الأكبر سنا، بلهجة اعتراض على كلام جوليان ماري «إنّ الملك صار أهدأ وإنّه لا يبحث عن العاهرات».

«كوني سعيدة إذن» علّقت جوليان ماري، « كوني سعيدة إذ سيغيب لمدّة سنة. زوجي، الملك الراحل، كان مضطّراً لإفراغ ما بجعبته من البذور يومياً كي يشعر بالارتياح. كنت أقول له: أفرغ ما عندك في العاهرات، لا بي! لستُ بالوعةً! لستُ مصرفاً صحّيّاً! تعلّمي منّي يا صديقتي الصّغيرة. يمكنك أن تحققي البراءة والأخلاق بنفسك. استعادة البراءة ممكنة بالاعتراض على الخطأ».

«إن كان من رجال التّنوير،» سألت الأرملة المسنة،» فهل يعني ذلك أنّنا قد ارتكبنا خطأ؟»

«لسنا نحن من فعل ذلك،» أجابت الملكة الأرملة «بل غيرنا».
«غولدبيرغ؟» سألت الملكة المُسنّة. «إنّه لا يخطئ».

أمّا الملكة الشّابة، فكان تعليقها الوحيد على اسم ادعت فيما بعد أنها سمعته لأول مرة على طاولة التاروت:

«يا له من اسم غريب. سترونزي؟»

٢

كانت الرّحلة متعبة جدّاً ومزعجة.

أوروبا أزعجت الملك. حملق النّاس بكريستيان. أصابه الضّجر. شعر بالخجل وخشي من أمر لم يعرف كنهه – أهو العقاب؟ في الوقت نفسه تاق للعقاب علّه يُحرّره من الخجل.

كان قد انطلق في رحلة وضع لها هدفاً محدّداً. اتّضح له فيما بعد أنّ هذا الهدف غير موجود. بعد ذلك استجمع شجاعته على اعتبار أنّها وسيلة يستطيع المرء بوساطتها أن يكون صلباً، غير هشّ. بحث له عن أهداف أخرى للرّحلة، كأن تشمل الجولة الأوروبية أعمال شطط أو لقاءات مع شخصيات عدة. لكنّ الأمر لم يكن على هذه الصّورة؛ فأعمال الشّطط الّتي ارتكبها لم يكن لها مثيل، وأما الاجتماعات فأرعبته.

لم يبق إلاّ العقاب إذن.

لم يعرف كريستيان ماذا يقول لهؤلاء المحملقين به. كان ريفيرديل قد علمه عدة جمل بليغة يستعرض بها ذكاءه، وكانت عبارة عن أقوال مأثورة وحِكَم تصلح تقريباً لكل زمانٍ ومكان. يظهر أنه قد بدأ ينسى الجُمَل، فقد رحل ريفيرديل.

إنّه لأمرٌ مفزع بلا شكّ، أن يكون المرء جزءاً مهمّاً من مشهدٍ ويكتشف فجأة أنّ السّطور الّتي كان يحفظها قد مُحيت كليّاً من ذاكرته.

في رسالة كتبتها الكونتيسّة الشّابّة «فون زويلان» جاء أنّها التقت ملك الدنمارك كريستيان السّابع، أثناء توقّفه في قلعة «تيرمير» خلال جولته الأوروبية.

تصفه بضئيل الحجم والصّبيانيّ، فهو «في الحقيقة أشبه بصبيّ في الخامسة عشرة من عمره». كان الملك صغير الحجم نحيلاً، يميل لون وجهه الباهت المُصفرّ إلى شحوبٍ مرضيّ، كما لو أنّه قد طُلي بمسحوق أبيض. بدا مشلول الحركة وغير قادرٍ على التواصل مع محدّثيه. وجّه لمرافقيه بضع ملاحظاتٍ بدت كما لو أنه قد حفظها عن ظهر قلب، لكن بعد أن خفتت هتافات الاستحسان خفض بصره وراح يُحملق في مقدّمة حذائه.

قامت الكونتيسّة بمرافقته في مشوار قصير في متنزّة القصر حتى تُنقذه من هذا الحرج. وكان مطر خفيف قد هطل فبلّل حذاءها، فوجد الملك في ذلك الوضع مخرجاً له.

« طيلة الوقت الذي أمضيناه معاً في حديقة القصر، حملق الملك في حذائي قلقاً من أن يبتلّ ويمتصّ الماء، ولم يتحدّث في أيّ موضوع آخر لفترةٍ لا تقلّ عن نصف ساعة».

عادت به الكونتيسّة عندها إلى حيث وقف مرافقوه الّذين كانوا بانتظاره.

توصّل كريستيان في النّهاية إلى قناعة مفادها أنّه في واقع الأمر سجين، وأنه محاط بموكب ضخم يقوده إلى حيث سيتم تنفيذ العقاب.

ما عاد هذا الأمر يخيفه. لكنّ تعباً بالغاً ألمّ به؛ فشعر بنفسه يغرق تدريجياً في حزنه، والشيء الوحيد الذي كان يساعده على الخروج من وضعه هذا، هو نوبات الغضب المتكررّة الّتي يقوم خلالها بتحطيم الكراسي برميها بعنف على الأرض.

كانت التّقارير والبرقيّات تنقل أخبار الملك. « قليلة هي الفنادق الّتي مرّ بها

الموكب الملكيّ دون أن تتعرّض لقدرٍ لا يُستهان به من العبث. في لندن كان تحطيم الأثاث يتمّ بصورة متواصلة في جناح الملك».

كان ذلك موجز أخبار الرّحلة.

لم يشعر كريستيان بالسّكينة إلاّ برفقة سترونزي دون أن يعرف لذلك سبباً. ذكر كريستيان مرّة أنه وقد «تيتّم» في طفولته (ماتت والدته وهو في الثانية من عمره وقلما رأى والده) فإنه لم يكن يعرف كيف يتصّرف الوالدان عادة مع أولادهما. لكنّ سترونزي، بشخصيّته المنضبطة الهادئة، أعطى للملك فكرة عن الصّورة الّتي يكون عليها الأب (« الأب الذي في السماء» كتب كريستيان دون أن يشرح).

وجّه الملك لسترونزي السُّؤال إن كان بالصّدفة هو «شفيعه»، فسأله سترونزي عندها عن صفات ذلك الشفيع. أجاب كريستيان:

«الشّفيع لديه الوقت».

«الرّجل الصّموت» هو اللّقب الذي أطلقه على سترونزي كلّ من كان في موكب الملك.

كان سترونزي يقرأ للملك كلّ ليلة إلى أن ينام. في النّصف الأوّل من الرّحلة كان اختيار سترونزي قد وقع على كتاب فولتير» قصص شارل الثاني عشر».

كتب سترونزي فيما بعد يصف الملك: «إنّه من أكثر النّاس الذين عرفتهم حساسيةً، موهبةً، وذكاء، لكنّه بدا كمن أخذ يغرق تدريجيّاً في الصّمت والحزن خلال الرّحلة، ولم يكن يخرج منهما إلا عبر نوبات غضب فجائيّة، كان ضحيّتها إمّا الملك نفسه أو قطع الأثاث البريء الّذي عانى من هذا الغضب الغامض».

حين جلس سترونزي ليقرأ من قصص شارل الثاني عشر كان عليه أن يجلس على سرير الملك ويده اليسرى تضغط على يد الملك بينما قلّب صفحات الكتاب بيُمناه. وفي اللّحظة الّتي كان الملك يستسلم فيها للنّوم، كان سترونزي يسحب يده بحذر تاركاً كريستيان لأحلامه.

بدأ سترونزي يفهم الوضع بالتدريج.

٣

في لندن، نزل كريستيان السّابع عند ملك إنجلترا «جورج الثالث»، والّذي كان قد تعافى في تلك السنة -١٧٦٨- من أوّل نوبة جنون أصابته، رغم أن الكآبة لم تفارقه تماماً. إنّه الملك الذي حكم الأمبراطوريّة البريطانيّة لمدّة ستين سنة، أي حتى عام ١٨٢٠؛ وكان في معظمها مجنوناً. كما أنّه أُصيبَ بالعمى منذ سنة ١٨٠٥ إلى أن صار مختل العقل تماماً سنة ١٨١١. عُرِفَ جورج الثالث بقلّة الذّكاء، بالكآبة وبالعناد، فهو «صاحب رأس يابس» لكنّه عُرِف أيضاً بالإخلاص لزوجته، والّتي «أنعم» عليها بتسعة أولاد.

استقبل الملك جورج الثالث زوج أخته؛ كريستيان السّابع، استقبال الملوك. لم يبق كريستيان في ضيافة الأول أكثر من شهرين.

أخذت الأمور تفلت من زمامها تدريجيا.

بدأ الضّيق يتسلّل إلى الحاشية والخدم في الموكب الملكيّ. لم يعد هناك معنى للرّحلة كلّها ولا لتصرفات صاحب الجلالة. هذا الرّونق كلّه المقترن بالهستيريا وبالرّعب المستمرّ خشية أن تتسبّب نوبة مرض حادّة تصيب الملك في نسف الحملة كلّها، أدّى إلى تفاقم القلق.

أَعاقِلٌ الرّجل اليوم أم مجنون؟ سؤال طُرح كل صباح ولم يكن الجواب عنه ممكناً، إذ استحال التنبّؤ بالحالة التي سيكون عليها الملك عندما يستيقظ.

كان الجوّ احتفاليّاً بحقّ! ملك الدّنمارك، الصّغير، الكريم والغامض، وقف يخطب باللّغة الدّنماركية خطاباً كلّه بلبلة (وقد أدهش الجميع إذ خلع عنه ثوب الخجل) ثم أخذ ينثر قطع العملة الذّهبيّة من الشّرفة باتجاه الأوباش الّذين وقفوا في الشّارع!

كلّفت تلك الحفلة التنكريّة عشرين ألف قطعة من المعدن. لم يكن سترونزي يعلم هذه التّفاصيل، ولو علم، للاحظ أن أجره السنوي والّذي كان يُعتبر عالياً –

كطبيب خاصّ لصاحب الجلالة – لم يزد على خمسمئة قطعة منها.

يُقال إنّه في اللّيلة التّالية لحفلة المجون التّنكريّة على الطّريقة الإيطاليّة تلك، وبعد أن نام الملك، جلس سترونزي وحيداً في عتمة اللّيل ولوقت طويل، يفكّر في حاله. خلال فترة وجودهم في لندن، بدأ سترونزي يدرك أنّه من المستحيل فهم الوضع. كان الملك يجلس لساعات طويلة في الصّباح كالمشلول، ينظر إلى الأمام محملقاً في لا شيء طول الوقت، ثم يمسك برجليّ سترونزي ويبدأ بتمتمة سلسلة من الكلمات المبهمة كما لو كان في ذروة اليأس، ثم يتحوّل فجأةً إلى شخص آخر كليّاً، كما حدث مرّةً حين دعا كريستيان ثلاثة آلاف شخص إلى حفلة تنكريّة أقامها في دار الأوبرا. احتفى بهم يومها وكأنّه يسعى لكسب شعبية كبيرة بينهم أو كأنه سينصّب هو ملكاً على الإنجليز.

يعاني هذا الوضع من خلل جوهريّ! فالملك مريض، ومرضه يزداد حدّة. صحيح أنّ جلالته قد نجح وبشكل غريب في المحافظة على تصرّفاته في الظّاهر؛ لكنّ الّذين شهدوا لحظات ضعفه بأعينهم، لديهم ألسنة، وألسنتهم سليطة.

كانت تعليقاتهم المشحونة بتلميحات الاستهزاء تثير مخاوفه. قال «هوراس وولبول» إن الملك يبدو « ضئيلاً صغيراً كما لو كان حبّة بُندق وردت سيرتها في قصّة خُرافية». تحدث النّاس قائلين إنه يحوّل وهو يتمتِم كما لو كان دمية مسرح. لاحظوا أنّه قد حفظ جملاً معيّنةً عن ظهر قلب. أمّا ما أقلق سترونزي وأثار استياءه، فهو أنّهم لم يلحظوا الجانب الآخر للرجل، ذلك الجانب الكامن تحت السّطح.

لاحظ النّاس تشنّجاته الظاهرة، أمّا بريق ذكائه الخاطف فلم يلحظوه. مع ذلك أُصيب الجميع بالحيرة.

طلب الكاتب «صامويل جونسون» لقاء الملك. استمع إليه لمدّة نصف ساعة ثم غادر. عند الباب، هز جونسون رأسه.

المكان الوحيد الّذي نجح به كريستيان السّابع، كان الشّارع. ربّما كان ذلك بسبب حفنات القطع الذّهبيّة الّتي ألقاها من شرفة الجناح الخاصّ بالملوك في الفندق

الملكيّ لقاء كل جوقة هتاف تعالت من الشّارع باتّجاه الشّرفة. فاق الإسراف كلّ حدّ، أمّا التّحول الكبير فقد حدث في شهر تشرين أول/ أكتوبر.

٤

كان المدعو «ديفيد غاريك» ممثّلاً في مسرح «دروري لين» ومدير المسرح في آن معاً. عُرف الرّجل بمهارته في نقل نصوص مسرحيّات شكسبير إلى الخشبة، وقد لعبت عروضه دوراً بالغ الأهميّة في عمليّة إحياء تراث المسرح الشّكسبيري في إنجلترا. اعتُبر الأفضل بلا منافسٍ في الأدوار الكوميديّة والتراجيديّة الّتي أدّاها على حدّ سواء، ولكنّ ما لفت الانتباه بالذّات، كان إخراجه لمسرحيّة هاملت والّتي لعب بها دور البطولة أيضاً.

بما أن كريستيان السّابع كان مهتمّاً بالمسرح، فقد عُرضَت على شرفه سلسلة من المسرحيّات بعد الظّهر وفي اللّيل أيضاً. وكانت مسرحيّة هاملت على رأس القائمة، حيث لعب غاريك دور البطولة.

حين أُعلِم سترونزي بالعروض المدرجة للأيّام الثّلاثة المقبلة، ذهب للقاء غاريك في الحال.

لم تكن المحادثة الّتي جرت بين الرّجُلين سهلة.

أشار سترونزي إلى أنه على معرفة جيدة بحبكة المسرحية، فهي تدور حول «هاملت»؛ ولي عهد الدنمارك الذي تعرض والده للقتل غدرا. القصة في الأصل قصة خيالية معروفة وردت في مؤلف «ساكسو دراماتيكوس» عن تاريخ الدنمارك ؛ وقد أعاد شكسبير صياغتها بأسلوب حذق جدّاً لكنّه يثير الإشكال، ذلك أنّ السّؤال المحوريّ في المسرحية يدور حول إن كان هاملت مجنوناً! سأل سترونزي عندها غاريك، إن كان يتّفق معه على أن هذه هي بالفعل الفكرة الأساسيّة

للمسرحيّة. أجاب غاريك متسائلاً بكلّ بساطة عما يرمي إليه سترونزي من هذا الكلام!

«المشكلة»، قال سترونزي، «أنّ أحد أفراد الحاشية من الضّيوف الدّنماركيّين، كما غيرهم من المشاهدين، قد يتساءل إن كان الاختيار قد وقع على هذه المسرحيّة كنوع من التّلميح لحالة العاهل الضّيف. أو لنقل بوضوح أكثر إن الكثيرين اعتبروا ملك الدّنمارك كريستيان السّابع، مجنوناً. فهل يصحّ إذن أن تُعرض هذه المسرحيّة بالذّات؟ ماذا سيكون ردّ فعل الجمهور يا تُرى؟ وماذا سيكون ردّ فعل الملك كريستيان السّابع؟»

«وهل يعلم هو نفسه عن مرضه؟» سأل غاريك.

«لا، لا يعلم عن مرضه، لكنّه يعلم ما يحدث له، وهذا الأمر يربكه،» قال سترونزي. « إنّه يتمتّع بإحساس مرهف جدّاً، وينظر للواقع كما لو كان هذا الواقع هو ذاته مسرحيّة».

«أمر مثير ولا شكّ» قال غاريك.

«لا شكّ!» أجاب سترونزي. « لكن من المستحيل أن نعرف كيف سيكون ردّ فعله، فقد يعتبر نفسه هاملت».

تبع ذلك صمت طويل.

« كريستيان آمليث»، قال غاريك أخيراً وهو يبتسم.

لكنّه وافق مباشرةً على تغيير العرض المُدرج لتلك الأمسية.

في ٢٠ تشرين الأوّل/ أكتوبر ١٧٦٨، تم عرض مسرحية أخرى من مسرحيّات شكسبير على شرف الملك الدّنماركيّ وحاشيته بدل مسرحية هامليت وكانت تلك مسرحيّة ريتشارد الثالث، لكنّ سترونزي سيذكر دوماً جواب غاريك: « كريستيان آمليث».

في اللّيلة التي تلت العرض، رفض كريستيان الخلود إلى النّوم. لم يرغب في

الاستماع إلى قصص شارل الثاني عشر تُقرأ له بصوتٍ عالٍ. أراد الحديث عن موضوعٍ أثار استياءه كما كان واضحاً. وجّه الملك لطبيبه السُّؤال حول السّبب وراء استبدال مسرحيّة هاملت التي كانت مُدرجة في البرنامج بمسرحيّة أخرى.

كان كريستيان مطّلعاً على مسرحية هاملت. توسّل إلى سترونزي والدّموع في عينيه، أن يَصدُقه القول. فهل اعتبره النّاس مجنوناً؟ أقسم أنه لم يعتبر نفسه كذلك، وأنّه كان مقتنعاً تماماً بأنه ليس بمجنون، وهو يأمل بصدق أن يكون مُحِقّاً، ويتوسل لشفيعه كل ليلة في صلواته، أن يكون اعتقاده صحيحاً.

لكن هل كان الناس يتحدّثون عنه؟ ألم يفهموه؟

لم يبذل أيّ جهد في السّيطرة على نفسه عادة. لم يكن يتصرّف لا كشخص غاضبٍ ولا كملك؛ بل لم يحتفظ لنفسه بأيّ هيبة ملكيّة حين كان يثور. أما الآن، فها هو يُلامس الشّك والتّلميحات الّتي دارت حول مرضه، مما أثّر بشكل عميق على سترونزي.

«جلالتك»، قال سترونزي،» ليس من السّهل فَهمَكُم أحياناً، جلالتك».

نظر الملك في تلك اللّحظة إلى سترونزي نظرة خالية من أيّ تعبير، وراح يتحدّث عن مسرحيّة ريتشارد الثّالث، والّتي عُرضت على شرفه: «يا لها من قسوة!» قال كريستيان. «ملك بفضل الله، وتصدر عنه تلك القسوة غير المسبوقة؟ أمرٌ لا يُحتمل!»

«حقّاً» قال سترونزي، «إنّه أمر لا يُحتمل».

«لكنّي حين شاهدت هذه القسوة» قال له كريستيان « شعرت بشيء... مريع. في قلبي».

استلقى كريستيان على السّرير متكوّراً، وغطّى وجهه بالملاءات، كأنّما أراد أن يختبئ.

«جلالتك»، قال سترونزي بصوت في غاية الهدوء واللّطف «و ما هو هذا الأمر المريع؟»

أخيراً أجاب الملك:

«الرّغبة»، قال. «شعرت بالرّغبة. هل أنا مريض، دكتور سترونزي؟ قل لي إنّي لست بمريض».

ماذا كان باستطاعه سترونزي أن يقول؟

في تلك الليلة، راح دكتور سترونزي يبكي في حضرة الملك للمرّة الأولى، وصار كريستيان هو من يهدّئه.

«سوف نغادر!» قال كريستيان. «سوف نغادر يا صديقي! سوف أصدر الأمر غداً بالتوجّه إلى باريس. يجب أن نلتقي رجال الفكر والتّنوير، نلتقي بفولتير. يجب أن نترك مستشفى المجانين الإنجليزيّ هذا وإلا فسنُصاب كلّنا بالجنون».

«نعم» قال سترونزي. « يجب أن نغادر. ما عاد الأمر محتملاً».

٥

فوجئ الجميع حين اتُخذ القرار بإنهاء الزّيارة لإنجلترا بهذا الشّكل المُقتضب؛ فقد تمّت عمليّة المغادرة بسرعة كما لو كانت عمليّة فرار.

لا نعرف ما هي الصّورة التي رسمها كريستيان لباريس في مخيّلته. لكنّ الاحتفالات الّتي شهدها هناك أذهلته.

في اليوم العاشر من وجودهم في باريس، جاء أنّ الملك كريستيان يشكو من «وعكة صحّيّة نتيجة إصابته بالبرد». كان الملك في الواقع قد أمضى طيلة ذلك اليوم في غرفته، في حالة من عدم اكتراث تام. كان يرتدي زيّه كاملاً ويمتنع عن الكلام مع أيّ شخص بالمُطلق. سُئلَ سترونزي عندها -والّذي بات من الواضح للجميع أنّه الوحيد الّذي تمتّع بقدر ولو قليل من التّأثير على الملك- إن كان يقترح دواءً ما يساعد في التّخفيف من كآبة الملك، كي يتم إحضار ذلك الدواء. حين أجاب سترونزي بالنّفي، وُضعت الخطط للبدء برحلة العودة إلى الوطن مباشرة.

في اليوم التّالي، وحين بقي المزاج السوداوي غير المبرّر للملك على حاله، ذهب سترونزي لرؤيته.

بعد ساعة، خرج سترونزي ليعلن أنّ جلالته قد قرّر استقبال الفلاسفة الفرنسيّين الّذين أسّسوا للموسوعة العظيمة في اليوم التالي، وإلاّ فإنّه لا مناص من العودة للوطن.

بما أنّ هذا اللقاء لم يكن مُدرجاً على برنامج الرّحلة، فقد أدىّ الإعلان عنه إلى تململٍ واضح، بل إلى تشاؤم الكثيرين، لأنّ جماعة المتنوّرين الفرنسيّين لم تكن تحظى بالقبول لدى البلاط الفرنسيّ. الوحيد الّذي استُثنيَ من هذا الرّفض، كان «ديديرو» إذ مُنِحَ الحماية بفضل عشيقة الملك «لويس الخامس عشر»، وهي «مدام بومبادور» الّتي كان ديديرو والملك يتشاركان في عشقها.

تم ترتيب اللّقاء على عجل. فجأة صحّ الملك، وبدا في مزاج جيّد، ونجت قطع الأثاث من التّحطيم في ذلك اليوم.

تمّ اللّقاء في ٢٠ تشرين الثاني/ نوفمبر من سنة ١٧٦٨، في منزل السّفير الدّنماركي في باريس، البارون «كارل هاينرخ جلايشتين».(٣٤) حضر هذا اللّقاء كلّ محرّري الموسوعة العظيمة — ثمانية عشر رجلاً بالعدد-، في مقدّمتهم كلّ من «ماتران»، «دالومبير»، «مارمونتيل»، «لا كوندامين»، «ديديرو»، «هيلفيتيوس» و» كونديايك». لكنّ الضّيف الأهمّ والّذي طمح الملك للقائه؛ المسيو فولتير، لم يكن من بينهم، إذ إنّ الرّجل لم يغادر قرية «فيرني».

كان اللّقاء غريباً من نوعه. فالدّنماركيّ الصّغير، المراهق- ابن التّاسعة عشرة - والمجنون... ربّما! جلس مُحاطاً بحلقةٍ من فلاسفة التّنوير الّذين كانوا على وشك أن يغيّروا تاريخ أوروبّا لعدّة أجيالٍ قادمة.

أصابَهُ الفزع في البداية. أخذ يهدأ تدريجيّاً ثمّ، كأنّ عجيبة حدثت، إذ تبخّر

رُعبه وحلّت به مشاعرُ الثّقة بالنّفس. حين انحنى ديديرو انحناءةً واضحةً تحيّة لجلالته، قال له الملك بما يُشبه الهَمس:

«أرجو منك أن تُخبر صديقي؛ العظيم فولتير، بأنّه الرّجل الّذي علّمني كيف أُفكّر».

تهدّج صوت الملك بانفعال بالغ. تهدّج انفعالاً وليس خوفاً، بينما حملق به ديديرو بذهولٍ مستغرباً!

بعدها حلّت السّعادة على كريستيان.

شعر بأنّه ذكيّ جدّاً. تحدّث مع كلّ الفلاسفة الفرنسيّين الواحد تلو الآخر وكان بإمكانه مناقشة أعمالهم؛ تحدّث بالفرنسيّة الّتي أتقنها بشكلٍ ممتازٍ وشعر بالدّفء يتسرّب من ناحيتهم إليه.

ربما كانت هذه هي اللّحظة الأهمّ في حياته كلّها.

الخطاب القصير الذي ألقى به ديديرو في حضرته خلاصةً للّقاء، أسعده وأثلج صدره أيضاً. قال ديديرو: «أعتقد أن الشّرارة الأولى والّتي ستشعل حركة التنوير، ستنطلق من البلد الصّغير المسمى الـ «دنمارك». ستكون الدّنمارك نموذجاً للفكر التّنويريّ وعلى رأسها العاهل المتنوّر الجالس بيننا. كلّ حركات الإصلاح- تلك المبنيّة على أساس حرّية الفكر، التّسامح، والإنسانيّة- ستقيمُ لها مؤسّساتٍ تحت رعاية ملك الدّنمارك، كريستيان السّابع، وهكذا، سيرتبط اسمكم من الآن فصاعداً بفصلٍ من فصول تاريخ حركة التّنوير».

تأثّر كريستيان بهذا الكلام أشدّ الأثر ولم يستطع الرّد.

أضاف مسيو «دالومبير» عندها بلطف:

«ونعلم جيّداً بأنّ أكبر الحرائق تبدأ بشرارةٍ».

رافق سترونزي الضّيوف إلى عرباتهم مشيّعاً، بينما لوّح الملك لهم بيده مودّعاً من خلال نافذة تشرف على المشهد من الأعلى. قام ديديرو بسحب سترونزي جانباً وأجرى معه هذه المحادثة المقتضبة:

«هل سيبدأ الملك رحلة العودة قريباً؟» سأل ديديرو دون أن يبدو مبالياً بالإجابة إذ كان يُفكّر في شأن آخر.

«لم يخطّط للأمر بعد» أجاب سترونزي. « يعتمد ذلك إلى حدٍّ كبير على الملك نفسه. على صحّة الملك».

«وأنت الطّبيب الخاصّ لجلالته؟ ومن ألتونا؟»

أجاب سترونزي وابتسامةٌ صغيرة على شفتيه:

«من ألتونا. أرى أنّك مطّلع على الأمور جيّداً».

«وأنتَ، كما سمعتُ، مطّلع جيّداً على أفكار المتنوّرين الفرنسيّين؟!»

«بالفعل، لكنّي مطّلع أيضاً على أفكار «هولبيرغ»، الفيلسوف التّنويري الدّنماركيّ العظيم»، أجاب سترونزي بابتسامةٍ استحال على الضّيف الفرنسيّ فكّ رموزها.

«يُقال»، أكمل ديديرو «إنّ الملك... مريضٌ؟»

لم يُجب سترونزي.

«غير متّزن؟» أردف ديديرو.

«إنّه شابٌّ موهوبٌ جدّاً، لكنّه حسّاس.» أجاب سترونزي.

«نعم. إنّي مطّلع جيّداً على الوضع. وضعٌ غريبٌ. لكن من الواضح أنّك تحوز على ثقته الكاملة».

«أنا الطّبيب الخاصّ لجلالته». علّق سترونزي.

«نعم،» أجاب ديديرو «. استلمت الكثير من الرّسائل من لندن تُخبرني أنّك طبيبه الخاصّ».

كان التّوتّر على أشدّه في تلك اللّحظة. ضاقت الخيول المُجهدة ذرعاً بالانتظار،

وكان رذاذ المطر يهطل بخفّةٍ، لكنّ السّيد ديديرو بدا وكأنّه يريد أن يقول شيئاً، لكنّه تردّد.

أخيراً نطق:

«الوضع في هذه الحالة فريد من نوعه». قال السّيد ديديرو بصوتٍ خفيض. «السّلطة رسميّاً بيد ملكٍ موهوب، موهوب جدّاً، لكنّه غير متّزن عقليّاً. يدّعي البعض – أشعرُ بالتّردّد في قول ذلك– بأنّه مجنون. أنت تحوز على ثقته. وهذا يضع على كاهلك مسؤوليّة جمّة. قلّما تُتاح الفُرصة، كما هي الحال هنا، لأن يقوم ملكٌ متنوّرٌ باقتحام حاجز الظّلام الرّجعيّ. لدينا كاترين في روسيا، لكنّ روسيا تغرق في بحرٍ من الظّلام في الشّرق. أمّا في الدّنمارك فالاحتمال وارد. ليس من خلال ثورة الغوغاء أو الجماهير من الطّبقة الدّنيا، إنّما من خلال السّلطة الّتي وُهبت له من العليّ القدير».

أخذ سترونزي يضحك عندها ونظر لمحدّثه مستفسراً.

«العليّ القدير؟ لم أكن أعلم أنّك تعتقد بالعليّ القدير بهذا القَدْر».

«لقد مُنِح الملك كريستيان السّابع السّلطة يا دكتور سترونزي. لقد مُنِح السّلطة. إنّها بيده، لا فرق في من يكون المانح. أليس هذا صحيحاً؟»

«إنّه ليس مجنوناً» قال سترونزي بعد صمت قصير.

«قد يكون كذلك، قد يكون. لا أعرف. وأنت لا تعرف. لكن إن كان كذلك... فإنّ مرضه سيترك فراغاً في مركز السّلطة وسيحظى من يملأ هذا الفراغ بفرصة رائعة».

وقف الرّجلان صامتين.

«ومن»، سأل سترونزي أخيراً «هو المُرجّح لملء هذا الفراغ؟»

«كالعادة؛ موظّفو الحكومة، النّبلاء، الرّجال الذين يملؤون الفراغ عادة».

«طبعاً، مفهوم».

«أو شخصٌ آخر» قال السّيد ديديرو عندئذٍ.

مد ديديرو يده لسترونزي مصافحاً، صعد إلى العربة، ثم مال إلى الخارج وقال: «صديقي فولتير يكرّر القول دائماً بأنّ التّاريخ أحياناً، يفتح بالصّدفة... كوّةً فريدةً تكون نافذة للمستقبل».

«صحيح؟»

«حين تأتي الفرصة، يجب اقتناصها».

٦

حدث ذلك في الـ ٢٠ من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٧٦٨. وكانت تلك اللّحظات بالنّسبة لكريستيان من أهمّ لحظات حياته.

بعدها، عادت الهتافات والاستقبالات، وراح يغرق تدريجيّاً في ظلام كالّذي يسبق عتمة اللّيل.

بدا وكأنّ كلّ شيء يعود إلى ما كان عليه في الأصل. كانت باريس في الواقع أكثر فظاعة من لندن. لكنّ نوبات الغضب بدت أخفّ وطأةً. صار كريستيان يُبدي اهتماماً بالغاً بالمسرح، وفي الأمسيات الّتي لم تكن معدّة للاستقبالات، أُقيمت عروضٌ مسرحيّة خاصّة.

غالباً ما كان الملك يغطّ في النّوم.

كان من المفروض أن تستمرّ جولته الأوروبّية لتأخذه بعيداً إلى «براغ، فيينا وسانت بيترسبورغ». لكنّ الوضع وصل حدّاً لم يعد معه تبرير تصرّفات الملك ممكناً. كان من الضروري اختصار الرّحلة منعاً لوقوع كارثة أكبر.

في ٦ كانون الثاني/ يناير ١٧٦٩، وطئت قدم الملك كريستيان السّابع أرض الدّنمارك ثانيةً.

خلال الأيّام الأخيرة من الرّحلة، لم يَسمح الملك لأحدٍ غير سترونزي بالجلوس معه في العربه الملكيّة.

كان مفهوماً ضمناً أنّ شيئاً ما قد حصل. صار الطّبيب الألمانيّ الشّابّ صاحب الشّعر الأشقر، الابتسامة الحاضرة والحذرة، والعينين اللّطيفتين، صار شخصيّةً مهمّة. لكن، بما أنّه لم يكن صاحب لقب، وبالتّالي لم يكن اسمه مُدرجاً في السّلم التّراتبي للمقامات، فقد سبّب ذلك مشكلة. جرت محاولات لفكّ لغز الرّجل ولم يكن ذلك سهلاً. كان ودوداً، صموتاً، ورفض استغلال نفوذه، أو ما كان من الممكن اعتباره نفوذاً.

كانت رحلة العودة فظيعة جدّاً.

استمرّت العاصفة الثّلجيّة على مدى أسبوع كامل، ورافق البرد القارص الرّحلة. صارت العربات باردة كالثّلج وتدثّر الجميع بالأغطية الصّوفية فصار المشهد أشبه بمشهد جيش ينسحب من أرض معركة خاسرة في براري روسيا المقفرة. اختفت كل مظاهر الأبّهة وما عاد الموكب الملكيّ الدنماركيّ يُبهر العيون وهو يقفل مُنسَحباً في طريق عودته. لم يعد أحدٌ يحسب كم كلّفت الرّحلة؛ فقد فاق الفزع كل حدّ، ولا بدّ من أن تُجبى الضّرائب لتغطية النّفقات.

لا بدّ من فرض الضّرائب إذن. وسيُترك الأمر إلى حينه، أمّا الآن فالأولويّة هي للعودة.

جلس سترونزي وحيداً برفقة صبيّ يتنقّل بين النّوم، والتّوسّل والبكاء، صبيّ أُطلقَ عليه لقب ملك، وكان لدى سترونزي الكثير من الوقت للتّفكير.

بما أنّه لم يُؤمن بالحياة ما بعد الموت، فقد قلق دائماً من خطر تبديد الحياة الوحيدة التي بين يديه. كان الطّب قد جعل لحياته رسالة يؤدّيها. أقنع نفسه بأنّ الاستجابة لنداء الطّب هو نوع من العبادة، من السّر المقدّس لجوهر الحياة. حياة الإنسان كانت الأمر الوحيد المقدّس في نهاية المطاف؛ والقدسية هي ما يميز الإنسان عن الحيوان، وإلاّ فما الفرق بينهما. أمّا الّذين قالوا إن سترونزي يعتبر الإنسان مجرّد آلة فإنّهم بالتّأكيد لم يفهموه.

إيمانه الدّنيويّ كان في تقديس الحياة. في ألتونا عَلّمَ التّشريح: الجثث التي أجرى عليها تجاربه كانت جُثث أشخاص انتحروا أو حُكم عليهم بالإعدام. من السّهل التّعرف على جثث الّذين أُعدِموا؛ فإمّا أن تكون اليد اليّمنى مفقودة أو الرّأس. المنتحرون، بالمقابل، شابهوا النّاس الّذين ماتوا بخوف ربّهم، ودُفنوا في حفر في الأرض؛ فهم بهذا المعنى متشابهون. الآلة البشريّة التي تمدّدت تحت رحمة مِبضَعِه كجرّاح عندها، كانت بالفعل مجرّد أداة. الجزء المقدّس، الحياة، قد سبق وغادرت الجسدَ. وإنْ لم تكن هي المقدّس فما المقدّس إذَن؟

أليس ما قد صنعه الإنسان حين كان المقدّس موجوداً؟

المقدّس هو ما صنعه من حظي بالقداسة. هذه هي الخلاصة الّتي توصّل إليها. كان «هولدبيرغ» قد أشار إلى هذا الموضوع، لكن فقط في الفقرة ١٠١ من كتابه « مفهوم الأخلاق»، وكان غير واضح في كلامه. اعتبر هولبيرغ أنّ الحيوانات عبارة عن آلات، وأنّ القدسية التي يتّصف بها البشر هي ما يجعلهم غير- حيوانات.

قرأ سترونزي هذا الكلام كما لو كان دليلاً يمكنه الاستعانة به. شعر أحياناً أنّ كلّ ما فكّر به كان مجرد صدى لما قاله الآخرون. بعدها صار يختار مقتطفات محدّدة تُعبّر عن رأيه كي لا يكون ما يقوله مجرّد ترديد لما يقوله غيره، ومن حين لآخر صدر عنه قول أو فكرة كانت تخصّه هو. عندها كان يشعر بالّدوار، كما لو كان يقف على حافّة الهاوية، ويفكّر في نفسه: «هذا هو المقدّس. هذه الفكرة هي فكرتي أنا، ليست فكرة أيّ شخصٍ آخر، وهذا هو المقدّس، هذا هو ما يميّزني عن الحيوانات».

كان يحاول أن يمتحن نفسه بالمقارنة مع هولدبيرغ. فقد قال هولدبيرغ كلّ شيء تقريباً، ولذلك يجب فحص تلك الأقوال، ولكلّ الحقّ في أن يفكّر وأن يخرج باستنتاجاته الخاصّة. كان هولدبيرغ على حقّ ... معظم الأحيان.؛ لكن بين الحين والآخر كان سترونزي يأتي هو أيضاً بفكرة تبدو من بنات أفكاره، فكرة لم يطرحها هولدبيرغ، بل سترونزي نفسه، وكان يشعر عندها بالدّوار ثم يقول في نفسه: «هذا

هو المقدّس. لستُ مجرّد آلة».

بما أن المرأ يستطيع أن يختار ما يلائمه من أقوال هولدبيرغ ويستبعد الباقي، فقد استبعد سترونزي الجزء المتعلّق بالخضوع في علم الغيبيّات وهو الجزء المربك عند هولدبيرغ، وأبقى على ما هو جوهري.

في نهاية الأمر، بدا له كلّ شيء بسيطاً جدّاً، واضحاً جدّاً وخلاصته أن المقدّس هو ما يفعله الإنسان المقّدس. إنّها لمسؤوليّة عظيمة.

كانت المسؤوليّة ضخمة جدّاً.

بوصول الموكب الملكي إلى مدينة ألتونا في طريق العودة من الجولة الأوروبيّة، تكون مهمّة سترونزي قد اكتملت وبالتّالي من المفروض عليه أن يترك الموكب. دُفعت لسترونزي ألفُ قطعة معدنيّة كأجرٍ له على أتعابه، وهو أجرٌ كان بإمكانه أن يعتاش منه لمدّة طويلة. لكنّه لم يترك. ربّما كان ذلك من منطلق... المسؤوليّة. صار يميل لهذا الصبيّ المجنون، الذّكيّ، المُرتبك والّذي اختير من الله، والذي سيُسلّم ثانية للذّئاب في القصر، وسيقوم هؤلاء بدفعه أكثر نحو الجنون دون شكّ.

ربّما كان الأمر غير قابل للإصلاح. ربما كان كريستيان، هذا الصبيّ الصّغير، النّاعم، صاحب العينين الكبيرتين الخائفتين، قد ضاع ولا أمل يُرجى منه. ربّما كان يجب وضعه في مشفى للمجانين، أو أن يُترك ليكون جيفة ملكية عاديّة تفترستها الذّئاب.

لكن سترونزي أحبّه. كان الأمر أكثر من ذلك في الواقع؛ لم يستطع أن يجد الكلمة المناسبة لذلك. لكنّها كانت مشاعر لم يستطع أن يتهرّب منها.

لم يكن له أولاد.

كان دائما يرى الخلود من خلال إنجاب طفل. هكذا يحقّق الإنسان الحياة الأبديّة: تستمرّ الحياة عبر الأطفال. لكنّ الطّفل الوحيد الذي كان لديه الآن هو هذا الصّبي المرتجف، المختلّ عقليّاً، والّذي كان من الممكن أن يكون طفلاً رائعاً

جدّاً لو لم تقطّعه الذّئاب إلى ما يُشبه النُتف الصّغيرة.

لقد كره الذّئاب.

كان رانتزاو قد نجح بإقناع سترونزي في حينه بقبول المهمّة، وكان ذلك قبل تسعة أشهر تبدو الآن وكأنها دهر. «المرض موجود في كوبنهاغن أيضا»، هكذا قال له رانتزاو وقد صدق بالتأكيد. لكنّ الأمر لم يكن بهذه البساطة. لم يكن سترونزي ساذجاً. إنْ كان قد قرّر إكمال الرّحلة إلى كوبنهاغن الآن فالهدف ليس أن يكون طبيباً لفقراء منطقة «النوربرو» أو لحجامة فقراء الدّنماركيّين ولا حتّى لأطفال القصر. أدرك تماماً ما معنى أن يكمل الرحلة.

حقيقة الأمر هي أنّه لم يترك الموكب في ألتونا، ولم يهرب إلى جزر الهند الغربية. كان اتخاذ هذا القرار ينطوي على نوعٍ من المسؤوليّة، وكان متأكّداً تقريباً من أنّه اتّخذ القرار الخطأ!

ذلك إن كان بالفعل، صاحب القرار.

أم أنّ ما حدث هو أنه وبكلّ بساطة لم يقرّر إيقاف العربة في ألتونا ولم يقرر التّرجّل من العربة، وبالتّالي لم يقرّر الاستمرار في حياته كما كانت عليه ما قبل الرّحلة؟ هل كان كلّ ما فعله هو أنه استمرّ هكذا؟ مستسلماً نحو حياة جديدة؟

استمر بكل بساطة، لم يقرّر، بل أسلم أمره واستمرّ!

وطئت أقدامهم الشاطئ عند «كورسور» واستمرّوا من هناك في رحلة العودة إلى كوبنهاغن عبر العاصفة الثّلجيّة.

كان سترونزي وحده مع الملك في العربة.

كان كريستيان نائماً. وضع رأسه على ركبة سترونزي دون أن يغطّي رأسه بالشّعر المُستعار وتدثّر بغطاءٍ من الصّوف. وبينما كانت العربة تسير ببطء باتّجاه الشّمال الشّرقيّ، عبر عاصفة ثلج دنماركيّة، جلس سترونزي بلا حراكٍ يفكّر بأنّ المقدّس هو ما يصنعه المقدّسون، وكان يمسّد شعر كريستيان بيده دون توقّف.

ستنتهي الجولة الأوروبيّة بعد قليل، وشيء آخر مختلف كليّاً سيبدأ. شيء لم يكن سترونزي يعرف عنه شيئاً ولم يكن يريد أن يعرف.

كان كريستيان ينوح بصوتٍ خافتٍ جدّاً أثناء نومه، صوتٍ غامضٍ كاللّغز. بدا وكأنّه يحلم بشيء إمّا مبهج أو مريع وقد استحال التّخمين، فربّما كان يحلم بلقاء يتجدّد بين عاشقين.

الجزء الثالث

العاشقان

الفصل السابع

مدرب الفروسية

١

أخيراً، وبتاريخ ١٤ كانون الثاني/ يناير سنة ١٧٦٩، وصل الموكب الملكيّ إلى كوبنهاغن.

أُوقِفت العربات المهترئة والملطّخة بالوحل على بعد ثلاثة كيلومتر من بوابات المدينة، لتُستبدل بأخرى جديدة كانت بانتظار الموكب، وبها أغطية حريريّة فاخرة لدرء البرد، بدل الأغطية الصوفيّة المتّسخة. حضرت الملكة الشّابة أيضا إلى المكان وصعدت إلى العربة الملكيّة لتتّخذ مكانها إلى جانب زوجها، الملك كريستيان السابع.

جلسا في العربة وحدهما. تفحّص كلّ منهما الآخر بدقّة، كما لو أن كلا منهما يحاول اكتشاف ما استجدّ على قرينه من تغييرات أمل بحدوثها أو تخوّف منها.

هبطت العتمة قبل أن ينطلق الرّكب، وكان البردُ قارساً حين شقّت القافلة طريقها عبر مدخل البوّابة الغربيّة للمدينة، الـ «فِسْتَربورت»، حيث اصطفّ مئات الجنود حاملين المشاعل بأيديهم. قدّم الحرس الملكي استعراضاً لم تشارك به الفرقة الموسيقيّة.

تقدّمت العربات الستّ عشرة نحو بوابة القصر. كان أفراد البلاط قد تجمّعوا كلّهم في ساحته الداخلية. وقف الحاضرون في العتمة والبرد وكانت معنويات الجميع في الحضيض.

عند وصول الموكب، غاب عن أي من الحاضرين القيام بواجب تعريف الملكة بالطّبيب المُرافق.

جرى استقبال الملك على وهج المشاعل وتحت رذاذ المطر الممزوج بالثّلج. حالما

توقّفت العربات، استدعى الملك سترونزي والذي كان يسير خلفه وخلف الملكة إلى الجانب قليلاً حسب العُرف. في آخر صفّ المنتظرين – الّذين شكّلوا لجنة الاستقبال التي ألقت التّحيات– وقف غولدبيرغ. صوّب هذا نظرةً ثاقبة نحو الملك وطبيبه الخاص. ومثله فعل كثيرون ممّن حملقوا بنظرات استطلاع متفحّصة.

بينما كان الملك وطبيبه يصعدان الدّرج، سأل سترونزي الملكَ:

«من يكون ذلك الرّجل صغير الحجم الذي رماك بنظرة كلّها شرّ؟»

«غولدبيرغ».

«ومن يكون؟»

انتظر الملك الذي كان يسير في المقدمة قبل أن يجيب، وبحركة غير متوقّعة أبداً، استدار وزمجر معبّراً عن كراهيّته للرّجل قائلاً:

«إنّه يعرف! – يعرف !!!– مكان وجود كاترين!».

لم يفهم سترونزي شيئاً !

«إنّه شرّيرٌ!»، قال الملك بنفس اللهجة المشحونة بالضّغينة والغلّ نفسها. «شرّيرٌ!!! وقليل قيمة !!!».

«عيناه، على الأقل...»، قال سترونزي فيما بعد «.. ليستا قليلتيّ القيمة أبداً».

٢

لم تتفوّه الصبيّة الإنجليزية حين كانت وحدها مع الملك في العربة، ولو بكلمة!

لم تدْرِ إن كانت تمقت فكرة عودة زوجها إليها أم أنها تتوق لها. لعلّها لم تكن تتوق لكريستيان ذاته، بل لشيء آخر. لعلّها كانت تتوق... للتّغيير.

كانت قد بدأت تعي أن لها جسداً.

في السابق، كان جسدها عبارة عن شيءٍ ساعدتها وصيفاتها على تغطيته–وقد غضضن الطرف بكياسة– بينما كانت هي تتنقّل من مكان إلى آخر حاملة ذلك الجسد بكامل عدّته تحت أنظار كلّ من في القصر –كما لو كان بارجةً صغيرةً تابعة لسلاح البحرية. في البداية ظنّت أنّها عبارة عن قطعة سلاح ليس إلاّ، وأن ما ميّزها عن باقي النّساء وأمدّها بذلك السّلاح هو أنها الملكة. ارتدت هذا الثّوب، ثوب السّفينة الصّغيرة لسلاح البحر، والتي يشخص إليها هؤلاء الدنماركيون الذين أثاروا استغرابها بقذارتهم المنفّرة وجهلهم بلغتها. كانت أجسادهم مكسوة دائما بالغبار، تنبعث منها روائح كريهة بسبب تلك العطور الرّخيصة والمساحيق القديمة الّتي كانوا يتجمّلون بها.

إلى أن أتى يوم اكتشفت فيه جسدها!

بعد ولادة طفلها، وحين كانت وصيفاتها يتركنها وحدها ويذهبن للنوم في ساعات الليل، صارت تخلع قميص نومها وتضطجع عارية تحت الشراشف الباردة دون خجل. كانت عندها تلامس جسدها؛ لم يكن ذلك فحشاً. لا لم تمارس الفاحشة. نظرت للأمر على أنّه اكتشاف وتماهٍ تدريجيّ بطيء مع جسد تمدّد حرّاً طليقاً من قيد ثوب البلاط ومساحيقه.

إنه أديم جسدها هي، ليس إلاّ.

بدأت تحبّ هذا الجسد. صارت تشعر أكثر وأكثر أنّه مُلك لها. بعد ولادة طفلها وبعد أن انكمش ثدياها وعادا لحجمهما الطبيعيّ، بدأت تحب جسدها. أحبّت ملمس بشرتها. أحبّت بطنها والفخدين؛ كان بإمكانها الاستلقاء لساعاتٍ هناك، تفكّر في نفسها: هذا في واقع الأمر... جسدي.

كم جميل أن ألمسه.

خلال فترة غياب الملك في جولته الأوروبية، صار جسدها أكثر امتلاءً وبدا وكأنها قد تماهت أكثر وأكثر مع ذلك الجسد. صار باستطاعتها أن تشعر بأن الناس لم تعتبرها مجرّد ملكة، وبأنّ لها اعتبارات أخرى إلى جانب كونها كذلك. فهي

لم تكن ساذجة في نهاية الأمر! أدركت أن هناك علاقة بين جسدها عارياً مجرّداً وبينه وهو مغطّى بالثّياب ليبدو درعاً محصّناً يضاف إليه لقبها، وأنّ شعاعاً خفيّاً من الإثارة الجنسيّة يلمع في عيون ناظريه بسبب تلك العلاقة، والّتي هي مزيج من الرّغبة في ذلك الجسد والخوف من خطر الموت الّذي يتهدّد من يجرؤ على الاقتراب منه.

إنها الملكة! الثمرة المحرّمة بالطّبع — وهي أيضاً امرأة! امرأة تدرك بالغريزة أن الرّجال ينظرون إليها بتفحّص فيرون جسدها عبر الأثواب، ذلك الجسد الذي بدأت تحبّ. كانت على ثقة بأنّهم يرغبون في ولوجها، وأن ما استثارهم في الأمر هو أن دونها الموت!

بعثت الثّمرة المحرّمة المخبأة تحت الّدروع بأشعتّها الكاوية. أدركت جيداً أنّها المرأة الأكثر حُرمة من بين النساء، وأن هالة الجنس المحرّم التي أحاطت بها أثارت لُعاب الرّجال.

إنها التّحريم في ذروته: امرأة عارية، وملكة! والمسّ بالمحرّم حدّه الموت، بل إن اشتهاء الملكة هو لعب بالنّار. أمر مثير للشّهوة لا شكّ. وكانت تعرف ذلك! تعرفه جيّداً! رأت الشّهوة في عيونهم. وفي اللّحظة التي استفاقت بها على هذه الحقيقة، تحوّل الجميع إلى أسرى جاذبية تزداد توهّجاً تحت سطوة إشعاعٍ صامتٍ ولاذعٍ في آن معاً، ينبعث من ذاك الجسد.

كثيراً ما فكّرت بالأمر. كانت تسيطر عليها مشاعر العظمة المثيرة للفضول: شابهت «الإناء المقّدس» - ذاك الإناء المنشود الذي يجلب لمن يجده السّعادة القصوى- والموت!

كانت تلمح ذلك في عيونهم. رأت الشّهوة التي يثيرها جسدها وقد أطبقت على عقولهم ومشاعرهم، ألحّت عليهم. عذّبتهم. تخيّلت أنهم يفكّرون بها طيلة الوقت أثناء ممارستهم السّفاح مع عشيقاتهم وعاهراتهم، وأن الواحد منهم كان يغمض عينيه فيتخيّل الجسد الذي يلج ليس جسد زوجته أو عاهرته إنّما جسدها المحّرم جدّاً والمُشتهى جدّاً؛ وقد منحها ذلك الشّعور بالسّلطة في ذروتها. كانت

حاضرة في أجسادهم رغم إدراكهم التّام بأنّ الاقتراب من ذاك الجسد، ذاك الإناء المقدس، يعني الموت.

أثارت كلّ قضيب في البلاط ولم يستطع الوصول إليها رجل. إنّها الشّهوة وهي الموت! وما استطاع الرّجال من الأمر فكاكا، مهما مارسوا من سفاح ، مهما عاشروا من زوجات. وحدها كانت عصيّة المنال، ووحدها من جمعت ما بين الشّغف والموت.

يا له من شكل من أشكال... السّلطة.

لكن فكرة واحدة راودتها بإلحاح أحيانا: «أحبّ هذا الجسد، جسدي! وأعي أنّي أثير كلّ قضيب في البلاط. لكن، ألا يمكنني في الوقت نفسه أن أستعمل أنا هذا الجسد بحرّيّة، وأن أشعر برهبة الموت المرافقة لحرمة أعضائي وأتمتع أنا نفسي بتلك المخاطرة؟». أحيانا، كانت تستلقي عارية في ساعات اللّيل، تداعب أعضاءها، فتتصاعد اللّذة كموجة دافئة تجتاح جسدها، ذلك الجسد الذي باتت تحبّه أكثر فأكثر.

الغريب في الأمر أنها لم تشعر بالخجل، وكلّ ما شعرت به هو أنها كائنٌ حيّ.

٣

من يكون كريستيان، ذلك الزّوج الرّقيق الّذي لم يكلّمها أبداً، يا ترى؟ هل أصابت تلك الإثارة عضوه؟

إنه ذاك الرّجل الذي يقف في الخارج الآن، وهو الرّجل الّذي ما انفكّت تحاول أن تفهم حقّاً من يكون.

في شهر نيسان/ أبريل، حضرت الملكة مسرحيّة عُرضت على خشبة المسرح الملكي بعنوان زئير للفرنسيّ فولتير.

كان المسيو فولتير قد بعث بهذه المسرحيّة للملك، مرفقة بتحيّة خاصّة، وقد أراد الملك أن يقوم بتمثيل أحد أدوار المسرحيّة بنفسه، بل إنه تدرب على ذلك الدّور.

أشار مسيو فولتير في رسالته الخاصة المرفقة، بأن المسرحيّة تحوي رسالة سرّية، تدلّ على الخطوات الّتي سيقوم بها الملك المبجّل، ملك الدنمارك، نور الشّمال، ومخلّص المضطّهدين في القريب العاجل.

بعد أن أعاد الملك قراءة الرسالة عدة مرات، أعلن عن رغبته في لعب دور السّلطان في المسرحيّة المذكورة.

والحق يقال فإن الملك لم يكن ممثّلاً سيّئاً أبداً.

مثّل دوره في المسرحيّة، فقرأ بتأنٍ وشدّد على الشّطر أحياناً بشكلٍ خاصّ فأضفى نوعاً من التوتّر المفاجئ على النّص. توقّفه المتكرّر والمرتبك أثناء الإلقاء كما لو أنّه تنبّه فجأةً لمعنىً مستتر في النّص، أدّى إلى القراءة المتقطّعة تلك. حين شاهدت كارولين ماتيلدا قرينها على خشبة المسرح، شعرت بانجذاب غريبٍ نحوه ممزوج بنفور منه في آن معاً.

بدا على خشبة المسرح شخصاً آخر تماماً. بدت النّصوص الّتي قرأها حقيقيّة أكثر من محادثاته العاديّة. كأنّما كانت هذه هي المرّة الأولى الّتي يظهر بها للعيان.

ما الذي أعرفه الآن، وما الذي تعلّمت
إن لم يكن أن الحقيقة والكذب
متشابهان كقطرتين من الماء.
شكّ! شكّ! لا شيء إلا الشّك.
وما حقيقة إلا حقيقة يتيمة، هي الشّك!

من جهة، بدا الملك مضحكاً في ثياب التّمثيل وذاك الزيّ المشرقيّ! تلك العمامة! وذلك السّيف المعقوف الذي بدا كبيراً بالمقارنة مع جسدٍ ضئيلٍ رقيقٍ

كجسده! مع ذلك، فقد ألقى تلك المناجاة الطّويلة بأسلوب مقنع وبجدارة. كأنّما كان في تلك اللّحظة وعلى تلك الخشبة، يقول كلماته هو. نعم، كأن ذلك الصّبي الصّغير المجنون، الذي طالما عاش حياته لا يتفوه إلاّ بما يمليه عليه البلاط وعلى مسرح هو البلاط، وقف الآن على خشبة المسرح ليقول ما يقوله ولأوّل مرّة دون نصّ مكتوب، ولِتنبع الكلمات لأوّل مرّة من داخله.

بدا كما لو كان يكتب النّص بذاته في تلك اللّحظة، في ذلك المكان؛ وعلى خشبة ذاك المسرح .

لقد ارتكبت جرماً
بحقّ صولجان مليكي
وهدرت السّلطة
حين حاولت أن أحمله

أدى دوره بهدوء إنّما بشغف، وقد أصاب الذّهول باقي الممثّلين؛ لدرجة أن بعضهم نسي سطوره بين الحين والآخر أو تسمّر في مكانه محملقاً في الملك. من أين لجلالته بذلك الغضب المكبوت؟ من أين له بذاك اليقين، يقينٌ يستحيل أن يكون المسرح هو مصدره؟

أريد أن أُترَك وحدي- في جهنّم هذه
بالدّم سأغسل عاري، نعم بالدّم!
سأمسح جسدي به.
ها هو ذا مذبحي، مذبح الانتقام
وها هو ذا أنا- رئيس الكهنة!

طال التّصفيق فيما بعد، مما أثار نوعاً من القلق أيضاً. لاحظت كارولين ماتيلدا أنّ الطّبيب الألمانيّ الخاصّ بجلالته؛ د. سترونزي، توقّف عن التّصفيق بعد لحظات معدودة ليس بالضّرورة لعدم التّقدير، إنّما لسبب آخر كما خُيّلَ لها.

كان سترونزي يرمق كريستيان بنظرة استطلاع غريبة، وقد انحنى إلى الأمام كما لو كان على وشك أن يقف ويقترب من الملك، وعلى شفتيه سؤال يودّ توجيهه لجلالته.

كانت شبه متأكّدة من أن هذا الرّجل، المرافق الجديد للملك وأكثر النّاس قرباً منه، هذا الطّبيب المسمّى سترونزي، هو عدوّها اللّدود والخطر، وأنّ عليها دون أدنى شكّ، أن تسحقه.

٤

بعد وصول العدوّ الجديد، غرقت الملكة بصمت حاد أكتنفها تدريجيّاً.

كانت متأكّدة تماماً من أن أمراً خطيراً جدّاً سيحدث بعد حين، وأنّ شيئاً ما سيتغيّر! الحياة الّتي عاشتها في البلاط في كوبنهاغن، بل في الدّنمارك، أشعرتها بملل لم تعرفه من قبل، ملل بلغ درجة لا تحتمل؛ فإلى جانب ضجر حياة البلاط، بدت الحياة كلّها تكراراً ليوم شتائيّ أطبق عليه الضّباب الكثيف الّذي تجمّع فوق سطح الماء الساكن في بحر الأورسند وانتشر من هناك فغطّى المكان. كان الضّيق يدفعها لأن تطلب سائساً يأخذها إلى الشّاطئ لتقف هناك على صخرة وتراقب الطّيور وقد استراحت على سطح المياه الدّاكنة السّاكنة الراكدة كالزئبق. وكلّما تحرّك طير نافضاً جسده، ضارباً بأجنحته سطح الماء ليختفي في الضّباب، كانت تقول في نفسها: *هذه المياه هي من ذاك البحر الكبير، البحر الذي تقع إنجلترا على شاطئه المقابل، فلو كنت طيراً، ولو كان لي جناحان*... لكنّ البرد والضّجر كانا يُجبرانها على العودة إلى الواقع.

في ذلك الوقت، بدت الحياة رتيبة تعبق برائحة الموت وأعشاب البحر. أمّا الآن فالحياة رتيبة، لكن رائحتها صارت رائحة موت ربّما، أو ربّما رائحة حياة. الفارق هو أنّ الصمت بات خطيراً، وملأها بإثارة غريبة.

ما السّر يا تُرى؟ أيكون العدو الجديد؟

لم يكن د. سترونزي يشبه الآخرين، ثم إنه عدوها الّذي أراد أن يحطّمها كما أيقنت. لازم الطّبيبُ الملكَ طيلة الوقت وكانت لديه سلطة عليه. لاحظ الجميع قوّة د. سترونزي. لكن ما حيّرهم جميعاً، وهي من ضمنهم، هو أنّه لم يُظهر أيّ رغبة باستغلال تلك السّلطة. ازدادت ممارسته للسّلطة كما كان واضحاً، لكن بنوع من التردّد.

فما الذي أراده يا ترى؟

نظر إليه الجميع على أنّه شابٌّ، جميل الطّلعة، أطول قامة ممّن حوله في البلاط بمقدار رأس، إذ لا يصل طول أيّ من الآخرين حدّ كتفيه. صموتٌ، لا يتفوّه إلاّ بالقليل، ولذلك لقّب في البلاط بـ«الرّجل الصّموت».

لكن عَلام تكتّم يا ترى؟

في أحد الأيّام، وبينما كانت كارولين ماتيلدا تجلس منزويةً عند حوض ورود في الباحة الداخليّة للقصر وبيدها قطعة تُحيكها بالصّنارة؛ داهمتها فجأة نوبة من الأسى ولم تستطع أن تسيطر على نفسها. سقطت قطعة الحياكة على حضنها. أحنت رأسها وغطّت وجهها براحتي يديها وقد شعرت أنّها على وشك الانهيار.

لم تكن هذه المرّة الأولى التي بكت فيها منذ وصلت إلى كوبنهاغن. شعرت أحياناً أنّ الوقت الّذي قضته في الدّنمارك لم يكن إلا فترة بكاء متواصل. لكنّها كانت المرّة الأولى التي بكت فيها وهي خارج جدران جناحها الخاصّ.

بينما جلست وحدها ووجهها مغطى براحتيها، اقترب منها سترونزي دون أن تلمحه. وقف هناك فجأة. اقترب منها بهدوءٍ بالغ وبأناةٍ، ثم سحب منديلاً مزداناً بحياكةٍ على طرفه، وقدّمه لها.

هكذا كشف لها أنّه قد رأى دموعها! يا لقلّة حيائه، يا لها من حركة تنمّ عن تعدٍّ على الخصوصيّة.

مع ذلك تناولت المنديل ومسحت دموعها. أخذ هو ينحني لها ويتراجع للخلف كما لو كان ينوي أن يغادر.

شعرت بالحاجة لأن توبّخه.

« د. سترونزي»، قالت: «الجميع يرغب في التّحليق حول الملك، لكنهم سرعان ما سيختفون ولن يبقَى غيرك محلّقاً حوله. ما الذي تصبو إليه بالضّبط؟ حول ماذا تحوم؟»

كل ما فعله سترونزي هو أن ابتسم ابتسامة صغيرة لطيفة وخاطفة، هزّ برأسه، انحنى لها، وترك المكان دون ينبس ولو بحرف.

لم ينبس بحرف!

أكثر ما أزعجها في الأمر هو أنّه جعل الوصول إليه صعباً، إنّما بأسلوب لطيف.

حتى نظراته، لم تخترق ثيابها بحثاً عن جسدها المحرّم كما فعل غيره. إن كانت هي أكثر النّساء حرمة، إن كانت هي الإناء المقدّس، وهي الّتي تثير شهوة البلاط برمّته، لماذا بدا هذا الرّجل هادئاً، أديباً، وغير مكترث بجسدها هكذا؟

تساءلت أحياناً: «ألا تجذبه إغراءات المياه الزئبقيّة السوداء؟ إغراءات تحدّي مياه بحر الموت؟»

٥

حلّ فصل الصّيف باكراً في تلك السّنة. فما إن أتى (أبريل) نيسان حتّى اكتست الطّبيعة بالأخضر وصار التنّزه في «بيرنستورف بارك» غاية في الرّوعة. هناك، تنزّهت كارولين ماتيلدا وخلفها وصيفاتها ومعهنّ طفلها في عربة. أرادت أن تسير وحدها

بحيث تفصلها عن مرافقاتها مسافة خطوات عشر.

بعد إبعاد الآنسة فون بليسين، رفضت كارولين ماتيلدا أن تختار من وصيفاتها واحدةً تكون محطّ ثقتها، واعتبرت هذا القرار قراراً مبدئيّاً.

في الـ ١٢ من شهر أيار/ مايو، حدث وأن التقت الملكة بستروونزي في المتنزّه المذكور.

كان يسير وحده. عندما رآها توقّف وانحنى بأدب. علت وجهه ابتسامة صغيرة، لطيفة، حملت في طياتها ما قد يفسّر على أنه لمحة استهزاء أزعجتها وحيّرتها كثيراً.

أمّا توقّفها هي عن السّير فكان لغرض، والغرض طبيعيّ وشرعيّ جدّاً يستدعي توقّفها وتوجّهها بالسّؤال إلى ستروونزي. قالت:

« دكتور... ستروونزي... اسمك... ستروونزي؟ أليس كذلك؟»

تظاهر بأنّه لم ينتبه لهذا الاستهتار النّاعم فأجاب:

«نعم، جلالتك؟»

«أردت أن أسأل عن حجامة وليّ العهد. مرض الجدري آخذ بالانتشار في كوبنهاغن؛ وهو من اختصاصك كما قيل لي، لكنّني متخوفة، ولا أدري إن كنّا سنتجرأ على...»

نظر إليها نظرة جادّة.

«التّخوف أمر لا عيب فيه».

«لا؟»

توقّفت الوصيفات ومعهنّ الطفل في عربته على بعد مسافة لا بأس بها وانتظرنَ.

أردف قائلاً: «أستطيع أن أقوم بالحجامة، إن كانت هذه هي رغبة جلالتك. أعتقد أن لديّ من الخبرة في الموضوع ما يكفي. لقد عملت في الحجامة في ألتونا لسنوات عديدة».

«وأنت... رجل علم... وتعرف كل ما يتعلّق بالحجامة؟»

«لم تكن أطروحتي حول الحجامة» أجاب مع ابتسامة صغيرة. «تلك تعلمتها

بالممارسة العمليّة. أجريتها على عّدة آلاف من الأطفال. لا علاقة لأطروحتي بالموضوع».

«فما موضوعها إذن؟»

«مخاطر الحركات الشاذة للأطراف».

ثم صمت تماماً.

«وأيّ... أطراف... تلك التي تتعرض لأكبر المخاطر؟»

لم يُجب. أيّ توتّر غريب سيطر على الجوّ. تخيّلت أن التردّد أخذ يتسرّب إليه، فشعرت بما يشبه الانتصار، وأنه صار بإمكانها أن تكمل سيرها الآن!

«الملك يمتدحُكَ»، قالت.

ردّ بانحناءة خفيفة.

«في المناسبات التي يتحدّث بها الملك إليّ، فإنّه يمتدحك»، قالت موضّحة، ثم ندمت على فعلتها؛ فلماذا صرّحت بهذا الكلام؟... «في المناسبات التي يتحدّث بها الملك إليّ!» لا بد من أنّه فهم مغزى ما تقول، وهو أمر لا شأن له به.

لا تعليق.

«لكنّي لا أعرفكَ»، أضافت ببرود.

«لا. لا أحد يعرفني. ليس في كوبنهاغن».

«لا أحد؟»

«ليس هنا».

«هل لديك اهتمامات أخرى إلى جانب... صحّة الملك؟»

أثار الكلام حبّ استطلاعه، فكأنّ الحاجز الّذي وضعه كي لا يسهل على الآخرين الوصول إليه قد انكسر الآن، ورمقها لأوّل مرّة بنظرة متفحّصة، وكأنّه استفاق، ورآها!

«الفلسفة،» قال لها.

«آه. وغيرها؟»

«ركوب الخيل».

«آه...» قالت. « أنا لا أجيده».

«من الممكن... أن ... يتعلّم المرء ذلك».

صعب؟»

«صعب، نعم» قال لها «لكنّه رائع».

الآن، تنبّهت إلى نفسها. ها هي المحادثة القصيرة تتحوّل لمحادثة شديدة الألفة. أدركت أنّه تنبّه للأمر المحرّم. كانت متأكدة من ذلك وغضبت فجأة من نفسها، إذ إنّها اضطرت هي أن تلفت انتباهه إلى ذلك. كان عليه أن يلاحظ ذلك بنفسه، دون مساعدة أو تلميح، كبقية الرّجال بالضّبط.

بدأت تسير،ثم توقّفت، استدارت ثم قالت فجأة:

«أنت غريب عن القصر».

لم يكن سؤالاً. كان تصريحا قصدت من ورائه أن تضع الرّجل في مكانه الصّحيح.

وعندها أجاب، بطريقة طبيعيّة تماماً، كأنّه يُدلي باعتراف شخصيّ، بأنّ ما قالته صحيحٌ دون أدنى شكّ:

«نعم. مثلك تماماً، جلالتك».

عندئذٍ لم تتمالك نفسها.

«في هذه الحالة»، قالت بسرعة وبنبرة محايدة « ستعلّمني ركوب الخيل».

٦

لم يعد الكونت رانتزاو – الذي اقترح على غولدبيرغ منذ سنة فقط فكرة الطبيب الألماني ستروِنزي كمعالج خاصّ لجلالة الملك- يعرف إلى أين وصلت الأمور.

انتابه شعور غريب بأنّ الأمور باتت تفلت من زمامها. لم يعرف إن كانت

تسير على ما يُرام، أم أنه أساء تقدير صديقه وتلميذه؛ سترونزي، والذي بات المرافق الدائم للملك، ورغم ذلك بدا سلبيّاً بشكل لافت. بات الطّبيب قريبا جدّا من جلالته، لكنّ صمتاً رهيباً خيّم على الرّجلين. قيل إن سترونزي كان هو من فضّ رسائل الملك، وهو من انتقى المهمّ منها، كما أنه هو من كتب مسودّات المراسيم الملكيّة.

كيف يُفَسّر ذلك؟ إن لم تكن هذه الأمور كلّها تشير إلى السّلطة، بل تحمل أكثر من مجرد إشارة لها!

لهذا، دعا رانتزاو الطّبيب للذهاب معه في جولة في المدينة ولبحث ما يتطلّبه الوضع من «حجامة مستعجلة».

هكذا صوّر رانتزاو الوضع، وقد اعتبر أن بحث ما تتطلّبه الحال من حجامة مستعجلة هو نقطة الانطلاق المناسبة كي يجدّد علاقته القديمة والحميمة مع صديقه؛ الرّجل الصّموت من ألتونا.

سارا معا في كوبنهاغن. لم يبدُ سترونزي مستاءً من الخراب والقذارة، كأنّما اعتاد هذه الأمور، بينما أصيبَ رانتزاو بالفزع.

«قد يصل وباء الجدري إلى القصر» قال رانتزاو. « قد يجتاح المنطقة... ويصيبنا بالوهن....»

«رغم الدّفاع الوطني الدنماركي»، قال سترونزي. «ورغم الميزانيّة الضّخمة للجيش».

«يجب حماية وليّ العهد»، أجاب رانتزاو وقد وجد الموضوع لا يحتمل المزاح.

«أعلم»، أجاب سترونزي بسرعة. «لقد طلبت منّي الملكة ذلك وسأفعله».

أوشك رانتزاو أن يصاب بصدمة تُخرسه، إلا أنّه تماسك كي يعطي الجواب المناسب وبالنّبرة المناسبة.

«الملكة؟ بهذه السّرعة؟ رائع!»

«نعم، الملكة».

«سيرفع الملك من شأنك عالياً حتى آخر لحظة من عمرك، إن نجحت الحجامة. واضحٌ أنّه يُبجّلك بالفعل. أمرٌ مدهشٌ. إنّه يثقُ بك».

لم يُجبهُ سترونزي.

«ما هو في الواقع... وضع الملك؟ حقيقة وضعه!»

«وضع معقّد»، أجاب سترونزي.

كان ذلك كل ما قاله سترونزي، وما قاله كان بالضّبط ما اعتقده. خلال الأشهر الماضية، ومنذ عودتهما من الجولة الأوروبّية، شعر الطّبيب أنّه قد توصّل لمعرفة حقيقة وضع الملك والّتي مفادُها بالضّبط هكذا: معقّد!

محادثة كريستيان مع الموسوعيّين الفرنسيّين في باريس كانت لحظةً غير مسبوقة، اعتقد سترونزي ولأسابيع عدّة، أنّه من الممكن لكريستيان أن يشفى على إثرها؛ وأنّ هذا الصّبي الصّغير قد يكون أُصيبَ بقرصة صقيع أصابت منه الرّوح، ولكنّ الوضع لم يصل بعد لمرحلة يستحيل معها العلاج. بدا كريستيان خلال فترة لم تتعدّ إلاّ بضعة أسابيع، وكأنّه استيقظ من سُباته. تحدّث عن الرّسالة التي يحملها والّتي تنصّ على فكرة بناء مملكة تسير وفق العقل والمنطق وعن أن البلاط في وضعه الرّاهن عبارة عن مستشفى للمجانين، كما عن ثقته بشكل راسخ ومطلق بسترونزي.

وثق به بشكل راسخٍ ومطلقٍ. راسخٍ ومطلق. هاتانِ كلمتان أخذ كريستيان يردّدهما كثيراً.

لكن ما أثار الاستغراب وما اعتبر نذير شؤم هو السّبب وراء هذا التّعلق الشّديد بسترونزي. اعتبر الملك أن سترونزي هو «عصاه» التي يتّكئ عليها، كما قال. كان كمن عاد طفلاً من جديد، خطف عصا المعلّم الرّهيب وسلّمها لمتسلّط آخر.

أخبره سترونزي أنّه لا يرغب في أن يكون عصاً، ولا سيفاً، ولا شخصاً يأخذ بالثّأر. لا يمكن أن تُبنى مملكة العقل على الثّأر. ومعاً أعادا قراءة رسالة فولتير

الموجّهة إلى الملك والّتي تحدّثت عن الملك، المرّة تلو الأخرى كما لو كانت طقساً دينيّاً.

النور والعقل. لكن سترونزي كان يدرك في الوقت ذاته أن هذا النور وهذا العقل كانا في الواقع قد وضعا بين يدي صبي حمل العتمة في داخله كمشعلٍ أسودٍ رهيب.

كيف للنّور أن ينبثق من مصدر كهذا؟

مع ذلك، فقد أثار موضوع «العصا» ولسبب ما، اهتمام سترونزي رغما عنه. فهل كانت «العصا» ضروريّة للتّغيير؟ كان فولتير قد ذكر شيئاً لم يستطع أن ينساه عن ضرورة – أم أنّه تحدث عن «واجب» – ولوج الكوّة التي قد يفتحها التّاريخ؟!. لطالما حلم بإمكانيّة التّغيير، لكنّه لم يعتبر نفسه أكثر من مجرّد طبيب ألمانيّ عاديّ من ألتونا، مجرّد رجلٍ بسيط من بين الرّجال العاملين في هذه الحياة وأنّ عليه أن يكشط القذارة عن جميع هؤلاء النّاس بسكّينه. نعم بسكّينه ، لكنّه لم يفكّر بالـ «مشرط» فتلك أداةٌ حادّةٌ جدّاً ومهدّدةٌ. لطالما ارتبط المشرط بعمليّات التّشريح الّتي تُجرى على جثث المنتحرين أو من تمّ إعدامهم. لا، لم تكن تلك الصّورة الّتي تخيّلها للتّغيير، إنّما صورة سكّين بسيطٍ بيد رجلٍ عاملٍ. وحين يكشط العامل الخشب بسكّينه، فإنّه يُظهر ما في داخل الخشبة من جوهر نقيّ للحياة. إنّه إذن تماماً كالعامل. يكشط بسكّينه كما العامل. يكشط قذارة الحياة فيصيرُ سطح الخشب طاهراً نقيّاً، وتظهر العروق النابضة بالحياة للعيان.

أما تحيّة ديديرو المرسلة من فولتير فقد احتوت على شيء آخر. لم ترد بها كلمة «واجب»، رغم أنّه قصد ذلك. كان سترونزي يستيقظ ليلاً في غرفته في القصر المسكون بالأشباح، البارد كالثّلج، ويستلقي دون حراك محملقاً في السّقف مستغرقاً في التّفكير:

ربّما كنت أنا هو الرّجل المقصود، وأن هذه هي اللّحظة الّتي لن تتكرر أبداً. لكن إن تمكّنت السّلطة منّي وتحكّمت بي فسأضيع وسيحكم عليّ بالدّمار التّام، وذلك ما لا أريده لنفسي؛ كان ذلك الهاجس يتسبّب في تسارع أنفاسه، كما لو

كان يتعذّب، وصار يشعر بأنّها مسؤولية، مسؤولية هائلة تلك الملقاة عليه، وأنّ تلك اللّحظة، اللّحظة الّتي ستتيحها كوبنهاغن للتّغيير لن تتكرر.

وأنّه هو رجل المهمّة!!!

كأنّما رأى كوّة التاريخ تنفتح، وأدرك أنّها كوّةٌ للحياة، وأنّه الوحيد الّذي بإمكانه أن يخطو عبر تلك الكوّة. وربّما، نقول ربّما، يكون ذلك واجبه وعليه بالتّالي أن يلبّي النّداء.

شعر بخوفٍ عظيم.

لم يرغب سترونزي في أن يصف حالة الملك لرنتزاو. شعر فجأة بالخطر، وبأن هذا الرّجل؛ رانتزاو، يقوده إلى حافّة الهاوية. لم يتعرض لهذه الحالة من قبل، لم يشهد لها مثيلاً في حدائق أشيبيرغ، ولا خلال تلك الأمسيات الرائعة في كوخ روسو. أما الآن فقد تنبّه وبوضوح إلى خطورة الوضع الّذي قد يودي به إلى منزلق خطير.

أراد أن يبقي رانتزاو خارج هذا الموضوع.

«أهو معقّد؟» سأل رانتزاو.

«إنّه يحلم بأن يجلب النّور» قال له سترونزي، «وأن يحقّق مملكة العقل. وأخشى ألّا قد أتمكّن من مساعدته».

«تخشى؟» سأل رانتزاو متعجباً.

«نعم، أخشى» أجاب سترونزي.

«ممتاز» قال رانتزاو بلهجة غريبة. «مملكة العقل. العقل! والملكة؟»

«امرأة غريبة». قال سترونزي.

«طالما لا يتعارض العقل مع شيطان الشغف...»، علّق رانتزاو كما لو كان كلامه كلاماً عابراً.

قبل ذلك بثلاثة أيام، حدث أمر في سياق متصل. اعتقد سترونزي فيما بعد أنّه

قد يكون أساء فهم ما حدث، لكنّ طبيعة الوضع ... المعقّدة... هي ما استحوذ على تفكيره لعدّة أيّام.

ربّما كان ذلك ما دعاه لاستعمال كلمة «معقّد» لوصف وضع الملك خلال حديثه مع رانتزاو.

أما ما حدث فهو كالتّالي:

كان سترونزي والملك كريستيان وحدهما في مكتب الأخير، وكان كلب الملك يجلس في حضنه كالعادة بينما كان كريستيان يوقّع على مجموعة من الوثائق التي أعاد سترونزي صياغتها «من الجانب اللغوي» حسب طلب الملك وبموجب الاتفاق الذي كانا قد توصلا إليه. كان سترونزي يكتب كلّ شيء ويصرّ مع ذلك على أنّ ما يفعله ليس أكثر من إعادة صياغة لغويّة صرفة. جلس كريستيان يومها ليوقّع باسمه -كصاحب السّلطة- على تلك الوثائق بكلّ تأنٍّ وبوجاهة، وهو يتمتم بين الحين والآخر قائلاً:

«ياه، كم سيستفزّ هذا غضبهم! بيرنستورف. غولدبيرغ. سيعرف غولدبيرغ هذا مكانته. سيضطّرّ لأن يعرف قدْره!! سأحطّم الحكومة، سأدمّر كلّ شيء».

رماه سترونزي بنظرة توجّس لكنّه لم يقل شيئاً وقد اعتاد سماع الأدعية المجنونة حول الدّمار، أو حول العنقاء وتطهير الهيكل، على لسان الملك.

«سنجعل من كل شيء حطاماً !!! أليس كذلك يا سترونزي؟ تفكيري سليم... أعتقد!!»

أجاب سترونزي عندها بصوت خفيض هادئ:

«نعم، جلالتك. يجب القيام بعمل ما في هذه المملكة المصابة بالبلى».

«النّور! من الشّمال!»

قام الملك بتقبيل كلبه، وهو أمر لطالما أثار تقزّز سترونزي، ثم أكمل:

«يجب تطهير الهيكل! بتدميره كليّاً!!! توافقني الرّأي، أليس كذلك؟!!!»

بدا الوضع برمّته عاديّاً جداً حتّى تلك المرحلة. لكنّ سترونزي الذي كان يعتريه

القلق أحياناً بسبب نوبات غضب الملك، همس بصوتٍ خفيضٍ، كأنّما لنفسه:

«ليس من السّهل فهمك دائماً، جلالتك».

اعتقد أن هذه الملاحظة ستمرّ دون أن يلحظها الملك. لكنّ كريستيان وضع قلمه جانباً، ورمق سترونزي بنظرة حزينة ثاقبة وربّما كانت نظرة خوف، أو ربّما أراد كريستيان من ورائها أن يجعل سترونزي يتفهّمه.

«نعم»، قال كريستيان. «لي أكثر من وجه!»

نظر إليه سترونزي نظرة كلّها اهتمام وقد شعر بنبرة صوتٍ لم يعهدها منه من قبل.

أردف كريستيان قائلاً:

«لكن يا سيد سترونزي، ألا يُحتَمل أن يكون هناك مكان فقط للرّجال الّذين سُكبوا من قالب واحدٍ في مملكة العقل التي ننشد إنشاءها؟!»

وبعد هنيهة أضاف:

«وإن كان الأمر كذلك، فهل هناك من مكان لي بها؟»

٧

بدا وكأنّهم في حالة انتظار.

شعرت الملكة بغضب غريب بعد لقائها بسترونزي في المتنزّه، وقد حدّدت ما شعرت به على أنّه غضب.

لم تشعر بالسّكينة بل بالغضب.

وفي اللّيل، عادت لتخلع قميص نومها ولتداعب أعضاءها بانفعال. غمرتها موجات صاخبة من اللّذة ثلاث مرّات متتالية، لكن ما عاد هناك شيء يشعرها بالهدوء الآن. إن ما استحوذ عليها هو مشاعر الغضب.

«إني أوشك على أن أفقد السّيطرة» فكرت بينها وبين نفسها، « يجب أن أستعيد السّيطرة».

«يجب أن أستعيد السّيطرة».

ثلاثة بدا وكأنّهم في حالة انتظار؛ كريستيان، كارولين ماتيلدا وسترونزي.

انتظار وترقّب، فكلٌّ واحد منهم يراقب الآخرَيْن بفضولٍ وارتياب. عيون من في البلاط كانت أيضاً تراقبهم كما كانوا هم كذلك يراقبون الحاشية ومن في البلاط.

بدا وكأن الجميع في حالة انتظار.

بل إن من هم خارج البلاط، راقبوا البلاط ومن به أحياناً. في وقت لاحق من ذلك العام، وفي فصل الخريف، كُتبت رسالةٌ حملت في طيّاتها بشكل ما، نذير ما هو قادم. ذلك أنّ وليّ عهد السّويد -المراقب الجيّد للأحداث وصاحب النظرة الثّاقبة- الأمير غوستاف، والّذي أصبح فيما بعد «الملك غوستاف الثالث»، توقف لفترة قصيرة في كوبنهاغن أثناء سفره إلى باريس في تلك السّنة. لاحظ الأمير أمراً، وإن لم يكن حول شيء قد حدث، إنّما حول ما قد يحدث.

كتب لوالدته رسائل عدّة تتضمّن تقارير في وصف حالة البلاط في الدّنمارك.

حال القصر لم تعجب وليّ عهد السّويد، إذ كتب واصفاً إيّاه على أنّه يفتقر للذّوق من النّاحية الجمالية. ذهبٌ، ذهبٌ، كلّ شيء مذهّب ومطليٌّ بالمزيد من الذّهب. لا نمط ولا طراز. أمّا استعراضات الحرس الملكيّ فتثير الشّفقة، إذ يطأ الحرس بأقدامهم دون تناسق ولا انسجام، ويستديرون ببطء في حركة تفتقر للدّقّة. ثم إنّ الانغماس في الشّهوات وفساد الأخلاق مستشريان في القصر والحال «أسوأ حتّى مما نجده في البلاط عندنا». من الصّعب اعتبار الدّنمارك مصدر خطر يهدّد السّويد من النّاحية العسكريّة، كما استنتج الأمير.

ذوق سيّء وحرس يستديرون ببطء. بالمختصر المفيد!

إنّما ما جذب انتباهه كان العلاقة ما بين الملك، الملكة، وسترونزي.

«لكن الأغرب من كل ما عداه، هو سيّد القصر وكل ما يتعلّق به. شخص رقيق المظهر، لكنّه صغير ونحيف لدرجة تجعل الواحد يظنّه صبيّاً في الثّالثة عشرة من العمر أو فتاة قد ارتدت ملابس رجل. لو تخيّلنا مدام دو لوندي بثياب رجل،

لكانت أقرب ما يمكن لهيئة الملك، ولا أظنّ أنّه أكبر منها حجماً.

ما يجعله من الصّعب بمكان، أن يصدّق المرء وبشكل قاطع أنّ هذا هو الملك، هو أنه لا يعلّق على زيّه أي ميدالية؛ ويمتنع ليس فقط عن تعليق وسام السيرافيم، بل حتّى وسام الكوكب. يشبه كثيراً صاحبة السّمو، الأميرة عندنا، ويتحدّث مثلها. إلاّ أنّه يتكلّم أكثر منها. يبدو خجولاً، وكلّما قال شيئاً، عاد ليصحّح ما قاله، كما تفعل هي، ويخشى أن يكون قد أخطأ القول. له طريقة غريبة في السّير؛ كأنّ رجليه لا تقويان على حمله.

أما الملكة فعلى العكس تماماً. تعطي الانطباع بأنّها جريئة، قويّة وقوامها صلب. تتصرّف دون كابح أو رادع. كلامها حيويّ ويتّسم بالفطنة، إنّما يعيبه التّسرّع. ليست بالجميلة ولا بالبسيطة؛ معتدلة الطّول مثل أغلب النّاس، ممتلئة لكنّها ليست بسمينة. ترتدي ثياب ركوب الخيل بشكل دائم، وتنتعل البوط وعلى مرافقاتها الحذو حذوها، مما يجعله من السّهل التّمييز بينهن وبين غيرهنّ من النّساء حيثما حللْنَ، إن في المسرح، أو في أيّ مكان آخر يتواجدن به».

ألقى الأمير غوستاف بنظرة متمعّنة على سترونزي أيضاً. جلس هذا قبالة الملكة مباشرة أثناء العشاء، وراح «يبصبص» عليها بطريقة لم تُرح وليّ العهد الزّائر. «لكنّ، الأغرب من هذا كلّه هو أنّ ستروتزي صار هو سيّد القصر وبات يتحكّم حتّى بالملك نفسه، وهو وضع يواجه باعتراض شديد يتزايد يومياً. لو ترافق هذا الاعتراض الشّديد لما يجري في هذه البلاد مع مقدار مساوٍ له من القوّة، لاتّخذت الأمور مجرىً خطيراً».

كان ذلك في الخريف. ويبدو أنّ نظرة الرّجل - الأمير غوستاف، وليّ عهد السّويد والذي ستشاء الأقدار أن يتولّى عرش بلاده في تلك السّنة باسم غوستاف الثّالث- كانت نظرة ثاقبة.

شيء ما قد حدث بالفعل!

الفصل الثامن

كائن حي

١

نظر غولدبيرغ للتّاريخ كما لو كان نهراً تزداد مياهه غزارةً بمرور الزّمن، وكأن مياه ذلك النّهر ستختلط تدريجيّاً بالكمّ الهائل لمياه البحر الّتي تخيّل أنّ كونها مُجتمعةً سيجسّد الأبديّة.

كانت حركة تلك المياه تتمّ بمشيئة الله. بالمقابل، اعتبر غولدبيرغ نفسه مجرّد رجلٍ عاديّ لا أهميّة له، يقف على حافّة النّهر ويراقب!

لم تترك له تلك المزاعم دوراً يتعدّى حجمه – وهو الأكديّ، القزم– في مجرى الأحداث المهمّة في التّاريخ. مع ذلك، فقد تخيّل أنّه قد أُسنِد إليه في الحقيقة دورٌ، رغم ضآلة حجمه ومحدوديّة هذا الدور؛ دورُ المراقب. بل ربّما بفضل تلك الضآلة مقرونة بما لديه من مثابرة، بالإضافة إلى عينيه الحادّتين الباردتين كالجليد واللّتين لا ترمشان أبداً، لم يكن مجرد مراقب لمسار الأمور التي كانت تجري حسب مشيئة القدير الواجبة التحقق، بل كان محلّلاً جيّداً لما يحدث من اضطراب في أعماق الدوّامات الّتي تجري تحت سطح تلك المياه. ولم يكن بالإمكان إدراك كنه أعماق النّهر ،إنّما كان من الممكن سبر أغوار التّيارات التي تجرى تحت الدّوامات المضّطربة، وهذه مهارة منحت لبعض بني البشر ممّن استطاع فهم منطق بواطن الأمور، وتحليل أسرار مشيئته تعالى.

لهذا، ولكي يتحاشى الخطأ، استعان غولدبيرغ بالمخبرين.

بعد اللّقاء الّذي جمعه بالملكة الأرملة في كنيسة القصر، أدرك غولدبيرغ طبيعة

المهمّة الملقاة على عاتقه. لم تقتصر مهمّته على تحليل الأمور، بل على وضع ذلك التّحليل في سياق محّدد. كذلك توجّب عليه أن يحبّ ابن الملكة الأرملة؛ ذلك الصّبيّ الصّغير، المشوّه، ومن خلال محبّته الصّادقة لهذا المخلوق النّكرة والمغمور، ستتحقّق مشيئة الله في الدّنمارك.

لكنّ مشيئة الله كانت أولاً ،وقبل كل شيء، القضاءَ على كل أفكار التّنوير وحرق كل ما هو قذر في أتون النّار العظيم، النّار التي تطهّر من الكفر.

كان اللقاء في كنيسة القصر مهمّاً جدّاً بالنّسبة له. إلاّ أنّه لم يحوّله إلى أحد زبانية الملكة. هذه المهمّة، هذا النداء للواجب، لم يكن بدافع الطّمع الماديّ، إذ لا يمكن لأحدٍ أن يشتري الرّجُل. كان يرغب بأن يقول ذلك للملكة الأرملة خلال لقائهما في الكنيسة، لكنّه لم يستطع. شعر بالإهانة حين سمعها تتفوّه بكلمة «مكافأة»، فهو لم يكن يبحث عن المكافآت ولا الألقاب ولا السّلطة. أراد أن يبقى شخصاً مغموراً، ضئيلاً، تتعدّى مهمته كلّ ما هو سطحي إلى كشف ما يدور في العمق تحت المياه المضّطربة، وأن يستشرف القادم من أحداث قبل وقوعه، أمور قدّرها الله، وما شاء فعل.

تملّكت الرّجل مشاعر القلق البالغ لما آلت إليه الأحوال وللطريّقة الّتي تطوّرت بها. كان للأمر علاقة بما عرفه عن ستروِنزي، فهو - كغولدبيرغ- رجل لا يمكن أن يُشترى، وإن حدث ووقع المُحال، فالسؤال الّذي حيّر غولدبيرغ هو: «ماذا يمكن أن يكون الثمن؟». ربّما كان اجتثاث هذه الشّجرة الباسقة ممكناً بوسيلةٍ ما؛ وللاهتداء إلى طبيعة هذه الوسيلة، كان على غولدبيرغ أن يكتشف دواخل ستروِنزي وأن يعرف أين تكمن نقطة ضعفه.

ستروِنزي — مثل غولدبيرغ- كان حديث العهد بهذه الأجواء، ومثله أيضاً، كان شجيرة صغيرة بين الأشجار العتيقة الضخمة والمتعجرفة. كم أحبّ غولدبيرغ هذه التشبيهات؛ شجيرات، أشجار عملاقة، غابات مجتثّة، وفي النهاية: النّصر! تجاذبته أحياناً مشاعر الكراهية الممزوجة بالحبّ تجاه ستروِنزي. شعر نحوه

بوحدة الحال بل بالحنان أيضا. لكنّه أدرك أن مهمّته هي أن يكتشف دواخل الرّجل.

خشي أن يكون سترونزي أكثر من مجرّد مفكّر عاديّ. تسّرب إليه إحساس ما، بأنّه اهتدى إلى نقطة ضعف الرّجل. غولدبيرغ، الواقف وحده على ضفّة النّهر مراقباً، فهم سترونزي. كمنت نقطة ضعفه - ويا للتّناقض- في عدم رغبته بالسّلطة. حُمِّل الطّبيب بصدق وبأصالة أيديولوجية اعتبرها غولدبيرغ منافقة، وربّما كان ذلك -حسب غولدبيرغ- هو السّبب في عدم رغبة سترونزي بالوقوع في فخّ السّلطة أو في فخّ فسادها. ربما كان يرفض اللّعبة على نطاق مستوياتها العُليا، وربّما كان إنساناً طاهراً بالفعل، لكنّه كرّس نفسه لخدمة الشّر. ربما استحوذ عليه حلم ساذج بأن تحقيق الطهارة ممكن ولم يرغب في أن يتلوّث بالقذارة. قد ينجح فعلاً في مواجهة لوثة السلطة، ليس بالقتل، ليس بالقضاء على الآخرين وليس بالدّخول في اللّعبة على أعلى مستوياتها. فقط عن طريق النّأي بالنفس وبأن يبقى نقيّاً طاهراً.

ولهذا السبب بالضبط كُتِب على سترونزي أن يموت.

٢

تابع غولدبيرغ أخبار جولة الملك في ربوع أوروبّا يوميّاً تقريباً، رغم المسافات، وذلك بواسطة مخبريه. قرأ الرسائل التي نقلت له أخبار البهرجة الجنونيّة ولم يُبدِ أيّ ردّ فعل. لكن، ما إن بدأت الرسائل تصله من باريس، حتى شعر بعدم الارتياح.

أدرك عندها أن خطراً جديداً يلوح في الأفق. من ذا الّذي كان على علم بهذا الأمر يا ترى؟ أيكون رانتزاو - الرّجل الّذي أوصى بتعيين سترونزي في هذا المنصب - مطّلعاً على ما يجرى؟ لا بدّ من أنّ رانتزاو يعرف ما يدور! كان التقرير حول لقاءات الملك مع الموسوعيّين بمثابة القشّة الأخيرة. لهذا السّبب قام غولدبيرغ بإجراء محادثة مُطوّلة مع الكونت رانتزاو في شهر حزيران/يونيو، وكانت اللّهجة

الّتي دار بها الحوار لهجة عمل صرف. أعاد غولدبيرغ على مسامع الرّجل فصولاً من السّيره الذّاتيّة لرانتزاو نفسه، مُذكّراً إيّاه بالمزاعم حول قيامه بالتجسّس لصالح قيصرة روسيا، وبأنّه من الضّروري التّغاضي عن هذا «الحدث الصغير»، آخذاً بعين الاعتبار العقوبة الصّارمة الّتي يواجهها كلّ من يخون الوطن. هكذا أرسى غولدبيرغ قواعد اللّعبة، باختصار وبوضوح، وكانت النّتيجة أن اتفق الرّجالان على أمور محدّدة تقضي باعتبار سترونزي دخيلاً دسيساً، وبالتّالي خطيراً جدّاً.

خلال اللقاء كان رانتزاو إمّا صامتا أو عصبيّاً.

أثبت تصرّف رانتزاو هذا ما أراد غولدبيرغ معرفته عن الرجل. أثبت له أنّه –أي رانتزاو– رجل هشّ وسريع الانكسار.

هذا بالإضافة إلى حقيقة أخرى مهمّة ومفادها أن الرّجل مثقل بالدّيون.

كان على غولدبيرغ أن يمارس أقصى درجات الانضباط خلال المحادثة، كي لا يكشف عن مدى الاحتقار الذي شعر به تجاه رانتزاو. من الممكن شراء الأشجار الباسقة إذن، ومن الممكن بالتّالي اجتثاثها.

أما الشّجيرات الصّغيرة، فلا.

بحلول شهر أيّار/مايو صار الوضع محيّراً، وبالتّالي خطيراً، ممّا اضطّر غولدبيرغ إلى أن يكتب تقريراً خاصّاً ويقدّمه للملكة الأرملة في شهر تموز/يوليو.

اتفقا على أن يتمّ اللقاء بينهما في المسرح الملكّي، ذلك أن تبادل الحديث في المقصورة الملكيّة حيث تجلس الملكة قريباً من المسرح ومن الفرقة الموسيقية، لا يمكن أن يثير الشّكوك حول مؤامرة ما، فإجراء محادثة سريّة تحت أنظار الجمهور كافٍ بحدّ ذاته لإبعاد الشّبهة.

ثم أن الضّجة المنبعثة من الفرقة الموسيقيّة أثناء ضبط الآلات استعداداً للعرض، كفيلة بالتغطية على الحديث.

قدّم غولدبيرغ للملكة تلخيصاً سريعاً للأحداث: «في أيّار/مايو، تمّت حجامة

وليّ العهد الرّضيع وقد تكلّلت بالنّجاح، ممّا دعم مكانة «الرّجل الصّموت». نتيجة الدّسائس، خسر «هولك» مكانته الّتي آلت إلى رانتزاو رغم ضعف الأخير وقلّة حيلته. سيتمّ إعفاء بيرنستورف من منصبه كوزير للخارجيّة في الخريف. خرج ستروِنزي من تحت كنف رانتزاو وسرعان ما ستؤول إليه السّلطة المطلقة، ولهذا كرهه رانتزاو الّذي طالما اعتبر نفسه صديقه المقرّب والوحيد. براندت من المقرّبين المَرْضِيّ عنهم. وقّع الملك مرسوم تعيين ستروِنزي بسرعة ودون رقابة من أحد. أُعلِن في الأسبوع التّالي عن ستروِنزي مستشار دولة بمرتّب قدره ألف وخمسمئة قطعة نقدية. أما الوثيقة الّتي كان الملك قد وقّعها قبل ذلك بأسبوع، والّتي تتعلق بمنع منح الميداليات والجوائز أو «تعليق» ذلك، فقد كان «الرّجل الصّموت» هو من كتبها. وهناك سيل من الإصلاحات على الطّريق».

«من أين لك بكلّ هذه المعلومات؟» سألت الملكة الأرملة. «لا تقل لي إن ستروِنزي هو من أخبرك».

«ربّما أخبر رانتزاو»، أجاب غولدبيرغ.

«ألم تقل إنه صديق ستروِنزي الوحيد؟».

«لكن ستروِنزي رفض تحرير كتابٍ يوصي بإعفائه من ديونه» شرح غولدبيرغ باقتضاب.

«إذن؛ رجل فكر وديون مقابل رجل تنوير ومبادئ». قالت الملكة الأرملة بتمعّن كأنّها تحدّث نفسها. «إنّها مأساة لكليهما».

عاد غولدبيرغ بعدها ليكمل تحليله للأوضاع قائلاً إن ما أطلق عليه ستروِنزي مؤخّراً «إعادة صياغة» مراسيم صدرت عن الملك، كان في الواقع تلاعباً صريحاً بالسّلطة. الملك يوقّع على كلّ ورقة يضعها ستروِنزي أمامه. باتت الإصلاحات تتدفّق كالسّيل. الخطط التي سيتمّ تنفيذها في القريب العاجل تشمل الحرّية الكاملة للصّحافة، الحرّية الدينيّة، وتحويل إيرادات الجمارك التي تجبى من أورسند إلى خزينة الدّولة وليس إلى خزينة العائلة المالكة، حلّ مسألة الفلاّحين وإنهاء العبوديّة، ووقف

المعونة التي تمنحها الدّولة للمشاريع غير الرّبحيّة والتي تعود ملكيتها للنّبلاء، إصلاح الخدمات الصحيّة، إلى جانب لائحة طويلة من الإصلاحات المفصّلة مثل وضع اليد على أوقاف للكنيسة في شارع أماليا(٧) والّتي سيتمّ تحويلها إلى ميتم.

«ميتم لما تبذره العاهرات»، قالت الملكة الأرملة مقحمة تعليقها بمرارة.

«بالإضافة لمنع استعمال وسائل التّعذيب خلال التّحقيق بالطّبع».

«هذا البند سيتم إلغاؤه يوم نقبض على هذا الجرذ وبعد أن نقطع ذراعه على كل حال». قالت الملكة الأرملة.

كان الموسيقيون قد أنهوا ضبط آلاتهم، حين همست الملكة الأرملة بسؤالها الأخير:

«وكيف تنظر الملكة إلى سترونزي؟»

«أمّا بالنّسبة لها»، - أجاب غولدبيرغ هامساً هو أيضاً هنا- «فلا أحد يعرف شيئاً. لكن ذلك لن يطول وسأكون أوّل من يعرف».

٣

صارت تأمر سائس عربتها بأن يتوجّه بها نحو شاطئ البحر على نحو ازدادت وتيرتهُ. هناك، كانت تترجّل من العربة وتتوجّه نحو أقرب نقطة من البحر، تقف عند حافّته وتنتظر. الرائحةُ ذاتها، رائحة البحر ورائحة أعشابه. لكنّها مع ذلك ليست ذاتها! ليست الرّائحة نفسها تماماً. في البداية كان الباعث مجرّد ملل، لكنّه ما لبث أن صار مزيجاً من الرّغبة والموت. بعدها، تحوّل إلى شيء آخر.

ربما تعلّق الأمر بسترونزي. أرادت أن تعرف حقيقة هذا الرّجل.

بعد الاستفسار والبحث عرفت أين يتواجد؛ ولهذا حوّلت جولاتها في ساعات ما بعد الظّهر نحو الاسطبلات الملكيّة، إذ علمت أنّ د. سترونزي اعتاد على ركوب الخيل أيام الثلاثاء والجمعة.

وبالفعل، وجدته هناك. توجّهت إلى المكان دون وصيفاتها. ذهبت كي تتبيّن السّبب وراء ثورات غضبها، ولتضعه هو في مكانه الصّحيح.

كان مشغولاً بوضع السّرج على ظهر فرسه، وبما أنّها كانت غاضبة ومزمعة على أن تضعه في مكانه الصّحيح، فقد توجهت إليه مباشرة بالكلام:

«دكتور سترونزي»، قالت «آه، أرى أنك منشغل بإعداد فرسك تأهباً للخروج. لا أرغب في تعطيلك عمّا يشغلك إلى هذا الحد».

انحنى لها وقد أصابه الارتباك، ثم أكمل إسراج فرسه دون أن ينبس بكلمة. لم يسبق وأن تصرّف معها أيّ كان بهذا الشّكل من قبل، فحتّى من لا يعرف من نظام التّشريفات إلاّ أبسط المبادئ، يدرك أن عليه الإجابة بكلمات محّددة، متعارف عليها وبطريقة مقرّرة سلفاً كما يليق بالبلاط؛ لكنّ سترونزي ليس أكثر من رجل عاديّ، رجل من عامّة الشّعب.

«لقد أهنتَ ملكة الدّنمارك»، قالت له عندئذٍ. «أكلّمك ولا تجيب. يا لقلّة الحياء».

«لم أقصد ذلك» قال دون أن تظهر عليه أيّ علامة من علامات الرّهبة.

«أنت دائماً مشغول»، أردفت قائلة. «ما الّذي يشغلك بالضّبط؟»

«الشُّغل» أجاب.

«ماذا تشتغل؟»

«أنا أعمل في خدمة الملك. أعدّ الوثائق. أشارك في بحث الأمور المستجدّة. أسدي النّصح بين الحين والآخر إن كانت هذه رغبة الملك».

«وعدتني بأن تعلّمني ركوب الخيل؛ أنا سمحت لك بأن تعدني بذلك، ومنذ تلك اللّحظة لم يكن لديك الوقت! لا وقت! لكن خذ حذرك، فقد تجد نفسك في خانة من لا أرضى عنهم! من لا أرضى عنهم!!!»

توقّف عندها عن إسراج فرسه، استدار، ونظر إليها باستغراب، أو ربّما ببعض الضّيق.

«هل من الممكن أن أسألَكَ؟» أضافت بصوت أفلت منها لدرجة جعلتها تشعر بحرج شديد منه وقد رنّ صوتها عالياً:» هل من الممكن أن أسألك إن كان هذا العملَ ضرورياً لتلك الدّرجة؟هل من الممكن أن أسألك؟ وسأسألك!!! ما هو هذا الـ-»

«هل أجيب؟» سأل.

«تفضّل، يا دكتور سترونزي».

حدث ذلك بسرعة كبيرة. لم تتوقّع ذلك. أجابها بنوبة غضب فاجأتهما معاً.

«جلالتك، مع كل احترام وتقدير، أنا فعلاً أشتغل». قال بصوت خفيض مشحونٍ بالغضب «لكن ليس بالقدر المطلوب. الأمور الّتي يجب أن أقوم بها تحتاج للوقت، وهو ما أفتقد إليه؛ فأنا بحاجة للنّوم أيضاً. قد أكون غير مؤهّل، لكن لا يستطيع أحد أن ينكر أنّي أبذل جهدي. لسوء الحظّ، فإنّي أعلم تمام العلم ما لا أعمله. جلالتُكِ، لسوء الحظّ، علي أن أعمل حتى أجعل من هذا البلد الملعون، الدّنمارك، بلداً محترماً. عليّ أن أعمل من أجل حقوق الفلاّحين، ولم أقم بذلك بعد. عليّ أن أعمل على الاستغناء عن نصف موظّفي البلاط على الأقل، على الأقل!!! وذلك أيضا لم أقم به بعد. عليّ أن أعمل على تغيير القوانين بحيث لا تُعاقب أمّهات الأطفال غير الشرعيّين، حتى لا تُعاقب تلك الأمّهات !!! ولكن هذا أيضا لم أقم به. عليّ أن أعمل على إلغاء العقوبات ضدّ الدّعارة والمبنيّة على التّملق والفساد، ولم أقم به يا صاحبة الرّفعة والسّمو. هناك عدد غير محدود من الأمور التي لم أقم بها! — لم أقم بها !!! وعليّ أن أقوم بها وأن أعمل، لكنّني عاجز. أستطيع أن أعدّد ما لا نهاية له من الأمور التي لم.. !!!.. أعمل عليها، أستطيع أن —»

فجأة توقّف. أدرك أنّه فقد السّيطرة على أعصابه. تبع ذلك صمت طويل، قال بعده:

«أرجو منك المغفرة. أتوسّل إليك... أن تغفري لي. هذا الـ...»

«الـ..ماذا؟»

«هذا البوح غير المقبول بأسرارٍ يقتضي مني شرف المهنة كتمانها.»

شعرت بالهدوء التّام فجأة. زال غضبها، ليس لأنّها وضعته في مكانه، ولا لأنّها قد وُضعت هي في مكانها الصّحيح؛ لكنّه زال لأنّه كان -وبكلّ بساطة- غضبا، وزال.

«يا له من حصان جميل»، قالت له.

جميلة حقا هي الخيل. لابد من أن التعامل مع هذا المخلوق البديع، بأديمه، فتحات أنفه وعينيه اللتين كانتا ترمقانها بهدوء وسكون تام هو أمر رائع بالفعل.

خطت نحو الحصان ومسّدت متنيه من الخلف.

«يا له من حيوان جميل. أتظنّ الخيول تحبّ أجسادها؟»

لم يجب. استمرّت في تمسيد عنق الحصان؛ عُرفه ورأسه. وقف الحصان ساكناً تماماً، ينتظر. قالت بصوت خفيض دون أن تلتفت نحو سترونزي:

«هل تحتقرني؟»

«لا أفهم» أجاب.

«هل تقول في نفسك: فتاة صغيرة وجميلة، ابنة سبعة عشر ربيعاً، غبيّة، لا تعرف من أمور الدّنيا شيئا ولا تفهم شيئا. كائنٌ جميلٌ ليس إلاّ. أهكذا تنظر إليّ؟»

«لا».

«كيف إذن؟»

كان قد بدأ يمشّط جسد الحصان بالفرشاة، ببطء.. ثم توقّف.

«كائن حيّ».

«ماذا تعني؟»

«كائن ينبض بالحياة».

«لاحظت ذلك إذن؟»

«نعم، لاحظته».

«رائع جدّاً»، قالت بهدوء. «يا...للرّوعة. ليست كثيرة هي الكائنات التي

تنبض بالحياة في كوبنهاغن».

نظر إليها.

«جلالتُكِ هذا أمر لا تستطيعين الحكم عليه. هناك عالم آخر خارج حدود القصر».

فكرت في نفسها: ما قاله صحيح، لكنّ المفاجأة تكمن في جرأته بأن يصرّح لي بهذا الكلام. ربما كان يرى فيّ أكثر من تلك البارجة الحربيّة وأبعد من الجسد. إنه يرى شيئاً آخر وإنه لجَسور, لكن هل قال ما قاله لأنّه ينظر إليّ كفتاة صغيرة، أم لأنّ هذه هي الحقيقة فعلاً؟

«أفهم قصدك»، قالت له. «تقول في نفسك إنها لم تر الكثير من أمور الدنيا. أليس كذلك؟ أليست هذه هي فكرتك عنّي؟ ابنة سبعة عشر ربيعاً ولم تعش يوماً خارج حدود البلاط؟ لم تر في حياتها شيئا؟»

«الموضوع ليس موضوع عمر»، أجاب. « البعض قد يمتدّ به العمر لمئة عام دون أن يرى شيئا».

نظرت في عينيه ولأوّل مّرة لم تشعر بالخوف أو بالغضب، بل بمجرّد الهدوء وحب الاستطلاع.

«لا غضاضة في أنّك قد غضبت»، قالت له. «جميل أن يرى الإنسان شخصاً...يشتعل غضباً، شخصاً به أثرٌ للحياة. ذلك أمر لم أره من قبل، أمر مبهر. الآن نستطيع أن نباشر ركوب الخيل، يا دكتور سترونزي».

٤

اجتمعت الحكومة ولأوّل مّرة بكامل أعضائها، حين أعلن الملك أنّه تمّ تعيين الدكتور ي. ف. سترونزي كمحاضرٍ ملكيّ يحمل لقب مستشار دولة.

كان ذلك متوقّعاً، ولم يصدر أيّ ردّ فعل من الحاضرين.

أعلن كذلك، أنّه لم تكن هناك حاجة لعقد أيّ اجتماع إضافيّ حتى نهاية أيلول/ سبتمبر، وأن أي مرسوم ملكيّ لن يحتاج لموافقة من الحكومة في حال تمّ توقيعه.

تبع ذلك الإعلان صمت بارد كالثّلج وكأن الحاضرين قد أُصيبوا بالشّلل، فهذا ما لم يكن في الحسبان. وما هي ترجمة إعلان كهذا على أرض الواقع يا تُرى؟

خلص الملك بعد ذلك إلى القول: «وأود أن أعلن عن سعادتي البالغة إذ تفضّلتُ اليوم بتعيين كلبي، فيتريوس، كمستشارٍ ملكيّ، وسيُعامل وفقاً لذلك ومنذ اللّحظة، بالاحترام اللّائق باللّقب الذي يحمله».

خيّم هدوء تامّ على الحضور لوقت طويل.

وقف الملك دون أن يقول كلمة أخرى وغادر القاعة، فتبعه الحاضرون وفرغت القاعة من الرّجال.

تحلّق الرّجال في الرّدهات لدقائق لكنّهم سرعان ما تفرّقوا. خلال تلك اللّحظات القليلة، نجح غولدبيرغ في أن يتبادل بضع كلمات مع المستشار الملكيّ، الكونت هولك، ومع وزير الخارجيّة، الكونت بيرنستورف.

«تمرّ البلاد حاليّاً بأسوأ أزمةٍ عرفتها في تاريخها،» قال غولدبيرغ.»نلتقي الليلة عند العاشرة في جناح الملكة الأرملة».

كان الوضع غير عاديّ. تَصرّفَ غولدبيرغ بما يتجاوز صلاحيات وظيفته أو ما يتيحه له قانون التّشريفات. لم يصدم تصرّفه هذا أيّاً من الرّجلين الآخرين. أضاف قائلا ما اعتبره فيما بعد «غنيّا عن القول»:

«الموضوع سرّي للغاية».

لم يحضر الاجتماع الصباحيّ في اليوم التّالي إلا ثلاثة: الملك كريستيان السّابع، كلب الملك فيتريوس- وهو من فصيلة الشّناوزر وقد عيّن مؤخّرا مستشارا لجلالته

وها هو قد طوى نفسه على قدمي الملك وغطّ في النّوم- وسترونزي.

ناول سترونزي الوثيقة تلو الأخرى للملك الذي أشار بحركة من يده بعد فترة، بما معناه أنّه يريد أن يرتاح قليلاً من العمل.

أخفض الملك نظره وحملق بقوة بسطح المكتب الذي كان يجلس خلفه. لم ينقر بأصابعه، لم تصبه التّشنّجات، كلّ ما حدث هو أن ارتسمت على وجهه علامات الحزن الشّديد التي أثارت لبرهة قلق سترونزي.

فهل عاش الملك لحظات من حالة وِحْدَة غير مسبوقة؟

قال كريستيان عندها بصوت هادئ جدّاً وبتركيز تامّ ودون أن يرفع ناظريه:

«تعاني الملكة من الكآبة. إنّها وحيدة، إنّها غريبة عن هذه الدّيار. أجد أنه من المستحيل أن أخفّف من معاناتها. يجب أن ترفع هذا العبء عن كاهلي. يجب أن تحيطها برعايتك.»

بعد لحظة صمت قال سترونزي:

«كل ما أتمنّاه هو أن يخفّ التّوتّر الموجود حالياً في العلاقة ما بين الملك والملكة.»

عاد الملك ليكرّر بكل بساطة:

«عليك أن ترفع هذا العبء عن كاهلي.»

نظر سترونزي إلى الأوراق الملقاة أمامه. لم يرفع كريستيان عينيه. كان الكلب يغطّ في نومٍ عميقٍ على قدميه.

٥

لم يستطع سترونزي فهم لغز هذه المرأة.

لقد سبق له وأن رآها في ألتونا حيث مكثت فترة وهي في طريقها إلى كوبنهاغن، لكنّه لم يرها حقّاً. كان من الواضح عندها أنّها مجرد طفلة، وأنّها في حالة من الرعب.

شعر يومها بالسّخط والغضب إذ ليس هكذا يُعامل البشر، لكنّه في الحقيقة لم يرها حقّاً.

فيما بعد...رآها. أدرك فجأة أنّها تنذر بخطر عظيم. تكلّم عنها الجميع بصفتها «فاتنة» و «ساحرة»، وهي كلمات وصفات كانت النّاس تقولها مضطّرة في وصف الملكات. كلمات جوفاء، فالمفروض أن تكون صاحبة السموّ ضعيفة الإرادة، فاتنة، وأن تكون حياتها جحيماً، وإنْ على مستوى أرقى مما تعيشه ربّات البيوت من بنات الطّبقة الوسطى وأعلى بكثير مقارنة بحياة العامّة من النّساء. لكنّ شيئاً ما في هذه الفتاة الإنجليزيّة الصّغيرة جعله يعتقد أنّها لم تُعط ما تستحقّه من التّقدير.

كانت ملامحها أخّاذة. يداها جميلتان جدّاً. تنبّه لنفسه مرّة وقد تخيّل يدها تلتفّ حول عضوه.

رغبتها في تعلّم ركوب الخيل كانت مذهلة.

لطالما أذهلته. حدث ذلك تقريباً في كلّ لقاء من اللّقاءات القليلة بينهما. بدا وكأنّه يراقبها وهي تنمو دون أدنى فكرة إلى ما ستؤول إليه الأمور.

تمّت التّرتيبات بخصوص درس الفروسيّة الأوّل دون مشاكل. لكن حين أتى الموعد، قدمت وهي ترتدي زيّ الرّجال. لم يسبق أبداً وأن امتطت امرأة من الحاشية الملكيّة حصاناً كما الرّجال، بمعنى أن تجلس على ظهر الفرس منفرجة السّاقين بحيث تتدلّى من كلّ جهة ساق.

اعتُبر ذلك الفحش بعينه. مع ذلك فقد حضرت بزيّ الرّجال.

لم يعلّق.

أخذها برفق من يدها وأوصلها إلى حيث الحصان ليعلّمها أوّل درس في الفروسيّة.

«القانون الأوّل»، قال لها، «هو الانتباه».

«والثّاني؟» سألت.

«الشّجاعة».

«أفضّل الثّاني»، أجابت.

كان الحصان قد اختير بحذر؛ حصانٌ هادئ جدّاً. امتطيا الخيل ساعة من الزّمن في متنزّه بيرنستورف.

اختال الحصان بهدوءٍ وسار كلّ شيء على أفضل ما يكون. هكذا ركبت الخيل للمرّة الأولى في حياتها. الحقول فسيحة، الأكمات هنا وهناك.

ركبا الخيل جنباً إلى جنب. دار الحديث بينهما حول الحيوانات؛ الطريقة التي تحرّكت بها، إن كانت تستطيع أن تحلم أو كان لها إدراك ما لمعنى حياتها. هل كانت الحيوانات تخصّ بعشقها حيوانا ما بالذّات وهل كانت تستطيع أن تشعر بأجسادها، ثمّ كيف نظرت إلى البشر يا تُرى، وبماذا حلمت الخيل إن كانت تحلم أصلاً؟!

قالت الملكة إنّها تتصوّر أنّ الخيل تختلف عن باقي الحيوانات؛ ذلك أنّها تولد عاديّة لا شيء يميّزها، أقدامها طويلة بشكل مبالغ به، إلا أنّها ما تلبث أن تعي أنّها حيّة، تشعر بأجسادها، وتباشر بالحلم، وأنّها تستطيع أن تميّز مشاعر الخوف ومشاعر الحبّ، وأنّ لديها أسراراً تكشفها العيون، فقط لو نظرنا إلى تلك العيون. من الضروريّ النّظر إلى عيون الخيل، وعندها فقط ندرك أنّ الخيول تحلم أثناء نومها، وأثناء وقوفها، فهي الخيل تدّثّرُ بأحلامها.

قال: «أدرك الآن أنّني لم أجرؤ في حياتي ولو مرّة على النّظر إلى أحلام فرس».

ضحكت الملكة في تلك اللّحظة، ولأوّل مرّة، خلال السّنوات الثّلاث الّتي لمضتها في كوبنهاغن.

بدأت الشائعات تنتشر في اليوم التّالي.

بينما كان سترونزي يمرّ عبر ردهة في القصر، التقى بالملكة الأرملة الّتي استوقفته في الحال.

كان وجهها جامداً كالحجر. للدّقة، فإنّ وجهها كان دائماً جامداً كالحجر، لكنّ الغضب الذي كان يغلي تحت السّطح جعله في تلك اللّحظة يبدو مرعباً.

«دكتور سترونزي» قالت، «تم إعلامي بأنّ الملكة قد امتطت صهوة جواد بزيّ الرّجال، وجلست منفرجة السّاقين. هل هذا صحيح؟»

«نعم، هذا صحيح»، أجاب.

«هذا خرق للعرف وأمر شائن».

«في باريس»، أضاف سترونزي «تمتطي النّساء الخيل دائماً هكذا. في القارّة كلّها لا يوجد مكان يعتبر ذلك أمراً معيباً. في باريس ...».

«في باريس..» أسرعت بالجواب قائلة «...الكثير من قلّة الأدب. لا نحتاج لاستيراد ذلك كله إلى الدّنمارك.»

احنى رأسه دون أن يقول شيئاً.

«سؤال آخر يا دكتور سترونزي حول أفكار...القارّة هذه».

احنى رأسه انحناءة خفيفة .

«ما هو الهدف النهائيّ الذي يرمي إليه... رجال التنّوير هؤلاء؟ كنت ببساطة...أتساءل»!

اختار سترونزي كلماته بعناية قائلا:

«أن يخلقوا جنّة على الأرض» قال بابتسامة خاطفة.

«وماذا يحدث... للجنّة... الحقيقيّة... عندها؟ وأعني بذلك جنّة الله؟»

بنفس الابتسامة اللّطيفة قال:

«تصبح...حسب رأيهم...أقلّ إلحاحاً».

قالت الملكة الأرملة وبالصوت الهادئ ذاته:

«هكذا إذن. إنّه سبب إضافيّ للقضاء على هؤلاء الكفرة».

استدارت عند قولها ذلك وغادرت المكان.

وقف سترونزي دون حراك لفترة من الزّمن وعيناه تتبعانها. فكّر : لست على

درجة عالية من الشّجاعة في الواقع، فها أنا أشعر بلسعة رعب مثلجة لمجرّد أن واجهتني امرأة عجوز بالكلام. إن كانت كوّة في التّاريخ قد فتحت أمام شخص وهو يعلم أنّ عليه أن يجتازها – فهل من الصّحيح بمكان أن يقوم بهذه المهمّة رجل تستطيع امرأة عجوز أن ترعبه؟

فكّر لاحقا أنّ المعارضة بدأت تتكشّف؛ فهي ليست مجرد امرأة عجوز، إنّها طبقة النّبلاء وغولدبيرغ وغيرهم، وهم كثر وستتّضح هويّتهم قريبا.

أستطيع أن أميّز من يقف في صفّ المعارضة دون شكّ – فكّر في نفسه – لكن من هم المؤيّدون يا تُرى؟

الفصل التاسع

كوخ روسو

١

كلّما مرّ الوقت ازدادت الأمور تعقيداً. كأن الشّخصيات المختلفة كانت تقف على خشبة مسرح وكلٌّ يدير ظهره للآخرين بينما تضيقُ بقعة الضّوء المسلّط عليهم تدريجيّاً.

لحظات ويبدأ المشهد، وقد استعدت الشّخصيّات لتؤدّي أدوارها. ما زال الصّمت هو سيّد الموقف، وقد أشاح الواحد منهم بوجهه عن الآخرين.

في إحدى الأمسيات، عاد كريستيان ليروي لسترونزي أدقّ التفاصيل حول الكوابيس التي كان يراها، والّتي كان محورها الرّقيب مورل وموته الأليم. فجأة، قام سترونزي وأخذ يدور في الغرفة، ثم انفجر غضباً وقال للملك أن يتوقّف عن هذا الكلام.

تعجّب كريستيان. إذ إنّ معلّمه السّابق ريفيرديل، الّذي عاقبه الملك بالإبعاد، لم يمنعه من الحديث عن هذا الموضوع. من الواضح أنّ سترونزي قد فقد أعصابه ممّا جعل كريستيان يستفسر عن السّبب. جاء جواب سترونزي كالتّالي:

«الغريب أنّ جلالتك لا تفهمني ولم تبذل أيّ جهد لتفهمني رغم الوقت الّذي مرّ منذ تعارفنا. فالحقيقة أنّي لست بذاك الرّجل الشّجاع، والألم يسبب لي الذّعر. أنا لا أريد أن أفكّر بالألم. الألم يخيفني. هذا هو واقع الحال. كان على جلالتك أن تدرك ذلك، لو كنت مهتما».

حملق كريستيان في سترونزي وهو في ثورة غضبه مأخوذاً بالمفاجأة، ثم قال: «أنا أيضا أخاف الموت».

«لكنّي لا أخاف الموت!!!» أجاب سترونزي وقد فقد صبره. «فقط الألم. ما يرعبني هو الألم!!!».

من بين الأوراق الّتي تعود لتلك الفترة، مسودّة لرسم خطّه كريستيان في أواخر صيف سنة ١٧٧٠ ويمثّل صبيّاً زنجيّاً.

نادراً ما كان كريستيان يرسم، إلا أنّ الرّسومات المتبقّية تدلّ على موهبته العظيمة في الرّسم. تصوّر المسودّة المذكورة الصبي مورانتي، وهو ذلك الصّبي الزّنجيّ الّذي قُدِّمَ هديّة للملك بهدف التّغلب على سوداويته، و«كي يكون لديه رفيقٌ يلعب معه.» كان «اللعب» إذن هو الوصف المُمَوّه لحالة الملك، والتّي لا يصح وصفها في الواقع إلاّ بكلمة واحدة وهي: «السّوداويّة». براندت، صاحب الفكرة، وصف الحالة بدقّةٍ حين قال:«نُحضر للملك رفيقاً يلعب معه، فمن الصّعب أن نجد من بين موظّفي البلاط من يمكن أن يقضي كل وقته في اللّعب مع الملك.» كانت طاقة كريستيان تُستنفذ خلال تلك السّاعة الّتي كان يقضيها مع سترونزي كما يبدو، فما أن يوقّع الوثائق والمراسلات الّتي كان سترونزي يضعها أمامه؛ حتّى يشعر باللاّمبالاة بمجرد أن ينتهي ذلك، إذ كان سترونزي يفترق عنه بقيّة ساعات النّهار. عندها كان كريستيان يدخل في نوبة لا تنتهي من الهمهمات. لم يعد براندت الّذي أسندت إليه مهمّة مرافقة الملك يحتمل ذلك الوضع، ولهذا اكترى للملك صبيّاً زنجيّاً ليلعب معه. حين ذهب ليطلب إذناً بذلك، هزّ سترونزي رأسه مستسلماً، وأعطاه الإذن.

كانت المكانة التي أصبحت لسترونزي في القصر قد وصلت الحدّ الّذي جعل من موافقته على عملية شراء العبيد من الزّنوج أمراً ضرورياً.

أما براندت، فكان من الطّبيعي أن يتعب من الملك ومن الّلعب مع الملك، فهذا العمل المملُّ لم يكن مدرجاً ضمن واجباته كمدير للمسرح. كان براندت في الواقع مرهقاً ومُحبطاً، وصارت علاقته مع جلالته تزداد رتابة مع الوقت، ذلك أنّ الملك كان يجلس على كرسيّه لمدةٍ قد تطوي النّهار كلّه أحياناً، وهو يلوّح بيديه ويتمتم مكلّماً نفسه أو يحملق في الحائط حيث لا شيء. كان من عادة الملك أيضاً أن يضع كرسيّه قريباً من الجدار ويجلس بمواجهته، متحاشياً النّظر إلى من حوله.

ما الّذي يستطيع براندت أن يفعله والحال هذه؟ المحادثة مع الملك مستحيلة، فهو كما شرح لسترونزي، لا يستطيع أن يحشر نفسه بين الكرسيّ، حيث يجلس الملك، والحائط.

«افعل ما تريد» أجابه سترونزي. « فهذا المكان، كان وما يزال مستشفى للمجانين».

تم تعميد الصبيّ الزّنجيّ وسُمّيَ مورانتي.

سيكون لمورانتي هذا دور ما فيما بعد، وسيُذكر اسمه حتّى في التّقارير الدّبلوماسيّة.

وصلت الأمور إلى مرحلة حرجةٍ في خريف تلك السّنة، إذ تلقّى زعماء الدّول الأجنبيّة تّقارير مقلقة حول مدى سلطة سترونزي، ممّا جعل السّفير الفرنسي يطلب لقاء الملك. حين وصل السّفير، كان سترونزي هو الشّخص الوحيد في الغرفة، معلّلاً غياب الملك بوعكة صحيّة ألّمت بجلالته، ومضيفاً أن جلالة الملك كريستيان السّابع يود مع ذلك أن يعبّر عن احترامه وإخلاصه لسفير الحكومة الفرنسيّة.

«دكتور سترونزي...» قال السّفير الفرنسيّ مُستهلاً كلامه، حين استوقفه سترونزي مُصحّحاً:

«مستشار الدّولة!»

كان الجوّ مشحوناً وعدائيًا لكن مؤدّباً.

«... وصلتنا إشاعة بخصوص العاهل الدّنماركيّ تتعلّق بخططٍ تكاد تكون...

أوربّا. أمرٌ مثيرٌ. مثيرٌ حقّاً. نحن على اطّلاع بالطبع على هكذا أفكار في باريس، ولكن ننتقد هذه الأفكار كما تعلم دون شّك. نود أن نتأكّد - مع كل التّقدير والاحترام- من أنّ هكذا قُوى... ظلاميّة...ثوريّة... لن تنجح — بطريق الخطأ! بطريق الخطأ!- في أن تتسرّب فتنتشر.. في بلدكم.. أو في أوروبا.. ولن تنتشر هذه العدوى التّنويرية... نعم، هكذا سأصفها، «العدوى»! لن تنتشر حولنا. وبما أنّنا لعلم بأنّ العاهل الشّاب يُصغي إليك، فإنّنا نودّ لو...»

لم يدْعُ سترونزي السّفير الفرنسي للجلوس، وهو خروج واضح عن نظام التّشريفات، فوقف الرّجلان متواجهان، تفصل بينهما مسافة خطوات خمس.

«هل يشعر الناس بالخوف في باريس..؟» سأل سترونزي بلهجة بها لسعةٍ من سخرية وأردف قائلاً: «.. بالخوف من بلدٍ صغيرٍ، لا شأن له كالدّنمارك؟ أهذا ما تريد قوله؟»

«قد تكون رغبة في معرفة ما يجري». ردّ السّفير.

«ما يجري هو شأنٌ دنماركيّ».

«مما يعني أنّه لا يعني...؟»

«بالضّبط».

حملق السّفير في سترونزي بنظرة باردة ثم قال بصوت حادّ كمن فقد أعصابه للحظة:

«رجلٌ من التّنويريين ،أمثالك، يا دكتور سترونزي، عليه ألاّ يتطاول لهذا الحد!»

- «نحن ببساطة حقيقة قائمة».

- «لكن إذا كانت سلطة الملك في خطر...»

- «ليست في خطر.»

- «يتناهى لمسامعنا خِلاف ذلك».

- «لا تُصغ إذن».

فجأة، سُمعت صيحات عالية انطلقت من ساحة القصر. أجفل سترونزي

واقترب بسرعة من النّافذة. رأى الملك كريستيان السّابع يلعب مع خادمه. كان كريستيان يدبّ على أربع كما لو كان حصاناً، والصّبي الزّنجيّ الصّغير يمتطي ظهره ويصرخ بأعلى صوته وهو يلوّح بالسّوط، بينما يدبّ جلالته في كلّ اتّجاه.

استدار سترونزي، لكن بعد فوات الأوان، فقد كان السّفير الفرنسيّ قد تبعه إلى النّافذة وألقى بنظرةٍ على المشهد. سحب سترونزي عندها السّتائر، وتعابير الحزم بادية على وجهه.

لكنّ الوضع كان واضحاً بما لا يحتمل التّفسير.

«سيّد سترونزي»، قال السّفير الفرنسيّ بنغمة ساخرة ممزوجة بالغضب: «أنا لستُ مغفّلاً، كما أن مليكي ليس بمغفّل، لا ولا بقيّة ملوك أوروبا. أقول هذا بنفس الصّراحة الّتي تدّعي أنّك تقدّرها غاية التّقدير. إنّك تلعب بالنّار. لن نسمح لشرارة الثّورة المميتة الشّرسة أن تنطلق من هذا البلد الصّغير والقذر.

انحنى عندها انحناءة مضبوطة، كما تقتضي الأمور، وخرج.

كان المشهد في ساحة القصر واضحاً للغاية وحقيقيّاً تماماً، وليس بالإمكان التّهرّب منه.

هل هذا حقّاً هو الحاكم المطلق؟ أهو من سيحمل شعلة العقل بيده، أم أنّه مجنون؟ ماذا يستطيع سترونزي أن يفعل إزاءه؟

لا جواب. ليست لديه أدنى فكرة عمّا يستطيع أن يفعله مع كريستيان.

كانت المشكلة تزداد حدّة مع الوقت. في نهاية الأمر تحوّلت إلى مشكلة ألقت بظلالها على سترونزي نفسه. صار يتساءل إن كان هو الرّجل الصّحيح للمهمّة؟ أم أنّ شعلةً من الظّلام تملؤه هو أيضاً؟

في الأسبوع الّذي سبق وصول الصّبيّ الزّنجيّ الصّغير، كان اليأس قد تملّك سترونزي. ربّما يجب الإنصات لصوت العقل. ربّما كان من الحكمة بمكان أن يُترك كريستيان لمرضه، أن تبتلعه الظّلمة.

هل يُعقل أن ينبعث النّور من ظلمة مشعل مُعتم؟ كان من المفروض أن يكون العقل هو الرّافعة، فلو فرضنا أن العالم بيت، يكون العقل هو الرّافعة الّتي يُوضع أحد طرفيها تحت زاوية البيت فترفعه. لكن هل يمكن ذلك دون وجود نقطة ارتكاز معيّنة؟ ماذا لو كان العقل لا يستطيع أن يجد نقطة ترتكز عليها الرّافعة؟

لكنّه كان يحبّ هذا الولد لدرجةٍ كبيرةٍ. رفض أن يتخلّى عن كريستيان، رغم أنّ المشروع قد يكون في غنى عنه، بل ربما لا مكان للصّبيّ في الخطّة الشّاملة على أية حال.

لكن، ألم تُوضع الخطّة أصلاً من أجل المهمّشين ومن استُغني عنهم؟

فكّر كثيراً في كلّ ما أثار ريبته؛ فمن ناحية كان كريستيان مختلاً، أصيب بقرصة صقيع أصابت منه الرّوح، ومن ناحية هو صاحب السّلطة الّتي لا غنى لسترونزي عنها. يبقى السّؤال: «ما الذي يثير شهوة سترونزي، أو ما الذي عليه أن يستغلّه على الأقل؟» كان مرض كريستيان قد خلق حالة من الفراغ في مركز السّلطة، أي في المكان الّذي حلّ سترونزي فيه زائراً. لابدّ من أن تكون هناك إمكانيّة لإنقاذ الصبيّ كما للحلم بتغيير المجتمع في الوقت نفسه.

ذلك ما حدّثته به نفسه، رغم أنّه لم يكن متأكّداً من أنه كان يحاول أن ينقذ كريسيتان بالدّرجة الأولى أو أن يُنقذ نفسه هو؟!

رفضت صورة المشعل المعتم والذي منه تنبثق الظلمة أن تفارق عقل ستروزنزي، فداخل العاهل الشاب مشعل يحترق وهو معتم أصلاً، مشعل يطفئ كلّ منطق لاختلال في عقل صاحبه، وهو ما بات سترونزي يدركه تماماً. لماذا تلاحقه تلك الصّورة؟ هل لأنّ مشعلاً أسود يسكن داخله هو أيضاً؟! لا! لا! ربّما؟! لا! لا!!

ما الّذي يدور في أعماق كريستيان يا تُرى؟

النّور؟ النّار الّتي تشتعل في البراري؟ كلامٌ جميل!

الأمران معاً؛ نور وفرصة للتغيير من جهة، ومشعل معتم قد خبا فلا يبعث إلا الظلام من جهة أخرى.

أهذا هو الإنسان؟ أهو رسول نور ومشعل معتم في آن؟

كان كريستيان قد تحدّث مرّة وهو في لحظة صفاء وتأمّل عن البشر، وكيف أنّ الإنسان قد صُبَّ من طينة واحدة في قالب واحدٍ متجانسٍ؛ بينما كان حظّه هو أن يُركَّبَ من عدة قطع أخذت من أكثر من قالب. لذلك، له عدّة وجوه. توجه كريستيان بعدها إلى سترونزي سائلاً: «هل لمثلي مكان في مملكة العقل يا ترى؟»

سؤالٌ ما لبث أن سبّب لسترونزي العذاب، رغم ما فيه من بساطة وسذاجة طفوليّة.

لابدّ من أن يكون في خضمّ ذلك كلّه مكانٌ لكريستيان أيضاً. ألم يكن ذلك أصل الحكاية؟ ألم يكن هو بالضّبط السّبب الذي من أجله قد تُفتح أمام سترونزي كوّة في التّاريخ ؟ ألم يكن ذلك جزءاً من مهمّته؟

ما هي حقّاً مهمّته؟ تخيّل سترونزي نفسه وقد عَلقت صورته في ذهن الأجيال اللاّحقة كطبيب ألمانيّ أتى في زيارة لمستشفى مجانين.

لكن، هل ألقيت على عاتقه مهمّةٌ؟

كلمة «زيارة» هي الأنسب لوصف الحالة، أفضل من كلمة «استدعاء» أو «مهمّة».

نعم، هكذا بدأ ينظر للأمر، وصارت فكرة الزّيارة تنمو في داخله. الزّيارة هي مهمّة عليه أن يُنهيها، مهمّة أُلقيت على عاتقه حيث ستُفتح أمامه كُوّةٌ لدخول التّاريخ. وفي اللحظة المناسبة سيخطو عبر تلك الكوّة ثم... يختفي!

سيضع يده في يد كريستيان. قد يكون هذا بحد ذاته هو الأمر الأهم. عليه ألاّ يُدير ظهره للصّبي إذن، ألاّ يترك صاحب الوجوه المتعدّدة الّذي لم يُنحَت من قطعة واحدة وحده. يجب ألاّ ينبذ هذا الصّبي الّذي يحترق في داخله مشعل أسود ينشر الظّلمة، بل سيأخذ بيده.

«يشكّل كلانا»، كان سترونزي يفكّر أحيانا، «ثنائيّاً رائعاً. الصّبي بمشعله

الأسود يبعث الظّلمة، وأنا بنظرتي الواضحة ومخاوفي الرّهيبة، والّتي أُخفيها بكل حذق. بل أن اجتماع هذين الأمرين معاً، هو ما سيُشكّل الرافعة التي ستوضع ذراعها تحت طرف «بيت» العالم فيحدث التّغيير»

٢

كان ستروونزي يدرك تماماً أنّه ما كان عليه أن يسمح بهذه الهديّة.

ذلك أنَّ الصّبي الزّنجي الصّغير كان عبارة عن لعبة، والملك ليس بحاجة للألعاب التي قد تقوده إلى المنحى الخطأ، كما لو كان كرة بيلياردو تتعرّض لنقرة سيّئة التّصويب من المضْرَب.

لكنّ حادثاً صغيراً طرأ خلال الأسبوع الأوّل من حزيران/يونيو ١٧٧٠، دفع بستروونزي لأن «يستسلم»- كما علّل الأمر لنفسه لاحقاً-.

يومها، بدأ كريستيان يتبعه كالكلب أينما ذهب: يثرثر ويتلو كلمات الولاء وهو يلهث، أو يقوم بحركات صامتة تدلّ على أنّه يتوسّل لستروونزي. كان من الضّروري المبادرة لشيء يهزّ الملك ويُخرجه من سُباته، ولذلك قرّر ستروونزي القيام برحلة، رحلة خاطفة، لا لقصور ملوك أوروبّا إنّما رحلة للواقع. فالواقع، هو ما سيصدم الملك وسيُخرجه من سوداويته. ستقودهم الرّحلة إلى الرّيف الدّنماركيّ حيث سيأخذ الملك لمحة سريعة عن وضع الفلاّحين الدّنماركيين المستعبَدين؛ لكنّها ستكون لمحة واقعيّة، حقيقيّة، بعيداً عن أجواء البلاط المزخرفة، ومن دون أيّ مرافقة أو ما يلفت انتباه الرّقيق من الفلاّحين لوجود الملك بينهم، سيراقب الملك سير حياتهم عن كثب.

لهذا السّبب كان من الضّروري أن تتمّ الرّحلة خفيةً ودون إعلان.

يوماً قبل الرّحلة، والّتي وافق عليها الملك دون أي اعتراض، إذ إنّه لم يكن يعلم بالهدف الحقيقي من ورائها وما كان سيُبدي أدنى اهتمام بها أصلاً، تمّ تسريب خبر الرّحلة. أدّى هذا لمواجهةٍ حادّةٍ مع رانتزاو؛ والّذي استعاد موقعه في البلاط كما

يبدو، ووقف مرّة أخرى في صفّ الملك، إلى جانب اعتباره أحد أقرب الأصدقاء لسترونزي.

توجّه سترونزي صباح ذلك اليوم إلى الإسطبل ليأخذ حصانه في تمشية صباحية؛ وكان ذلك قُبيل الفجر بقليل. أسرج حصانه وامتطاه خارجاً عبر بوّابة الاسطبل. هناك بالضّبط فاجأه رانتزاو، وأمسك بلجام فرسه. سأله سترونزي ببعض الاستياء عمّا يريد.

أجاب رانتزاو بغضب لم يُحسن كتمانه :«أرى أنّك أنت الّذي تريد، وتريد الكثير. لكن ما الّذي يحدث؟ ما هذا الّذي يحدث؟ تريد أن تُجَرْجِرَ الملك هنا وهناك بين الفلاّحين؟ بدل أن نتوجّه لصانعي القرار أو غيرهم ممّن نحتاج إليهم للقيام بالإصلاحات التي نريد، نذهب للفلاّحين؟ لنجد ... ماذا؟»

«الحقيقة».

«لقد نلتَ ثقته. لكنّك على وشك أن ترتكب خطأً».

مرت لحظة كان بها سترونزي على وشك أن يفقد أعصابه، لكنّه سيطر على نفسه. قال شارحا إنه يجب علاج الملك من حالة سباته ومن سوداويته. لقد أمضى كريستيان وقتاً أطول مما يجب في مشفى المجانين هذا لدرجة أنه بات يفقد صوابه. ثم أن الملك لا يعرف شيئاً عن الدنمارك.

«وما هو رأي الملكة؟» سأل رانتزاو.

«لم أسألها»، أجاب سترونزي. « أترك حصاني».

«إنك ترتكب خطأً فادحاً»، زعق رانتزاو بصوت عال سمعه كل من كان في المكان. «إنّك تتصرّف كشخص ساذج؛ سوف تؤول الأمور كلّها إليك قريباً، إلا أنّك لا تفهم قوانين اللّعبة. دع الأبله وشأنه، لا تستطيع أن...»

«اتركني» قال سترونزي. «ولا أسمح لك بأن تصفه بالأبله».

لكن رانتزاو رفض أن يتركه وشأنه وأكمل كلامه بصوت عال.

عندها، حثّ سترونزي حصانه كي ينطلق، فتعثّر رانتزاو ومال للخلف ساقطاً

أرضاً، بينما انطلق سترونزي دون أن ينظر خلفه.

انطلق الملك صبيحة اليوم التّالي بصحبة سترونزي في رحلة للتّعرف على حياة الفلاّحين في الدّنمارك.

حالف الرّحلة نجاح باهر في أوّل يومين، وفي اليوم الثالث وقعت المصيبة.

حدث ذلك في ساعة متأخّرة من عصر ذلك اليوم في منطقة قريبة من هيليروذ. كان بالإمكان رؤية مجموعة من الفلاّحين من خلال نافذة العربة وقد تجمهروا حول...شيءٍ ما. بدا التّجمهر عادياً بريئاً إلى أن اقتربت العربة من المكان، واتّضحت الصّورة.

مجموعة من النّاس تجمّعت في المكان، وبمجرّد أن اقتربت العربة، انبعثت ضوضاء وجلبة وتبعثر النّاس وقد ركض بعضهم فزعاً نحو بناية كبيرة في مزرعة قريبة.

توقّفت العربة، ومِن داخِلها استطاع كلّ من الملك وسترونزي رؤية شخص وقد مُدِّدَ على ما يشبه لوحاً من الخشب. أمر الملك السائس بأن يقترب أكثر من المكان، وعندئذ كان من الممكن رؤية ذلك الشّخص بوضوح أكبر.

كان صبيّاً من أولاد الفلاّحين قد أُجلس عارياً على خشبة خشنة علّقت على جحش خشبيّ، وقد قُيّدت يداه خلف ظهره وشدّت قدماه بحبل إلى طرف الجحش الخشبيّ من الأسفل. ربّما كان في السّادسة عشرة من عمره. كانت بقع الدّم المتخثّر واضحة على ظهره مما يدلّ على تعرّضه لضربات السّوط.

كان الصّبي يرتجف بقوّة كأنّه على وشك أن يفقد وعيه.

« أظن» قال سترونزي، « أنّه حاول الهرب من المزرعة. إنّهم يعاقبون من يحاول الهرب بتقييده إلى جحش خشبيّ. من يبقى منهم على قيد الحياة لا يعيد المحاولة، ومن يموت يكون قد تحرّر من العبوديّة. هكذا هي الأمور في مملكتكم، جلالتك».

كريستيان، والذي فتح فاه مرعوباً، حملق في الصّبيّ المعذّب. بدأت المجموعة الصّغيرة من الفلاّحين تعود إلى المكان حيث الصّبي.

«إنّ طبقة الفلاّحين برمّتها تجلس على ذلك الجحش الخشبيّ» قال سترونزي.

«هذا هو الواقع. حرّرهم جلالتك! حرّرهم!»

أُقرّ قانون الرّق، أو تقييد حريّة حركة الفلاّحين، سنة ١٧٣٣، وكان ذلك إجراء استطاع النّبلاء من خلاله التّحكم بالقوى العاملة، أو بالأحرى منع حريّة تنقّل أفراد هذه الطّبقة. مُنع الفلاّحُ بحسب هذا المرسوم، من مغادرة المقاطعة التي سُجّل كتّابع لها حتّى بلوغه سنّ الأربعين، وكان صاحب المقاطعة هو من يُقرّر شروط العمل بما يتضمّنه من قيمة الأجر وشروط السّكن وكل ما عداه. سُمِحَ للفلاّح أن يترك المقاطعة بعد انقضاء المدّة، أي بعد أربعين سنة من التّبعية للمقاطعة ولسيّدها، إذ تكون طاقته قد استنفدت في تلك الأثناء، وصحّته قد تدهورت وساء وضعه إلى أبعد الحدود. كذلك يكون قد أدمن الكحول وأُثقِل بالدّيون وهي مظاهر مرافقة للعبوديّة، أو يكون قد وصل حالة من الضّعف الشّديد والوهن جعلت الانتقال من مقاطعة لأخرى أمراً نادراً.

كان ذلك شكلاً من أشكال العبوديّة الدّنماركيّة والذي شكّل أساساً اقتصادياً مهمّاً لطبقة النّبلاء. ورغم أنّ شروط عمل الفلاّحين وحياتهم كانت أسوأ في شمال يولاند(٩) منها في جنوبها، إلا أنّها كانت كلّها تصبّ في إطار العبوديّة.

قد يحدث أن يهرب فلاّح أو أن يحاول الهرب، فيتعرّض عندها للعقاب. وقد كان سترونزي محقّاً حين خمّن أنّ ذلك ما حصل لهذا الصّبيّ.

لكن يظهر أن كريستيان لم يستوعب الأمر؛ وكلّ ما فعله به المشهد كما يبدو هو أنّه ذكّره بموضوع آخر سبق أن فكّر فيه. لم يبدُ أنّه أنصت لشرح سترونزي إنّما أخذ يمضغ بقوّة، وصار فكّاه يحتكّان ببعضهما كأنّ الكلمات ترفض أن تخرج من فمه. بعد ثوان قليلة أخذ يصرخ مطلقاً سيلاً غير مترابط من الكلمات انتهت بالتّأتأة. قال:

«لكنّ هذا الصبيّ الفلاّح- قد يكون طفلاً بديلاً- مثلي!!! لماذا يعاقبونني؟

هكذا!!! سترونزي !!! ماذا فعلتُ؟ هل هذا العقاب عادلٌ؟ سترونزي، هل أُعاقبُ الآن؟ أيعاقبونني...؟»

أخذ صوت كريستيان يعلو وهو يُتأتئ.

«لقد فرّ الصّبيّ من المزرعة، والجحش الخشبيّ هو العقاب» قال سترونزي محاولاً أن يشرح للملك الّذي استمرّ في إطلاق سَيْل الكلمات الّتي لا معنى لها والّتي ازدادت غموضاً.

«يجب أن تُهدّئ من روعك» قال له سترونزي حاثّاً إيّاه على الهدوء:» اهدأ. اهدأ!»

لكن دون جدوى.

هبط الغسق، وازرقّ ظهر الصّبيّ المقيّد إلى الخشب فصار قاتماً وقد تخثّر دمه. لا بدّ من أنّه قد مرّ وقت طويل وهو على هذه الحال. بعد أن يئس سترونزي من محاولة تهدئة الملك، أخذ يراقب الولد المعذّب وقد مال بجسده ببطءٍ إلى الأمام، فانزلق الجسد تحت اللّوح الخشبيّ الّذي تمّ تعليقه بالعرض من كلا طرفيه، وصار وجه الصبي مواجهاً لسطح الأرض.

أجفل كريستيان فجأة وأتى بحركاتٍ عنيفة مبهمة، بينما الصّبي المعلّق في سكون تام. لقد خرج كلّ شيءٍ عن السّيطرة واستحالت تهدئة الملك، بينما عاد الناس راكضين من المبنى الذي لجؤوا إليه، إلى حيث الصّبي. صرخ الملك بصوت حادّ أحدث صريراً ورفض أيّ محاولة لتهدئته.

تعلّق جسد الصّبيّ الصّامت بالجحش الخشبيّ، ولم تزد المسافة الّتي تفصل بين وجهه والأرض على قدم واحد.

صرخ سترونزي بالسّائس كي يستدير بالعربة وقد أصيب الملك بالضّيق من المشهد، ويتّجه عائداً بهم إلى كوبنهاغن في الحال. لكن في اللّحظة التي استدارت بها العربة بسرعة، طرأ لسترونزي خاطر حول الصبيّ المعلّق على الجحش الخشبيّ، فمن غير المعقول أن يُترك على هذه الحال لأنه حتماً سيموت. عندها، قفز سترونزي

من العربة علّه ينجح في التّفاوض مع جهةٍ ما ويحصل على عفوٍ عن الصّبي؛ إلا أنّ العربة كانت قد انطلقت للتو، ومن داخلها أطلق كريستيان صيحات يأس وتوجّع ازدادت تصاعداً.

كان الصّبيّ معلّقاً على الخشبة دون حراك حين اقترب منه سترونزي. بدت جموع الفلاّحين المتقدّمة نحو المكان عدائيّة. أُصيب سترونزي بالجزع، فلا سيطرة له على الأمور هنا. إنّه في البريّة الدّنماركيّة الآن. هنا لا مكان للمنطق، ولا للألقاب. هنا البريّة، ولا سلطة تستطيع السّيطرة على الوضع. هنا البشر كالحيوانات. لسوف يمزّقونه إرباً!

شعر برعب مريع دفعه للتخلّي عن فكرة إنقاذ الصّبيّ.

كانت الخيل ومن خلفها العربة التي تدلّى الملك من شبّاكها صارخاً، على وشك أن تختفي في عتمة الغسق، والأرض موحلة بسبب المطر الذي سبق أن هطل. ركض سترونزي والحال هذه، صارخا بالسّائس أن يتوقّف، فتعثّر بالوحل بينما كان يركض محاولاً اللّحاق بالعربة.

هكذا انتهت رحلة التّعرف على حال الرّقيق في الدّنمارك.

٣

صار الملك يمضي المزيد من الوقت في اللّعب مع صبيّه الزنجيّ مورانتي. لم يُثر ذلك استغراب أحد فقد أدرك الجميع أنّ الملك ينعم بالارتياح والهدوء طالما كان اللّعب مستمرّاً.

في بداية شهر آب/ أغسطس، أُصيب مورانتي فجأة بحمّى جعلته طريح الفراش لمدّة أسابيع ثلاثة، تعافى منها ببطء، ممّا أزعج الملك وأعادهُ لكآبته. كان مزاج الملك متقلّباً جدّاً خلال اليومين اللّذين بدت حالة مورانتي بهما حرجة للغاية. كتب السّكرتير الأول ب. و. لوكسدورف في يوميّاته، واصفاً باقتضاب حادثة شهدها

من شُبّاك مكتب رئيس الوزراء، لخص بها تصرفات الملك قائلاً: «راح يُلقي بالدّمى الخزفيّة وبالكتب والرّفوف وبأوراق النّوتة الموسيقيّة وغيرها من شرفة القصر ما بين السّاعة الحادية عشرة والثّانية عشرة ظهراً. تجمّع أكثر من أربعمئة شخص تحت الشّرفة، فحمل كلّ ما استطاع أن يلتقطه وهرب به».

بعد شفاء مورانتي، صار الملك أهدأ، لكنّ مشهد إلقاء الأغراض من النّافذة تكرّر مع بعض التّغيير الّذي لا يمكن الاستخفاف به؛ فالملك لم يكن وحده على الشّرفة هذه المرّة، كما أنّ من وضع التّقرير كان دبلوماسيّاً صاغ كلامه دون أن يكشف عن هويّته. جاء في تقرير الدّبلوماسيّ المذكور أنّ :«الملك صغير السّن ويحب اللّعب، وقد خطر له صبيحة يوم الجمعة أن يخرج إلى الشّرفة بصحبة صبيّه الزّنجيّ، وأن يتسلّى بإلقاء كلّ ما تطاله يداه . وقد أصابت زجاجة طائشة قدمَ سكرتير المفوضيّة الروسيّة فجرحته جرحاً بالغاً.»

لم يذكر السّفير إن كان مورانتي قد شارك فعليّاً في قذف الأغراض، لكنّه وصف ثورة الملك هذه على أنّها تصرّف لا تفسير له البتّة.

كانا يحومان حول بعضهما، في دائرةٍ أخذت تصغر وتضيق يوماً بعد يوم، فيقترب الواحد منهما من الآخر.

صارت علاقة الملكة كارولين ماتيلدا بطبيب الملك سترونزي قويّة جدّاً.

كثرت نزهاتهما في الغابات معاً.

هناك، في الغابة، دار بينهما الكلام. هناك، في الغابة، تلكّأ المرافقون لهما فجأة؛ وهناك، راق للملكة السّير مع سترونزي.

وكانت الغابة من شجر الزّان.

تحدّث سترونزي عن أهمّيّة تقوية أطراف وليّ العهد الصّغير بالتّمارين الرّياضيّة وقد بلغ الصّبيّ الثّانية من العمر. تحدّثت الملكة عن الخيل. شدّد سترونزي على أهمّيّة تعليم الصّبيّ الصّغير اللّعب كما الأطفال العاديّون. وتحدّثت هي عن البحر وعن

البجع العائم على سطح الماء الزئبقيّ المالح. اعتقد بوجوب تعليم الصّبيّ الصّغير أدقّ تفاصيل أصول الحكم والسّياسة؛ وعادت هي لتسأل إن كانت الأشجار تفكّر!

أجاب: «فقط في أقصى حالات الخطر».

ردت: «فقط في أقصى حالات السّعادة... تستطيع شجرة أن تفكر».

لم يستطع المرافقون مواكبتهما حين سارا في الغابة وقد تشابكت شجيراتها. أحبّت السّير في الغابة. اعتقدت أن أشجار الزّان تستطيع أن تحبّ، ووجدت أنه من الطبيعيّ للأشجار أن تحلم وأنّه ما على الواحد منّا إلاّ أن يراقب الغابة في الغسق، كي يقتنع بذلك.

سألها إن كانت الأشجار تشعر بالخوف أيضاً!

فجأة صار بإمكانها أن تتحدّث إليه في كل الأمور تقريباً. لا، ليس تماماً، لكنّها استطاعت أن تسأله عن سبب غضب الجميع لركوبها الخيل بملابس الرّجال مثلاً، واستطاع هو أن يُجيب. لكنّها لم تستطع أن تسأله عن سبب وقوع الاختيار عليها كي تكون تلك البقرة الملكيّة الّتي على الجميع أن يخدمها، أو لماذا تُعتبر السّيّدة الأولى والأكثر تبجيلاً بين النّساء بينما كلّ ما عليها أن تفعله هو أن تقوم بمهمة آلة التفقيس ولنوعٍ هو الأكثر رداءة من بين بني البشر!

مشت بسرعة. كانت تتعمّد أن تسبقه أحياناً كي لا يرى أثر الكلام على وجهها، إذ وجدت أنّه من الأسهل عليها أن تسأله أسئلةً معيّنة دون أن تنظر إليه، فلا يرى منها إلا ظهرها. سألته:

«كيف تستطيع أن تصبر إلى هذا الحدّ مع هذا الأبله المجنون؟ لا أفهم «.

«تقصدين الملك؟»

«إنّه مريض».

«لا، لا»، قال لها. « لا أسمح لك بالحديث عن زوجك بهذه الطّريقة. فأنت تحبّينه، في نهاية الأمر».

توقّفا عن السّير فجأةً.

كانت الغابة كثيفة. وقفت وقد أدارت له ظهرها. رأى ظهرها وقد أخذ يرتجف. كانت تبكي بصمت. تنبّه لصوت الوصيفات عن بعدٍ خلفهما. تناهى إليه صوتهنّ وهنّ يُحاولن سلوك الطّريق بحذرٍ بين الأشجار المتشابكة.

اقترب منها. بكت بيأس وضيق واتّكأت على كتفه. وقفا بسكونٍ تامّ للحظاتٍ. صار صوت المرافقات أقرب.

«جلالتكِ» قال بصوتٍ خفيضٍ «عليك الحذر لئلّا...»

رفعت إليه ناظريها وقد ظهر عليها الهدوء فجأةً:

«لئلاّ؟»

«لئلاّ يُسيء الناس...تفسير...»

صارت الأصوات قريبة جدّاً الآن، وكانت ما تزال تقف على مقربة منه، ضاغطةً على كتفه؛ ثمّ رفعت عينيها إليه وقالت له بنبرةٍ باردة لامبالية:

«ليفعلوا ما بدا لهم. لست بخائفة. لا أخاف شيئاً. لا أخاف شيئاً!»

عندها رأى سترونزي بعض الوجوه المتلصّصة من بين أغصان الأشجار والشّجيرات، وكانت الوجوه تقترب وتقترب. لكنّ الملكة لم تشعر بالخوف من أي شيءٍ أبداً، إلى أن مرّت بضع دقائق أخرى ورأت هي أيضاً الوجوه من خلال أغصان أشجار الغابة لكنّها مع ذلك لم تخفْ!

كان يعلم أنها لم تَخَفْ، وقد ملأه هذا برعبٍ فجائي.

«إنّك لا تخشين شيئاً» قال لها بصوت خفيض، ثم أكملا سيرهما في الغابة.

٤

لم تعد الملكات الثلاث يجلسن حول طاولة لعب الورق في المساء كما اعتدن أن يفعلن بشكلٍ دائم في السّابق. توقّفن عن اللّعب دون أن تحصل الملكة الأرملة على تفسيرٍ لذلك. لم تعد كارولين ماتيلدا مهتمّة بلعب الورق، دون أن تشرح السّبب.

أمّا أمسيات «التّاروت» وما تحمله بطاقاته من كشف للمجهول، فإنّها وبكلّ بساطة، توقّفت.

الحقيقة أن الملكة الأرملة الّتي ما عادت تجد نفسها في مركز الحدث، كانت تعرف السبّب وراء ما استجدّ. مع ذلك، ولاستخلاص تفسير للوضع أو لإيجاد حلّ نهائيّ له، ذهبت للقاء كارولين ماتيلدا في جناحها الخاص.

لم ترغب الملكة الأرملة في الجلوس، فوقفت في منتصف الغرفة وقالت:

«لقد تغيّرتِ عما كنت عليه عندما قدمتِ إلى الّدنمارك » – قالت الملكة الأرملة بصوت بارد مثلج– «ما عدت جذّابة ولا عاد بك ما يسحر كما في السّابق. هذا ليس رأيي وحدي بل رأي الجميع. تجافين الجميع وليست لديك أدنى فكرة عن حسن التّصرف».

لم تغيّر هذه الكلمات التي سمعتها كارولين ماتيلدا من تعابير وجهها، وقالت بكل بساطة:

«هذا صحيح.»

«أتوسّل إليكِ – وبشكل جدّي – ألا تمتطي الخيل بزيّ الرّجال. لم يسبق أن ارتدت امرأة يجري في عروقها دم الملوك زيّ الرّجال. إنّه تصرّف يثير الصّدمة!»

«لا يصدمني أنا».

«وهذا الطّبيب...سترونزي؟»

«ولا يصدمه هو أيضاً.»

«أرجوك!»

«سأفعل ما يحلو لي» أجابت كارولين ماتيلدا، «سأرتدي ما يحلو لي. سأمتطي الخيل كما يحلو لي. سأكلّم من يحلو لي أن أكلّمه. أنا الملكة، لذلك فأنا الّتي تضع القوانين، وتصرفاتي هي التي تحدد ماهيّة الأخلاق السّليمة. ألا تغارين؟»

لم تجب الملكة الأرملة، لكنّها نظرت إلى كارولين ماتيلدا نظرة صارمة تحتقن غضباً.

«بلى، أليس كذلك؟» أضافت كارولين ماتيلدا «تغارين مني!»

«صوني لسانك!» قالت الملكة الأرملة.

«ذلك» قالت الملكة بابتسامة «ما سأفعله بكلّ تأكيد، إنّما فقط حين يروق لي».

«الحياء بريء منك».

«قريبا» قالت كارولين ماتيلدا، «سأمتطي الحصان عارياً عن سرجه. يقولون إن في ذلك منتهى المتعة. ألا تشعرين بالغيرة؟ أتغارين لأنّي أعرف شكل العالم خارج هذه الجدران؟ أعتقد أنّك تغارين منّي».

- «صوني لسانك. إنّك مجرّد طفلة، لا تفقهين شيئاً».

- «قد يبلغ البعض منّا من العمر مئة عام دون أن يرى أو أن يعرف ويفقه شيئاً. هناك عالم قائم بذاته خارج البلاط».

وفي تلك اللّحظة غادرت الملكة الأرملة المكان وهي ساخطةٌ غاضبة.

بقيت الملكة الشّابّة جالسة حيث هي. فكّرت في نفسها: كان سترونزي على حقّ فيما قاله. فبعض النّاس قد يبلغ المئة من عمره دون أن يرى شيئاً. هناك عالم خارج البلاط، وحين أجاهر أنا بذلك، تتفتّق الغشاوة وتستشيط حمّى الغضب، وأصير حرّةً.

٥

في الـ ٢٦ من أيلول/ سبتمبر، انطلق الملك والملكة ومعهما سترونزي وموكب صغير من المرافقين في رحلةٍ نحو هولستين لقضاء عطلة قصيرة في ربوعها. كانوا ينوون زيارة حدائق أشيبيرغ، وكان سترونزي ينوي أن يُري الملكة ذلك الكوخ الشّهير؛ كوخ روسّو.

حلّ فصل الخريف وقد كسى الطّبيعةَ بجمالٍ رائع خلاّبٍ، وأدّت البرودة الّتي

طرأت على الجوّ لأيام معدودةٍ إلى صبغ أوراق الشّجر باللّونين الذهبيّ والقرمزيّ الخفيف. كان بالإمكان رؤية الجبل والأوراق الملوّنة تعكس أشعّة الشّمس بكلّ ألوان الخريف في ساعات ما بعد الظّهر، بينما الموكب في طريقه نحو أشيبيرغ. كان الهواء منعشاً وفي منتهى الرّوعة.

خريف عام ١٧٧٠ كان خريفاً دافئاً، غير ماطرٍ، أشبه بصيفٍ في نهاياته.

في الصّيف، أي منذ أسابيع خلت، كان قد بدأ يقرأ على مسامعها بعض النّصوص. طلبت منه أن يختار لهذه الرّحلة كتاباً شدّ اهتمامه بشكل خاصّ. قصد أن يختار كتاباً يسلّيها ويستحوذ على اهتمامها من ناحية، ويقدّم لها معلومات جديدة تجعلها تتعرّف عليه وعلى فكره بشكل أفضل. أراده نصّاً ملائماً أيضاً للمكان الّذي سيزورانه معاً.

لم يخبرها بكل هذه التفاصيل بل اكتفى بأن قال بأن طلبها سهل رافضاً البوح بالمزيد. سيترك المفاجأة، كما قال، إلى تلك اللّحظة التّي يتّخذان بها مقعديهما في كوخ روسّو.

عندها، ستفهم القصد من وراء الاختيار.

في اليوم التّالي سارا وحدهما في حدائق أشيبيرغ، وتوجّها صعوداً نحو الكوخ الذي تمّ تأثيثه والحفاظ عليه بشكل دقيق وبكلّ وقار واحترام، والّذي اشتمل على غرفتين صغيرتين، كان من المفروض أن يعمل الفيلسوف في إحداهما، وأن ينام في الأخرى. نسي القائمون على المشروع أن يجهّزوا مطبخا في الكوخ؛ مفترضين ضمنا أنّ الخدم سيحملون الطّعام من مقاطعة أشيبيرغ للفيلسوف المُعتزل في خلوته، كحلّ لشروط الحياة البدائيّة هذه.

أخذت كارولين ماتيلدا تقرأ باهتمام بالغ ما خُطَّ على الجدران والسّقف من اقتباسات مأخوذة من أشعار مختلفة غطّت تلك الجدران، بينما كان سترونزي يحدّثها عن الرّجل الّذي لأجله كتب كل ذاك؛ المفكّر روسّو.

شعرت بالسّعادة.

أخرج فيما بعد الكتاب. جلسا في المكتب، على الأريكة الجميلة من طراز الباروك؛ التي كان رانتزاو الأب قد اشتراها من باريس سنة ١٧٥٥ ووضعها لاحقاً في الكوخ بانتظار زيارة روسّو. كان الكتاب الذي اختار أن يقرأ لها منه هو كتاب للمفكّر الدنماركيّ هولدبيرغ بعنوان: «مفهوم الأخلاق».

لماذا اختار ذلك الكتاب بالذّات؟

في البداية اعتبرت أنّ هذا الكتاب، هذا الاختيار، ثقيلٌ ينوء بكآبة قاتمة. فقال لها عندئذ أن تنسى عنوان الكتاب للحظة، إذ ربّما لم يكن العنوان مثيراً، وأن تسمح له أن يقرأ لها عناوين فصول منه، وما بها من الأقوال المأثورة، والّتي كما أوعز لها، ستعطي انطباعاً مختلفاً تماماً.

«أهي في المحرّمات؟» سألته.

«لأقصى الحدود»، أجاب.

استحوذت العناوين على اهتمامها بالفعل. «لا تهدر الوقت بالنّشاطات الفارغة. المجانين وحدهم سعداء. أَرفُضْ الزّواج. دع عنك ما فُنّد من آراء. ليست كل الجرائم والخطايا سواء. جاهل من ادّعى تمام المعرفة. أنت سعيد إن تخيّلت نفسك سعيداً. يرتكب البعض الخطيئة ثم يتوسّل المغفرة مراراً وتكراراً. مفهوم الفضيلة هو رهن المكان والزّمان . يتغير مفهوم الفضيلة والرذيلة مع الزّمن. أسْقِط الوزنَ عند نظم الشّعر. يعيش الشّاعر شريفاً وفقيراً. تفلت عمليّة الإصلاح بسهولة من زمامها. زِن تبعات الإصلاح بحذر. على الأطبّاء الإجابة عن الأسئلة بدل إلقاء المحاضرات. الاتفاق يقتل والصّراع يحفّز. للذّوق السّيء فضائل جمّة. الممنوع علينا مرغوب لنا».

هنا، عند هذا العنوان الأخير، استوقفته.

«هذا صحيح»، قالت. «هذا صحيح جدّاً. وأريد أن أعرف ما قاله لودفيغ

هولدبيرغ حول ذلك».

«أمرُكِ!» أجاب.

لكنّه استهل القراءة بمقطع آخر.

كانت قد اقترحت عليه أن يختار ما يريد من تلك الأقوال المأثورة، بحيث يختتم القراءة بالنصّ المتعلّق بالمحرّمات. أرادت المتن أولاً، وما طرح هولدبيرغ من أفكار. بدأ بالمقطع رقم ٨٤ بعنوان «مفهوم الفضيلة هو رهن المكان والزّمان». بدأ قراءة النص بعد ظهر اليوم الثاني من وجودهما في كوخ روسو، أي في الأسبوع الأخير من شهر أيلول/ سبتمبر وفي أشيبيرغ؛ المقاطعة التي عرفها تمام المعرفة والتي كانت جزءاً من حياته فيما مضى، تلك الحياة الّتي كاد ينساها ويحاول الآن أن يستعيدها.

كان يحاول أن يجد الخيط الذي يربط ماضيه بحاضره. كان واثقاً من وجود منطق يربط بينهما، لكنه ما زال عاجزاً عن الإمساك به.

بعد ظهر اليوم الثّالث، قرأ المقطع الذي يبدأ بجملة تقول:«الأخلاق هي ما يتماشى مع مفاهيم زمن ما، وانعدام الأخلاق هو ما يتعارض مع مفاهيم ذلك الزّمان». ثم قرأ المقطع ٢٠ من الكتاب الرّابع، والذي يبدأ بجملة تقول: «أكثر خصائص البشر غرابة هو شدّة رغبتهم بالأمور كلّما ازدادت حُرمة».

وجدت كارولين ماتيلدا أن صوته على قدر كبير من الجاذبية.

أعجبها لودفيج هولدبيرغ أيضاً. كأنّ صوت سترونزي وصوت هولدبيرغ قد اندمجا معا فصارا صوتاً واحداً، صوتاً حدّثها عن عالم لم تكن تعرفه من قبل، صوتا عميقا ودافئا؛ صوتاً أحاط بها وضمّها، فأحسّت بنفسها تطفو على سطح مياه دافئة، حجبت عنها البلاط والملك والدّنمارك وكل شيء؛ كانت كما المياه، تعوم في دفء بحر الحياة دون خوف.

وجدت أنّ صوته رائع. وأخبرته بذلك.

«صوتك رائع، يا دكتور سترونزي».

استمرّ سترونزي في القراءة.

كانت ترتدي عباءة مسائيّة مصنوعة من قماش خفيف إذ كان الصّيف في أواخره والجو دافئا، وقد اختارت هذا الثّوب الرّقيق لأنّ الجوّ كان لطيفاً في أمسية الصّيف تلك. شعرت بحريّة أكبر بهذا الثّوب، ذي الاستدارة المنخفضة عند الصّدر. وكان جسدها غضّاً، وكلّما رفع ناظريه عن الكتاب بين الحين والآخر، وقعت عيناه على بشرتها؛ ثم استقرّتا على يديها، وفجأة تذكّر ما تخيّله يوماً حول يدها تلك وقد أحاطت بعضوه. صورةٌ مرّت يوماً في خياله. عاد بعدها للقراءة.

«دكتور سترونزي»، قالت فجأة، «يجب أن تُمسك بذراعي حين تقرأ».

«لماذا؟» سألها بعد بعض التردّد.

«لأنّ الكلمات جافّة جدّاً دون ذلك. يجب أن تلامسني كي أفهم الكلام بشكل أفضل».

وهكذا لامس ذراعها. ذراع عارية وناعمة الملمس جدّاً. أدرك للتوّ مدى نعومتها.

«لامس ذراعي...» قالت «... ببطء!»

«جلالتكِ،» قال، «أخشى أن...»

«المسه» قالت له.

استمرّ بالقراءة، ويده تنزلق برفق على ذراعها العاري. ثم قال:

«أعتقد أن غولدبيرغ يريد أن يقول إن الحدّ هو أكثر الأمور حرمة».

«الحدّ؟»

«الحدّ. حيثما هناك حدّ، هناك حياة، وموت، ومن هنا تأتي الرّغبة القصوى».

تحركت يده، فأخذتها ووضعتها في راحتها، ووضعتها عند عنقها وضغطت عليها.

«الرّغبة القصوى» همست، «تتواجد عند الحدّ. هذا صحيح. ما كتبه هولبيرغ صحيح».

«وأين هو الحدّ؟» سأل هامساً.

«جده!» قالت له.

عندها سقط الكتاب من يده.

كانت هي، وليس هو، من أقفل الباب بالمفتاح.

لم تخف، لم تتردّد بينما نزعا ثيابهما؛ وبقيت تشعر وكأنّها تعوم في مياه الحياة الدافئة دون خطر وعلى بعد شعرة من الموت، وهنا تكمن الإثارة.

اضطجعا متلاصقين، عاريين، في السّرير الموجود في التجويف الدّاخلي للكوخ، حيث كان من المفروض أن ينام الفيلسوف الفرنسيّ روسّو في يوم من الأيّام... ولم يفعل. ها هما يضّطجعان هنا الآن. أثارتها تلك الحقيقة، فللمكان حرمة، وهما على وشك تخطّي الحّد، الحدّ الأكثر حرمة، الأكثر حرمة على الإطلاق! كان المكان محظورا، وكانت هي محظورة، وهو الوضع الأمثل لتخطي الحدّ.

تلامسا. داعبت عضوه بيدها. أعجبها. كان متصلّبا ولكنّها انتظرت لأن اقترابهما من الحد كان ذروة في الإثارة، وقد رغبت في إطالة تلك اللّحظة.

«انتظر!» قالت.» ليس بعد».

اضطجع بقربها وداعبها، وتداخلت أنفاس كل منهما بهدوء وبمنتهى اللّذة. بسرعة أدركت أنّه مثلها، يتنفّس الهواء ذاته وبنفس الوتيرة، وأن نَفَسَه قد ملأ رئتيها بل إنّهما يتنفّسان الهواء معاً.

أراد أن يلجها... قليلاً! كاد أن.. وهو الآن على وشك. قبّلت عنقه وهمست:

«ليس للنّهاية. ليس بعد!».

شعرت بعضوه يلامسها، ينسلّ قليلاً داخلها، يبتعد، ثم يعود.

«ليس للنّهاية،» قالت. «انتظر!»

انتظَرَ، في داخلها تقريباً، لكن في حالة انتظار.

«نعم،» همست. «ليس بعد. حبيبي. يجب أن تعيد الدّخول والخروج، دائماً

حتّى الحدّ».

«الحدّ؟» سأل.

«نعم. هناك. هل تشعر بالحدّ؟»

«لا تتحرّكي» قال «لا تتحرّكي!».

لقد فهم. سيتريّثان. أخذ الواحد منهما يُشَمْشِم الآخر كما تفعل الخيل حين تتلامس بالأعناق، ويحدث كل شيء بهدوء. لقد فهم القصد.

أما هي، فقد غرقت بموجة من السعادة، وقد أدرك ذلك. وسينتظر، فسرعان ما ستعطيه الإشارة. حالاً ستعطيه الإشارة، لقد فهم.

«الحدّ»، همست المرّة تلو الأخرى والشّهوة تتصاعد بالتّدريج فتجتاح جسدها. «أتشعر بها؟ تلك الرّغبة القصوى؟ أكثر قليلاً، ها هو الحد!»

كان الغسق يزداد عتمة في الخارج. كان مضطجعاً عليها، دون حراك عمليّاً، يلجها المرّة تلو الأخرى كأنّما دون وعي.

«نعم» همست. «بعد هنيهات. الآن! تجاوز الحد! ادخل! ياه! تخطّ الحَدّ!»

أخيراً، وبكلّ هدوء، ولج داخلها متخطيا حدّ المحظور، الحدّ الأكثر حرمة على الإطلاق.

أما هي، فقد ظنت أنها في الفردوس.

استلقت مبتسمة وقد أغلقت عينيها. قام هو بارتداء ثيابه بصمت ووقف عند النّافذة هُنيهةً وقد ألقى بنظره إلى الخارج.

إنّه الغسق، وقد ألقى سترونزي بنظره نحو المتنزّه، متتبّعاً المنحدر الممتدّ إلى نهاية الوادي نحو البحيرة والقناة، حيث الشّجر المنسّق أو ما ترك منه على سجيّته.

كانا على قمّة الجبل. هناك حدث ما حدث.

«يجب أن نعود إليهم»، قال لها هامساً.

الطّبيعة في كمالها هنا. هنا الوحشيّ منها و المدجّن في آن. فكّر فجأة بما قد

تركاه خلفهما؛ كوبنهاغن والبلاط. كيف بدت كوبنهاغن كلّما هبط الضباب على بحر أورسوند. كان ذلك عالم آخر. لابدّ من أنّ لون المياه كالح السّواد هناك اللّيلة، وقد التفت البجعات حول نفسها لتنام. فكر بما قالته له، عن الماء الشّبيه بالزّئبق، وعن العصافير الّتي تنام وقد تدثّرت بأحلامها. وكيف أنّ عصفوراً سينهض فجأة، وسيضرب سطح الماء بجناحيه، وينطلق حرّاً ليختفي في الضّباب.

الضّباب، الماء، والعصافير التي تدثّرت بأحلامها.

ثم القصر، الأشبه بقلعة مهدّدَة ومثيرة للرّعب.

الجزء الرابع

صيف مثالي

الفصل العاشر

المتاهة

١

تمّ انتقال السّلطة بشكل سريع وسلس إذ أُرسلت رسالةٌ بهذا المعنى، وقد أكّد فحواها على ما بات حقيقة واضحةً ومعروفة للجميع.

أتى الإعلان عن الثّورة الدّنماركية بشكل مرسوم. وقد لفَّ الغموض هويّة من أملى ومن كتب نصّ تلك الوثيقة الّتي ستغيّر تاريخ الدّنمارك بشكل حاسم. صدر بلاغ ملكيّ حول بعض التغييرات المتعلّقة بتراتبيّة الصّلاحيّات الدّاخلية؛ وهو ما يمكن تسميته بـ«الانتفاضة» داخل الدهاليز الغامضة والأكثر قرباً من صميم السّلطة.

عُيّن ي. ف. سترونزي «وزير دولة مفوّضا»وقد ورد في البلاغ الملكيّ ما يلي : «إن سترونزي مخوّل بتنفيذ أيّ أمر شفهيّ يصدر منّي إليه بما يتّفق وما لدي من نوايا، وأن يقدّمه لي كي أوقّع عليه بعد أن يعيد صياغته، أو أن ينفّذه باسمي مشفوعاً بختم الوزارة». ويكمل البلاغ موضّحاً بأن «تلخيصاً» بالمراسيم الّتي سيوقّعها سترونزي سيُقدّمُ للملك مرّة في الأسبوع بالطّبع. لكنّ البلاغ شدّد ووضّح أنه في حال لم يحسن أيّ طرف فهم الشّق الأوّل من الجملة التي استُهلّ بها البلاغ، فليكن معلوماً أنّ أيّ مرسوم مذيّل بتوقيع سترونزي «له الصلاحية ذاتها للمرسوم الذي يصدر بتوقيع الملك.»

ربما لم يكن لقب «وزير دولة مفوّض» – والّذي استُحدِث ليُسبَغ خصيصاً على سترونزي الّذي عُيّن مؤخّراً بعد أن استُبعد العديدون وبقي هو – ربّما لم يكن

ليعني الكثير. لكنّ ما كان على قدرٍ كبير من الأهمّيّة في الواقع، هو الحقّ الّذي منح له في سنّ القوانين دون توقيع الملك، أو كما جاء في الفقرة الّتي تقول: «أن ينفّذه باسمي – أي باسم الملك – مشفوعاً بختم الوزارة» كما جاء في البلاغ.

مفاد ذلك عمليّا هو أنّ الملك كريستيان السّابع، صاحب السّلطة المطلقة في الدّنمارك، قد سلّم تلك السّلطة بأكلمها للطّبيب الألماني؛ الدّكتور ي. ف. سترونزي. صارت الدّنمارك بقبضة ألمانيّ! وبيد رجل من المتنوّرين! احتار البلاط أيّ الشّرّين هو الأسوأ!

صار انتقال السّلطة أمراً واقعاً. ولم يستطع أحد أن يفهم فيما بعد كيف تمّ.

ربّما كان الرّجلان – الملك وطبيبه – قد وجدا في ذلك حلاً عمليّاً، إذ لم يأت أحد على ذكر كلمة ثورة، مجرّد إصلاحات عملية. أمّا الناحية العملية في الموضوع، فهي أن سترونزي سيقوم بممارسة السّلطة كاملة.

بعد أن صدر القرار، بدا وأن كريستيان قد ارتاح؛ اختفتْ حركات التشنّج، توقّفت ثوراته العدائيّة تماماً ولو إلى حين، وبدا سعيداً جدّاً لفترات ولو قصيرة. شغل كلبه كما صبيّه الزّنجي المزيد من اهتمامه، وصار بإمكانه الآن أن يخصّص لهما وقتاً أطول. أمّا سترونزي فقد تفرّغ بالمقابل للعمل، الّذي صار يكرّس له المزيد من وقته.

كان هذا الحلّ عمليّا للطّرفين.

بعد صدور المرسوم، مرّت فترة سارت بها الأمور العمليّة بشكل سَلِسٍ وحدث تقارب بين الجميع بشكل أفضل من قبل. لم يكن التّقارب بالمعنى الفعليّ فقط، إنّما الجنوني أيضاً، كما خطر لسترونزي في كثير من الأحيان. لقد شعر بأنّهم؛ أي هو وكريستيان والصبيّ الزنجيّ موارنتي والكلب، قد التحموا معا كما لو أنّهم كانوا شركاء تآمروا للقيام برحلة اكتشاف سرّية، وُجهتها الدّهاليز المظلمة لعالم العقل. العقل والوضوح هما كل شيء. لكنّ جنون الملك، ذلك المصباح المظلم الغريب الذي كان يتوهّج ثم يخبو، ذلك العقل المتقلّب الذي لا يرحم، جعل العتمة المنبثقة منه ترفرف

عليهم فتلقّفهم بأسلوبٍ طبيعي كليّاً. تمّ التّقارب بينهم تدريجيّاً، كما لو أنّهم دخلوا معاً كهفاً بعيداً آمناً داخل جبل، وعاشوا فيه حياة عائليّة طبيعيّة، لولا الظروف.

نعم، لولا الظروف.

كان سترونزي يجلس في غرفته في الوزارة؛ الباب مقفل والحرّاس في الخارج. أكوام الوثائق مكدّسة أمامه على المكتب وأدوات الكتابة مرتّبة وجاهزة، بينما لعب الصّبيّان ومعهما الكلب من حوله. شكّل الصّبيّان رفقة ممتازة له، فقد استطاع التّركيز على أحسن وجه بينما كانا يلعبان. مرّت ساعات ما بعد الظّهر، الطّويلة والهادئة، كأنها ساعات عزلة جميلة؛ إذ جلس وحده في الغرفة ومعه الصبيّان – كما اعتاد أن يسمّيهما كلّما فكّر فيهما – وقصد بذلك الملك كريستيان والصّبيّ الزّنجيّ.

لعب الصّبيّان بهدوء وصمت تحت الطّاولة. وكان الكلب –الشناوزر– برفقتهما بشكل دائم.

بينما كان سترونزي يكتب ويعمل، كان يسمع حركتهم في الغرفة، فيتناهى لمسمعه همس الصبيّين؛ لا أكثر. فكّر سترونزي في نفسه؛ ينظران إليّ كأب يجب ألاّ يزعجاه. يلعبان عند قدميّ، يسمعان أزيز قلمي، ويتحدّثان همساً بدافع الاحترام. يا للرّوعة! أحياناً كانت تجتاحه موجة من الدفء هادئة وغامرة ؛ فالهدوء يخيّم على المكان، والخريف في منتهى الجمال في الخارج. أصوات المدينة تبدو بعيدة جدّاً. وحوله الولدان العزيزان الغاليان والكلب المليء بالحيويّة. كلّ شيء في منتهى الرّوعة. عبّر الولدان عن تقديرهما له. لعبا تحت الطّاولة الضّخمة المصنوعة من خشب البّلوط الّتي ما عاد رجال الحكم المتسلّطون يجلسون حولها. رجلٌ قويٌّ واحدٌ فقط يجلس هنا الآن. أما من حوله، فلا ينظرون إليه كرجل قويّ متسلّط، إنّما كرجل لطيف، صموت، رجل لعب دور الأب، وما يؤكد وجوده، هو أزيز قلمه.

Vati. Lieber Vati, ich mag Dir, wir spielen, lieber lieber Vati.

أيّها الرّجل الصّموت. يا بابا. حبيبي بابا. أحبّك. إنّنا نلعب، حبيبي، حبيبي بابا.

«ربّما لن أُرزق بأطفال غيرهما» فكّر في نفسه.»

«أهكذا ستكون حياتي؟» خطر السؤال في فكره أحيانا. «عملٌ هادئٌ، أزيز قلم، إصلاحات غير مسبوقة تنطلق لتصبح واقعا دونما ألم؟ وولداي يلعبان مع الكلب تحت الطاولة؟

إن استمرّت الحال كذلك، فيا للرّوعة».

مرّت عليه أيضاً لحظات خوف بينما هو جالس خلف طاولة الكتابة.

كان كريستيان يخرج أحياناً من تحت الطّاولة تاركاً لُعْبَه الهادئ.

مرّة، جلس على طرف الطّاولة ونظر إلى سترونزي باهتمام، بدا خجلا ولكن فضوليّاً وكان شعره المستعار قد تزحزح من مكانه ومال إلى جانب رأسه وبدت ملابسه شعثة غير مرتّبة، ومع ذلك، أو ربّما بسبب ذلك، بدا عزيزاً غالياً.

جلس بكل بساطة وأخذ يراقب؛ ثم سأل بخفر عمّا كان سترونزي يكتبه، وعمّا كان هو نفسه على وشك أن يوقّع عليه.

«لقد قمت جلالتك للتّو بتقليص عدد أفراد الجيش»، قال سترونزي لكريستيان والابتسامة على وجهه. «لا أعداء لنا في الخارج. وهذا الجيش الهائل الّذي لا حاجة له، سيصبح أصغر حجماً، وستقلّ مصاريفه؛ مما سيوفّر على الخزينة ستّة عشر ألف قطعة نقدية في العام».

«حقّاً؟» سأل كريستيان. «لا أعداء لنا في الخارج؟»

«حقّاً. لا روسيا، ولا السّويد. ولا نفكر بمهاجمة تركيّا. ألسنا متّفقين على ذلك؟»

«وماذا يقول الجنرالات؟»

«هؤلاء سيصبحون أعداءنا. لكن بإمكاننا أن نتدبّر أمرهم».

«وماذا بخصوص أعدائنا داخل البلاط؟»

«في مواجهة هؤلاء» قال سترونزي بابتسامة، «سيصعب استخدام هذا الجيش الجرّار».

«هذا صحيح»، قال كريستيان بكل وقار. « سنقلّص الجيش إذن؟»

«نعم، سنفعل».

«إذن، أنا موافق»، قال كريستيان بنفس الوقار.

«لن ينال ذلك رضا الجميع»، أضاف سترونزي.

«لكن هل أنت راض، يا دكتور سترونزي؟»

«نعم. وسنفعل أكثر من ذلك، أكثر بكثير».

في تلك اللّحظة قال كريستيان ما قاله. لن ينسى سترونزي ذلك، وقد حدث بعد شهر واحد فقط من تلك اللّحظة التي سقط بها الكتاب من يده، حين تخطّى حدّ أكثر المحظورات حرمة على الإطلاق. كان كريستيان يجلس بقربه على الطّاولة، وكانت شمس تشرين الأول/ أكتوبر الخريفيّة ترسل بأشعّتها عبر النّافذة فتنعكس مستطيلات كبيرة على أرض الغرفة عندما قال الملك:

«دكتور سترونزي»، قال كريستيان بصوت خفيض وبنبرة رزينة، كما لو لم يكن نفس ذاك الصّبي المصاب بالخرف الّذي يقضي وقته باللّعب مع خادمه الزّنجي وكلبه تحت طاولة الوزارة:

«دكتور سترونزي، ألتمس منك وبشكل ملحّ. الملكة تعاني من الوحدة. اهتمّ بها!»

تجمّد سترونزي كليّاً في مكانه.

وضع قلمه على مكتبه، وبعد هنيهة قال:

«ماذا تقصد جلالتك؟ لا أفهم».

«إنّك تفهم كلّ شيء. اهتمّ بها. إنّه عبء لا أقدر عليه».

«ما معنى هذا الكلام؟»، سأله سترونزي.

«إنّك تفهم كلّ شيء. وأنا أحبّك».

كان ردّ سترونزي على هذا الكلام هو الصّمت.

لقد فهم، ولم يفهم. هل كان الملك يعرف؟ لكنّ كريستيان مسّد ذراع سترونزي

الملّة ملاطفاً. نظر إلى سترونزي بابتسامة محيرة ومؤلمة، لكنّها ابتسامة جميلة وفي غاية الرقّة في الوقت ذاته، ممّا جعلها ترسخ في ذاكرة سترونزي. عاد بعدها كريستيان لينسلّ بهدوء وخفّة من على حافّة الطّاولة عائداً إلى خادمه الزّنجيّ الصّغير وإلى كلبه، هناك، تحت الطّاولة، حيث تعذرت رؤية الألم، وحيث لم يشعّ المصباح المظلم، وحيث اقتصر الوجود كلّه على خادم زنجيّ وكلب.

هناك كان عالمه المليء بسعادة هادئة ومحبّة، هناك حيث العائلة الوحيدة التي عرفها الملك كريستيان السّابع في حياته.

٢

كان غولدبيرغ حاضراً عندما تمّ تسريح الحرس الملكيّ بغرض التّقليص كما أقرّ سترونزي، وقد تفاجأ بوجود الكونت رانتزاو، الّذي حضر هو أيضاً ليشهد إجراءات التقشّف الجديدة هذه.

تمّ جمع الأسلحة والبزّات العسكريّة. ثمّ سُرّح الجنود وأعيدوا إلى بيوتهم.

ذهب غولدبيرغ إلى حيث وقف رانتزاو وألقى التّحيّة. راقب الرّجلان المراسيم بصمت، إلى أن علّق رانتزاو كما كان متوقّعاً منه قائلاً:

«تشهد الدنمارك عمليّة تغيير».

«صحيح»، أجاب غولدبيرغ، «تغييرات كثيرة تحدث، وتتمّ كلّها بسرعة كما تعلم. أفهم أن ذلك يسرّك. صديقك «الصّموت» يعمل على قدم وساق. قرأت صباح اليوم مرسوم «حريّة الفكر والتّعبير عن الرّأي». كم تتهورون! رفع الرقابة هذا تهوّر غير محسوب العواقب.»

«ماذا تقصد؟»

«لا يُدرك الطّبيب الألماني بأنّ حريّة التّعبير قد تُستغلّ ضدّه. إنْ مُنحت الحريّة للنّاس فإنّهم سيكتبون المناشير. وربّما تكون ضدّه. أقصد ضدّك. إن كنت صديقه».

«وماذا ستقول تلك المناشير؟» سأل رانتزاو. «أعني ماذا تعتقد أنّها ستقول؟ أم أنّك تعلم؟»

«من الصّعب تحديد ما يمكن توقّعه من النّاس. قد تُكتب المناشير بحرّية وتقول الحقيقة كي تحرّض الجماهير العريضة والجاهلة..»

لم يجب رانتزاو.

«..ضدّكم» أكمل غولدبيرغ.

«لا أفهم».

«لا تدرك الجماهير- لسوء الحظّ - مزايا التّنوير. ولسوء حظّكم فإنّ ما يهمّ الجماهير العريضة هو القرف. هو الشائعات».

«أيّة شائعات؟» سأل رانتزاو بنبرة باردة جدّاً وقد اتّخذ حذره.

«تعلم جيّداً أيّ شائعات».

نظر إليه غولدبيرغ بعينيّ الثّعلب الهادئتين وقد شعر بالانتصار للحظة. فمن هم مثل غولدبيرغ ممّن يُنظر إليهم بازدراء على أنّهم أشخاص لا قيمة لهم، هم وحدهم الّذين لا يعرفون الخوف. كان يعلم أنّ ما قاله لرانتزاو يُرعبه. رانتزاو هذا، الّذي احتقر مناصب الشّرف واستهان بالعادات ونظر بترفّع لحديثي النعمة، كان في أعماقه يحتقر صديقه سترونزي، فسترونزي هذا حديث نعمة! كان الأمر واضحاً.

احتقر رانتزاو حديثي النّعمة وكان غولدبيرغ نفسه من ضمنهم، فما هو إلا ابن متعهّد جنازات من هورسنز. مع ذلك فهناك فرق، وهو أن غولدبيرغ لم يشعر بالخوف، ولهذا السّبب كان بإمكانهما أن يقفا هناك معا؛ حديث عهد بالنّعمة قادمٌ من هورسنز، وكونت أبله من جماعة التّنوير، وكلّ منهما يكره الآخر ويعتبره عدوّاً له. كان بإمكان غولدبيرغ أن يقول أيّ شيء بصوت هادئ، وكأنّ ما يقوله لا ينطوي على خطر.

«أيّة شائعات؟» كرّر رانتزاو.

«الشّائعات حول سترونزي». أجاب غولدبيرغ بصوته الجاف، «والّتي تقول

أنّ الملكة اللّعوب الصّغيرة قد فتحت له فخذيها. كلّ ما نحتاج إليه هو الدّليل. لكنّنا سنحصل عليه».

حملق رانتزاو في غولدبيرغ مذهولاً وقد أصابه البكم، إذ لم يستطع أن يستوعب كيف يمكن لأيّ شخص أن يتفوّه باتّمام عبثيّ كهذا.

«كيف تجرؤ؟» سأله أخيراً.

«هذا هو الفرق، ياكونت رانتزاو. هذا هو الفرق بيني وبينك. أنا أفترض، وأنا أجرؤ». قال غولدبيرغ بلهجة محايدة تماماً قبل أن يستدير ليغادر المكان: «ستضطرّ قريباً جدّاً أن تختار الجهة الّتي تريد أن تقف في صفّها».

٣

اضطّجع بهدوء وقد ولجها منتظراً وتيرة نبضاتها.

بات يدرك أنّ منتهى اللّذة يكمن في لحظات انتظار تلك النّبضات، وما إن ولجها حتى باتت أنسجتهما تتنفّس وتتحرّك في نفس اللّحظة، فتخفق بلطف معاً. إنّها لحظات من الرّوعة الخالصة. تمتّع إذ تعلّم كيف ينتظرها. ما كان عليها أن تقول شيئاً، فقد تعلّم ذلك في الحال. كان يستطيع أن يضطجع بهدوء لفترة طويلة بينما عضوه منغرزٌ عميقاً في داخلها، وأن يصغي لأنسجة أعضائها الجنسيّة وكأن جسديهما قد غابا وما بقي إلاّ اللّذة. انتظر دون حراك تقريباً، وقد غاب الجسد منهما كما العقل، وما بقي إلا النّبض الّذي تركّزت الحواسّ مصغية إلى خفقانه وإلى إيقاعه. ما عاد في الوجود إلا غشاؤها الرّطب، الطريّ، وقد حركت حوضها ببطء متناهٍ دون وعي منها، بينما ولجها بعضوه كما لو كان طرف لسان حسّاس يَسْتَعِسُّ به باحثاً عن شيء ما؛ فكان يضطّجع دون حراك بانتظار تسارع نبضها، كأنّما كان يستشعر خفقان جسدها من الأعماق كي تتزامن حركة جسديهما المتسارعة معاً، فيتحرّك بحذر. انتظر وقد شعر بأعضائها تنقبض وترتخي، تنقبض وترتخي، بينما

عضوه ينتظر داخل الغمد الضيّق، ثم شعر بإيقاع ما، بنبض ما. سيأتي نبضها إن انتظر، وعندها سيتمّ كلّ شيء وفق إيقاع نبضها الدّاخلي. كانت قد استلقت تحته وعيناها مغلقتان وقد شعر بها تنتظر نبض القلب. كانا ينتظران معاً، بينما استلْقت تحته وقد ولج عميقاً في داخلها وكأن جسد كل منهما قد اضمحلّ وصارت تلك النّقطة من جسدها هي كلّ شيء حيث الغشاء يحتكّ بالغشاء، وقد احتقنت الأنسجة بالتدريج وانتفخت قليلاً وتراجعت للخلف في بحثها عن نبض القلب المتسارع، وقد تفاعل النبضان وتحركت أنسجة الجسد معاً بانسجام تامّ وببطء إلى أن أدرك أنّ كلّ ذرّة من أنسجتهما وكل نفس وكل خفقة قلب قد باتت وكأنّها قد انصهرت كلّها معاً. عندها بالضّبط، كان يحرّك جسده بإيقاع يختفي أحياناً فيعود لحالة السّكون والانتظار إلى أن يعود ويتسارع من جديد فيشعر هو به وينشط حركة عضوه فيضبطه على الإيقاع نفسه، وبتمهّل. كانت هي الّتي علّمته هذا الانتظار البطيء لنبض الغشاء السرّي. لم يعرف كيف استطاعت أن تتعلّم هذا الأمر، لكن ما ان أتت اللّحظة وصارا يتحركان معاً في قمّة النّشوة اللاّمحدودة حتى كانت سعادة عارمة قد غمرتهما، كي يعودا بعدها ويتراخيان على الإيقاع البطيء الطّويل نفسه مع سحب الأنفاس.

هدوء عميق إذن. انتظار لنبضها الدّاخلي، إيقاعٌ، ثم جسدان يتّحدان فيتلاشيان ولا يعود منهما إلاّ نقطة في داخل داخلها، فيتنفّس هو وعضوه بالوتيرة التي تمليها عليهما أنسجتها الدّاخلية. في حياته كلّها لم يعرف تجربة مثل هذه.

كان قد مارس الجنس مع نساء عديدات، ولم تكن هي أكثرهنّ جمالاً. لكنّ واحدة منهنّ لم تعلمه ما علّمته هي من انتظارٍ لوتيرة نبض تلك الأنسجة وذلك الإيقاع الدّاخلي للجسد.

اختارا موقعاً لغرفتيّ نومهما بحيث يكون التسلّل من غرفةٍ إلى أخرى سهلاً. أمّا في فصل الشّتاء، فقد تراخى حذرهما حول كتمان علاقتهما الجنسيّة. ازدادت وتيرة

نزهاتهما على صهوات الخيل، في أيّام البرد، وتحت الثّلج الّذي أخذ يتساقط بخفّة على الحقول الفسيحة المتجمّدة. صارا يمتطيان الخيل بمحاذاة شاطئ البحر أيضاً.

كان الجليد يُصدر طقطقةً تحت حوافر الفرس عند حافّة الشّاطئ، بينما شعرها يتطاير غير آبهة بشيء في هذا العالم كلّه.

كانت بخفّة الرّيشة، ولولا وزن الحصان من تحتها لطارت من على سطح الأرض. لماذا تحمي وجهها من الثّلج المتساقط إن كانت عصفوراً يطير؟ كان بوسعها أن تنظر بعيداً بعيداً، فترى ما هو أبعد من جزيرة زيلاند وتنظر عبر الشّاطئ، بحر النّرويج وترى ما هو أبعد من ذلك، بل إنها استطاعت أن ترى أيسلاندا وأن تجتازها فترى الصّفائح الجليديّة العائمة في بحار القطب الشماليّ.

لسوف تذكر ذلك الشّتاء جيّداً. تبعها سترونزي على حصانه، وكان قريباً منها، جدُّ قريب، هناك على حافة الشّاطىء كان. وكان صامتاً تماماً، لكنّ فكرها كلّه تعلّق به.

في ٦ شباط/فبراير من سنة ١٧٧١، أخبرت سترونزي أنّها حامل.

مارسا الجنس يومها، وبعد ذلك، أخبرته.

«أنا حامل» قالت له. «وكلانا يعلم بأنّ الطفل طفلك».

اكتشفت أنّها تتوق لممارسة الجنس كلّ يوم.

كانت رغبتها تتفاقم كل صباح، وما إن ينتصف النّهار حتى كانت تصل الأوج. في تلك اللّحظات كانت رغبتها تصل القّمة ولم تعد تطيق صبراً، فكانت تطلب منه أن يقطع عمله ويحضر إليها ليقدّم لها تلخيصاً سريعاً لما قام به من أعمال في ذلك الصّباح.

هكذا بات الأمر عاديّاً. من قبل، لا شيء من هذا كان عاديّاً، أما الآن فصار هذا هو العادي.

أما هو فقد تماشى مع الوضع. تفاجأ في البداية ثم ما لبث أن أعجبته الحال،

إذ اكتشف أن جسده يشارك جسدها المتعة وأن غريزتها تثير غريزته. هذه كانت حالهما، حالٌ ما كان له أن يتخيّلها على هذه الصّورة من قبل. ظنّ أنّ الغريزة تكمن في المُحرَّمْ فقط. وهذه حقيقة! لكن ما أثار استغرابه، هو أنّ الرّغبة والمحرّم، صارا أمراً عاديّاً يزداد تفاقماً وجموحاً كل يوم، حتى أنّ ساعات الظّهيرة ما كادت تحين إلا وقد ألحّت عليها غريزتها الجامحة بقوّة فما استطاعت لها لجماً، وأنّ هذه الغريزة احتاجت للتّفريغ بشكل يوميّ. ذلك ما أثار استغرابه.

بدأ يشعر بالخوف، إنّما في مرحلة متأخّرة جدّاً.

مارسا الجنس في غرفة نومها. كانت بعدها تستلقي بين ذراعيه، مغمضة العينين وابتسامة الرّضا ترتسم على شفتيها كأنّها فتاة صغيرة حملت بشهوته في رحمها، وعادت فأنجبت تلك الشّهوة طفلاً تحمله بين ذراعيها فصارت شهوته كلّها مُلكاً لها. في مرحلة متأخّرة فقط، بدأ يشعر بالخوف. مع ذلك قال:

«علينا توخّي الحذر. أعلم أنّ النّاس تتحدّث عنّا. وسيتحدّثون عن الطّفل أيضاً. يجب أن ننتبه».

«لا» قالت.

«لا؟»

«لأنّي ما عدت أخشى شيئاً».

ما عساه أن يقول وقد سمع ما سمع؟

«كنت أعلم» قالت، «كنت أعلم ومنذ البداية وبشكل قاطع، أنّك أنت هو. منذ اللّحظة الأولى الّتي رأيتك بها وشعرت نحوك بالخوف وظننتك عدوّاً يجب أن أحطّمه. كانت تلك علامة. علامة من جسدك نحوي إذ إنّ جسدك قد كواني، تماماً كما يكوي قضيب الحديد المُحَمّى جسد الحيوان فيترك عليه علامةً لا تُمحى. كنت أعلم ومنذ اللّحظة الأولى».

«لستِ بحيوان» قال، «لكن علينا أن نحذر».

«ستأتي غدا؟» قالت دون أن تصغي إليه. «ستأتي غدا وفي الوقت نفسه؟»

«وإن لم أحضر لِما قد ينطوي عليه الأمر من خطورة؟»

أغمضت عينيها ولم تشأ أن تفتحهما.

«الأمر فعلاً خطير. أنت تعلم ذلك. ياه! تخيّل لو أنّني ادّعيت أنّك اعتديت عليّ؟ ياه! ماذا سيحدث لو أنّني بدأت أصرخ مستنجدة بهم وصرت أجهش بالبكاء وأقول إنّك اعتديت عليّ جسديّا؟ تخيّل أنهم أتوا ليأخذوك ثم أعدموك وكسروا عظامك على دولاب تهشيم العظام، وفعلوا ذلك بي أيضاً. لا، لن يفعلوا ذلك بي. سيكتفون بنفيي. لكن لا، لن أفعل ذلك، لن أصرخ حبيبي، فأنت لي. انت لي، وسنمارس الحبّ كل يوم».

لم يشأ أن يجيبها. استدارت نحوه بعينيها المغمضتين تتحسّس بيديها ذراعيه وصدره، ثم تنزل بيدها تدريجيا باتجاه عضوه. كان هذا المنظر قد راوده في أحد أحلامه السرّيّة. رأى راحة يدها تحيط بعضوه، وها هو الحلم يصبح حقيقة، وقد أدرك الآن ما لهذه اليد من قدرة هائلة على الإغواء ومن سلطة ما كان يستطيع أن يتخيّلها، وأن الأمر لا يقتصر على عضوه وقد أحاطته بيدها بل إنّ الرّجل كلّه قد أصبح محاطاً بتلك اليد، وأنّها أقوى ممّا تخيّل. كان ذلك ما شحنه بالرّغبة، وبشعور آخر، عجز عن وصفه في تلك المرحلة إلاّ على أنه يشابه الخوف. شعور سيصبح بعد فترة لن تطول، هو الخوف.

«حبيبتي»، قال متمتماً، «ما شككت يوماً بأنّ لجسدِك هذه الـ ... الـ...»

«الـ ...ماذا؟» قالت.

« ... هذه الموهبة العظيمة في الحبّ».

فتحت عينيها وابتسمت له. كانت تعرف جيّداً أنّ ما قاله حقيقة. وها هو يصرح بذلك في فترة أقصر بكثيرٍ ممّا كان خيالها يستطيع أن يتصوّر.

«شكراً» قالت له.

كان يشعر بالشّهوة تتأجّج دون أن يعرف إن كان ذلك هو ما يريده حقاً. كلّ ما كان يعرفه هو أنّها تتحكّم به وتثير رغباته، وأنّ شيئاً ما كان يثير مخاوفه. أمّا ما

هو هذا الشيء، فذلك ما لم يهتدِ إليهِ بعد.

«حبيبتي» همس قائلاً، «ماذا سنفعل؟»

«هذا!» قالت «ودائماً»

لم يجب. سيقوم حالا باجتياز الحدود المحرّمة مرة أخرى. بات الأمر مختلفاً الآن، لكنّه لا يعرف ماهية هذا الاختلاف.

«ولن تستطيع أن تتحرّر منّي» همست بصوت منخفض كاد لا يسمعه. «فقد وُشمتَ بلهيب حبّي كما توشم الحيوانات بقضيب حديد حُمّيَ بالنّار».

لكنّه لم يسمعها، وربما كانت تلك اللّحظة — لحظة ولجها وبدآ يصغيان للنّبض السريّ للجسد، ذلك النّبض الّذي كان يوحّدهما معاً في إيقاعهما الرّائع — ربما كانت تلك هي اللّحظة التي شعر بها ولأوّل مرّة، بلسعة من خوف.

مرّة — وبينما هي مستلقية بقربه لفترة طويلة، عارية تاركة ليدها حريّة الولوج بين خصلات شعره الأشقر، قالت وقد ابتسمت له ابتسامة صغيرة:

«ستكون ذراعي اليمنى».

«ماذا تقصدين؟» أجاب.

وبطريقة لعوب لكن بثقة همست قائلة:

«الذّراع. الذّراع تتحرّك كما يشتهي الرّأس، أليس كذلك؟ وفي رأسي كمٌّ من الأفكار كبير».

لماذا انتابه الخوف يا تُرى؟

كان يفكّر في سريرته أحياناً: كان عليّ أن أترجّل من عربة كريستيان حين وصل الموكب إلى ألتونا وأعود لممارسة حياتي كما عهدتها.

في صبيحة أحد الأيام، وفي ساعة مبكّرة جدّاً، بينما كان سترونزي في طريقه إلى عمله، أتى الملك في قميص نومه، مشعّث الشّعر، حافي القدمين دون جراب

ولا نعل، راكضاً يحاول اللّحاق بسترونزي في ردهة الممرّ الرّخاميّ، وما إن وصل إليه حتى أمسك بذراعه مصراً على أن يصغي سترونزي إلى ما سيقوله الملك.

جلسا في غرفة منزوية وكان الملك يلهثُ ونبضه يتسارع بسبب التوتّر الّذي أصابه، إلى أن عاد وهدأ قليلاً. عندها أسرّ لسترونزي بما وصفه بـ :»سرّ تكشّف لي في اللّيلة الفائتة بينما كانت العذابات تتلبّسني».

ما قاله الملك لسترونزي كان ما يلي.

هناك حلقة سرّيّة تتألّف من سبعة رجال، اختارهم الله كي يُحرّكوا الشّر في العالم. هؤلاء هم الرّسل السّبعة للشّر، وهو – أي كريستيان نفسه – أحد هؤلاء السّبعة. والفظيع في الأمر أنّه لم يشعر بالحبّ إلاّ لمن انتمى لهذه الجماعة. إذن، إن شعر نحو أحد بالحبّ، فلا بدّ من أن يكون هذا الشّخص ضمن ملائكة الشّر السّبعة هؤلاء. اللّيلة الفائتة استطاع أن يفهم الأمر بوضوح وشعر بالرّعب. بما أنّه يشعر بالحبّ نحو سترونزي فقد أراد أن يتبيّن حقيقة الأمر وإن كان سترونزي تابع فعلاً لحلقة الشّرّ السّرّيّة.

حاول سترونزي أن يهدّئ الملك طالباً منه أن يحدّثه أكثر عن «حلمه». بدأ كريستيان يتمتم كالعادة، دون أن يكون هناك رابط بين كلماته، لكنّه قال فجأة أنّ الحلم أكّد وجود امرأة تحكم الكون بشكل سرّيّ.

سأله سترونزي عمّا قصده بقوله ذاك.

لم يستطع الملك الإجابة عن السؤال. لكنّه كرّر أنّ امرأة تحكم الكون، وأنّ حلقة من سبعة رجال كانت هي المسؤولة عن كلّ أعمال الشّر، وأنّه هو – أي كريستيان– كان من ضمنهم، وقد يكون بالامكان إنقاذه بوساطة تلك المرأة؛ والّتي ستصبح عندئذٍ شفيعته.

حملق كريستيان فترة طويلة بسترونزي ثم سأله قائلاً:

«لكن، ألستَ أحد السّبعة؟»

ما كان من سترونزي إلاّ أن حرّك رأسه نافياً. عندها سأله الملك بصوت مشحون باليأس:

«لماذا أحبّك إذن؟»

كان شهر نيسان/أبريل من سنة ١٧٧١ في بداياته.

جلس الملك كريستيان السّابع وقرينته الملكة كارولين ماتيلدا وبمعيتهما طبيب صاحب الجلالة، ي.ف. سترونزي، يحتسون الشّاي على الشرفة الصغيرة في قصر فريذينسبورغ الّتي تطل على حديقة القصر الشاسعة.

كان سترونزي يتحدث عن الفكرة وراء تخطيط الحديقة بهذا الشكل الرائع، حيث شكلت المسارات المتوازية متاهة نجحت الشجيرات في إخفاء نظامها. أشار سترونزي إلى أنه قد تم تخطيط المتاهة بحيث لا ينشكف نظام تلك الحديقة إلا من نقطة واحدة فقط. أما هناك على الأرض، فلا شيء إلا الفوضى ما بين ممر وبين مسار لا يؤدي أي منها إلا إلى نهايات مسدودة أو تشويش. نقطة واحدة فقط تكشف وضوح ومنطق نظام الحديقة، وتلك النّقطة هي الشّرفة حيث يجلسون الآن. إنّها شرفة الحاكم. إنّها النقطة الوحيدة التي يمكن منها كشف وتبيان أيّ نظامٍ كان. هذه النقطة المطلة على كل منطق وكل نظام، هي نقطة متاحة للحاكم دون غيره.

سألته الملكة مبتسمة ابتسامة صغيرة، عن معنى ذلك. أسهب في شرحه فقال:

«شرفة الحاكم المطلّة، هي مَرْبَطُ السُّلطة.»

«أهي... جذابة؟» سألته.

أجابها بابتسامة. بعد برهة صمتٍ مالت نحوه وهمست في أذنه بحيث لا يسمع الملك ما تقول:

«أمرٌ واحدٌ غاب عنك. أنا مربط السّلطة».

أن ينس يوماً ذاك الحوار ولا ذلك التهديد.

شرفة الحاكم تتمتّع بالأفضلية وتكشف المنطق الّذي خطّت وفقه المتاهة، ليس أكثر، أمّا العلاقات فيما عداها من أمور، فما زالت مشوشة المعالم عالقة في متاهة من نوع آخر.

ها هي بوادر الصيف قد حلّت واتّخذَ القرارُ بقضاء الموسم في قصر هيرشهولم. بدأت عمليّة حزم الأمتعة، وقد اتّفقت الملكة وسترونزي على الموضوع دون استشارة الملك، إلاّ أنّه لن يعترض.

كان الملك يعتبر أنه من الطبيعي ألا يُستشار، مكتفياً بأن يُسمح له بالمرافقة .

ما حدث قبل الرحيل بيوم واحد هو التاّلي:

كان كريستيان يجلس وحيداً على الشرفة، يراقب منها كلا العاشقين وهما يبتعدان كلّ على صهوة جواده وقد انطلقا في مشوارهما اليومي، حين شعر فجأة بوحدة خانقة. نادى على مورانتي، لكن الصّبي لم يكن هناك.

دخل إلى القصر.

وجد كلبه الشناوزر يغط في النوم على الأرض عند زاوية الغرفة. نام كريستيان على الأرض وقد وضع رأسه على جسد الكلب، لكن الكلب تحرك بعد لحظات وانتقل لينام في زاوية أخرى من الغرفة.

قام كريستيان وتبع الكلب وعاد لينام على الأرض متّخذاً من جسد الكلب وسادةً لرأسه. قام الكلب ثانية وانتقل إلى زاوية غيرها.

لم يلحق كريستيان بالكلب هذه المرّة، بل بقي مستلقياً حيث هو وأخذ يحملق في السّقف.. ابتسم ابتسامة غامضة وهو ينظر إلى السّقف؛ وإلى تلك النّقطة منه حيث ازدان الخطّ الفاصل ما بين جدار الغرفة والسقف برسومات الملائكة الصّغار. حاول جاهدا أن يجعل ابتسامته تبدو وديعة مُحبّة، وليست ابتسامة عوجاء. نظرت

إليه الملائكة بدورها نظرة متسائلة.

تناهى من الجانب الأخرى من الغرفة صوت الكلب متمتماً له بألاّ يزعج الملائكة الصغار، فتوقف كريستيان عن الابتسام.

قرر أن يخرج. صمّم أن يجد قلب المتاهة، ذلك أن رسالة ما تنتظره هناك. كان مقتنعاً أنها هناك في صميم المتاهة. منذ زمن طويل لم يصله أي خبر من «السّبعة». كان قد سأل سترونزي حول الموضوع، لكن الطبيب رفض الإجابة عن سؤاله. لكن، لو كان سترونزي أحد السبعة، لكانا متواطئين، ولكان لديه بالتّالي حليف يثق به. لم يكن لديه أدنى شك بأن سترونزي هو أحد السبعة. حبّه له كان علامة كافية على ذلك.

ربما كان مورانتي أيضا أحد السبعة، وربما الكلب أيضاً. هكذا يصل عددهم إلى أربعة. بقي ثلاثةٌ. هل كانت كاثرين منهم؟ لكنها سيدة الكون؛ فهي ليست من السّبعة إذن. لم يستطع مع ذلك أن يهتدي لثلاثة أشخاص آخرين من كل من حوله يشعر تجاههم بأي محبّة. أين هم إذن؟ ومن يكونون؟ ثم إن الكلب ليس مَضموناً. أحبّ كلبه، صحيح، وحين كان الكلب يكلّمه، كان يوشك أن يقنعه، لكن كلّ ما عبّر عنه الكلب كان المحبّة، الخضوع، وعدم الاكتراث. لم يكن متأكدا من الكلب إذن، رغم أنّه كلبٌ مميّزٌ يكلم صاحبه، فالكلاب لا تتكلم، ومجرد التخيّل بأن الحيوانات تنطق هو من العبث ومن المستحيل! لكن، بما أن الكلب قد نطق، ففي ذلك إشارة ما. إشارة تكاد تكون واضحة، لا أكثر.

الكلب ليس مضموناً إذن.

سيقوم السّبعة بتطهير الهيكل. وعندها سينهض هو كالعنقاء. تلك هي نار التّنوير الّتي تحرق ببطء لإحداث التّغيير. ومن هنا موضوع السّبعة، إذ لا بدّ من الشّر كي يتحقّق الخير.

لم تكن العلاقة بين كل هذه الأمور واضحة كفاية، لكن كريستيان اعتقد بصحّتها. أما السّبعة فهم سبعة ملائكة طردوا من الجنّة. كان عليه أن يكتشف

ماذا عليه أن يفعل وما هي مهمّته في العمليّة كلّها. اعتقد أنه سيجد الإجابة في علامة أو رسالة ما، وأن تلك الرّسالة موجودة في مركز المتاهة، وهي من السبعة ولا بدّ، أو من سيدة الكون.

انطلق مسرعاً يترنّح ويتمايل نحو المتاهة حيث الشجيرات حديثة التّشذيب، وصورة المتاهة وممراتها مطبوعةٌ في ذهنه كما رآها من الشّرفة المطلّة على الحديقة حيث بدت المتاهة واضحة المعالم.

بعد قليل أبطأ السّير. صار تنفسه ثقيلاً، وعلم أنّ عليه أن يهدأ. استدار يَسرةً، استدار يَمنةً، وصورة المتاهة واضحة في ذهنه، كان متأكدا من وضوحها. بعد لحظات وصل إلى طريقٍ مسدود. وقف صف الشجيرات أمامه كالسّور. استدار واتخذ يمينه، ثم يمينه مرة أخرى. صارت الصورة في ذهنه أقل وضوحاً، لكنه حاول شحذ همّته وانطلق بكل عزمه راكضاً مرّةً أخرى. صار نفسه ثقيلاً من جديد، وبدأ العرق يتصبب منه، فنزع شعره المستعار وأخذ يركض بحريّة أكبر.

امّحت الصورة من ذهنه الآن.

ما عاد هناك أي منطق ولا أيّ وضوح. كل ما حوله الآن هو جدران من الخّضرة والأشواك. توقف. لا بدّ من أنه بات قريباً جداً من المركز. هناك، في المركز، في صميم المتاهة، تكون الأمور واضحة. وقف ساكناً تماماً، ينصت. لا طير، لا صوت. نظر إلى يده فوجدها تنزف دماً. لم يَدْرِ كيف حصل ذلك. كان قريباً جدّاً من الصّميم، حيث سيجد الرسالة، أو ربما... كاترين.

الصّمت مُطبقٌ. لماذا لا يسمع ولا حتى تغريد طيرٍ؟

فجأة سمع صوت همس. وقف ساكناً دون حراك. تعرّف إلى الصّوت الذي أتى من خلف جدار الشّجيرات، حيث لا بدّ من أن يكون مركز المتاهة.

«إنه هنا.» قال الصوت. «تعال هنا».

لا بد من أنه صوت كاترين.

حاول النظر عبر سياج الشجر ولكن الرؤية كانت مستحيلة. ها هو الصّوت يختفي تماماً الآن. لكن لم يكن لديه أدنى شك بأن الصوت هو صوت كاترين، وأنها كانت من الجهة الأخرى من السياج. سيطر على أنفاسه إذ عليه أن يكون على درجة عالية من الهدوء الآن، وعليه أن يجتاز إلى الناحية الأخرى. خطا بين الشجيرات محاولاً ثني الأغصان إلى الجانب، لكنّها كانت مكسوّة بالشوك. أدرك فجأة أن ما يفعله سيسبب له أشد الألم، لكنه حافظ على هدوئه فلا بد من أن يقوم بذلك. عليه أن يكون قويّاً، صلباً. عليه أن يكون شخصاً لا يُقهر. لا يوجد حل آخر أمامه. كان الضغط على الشجيرات بجسده سهلاً في السّنتمترات الأولى، ثم اشتدّت كثافة الشّجيرات. مال إلى الأمام كما لو كان يريد أن يرتمي عليها ويتدحرج ليصل إلى النّاحية الأخرى. ارتمى عليها فعلاً، إلاّ أنّ مقاومة الشّجيرات كانت، كبيرة وتسبّبت الأشواك في جرح وجهه وإيلامه كما لو كانت الجروح ناتجة عن ضربات سيف. حاول أن يرفع يديه ليحرر جسده، لكن جسمه انغرز أكثر في الأشواك الّتي ازدادت حجماً وكثافة، بينما ظنّ كريستيان أنه بذلك يزداد قرباً من مركز المتاهة، دون التّمكّن من رؤية ما في الجهة الأخرى بعد. رفص بقدميه يائساً، فاندفع جسده أكثر إلى الأمام، وكلّما اندفع إلى الأمام، ازدادت الأغصان كثافة واستحال بالتّالي ثنيها إلى الجانب. ما عادت تلك أغصانا إنّما جذوع. حاول أن يقف، لكنه لم يستطع أن يقف على رجليه بثبات. كان الألم شديداً في يديه ووجهه. صار يتعارك مع الأغصان بشكل تلقائي، لكن الأشواك الكثيفة أخذت تنغرز كالسكاكين وتجرّحه بعمق. صرخ برهة ثم عاد يحاول السيطرة على نفسه دون طائل.

علق هناك، سجيناً بين الأشواك. سال الدم على وجهه فأخذ يبكي. كان الصمت تامّاً وما عاد لصوت كاترين من أثر. أصبح قريباً جدّاً من المركز، وكان يعلم ذلك إلا أنه بات سجيناً في المتاهة.

بدأ خدم القصر الذين رأوه يتجه نحو المتاهة قبل ساعةٍ من الزّمن يشعرون

بالقلق، فانطلقوا باحثين عنه. وجدوه مطروحاً داخل فروع شُجيرةٍ، وقد بان منها طرف قدمه. طلبوا النّجدة على الفور. أُخرج الملكُ من الشّرك، لكنه رفض أن يقف على قدميه.

بدا عديم الاكتراث لأقصى درجة، وبصوت ضعيف واهٍ أمر باستدعاء غولدبيرغ.

وصل غولدبيرغ.

كان الدم قد جف على وجه الملك كما على يديه وذراعيه، لكنّه بقي مستلقياً على الأرض يحملق باتجاه السماء. أمر غولدبيرغ بإحضار نقّالة الجرحى وقال للموجودين بأن يضعوا الملك عليها ويبتعدوا كي يستطيع التحدث وحده معه.

جلس غولدبيرغ قرب الملك، وغطّاه بمعطفه الخاص، ثم أخذ يتحدّث إليه بصوت خفيض هامسٍ محاولاً كتم غضبه.

لم يستطع كريستيان في البداية أن يسمع ما كان غولدبيرغ يقوله، وقد همس بصوت خفيض جدا محاولاً إخفاء غضبه العارم والّذي فضَحه ارتعاد شفتيه الواضح. صار صوته أوضح بالتدريج وقال: «جلالتك..» همس غولدبيرغ، «..لا تخف! سأخلصك من هذه الإهانة، إني أحبك، كل عديمي الأخلاق هؤلاء» (وهنا صار همسه أقوى) «كل عديمي الأخلاق هؤلاء يحطّون من قدرنا، لكن الانتقام سيقضي عليهم. إنهم يحتقروننا وينظرون إلينا نظرة فوقيّة باعتبارنا قليلي الشأن، لكنّنا سنجتثّ كلّ عضو فاسد من جسد الدنمارك وسنقضي على الرّذيلة. سيحين الوقت وينجز دائس المعصرة مهمّته. إنهم يسخرون منا ويستهزئون بنا الآن، لكنها ستكون المرة الأخيرة. سينتقم لنا الله منهم وسيحطّمهم. ونحن...جلالتك،...سأكون بالنسبة لك... سنكون...»

فجأة صحا كريستيان من عدم اكتراثه ذاك، جلس في مكانه وحملق في غولدبيرغ مذهولاً:

«نحن؟!!!» صرخ في وجه غولدبيرغ كالمجنون. «نحن؟؟؟ عَمَّنْ تتكلّم؟!!! أنا

من اختاره الله... وأنت تتجرأ علي... أنت تتجرأ علي...».

حنى غولدبيرغ رأسه، كما لو كان قد تلقى ضربة سوطٍ على قفاه، وران الصمت.

وقف الملك بعدها على قدميه، أما غولدبيرغ فلن ينسى في حياته ذلك المشهد: الملك الصبي وقد تغطّى وجهه ويداه بدم أسود متخثّر، وتلبّد شعره الأشعث وتمزّقت ثيابه وتقطّعت. صحيح أنه بدا كالمجنون تماماً وقد اتّسخ وتلطّخ بالدم، ولكن، وبالرغم من ذلك، فقد بدا الآن كمن يملك سلطة وشخصية ليست لرجلٍ مجنونٍ إنّما لحاكم اختاره الله لهذا المنصب.

ربّما كان إنسانًا طبيعيًا، في نهاية الأمر.

أشار كريستيان إلى غولدبيرغ بأن يقف. ناوله معطفه وقال له بصوتٍ هادئٍ جدّاً وحازمٍ:

« أنتَ الوحيد الذي يعرف مكانها».

لم ينتظر حتى يسمع الجواب فأكمل قائلاً:

«أريدك أن تنصّ اليوم قراراً بالعفو وسأوقّعه بنفسي. لن يوقّعه سترونزي. أنا من سيوقّعه».

«العفو بحق من؟ جلالتك؟» سأل غولدبيرغ.

«كاترين أمّ البوط».

ما كان لصوتٍ أن يرتفع على هذا صوت، أو يعارض صوت الملك، وما كان لأي تساؤل أن يثار حول ما أقرّه جلالته. وصل الخدم بعدها ومعهم النقالة التي لم تعد إليها حاجة، إذ مشى كريستيان، دون مساعدة من أحد، وخرج من المتاهة وحده.

الفصل الحادي عشر

طفل الثورة

١

بعد إزالة الأوساخ والدّم وغسل ما علق على جسم كريستيان بالماء ومن ثم تضميد جراحه، تقرر تأجيل السفر إلى قصر هيرشهولم لمدة ثلاثة أيام عن الموعد الذي كان قد حدّد سابقاً. اختُلقت الأعذار في محاولة شرح أسباب وقوع الملك على الأشواك بهذا الشّكل، لكن الأمور عادت الأمور إلى طبيعتها تدريجيّاً. صبيحة يوم السفر، استُكملَت عملية حزم الحقائب وكل ما يلزم من ترتيبات وفي تمام العاشرة صباحاً، كان الموكب على أهبة الاستعداد للانطلاق في رحلته.

لم يشمل الموكب كلّ من في القصر، إنّما ضمّ كوكبة صغيرة من الحاشية، وهي كوكبة لم تكن قليلة العدد على أيّ حال. احتاجت الحقائب وحدها أربعا وعشرين عربة على الأقل؛ بينما لم يزد عدد المرافقين على الثّمانية عشر وهو عدد يعتبر قليلاً نسبيّاً؛ بالإضافة إلى حفنة من الجنود (الّذين أعيدوا إلى بيوتهم بعد الأسبوع الأول كما يبدو)، إلى جانب الطاقم المختصّ بأمور المطبخ. جلس الملك والملكة وبمعيّتهما سترونزي والأمير الصغير ابن الأعوام الثلاثة في عربة توسّطت الموكب. كان هذا إذن هو ما اشتمل عليه الموكب الصغير المتجه إلى هيرشهولم.

بالإضافة لما تقدّم، حضر أينيفولد براندت –الذي وصفته الإشاعات المغرضة بـ «ممرّض» الملك–، كما رافق الرّكب عشيقات الضّباط من الصّف الثّاني وما دون، بالإضافة إلى نجّارين اثنين.

كانت دلائل الحمل واضحة على جسد الملكة عند الرّحيل، ولم توفّر ألسن من

في القصر جهداً لتناقل هذا الخبر دون أن يشكّ أحدٌ في هويّة الأب.

كانت أربع عربات تقف على أهبة الاستعداد في ساحة القصر ذاك الصباح، حين وصل رانتزاو وطلب لقاء سترونزي «لبحث أمر في غاية الأهمّية»، كما وصفه.

السّؤال الأوّل الّذي وجّهه رانتزاو لسترونزي هو إن كان من المفروض أن يرافق الحاشية. أجاب سترونزي بأن انحنى بودّ وأدب قائلاً: «إن رغبت حضرتك».

ردّ رانتزاو بسرعة سائلا: «أتريدني أن آتي معكم؟». وكانت نبرة صوته متوتّرة ومتحفّظة بشكل واضح.

نظر كلّ منهما إلى الآخر باستهجان.

لا جواب.

اعتقد رانتزاو أنه فهم معنى هذا الصّمت. سأل سترونزي إن كان و«بمنتهى الصّراحة» يجد أن قضاء الصّيف وربما جزءاً من الخريف في هيرشهولم وبمعية هذا الجزء الصغير من الحاشية، أمراً حكيماً. سأله سترونزي عن قصده من سؤال كهذا. أجاب رانتزاو بأنّ البلد تعيش فترة قلاقل وبأنّ طوفان المراسيم والإصلاحات المتدفّقة من يد سترونزي (مستعملاً عن قصد عبارة «المتدفّقة من يد سترونزي»)، فهو يعرف تماماً حالة الملك العقلية، فالرّجل — أي رانتزتو- ليس بأحمق) — هي دون شكّ لمصلحة البلاد. أضاف رانتزاو بأن الإصلاحات حكيمة في الغالب، والقصد من ورائها جيّد، ويتماشى مع أفضل مبادئ العقل والمنطق ولا شكّ في ذلك كلّه. باختصار؛ صيغت الإصلاحات بدرجة عالية من الإتقان. لكن، وباختصار أيضاً، فقد كان عددها هائلاً فاق كلّ تصوّر! بل إنّ المرء يكاد يعجز عن أن يحصيها!

لم تكن البلاد جاهزة لكلّ ذلك، أو لنقل بأنّ جهاز الحكم لم يكن جاهزاً! إذن، فالعمليّة تشكّل خطراً على سترونزي وعلى كلّ أصدقائه. أكمل رانتزاو دون أن يعطي لسترونزي مجالاً للمقاطعة لحظةً أو للرّدّ، متسائلاً لماذا كلّ هذا التّهوّر الّذي قد يؤدّي لقصل الرّقاب؟ ألم يكن سيل الإصلاحات هذا، بل موجة التّغيير

الثّوري في الواقع والمهيمنة على مملكة الدّنمارك، ألم تكن هذه الثّورة الفجائيّة ولو من حيث التكتيك، سبباً كافياً، كي يبقى كلٌّ من سترونزي والملك– و سترونزي بالذّات!!!– على مقربةٍ ما من معسكر الأعداء ولو بقصد مراقبتهم على أقلّ تقدير؟ أو لنقل مراقبة تحركاتهم، ورصد طريقة تفكيرهم وما يخطّطون للقيام به؟

أفرغ رانتزاو ما في جعبته بشكلٍ مذهلٍ.

«باختصار، هل من الحكمة أنْ تشارك في هذه الرّحلة؟» سأل رانتزاو.

«لا أجد في ذلك شيئاً من الاختصار»، أجاب سترونزي. «ثم إنّي لا أعرف إن كان المتحدّث صديقاً أم عدوّاً».

«من يتحدّث إليك هو أنا»، قال رانتزاو. « أنا الصّديق. بل ربّما صديقك الوحيد».

«صديقي الوحيد»، قال سترونزي. «صديقي الوحيد؟ هذا كلام ينذر بالشّؤم».

بهذه النّبرة الرسمية بل العدائية، دارت المحادثة بين الرجلين، تبعها صمت طويل.

«أتذكر ألتونا؟» سأل سترونزي أخيراً بصوت خفيض.

« نعم، أذكر. يبدو لي وكأن وقتاً طويلا قد مر منذئذٍ.»

« ثلاث سنوات. أهذا وقت طويل؟»

«لقد تغيّرتَ. أجاب رانتزاو بصوت بارد كالثلج.»

« لم أتغيّر»، قال سترونزي. «لست أنا من تغيّر. كنّا قد اتّفقنا على كلّ شيءٍ تقريباً هناك. كنتُ قد أعجبتُ بك في الواقع. كنتَ قد قرأتَ كلّ شيءٍ وتعلّمت منك الكثير، وأنا ممتن لك. كنتُ ما زلتُ صغيراً جدّاً يومها».

«وها أنت الآن قد كبرتَ وصرتَ فَطِناً وما عدتَ تنظر للغير بنظرة إعجاب».

« الآن أنا أُجري تغييراً للواقع.»

«تغييراً للواقع؟»

«نعم، بالممارسة وليس بالشّعارات والكلام النّظري فقط».

«أشم في كلامك رائحة احتقار» قال رانتزاو. «ليس بالشّعارات والكلام النّظريّ فقط.»

«لو كنت أعلم في صفّ من تقف فعلاً، لكنت أجبتك.»

«تجري تغيراً لـ «واقـع». لا بالشّعارات ولا بالكلام النّظريّ، من خلف مكتب... وما هو آخر ما استجد على هذا...«الواقع» يا تُرى؟»

لم تكن المحادثة لطيفة أبداً، وقد وقفت العربات تنتظر في الخارج. مدّ سترونزي ذراعه ببطءٍ وتناول الوثائق المكدّسة على الطّاولة كما لو كان ينوي أن يُريها لرانتزاو، إلا أنّه لم يفعل. فقط نظر بصمتٍ وأسىً على التّصريحات الرّسميّة التي كانت بين يديه، وشعر للحظة بالحزن العارم أو بالتّعب الشّديد وقد سيطر عليه.

«كنت أعمل اللّيلة الفائتة»، قال.

«نعم، يقولون إنّك تعمل بنشاطٍ في اللّيل.»

تظاهر سترونزي بعدم الانتباه لما يحمله هذا الكلام من لمزٍ.

لم يستطع سترونزي أن يتحدث مع رانتزاو بصراحةٍ، وأن يفاتحه بكلّ ما يخشاه من منزلقات قد تكمن في هذا العمل الّذي يقوم به. لكنّ بعض ما قاله رانتزاو أثار به مشاعر الضّيق، إذ أعاد إليه ذلك الشّعور بالنّقص الّذي كان يشعر به مقارنةً بزملائه الأفذاذ من جماعة أشيبيرغ. فبينما كان هو الطّبيب الصّموت من ألتونا، كان من حوله من الأصدقاء عبارة عن زمرة من الأفذاذ.

ربما لم يدرك هؤلاء الأفذاذ السّبب الحقيقي وراء صمت سترونزي.

ربّما أدركوا السّبب الآن فقط. ها هو يمارس مهنة ليست مهنته بشكل غير قانوني، وقد وصل لهذه المرتبة الّتي رفعت من شأنه دون تفسيرٍ! هذا ما كان رانتزاو يلمّح إليه، فهو ليس بذلك الفذّ والسّبب وراء صمته يكمن في أنْ ليس لديه ما يقول. كان عليه أن يبقى في ألتونا. هذا هو الصّحيح.

نظر سترونزي إلى حياته على أنّها سلسلة من النّقاط المتلاحقة المرتّبة على قطعةٍ

من الورق، وكل نقطة تشير إلى مهمّةٍ ولها رقمٌ، قام شخص ما بترتيبها، شخص آخر، ليس هو!!! رُقِّمت حياته حسب أولويّة المهام، ابتداءً بالرّقم واحد إلى الثاني عشر كما على ساعة الحائط وذلك إشارةً لتراتبيّة أهمّيّة المهام. يأتي بعد ذلك الرقم الثّالث عشر إلى الرّابع والعشرين تماما كما ساعات اليوم؛ وبعدها الرقم الخامس والعشرون إلى المئة على شكل استدارةٍ كبيرةٍ وقد رتّبت المهام الأقلّ أهمية على محيط خطٍ منحنٍ. كلّما أنهى مهمّة، كان عليه أن يضع علامةً مقابل الرّقم الملائم لها، للدّلالة على أنّ المهمّة قد تمّت؛ وعندما كان يعالج مريضاً كان يضع شرطتين إشارة إلى أنّه قد تمّ علاج المريض. حين تصل دورة الحياة إلى نهايتها، يقدم التّقرير النهائي ويتمّ الحساب وتتّضح الصّورة. عندها يستطيع أن يعود إلى البيت، بعد أن يكون قد أكمل كل واجباته من معاينة المرضى وإجراء الإحصاءات والتحسينات الممكنة على أوضاعهم وتقديم تقريرٍ يلخّص تجاربه والنّتائج الّتي توصّل إليها.

لكن أين هو من المرضى الآن؟ المرضى في كل مكان هناك في الخارج. لم يلتق بهم أبداً. كان عليه أن يعتمد على نظريّاتٍ وضعها آخرون من رجال الفكر الأفذاذ ممّن هم أكثر منه اطّلاعاً وثقافةً، كما كان عليه أن يعتمد على فلاسفة مرموقين وأصحاب نظريّات تناولها أصدقاؤه في كوخ روسّو بالبحث وبأسلوب راقٍ رفيع اتقنوه جيّداً.

أما المرضى في المجتمع الدنماركي، فقد كان عليه أن يتخيلهم- كما حدث حين وضع تصوراً لرؤوس صغيرة على حاشية الصفحات- عندما قدّم بحثه حول الحركات الشّاذة للجسد. كان هؤلاء نماذج من المرضى ممّن أُجريت عليهم التّجارب. كانوا ضمن آليّة العمل وكان تطبيق العلاج عليهم ممكناً كما جاء في الدّراسة. كان يقول في نفسه كلما استلقى على فراشه أرقاً في ساعات اللّيل، بأنّ البلاط الملكيّ الدّنماركي المتوحّش يَثقُل على صدره كما لو كان كتلة من الرّصاص، لكنّ الأمر مع ذلك ممكن! ممكن!!! الولوج داخل الآلة والتّحكم بها أمرٌ ممكن، ورؤية الناس الّذين في الخارج أيضاً ممكن.

الكائن البشري ليس آلة، لكنّه موجود داخل آلة. وهنا الحذلقة. أن يكون بالإمكان التّحكم بالآلة. عندئذٍ ستبتسم له الوجوه التي رسمها بلطف وبامتنان. لكنّ صعوبة الأمر، الصّعوبة الحقيقيّة، تكمن في أنهم لم يشعروا حقّاً بالامتنان. تلك الرؤوس الصغيرة الواقعة ما بين النّقاط، والتي وُضعت علامة تدلّ على أنّه قد تمّت معالجتها وانتهى أمرها وحُلّت مشاكلها!!! تلك الوجوه المحدّقة كانت وجوها تعبّر عن الاحتقار والحقد وعدم الامتنان لما يقوم به.

وفوق ذلك كلّه، لم يكونوا أصدقاء له. المجتمع آلة والوجوه شرّيرة، والصّورة غير واضحة أبداً.

نظر سترونزي إلى صديقه رانتزاو وقد أدرك أنّه قد يكون عدوّاً، بل أسوأ من عدوّ، إذ قد يكون خائناً. وبدت ألتونا بعيدة حقّاً، بل بعيدة جدّاً.

«سيطرأ هذا الأسبوع تغيير جذريٌّ جديد»، قال سترونزي ببطء، «فسيُلغى قانون العقوبات ضدّ الزّنى وسيُقلّص ما يتقاضاه موظّفو الحكومة من زيادة على رواتبهم وسيُمنع التعذيب؛ كذلك سأحوّل عائدات تعرفة جمارك مضيق أورسند الّتي تدخل رصيد الملك إلى خزينة الدّولة وسيعهد إليها، ومن خلال مؤسّسات، رعاية الأطفال غير الشّرعيّين الّذين سيتمّ تعميدهم كما تفعل الكنيسة مع كلّ الأطفال الآخرين، و...»

«وماذا بخصوص منع العبودية؟ أم أنّك ستكتفي بتشريع ما هو أخلاقي فقط؟»

مرة أخرى شعر سترونزي بأن أحد تلك الوجوه التي تشكّك بقدراته قد خرجت من بين النّقاط ضاحكة هازئة. موضوع العبودية موضوع مركزي! بل إنه أعقد المواضيع قاطبة. كان إحدى النقاط الأربع والعشرين في ترتيب الأولويات؛ لا، بل الاثنتي عشرة! نعم الاثنتي عشرة والتي شكلت أرقام الساعة!!! كان قد ترك الصّبيّ المعلّق على الجحش الخشبيّ ليواجه الموت دون رأفةٍ وركض خلف العربة في

الغسق؛ لقد خاف! ما فعله يومها هو أن هرب من أكثر المواجهات تحدياً نوعاً ما؛ مواجهة موضوع «العبوديّة». حين دخل العربة يومها، قال في نفسه بإصرار على أن المّهم في تلك اللّحظة هو أن يبقى على قيد الحياة، وبعدها يتصرّف بعزيمة. سيصدر المراسيم وسيتصرف بتصميم وبعزيمة.

ما فعله حتى الآن كان معالجة الجانب الأسهل، الجانب الأخلاقي، فكان يسنّ القوانين المتعلّقة بالأخلاق الحسنة وبما يبرز الجانب الإنساني عند بني البشر؛ لكنّ ذلك وحده ليس بالحل الصحيح، بل العكس هو الصّحيح، إذ من المستحيل سنّ قوانين تستثني الأشرار. كان سترونزي في الواقع قد كتب يقول إنّ «دولة القانون لا تصنع وحدها أخلاق الأمم».

أدرك مع ذلك أن هذه هي نقطة ضعفه، فقد أمضى وقتاً طويلاً يعالج موضوع الأخلاق، العادات، المحرّمات والحريّات الشّخصيّة.

هل فعل ذلك لأنّ الشّق الآخر من المشكلة كان على درجة عالية من التعقيد؟

«تحرير العبيد؟» كرر رانتزاو السؤال بخشونة.

«قريبا» أجاب سترونزي.

«كيف؟»

«ريفيرديل»، بدأ سترونزي يجيب بتردد، «المربّي السّابق لجلالته، رسم خطّة قبل إبعاده، وقد كتبت إليه طالباً منه أن يعود».

«اليهودي الحقير»، قال رانتزاو بنبرة صوت هادئ لكنه مفعم بالعدائيّة، «اليهوديّ الحقير الضّحل، هو من سيحرّر فلاّحي الدّنمارك إذن! هل تعلم كم من الأعداء سيجلب لك ذلك؟»

أعاد سترونزي وضع الوثائق على المكتب. لا فائدة من الاستمرار في هذه المحادثة. انحنى رانتزاو دون أن يقول المزيد، استدار واتجه نحو الباب. لكن قبل أن يغلقه خلفه، لاح أمام عيني سترونزي آخر تلك الوجوه الحقودة متجسّداً في وجه رانتزاو الّذي قال إنّه صديقه الوحيد، وربّما كان فعلاً كذلك بشكل من الأشكال،

فهو من علّمه تلك النّظريات، وها هو ينظر إليه بعين الناقد. إنّه صديقه، أو ربما كان يوماً صديقه، إن كان كذلك بالفعل.

«ما عاد لديك الكثير من الأصدقاء وإنّهُ لمن الجنون أن تمضي الصّيف في هيرشهولم، لكن لديك مشكلة أخرى.»

«وما هي؟» سأله سترونزي.

«إنك تفتقر للمقدرة على اختيار الأعداء.»

٢

ما قاموا به لم يكن هروباً. هذا ما قالوه لأنفسهم فيما بعد. لِمَ كلّ تلك السّرعة المحمومة إذن وكل تلك العجلة، وذلك الضحك وصفق الأبواب؟

لم يكن ما قاموا به هروباً بل مجرد رحلةٍ إلى هيرشهولم بقصد قضاء صيفٍ جميلٍ رائع.

كانت العربات تنوء بحملها. في اليوم الأوّل غادرت أربع عربات لا غير، تبعتها في اليوم التّالي بقيّة العربات محمّلة بعدد هائل من الحقائب، ذلك أنّ الحياة الرّيفيّة البسيطة تستلزم ترتيبات لا حصر لها.

كان في العربة الأولى كل من الملكة، سترونزي، الملك كريستيان السّابع، صبيّه الأسود مورانتي وكلب الملك.

ران عليهم الصّمت.

جلس كريستيان في العربةِ بهدوء تامّ. ألقى على من حوله نظرةً مصحوبة بابتسامةٍ غامضةٍ لم يستطعوا تفسيرها. أمّا هو، فقد اتّضحت له الصّورة الآن بما لايقبل الشّك. لقد اجتمع أربعة من السّبعة هنا في العربة، ولولا وجود كارولين ماتيلدا الّتي ستسمع كل ما يقال، لكان أصغى لنصائح أحبائه الثلاثة؛ سترونزي، مورانتي والكلب، حول مُجمَل المواضيع الشّائكة وما يتعلّق بالأوقات العصيبة وما

قد تأتي به الأيّام من محن.

كان متأكدا من ذلك، كما تأكد من أنّه سيُحرم من نصائح وتعليمات شفيعته، سيّدة الكون، لفترة قد تطول.

«في غابر الزّمان، كان في هذا المكان قصر». هكذا ستروى الحكاية: «هنا، في هذا المكان كان قصرٌ، وهنا ابتلعت الثّورة الدّنماركية القصر فأضحى أثراً بعد عين».

أقيم قصر هيرشهولم وسط جزيرة، محاطاً بالمياه، وكانت طيور كثيرةٌ تملأ المكان مفترشة سطح البحيرة ليلاً. كم أحبّت الملكة الطيور، خاصة حين كانت تتكوّر لتلتحف بأحلامها. استغرق بناء القصر نصف قرن ولم يكتمل بناؤه بالفعل إلا سنة ١٧٤٦. كان القصر تحفةً معماريّة جميلة بل خلاّبة، فهو نسخة شمال-أوروبية عن قصر فيرساي. لكن مصير القصر كان مثل مصير الأحلام القصيرة، فلم يعمّر أكثر من صيف، وذلك في سنة ١٧٧١. اندثر الحلم بعدها، ووقف القصر وحيداً، مُهملاً، غارقاً في النّسيان فاهتراً.

لم تأكله النّيران، لا ولا امتدّت إليه يد السّارقين. بل بكلّ بساطة مات حزناً وما عاد له وجود. كأن ذلك الصّيف المفعم بأقصى حدود السّعادة قد لوّث القصر بالوباء. كان القصر مُلكاً لكارولين ماتيلدا وسترونزي، وبمجرّد أن وقعت المأساة، لم يرغب أحدُ بأن يقترب من تلك البقعة أبداً، مخافة التقاط عدوى الإثم.

بحلول عام ١٧٧٤ توقف العمل على القصر نهائيّاً، ليصل وضعه إلى الحضيض مع نهاية القرن. وحين التهمت النّيران قصر كريستيانسبورغ في كوبنهاغن، تقرّر هدم قصر هيرشهولم واستعمال المواد اللاّزمة في إعادة بناء كريستيانسبورغ. تمّ نقل كل شيء من القصر المُهمل. جُرّدت الـ «قاعات المزدانة بكل ما هو فاخر وثمين من الزّينة والأثاث»، وهدمت قاعة الفرسان الرّائعة الّتي كانت تتوسط القصر؛ وسُحب كل حجر واقتلعت كلّ قطعة رخام، كي لا يبقى أثرٌ لقصّة الحبّ تلك. كانت غرفة كارولين ماتيلدا أشبه بصندوق تحف نادرة وطريفة، إذ أُغرمت بكلّ ما هو صينيّ

وملأت غرفها في ذلك الصيف بتلك التّحف من مزهريّات خزفيّة ولُعَب كانت قد أوصت شركة شرق آسيا بإحضارها خصّيصاً لها. حتى المدفأة الجميلة الّتي حصلت عليها بعد جهد لتزيّن بها صالة الاستقبال في قصر هيرشهولم ذاك، والّتي كانت «على شكل امرأة صينية تحمل مظلة» قد تمّ تحطيمها.

كان القصر وصمة عار، لوّثه ذلك السّاقط وعشيقته فوجبت إزالة كل أثرٍ له عن الوجود، كما يحدث حين يُمحى وجهٌ غير مرغوب به من صورة، فيصير الشّخص وكأنه قد خرج من الوجود ومن التّاريخ، فلا كان وما كان يجب أن يكون. كان لا بدّ من تطهير الجزيرة من إثمها.

بحلول عام ١٨١٤ لم يعد للقصر أيّ أثرٍ. هكذا تساوت سنوات عمره بسنوات عمر البشر، فقد عاش من سنة ١٧٤٨ إلى سنة ١٨١٤، وقد ناهز بذلك الثّامنة والسّتّين من العمر. بهذا المعنى يمكن القول إنّه القصر الوحيد الذي ارتبط اسمه بقصة حب مدّتها صيف، قصّة حبّ وموتٍ ودمار. كلّ ما نستطيع أن نجده في مكان القصر اليوم هو كنيسة ملكيّة صغيرة، بنيت سنة ١٨٨٠، على الجزيرة نفسها وفي المكان نفسه الّذي قام عليه القصر. كأنها صلاة، صلاة الختام استغفاراً ، وطلباً للرّحمة لما ارتكبه شخصان فاسدان من المعاصي.

ما عدا ذلك لا نجد إلاّ الماء والعشب.

ما زالت الطّيور تأتي إلى المكان بالطّبع، تلك الطّيور الّتي كانت كارولين ماتيلدا قد رأت حين وصلت في ساعة متأخرة من مساء ذلك اليوم إلى قصر هيرشهولم، وشعرت أخيراً أنّها في بيتها، هناك حيث الأمان والطمأنينة، وحيث تتكوّر الطّيور لتنام مدّثرة بأحلامها.

في غابر الزمان، كان في هذا المكان قصر. إلى هذا المكان أتت. كان في أحشائها طفلٌ، وكانت تعرف أن الطفل منه.

كلّهم كانوا يعرفون.

« إني حامل»، قالت «وكلانا يعرف أنه طفلك».

قبّلها دون أن ينبس بكلمة.

لقد حدث كلّ شيءٍ بسرعةٍ. قام بثورةٍ في الدنمارك خلال ثمانية أشهر. وقّع على مراسيم وإصلاحات وسيستمر من هذا الموقع - من وكر الفجور هذا والمسمّى قصر هيرشهولم- بالتّوقيع على المزيد، ممّا استوجب هدم القصر فيما بعد، تماماً كما يتمّ حرق غطاء سرير مريض مات بمرض الطّاعون.

أصدر ٥٦٤ مرسوماً في السّنة الأولى وحدها. صار الموضوع سهلاً ولم يعترضه أيّ عائقٍ. سار كلّ شيءٍ بسلاسةٍ وبسهولةٍ. الثّورة تسير على قدم وساق، قلمه يخطّ القوانين، الأوامر تُنفّذ، وهو يمارس فعل الحبّ مع هذه الفتاة المذهلة الّتي تدعو نفسها ملكة الدّنمارك. مارس الجنس، كتب ووقّع. ما عاد توقيع الملك ضرورياً. كان يعلم أن القضاة وموظفي الدوائر الحكومية كانوا يستشيطون غضباً دون أن يجرؤ أحدٌ منهم على الاقتراب منه. فاستمر على المنوال نفسه.

لطالما ازدرى مقولة: «يقوم البعض بالتّنظير للثّورة من خلف مكتب» وها هو كلّ شيءٍ يتمّ الآن من خلف مكتبه. يتم بالضّبط من خلف مكتبه، بكل ما للكلمة من معنى. ها هو التّنظير يصير حقيقة.

لم يترك مكتبه يوماً، ومع ذلك فها هي الثّورة تتحقّق. ربّما كان على كلّ الثّورات أن تحدث هكذا. لا حاجة لفرقِ الجيش ولا للعنف، لا للتّهديد ولا للوعيد؛ مجرد ملك مجنون بيده السّلطة المطلقة وعملية إصلاح تتمّ بالوكالة.

أدرك أنّ وجوده في موقعه يعتمد كلّياً على هذا الصبي المعتوه، فهل كان يعتمد عليها هي أيضاً بالقدر نفسه؟

حين أخبرته عن الجنين، شعر بالسّعادة، وأدرك في الحال أنّ النّهاية ربّما قد أوشكت.

مرّت فترة طويلةٌ وهما يمارسان الحبّ دون أدنى حذر.

لم يلتق بامرأة مثل هذه الصبيّة الصّغيرة أبداً. إنّها غير معقولة. يبدو أن الخجل والخوف لا يعرفان طريقهما إليها. وبالرّغم من عدم وجود تجارب سابقة لها ، إلاّ أنّه يبدو أنّها استوعبت الأمر برمّته من اللّحظة الأولى. بدت كمن أحبّت جسدها وأحبت أن تتمتّع بجسده. في أول ليلة لهما في هيرشهولم جلست فوقه، امتطهُ بتمهّلٍ، بمتعة، كأنها كانت تصغي لإشارات سرّية تنبعث من جسده لحظة بلحظة، فتطيع تلك الإشارات وتتحكّم بها. لا، لم يستطع أن يفهم كيف تعلّمت هذه الفتاة الإنجليزيّة الصّغيرة، ابنة العشرين ربيعاً ذلك كلّه. أخيراً، وبِدعَةِ قِطّةٍ، تكوّرت إلى جانبه وسألته:

«هل أنت سعيد؟»

كان يعلم أنّه سعيدٌ، وأنّ المصيبة باتت على الأبواب.

«يجب أن ننتبه» أجاب.

«صار الوقت متأخراً جدّاً لذلك» قالت في العتمة. «أنا حامل والطّفل طفلك».

«والثّورة الدّنماركية؟ ماذا سيحدث حين يعلمون أنّ الطفل منّي؟»

«لقد حملتُ منك بطفل الثّورة» أتى جوابها.

نهض، اتجه إلى النّافذة ونظر من خلالها نحو مياه البحيرة في الخارج. صار النّهار يقصر والغسق يحلّ باكراً الآن. الطّقس حارٌّ ورطبٌ. البحيرة حول القصر تعجُّ بالنباتات والطّيور وقد انبعثت من البحيرة رائحة ثقيلةٌ تعبق بالشّبق ومشبعة بالموت. لقد حدث كلّ شيءٍ بسرعةٍ رهيبةٍ.

«إننا نحمل جنين المستقبل»، تناهى صوتها إليه في العتمة.

«ربّما إلى مثواه الأخير»، قال بصوت منخفض.

«ماذا تقصد؟»

لكنه لم يكن يدري لماذا قال ذلك.

كان يعرف أنّه يحبّها.

ما كان جسدها ولا كانت مهارتها المذهلة في الحبّ، هما ما جعله يعتبرها

موهوبة في فنون العشق الأيروسي، بل هي السّرعة الهائلة الّتي كانت تكبر بها وكأنّها تنضج أسبوعاً بعد أسبوعٍ فتحوّل هذه الفتاة الإنجليزيّة الصّغيرة البريئة إلى شخصٍ آخر. سوف تدركه سريعاً وقد تتفوّق عليه وتصبح شخصاً مختلفاً غيرَ تلك الفتاة التي عرف. ما كان ليتصّور كلّ ذلك. إنّها صاحبة وجوهٍ عدّةٍ، ليس بينها وجه جنونيّ واحد، كما هي حال كريستيان. لم يكن في داخلها مشعل مظلم يلقي عليه بعتمته القاتلة فيغمره بها. لا، ما كانت إلا فتاةً غريبةً أغرته لحظة ظنّ أنّه رآها، فتبيّن له فجأة أنّه كان واهماً وأنه في الواقع لم يتمكّن من أن يراها فعلاً.

تذكر قولها: «مثل حيوان تم دمغه».

لكن هل هكذا يجب أن يكون الحبّ؟ ما كان يريد للحبّ أن يكون كذلك.

«أنا مجرد طبيب من ألتونا». قال لها.

«وماذا في ذلك؟»

«أشعر أحياناً أنّني طبيبٌ طيّب القلب، متردّد وعلى درجة غير كافية من العلم، أتيت من ألتونا وسُلّمتُ مهاماً أكبر من حجمي» قال بصوت خفيض.

وقف وقد أدار لها ظهره إذ كانت هذه هي المرّة الأولى التي تجرّأ بها أن يصرّح لها بمثل هذا الكلام، وشعر بالخجل. لذلك أدار لها ظهره ولم ينظر في عينيها. كان يدرك أن عليه أن يقول ما قاله، رغم الخجل.

لم يكن يريد أن يظهر بمظهر المتعجرف، فقد تعلّم في صغره أنّ العجرفة من الكبائر. إنّه مجرد طبيب من ألتونا. هذه هي الحقيقة المجّردة. أدرك أيضاً أن مهامّ معيّنة كانت قد أُلقيت عليه، وأن له شأناً، وهنا يأتي التطاول، إذ ما كان من المفروض أن يقيّم نفسه هكذا.

ما كان غيره من المتعجرفين الذين ملأوا البلاط ليترددوا بالتّطاول، فهؤلاء متجذّرون في القصر، قَدامى، ورثوا الأملاك والمناصب فكانوا يتطاولون بشكلٍ طبيعيّ دون أيّ رادعٍ ودون أي اعتبار، إذ لم يحصلوا على كلّ ذلك بعرق جبينهم. أمّا هو، فما كان متعجرفاً، بل خائفاً، وذلك ما جعله يشعر بالخجل. لقبوه بـ

«الرّجل الصّموت». ربّما أثار صمته خوفهم. كان رجلاً ذا قامة طويلة، وصموتاً، عرف كيف يحافظ على هدوئه، وذلك ما أخافهم. لكنهم عجزوا عن أن يدركوا أنّه كان بالأساس طبيباً من ألتونا، اعتقد أنّ هناك مهمّة تنتظره وأن عليه أن يستجيب للنّداء.

لم يعرف الآخرون معنى الخجل، أمّا هو... لهذا وقف وقد أدار لها ظهره.

في أحد الأيام وقد أوشك الصيف على أن ينتهي، وبعد أن رزقت بطفلة، أتته قائلة بأنه يجب إعادة بيرنستورف؛ الوزير الذي كان قد أُبعدَ عن القصر تاركاً البلد ليقيم في عزبته.

قال لها سترونزي: «إنّه يكرهنا».

«لا فرق إن كرهنا أم أحبّنا، فنحن بحاجة إليه ويجب أن نسترضيه ونستخدمه لصالحنا، ولو كان عدوّاً».

ثم قالت: «نحتاج حماية تكتنفنا».

حملق بها «حماية تكتنفنا؟» من أين أتت بمصطلح كهذا يا تُرى؟ إنها حقّاً لمذهلة.

٣

كان صيفاً رائعاً.

تخلّيا أثناء إقامتهما في القصر عن نظام التّشريفات وأصول البروتوكول المتّبعة في البلاط. قرآ كتابات روسّو، وارتديا من الثّياب ما راق لهما دون التّمسّك بأيّ قيد وعاشا ببساطة، أمضيا الوقت بين أحضان الطّبيعة، مارسا الجنس، وظهرا كما لو كانا يستعجلان الإحاطة بكل عناصر السّعادة وبشكل مكثّف بحيث لا يضيّعان من الوقت ولو ساعةً واحدة. صُعق كلّ من زارهما عند رؤية الثّياب الّتي ارتداها كلّ

من في القصر والّتي امتازت بالبساطة والتحرّر من الرّسميّات، دون أن تخدش الحياء - كما جاء في رسائل هؤلاء الزّوار وقد كتبوا يصفون ما رأوه مُستغربين -. أُلغيت كلّ الطقوس. قدّم الخدم الطّعام في مواعيده المتّبعة، لكن ليس دائماً. تشارك الجميع في تحمُّل مسؤوليّة إعداد الطّعام. خرجت الملكة مع سترونزي في جولات امتدّت حتى ساعاتٍ متأخّرةٍ من اللّيل أحياناً. في إحدى الجولات وعلى شاطئ البحر غيّر بعيدٍ من القصر، سبحت الملكة سترونزي خلف الكثبان وتجردت من ثيابها فجمعهما الحبّ جسداً على الرّمال. في ذلك الصّيف في هيرشهولم سقطت الألقاب ووُضع نظام تراتبيّة المقامات جانباً. تنادى الموجودون بالأسماء الأولى فقط دون حواجز.

كانت الحياة أشبه بحلم. اكتشفا أن الحياة تستطيع أن تكون أكثر بساطة وأكثر راحة.

هذا هو ما اكتشفاه في هيرشهولم: أنّ كلّ شيءٍ ممكن، وأنّ الهروب من مستشفى المجانين ممكنٌ أيضاً.

شعر كريستيان بالسّعادة هو أيضا. بدا بعيداً جدّاً وقريباً في الوقت نفسه. في إحدى الأمسيات وأثناء تناول العشاء، قال لسترونزي وابتسامة سعادة ترتسم على وجهه: «تأخّر الوقت، وحانت ساعة زيارة ملك بروسيا لمخدع الملكة».

تفاجأ الجميع. سأله سترونزي بنبرة هادئة:

«ملك بروسيا؟ ومن يكون؟»

«أنت. أليس كذلك؟» سأل كريستيان مستغرباً.

صار حملها جليّاً للعيان، لكنّها أصرّت على أن تمتطي حصانها وتنطلق في الغابات رغم اعتراض المحيطين بها ممن قلق عليها وأراد مصلحتها. صارت فارسة ماهرة جدّاً. لم تسقط عن الحصان مطلقاً. انطلقت ممتطية صهوة جوادها بكلّ ثقة، أما هو، فقد تبعها مستسلماً. في أحد الأيّام وفي ساعات ما بعد الظّهر، سقط أحدهما عن حصانه. كان سترونزي هو من أُطيحَ به من على ظهر الحصان إذ ألقى به حصانه أرضاً.

استلقى على الأرض لوقتٍ طويل، وكانت إحدى رجليه تؤلمه بشكل حادّ. أخيراً، وبعد جهد، نجح في الوقوف على قدميه.

ساندته إلى أن وصل المسعفون.

«حبيبي» قالت: «أكنتَ تظنّني على وشك السّقوط؟ لم أسقط. لا أريد أن أخسر الجنين. ولهذا سقطتَ أنت».

أجاب ببساطة: «ربما كان حظّي قد خانني فابتعد».

أشرف بنفسه على ولادة الطّفلة.

شهد سترونزي ولادة طفلته بينما كان يتكئ على عكازيه، عند سرير الملكة.

«لقد سحب الطفلة إلى الخارج». هكذا وصف المشهد؛ قام هو بسحب طفلته خارجاً، نحو الحياة، فغمرته فرحة عارمة. كان قد أشرف على ولادات عديدة من قبل، أمّا هذه، أمّا هذه!!! اتكأ على العكّازين اللّذين كانا تحت أبطيه، لكنّ العكازين سقطا أرضاً وقد نسي هو الألم البالغ الّذي سبّبته الإصابة كما اعتقد لحظتها، وأجهش بالبكاء.

لم ير أحدٌ أمرا يشبه هذا من قبل، وكانت هذه الحادثة مثار كلامهم لفترة طويلة. اعتبر البعض ما حدث إثباتاً يقطع الشّك باليقين.

نعم، لقد بكى. وكان السّبب هو تلك الطّفلة. كانت الطّفلة تجسيداً للحياة الأبدية وقد سحبها خارجاً من رحم الأمّ، إنها ابنتهما، وهي ما سيجعل لحياته استمرارية.

بعد ذلك تماسك وقام بما يمُليه عليه الواجب. ذهب إلى الملك كريستيان السّابع وبشّره بأنّ الملكة كارولين ماتيلدا قد أنجبت له وريثاً. أنجبت له طفلةً. لم يُبدِ الملك أيّ اهتمامٍ ولم يرغب في رؤية الطّفلة. في ساعة متأخرة من تلك اللّيلة، أصيب الملك بنوبةٍ عصبيّة، فقام بقلب التماثيل التي زينت حديقة القصر أرضاً، وبصحبته صبيّه الأسود، مورانتي.

سميت البنت لويز أوغوستا عندما عُمّدت.

٤

وصل خبر ولادة ابنة لسترونزي والملكة إلى القصر في العاصمة خلال أربع وعشرين ساعة من الحدث. قامت الملكة الأرملة باستدعاء غولدبيرغ حال سماعها النّبأ.

كانت تجلس برفقة ابنها ذي اللّعاب السّائل والثّرثرة البلهاء، تقبض على يده وتشدّ عليها دون أن ترمقه ولو بنظرةٍ واحدة أثناء تلك اللّحظات الحرجة. أول ما نطقت به، هو أن طفلة تلك العاهرة هي مجلبة للعار على البلاد كلّها وعلى العائلة المالكة بوجه الخصوص، وأنها تريد الاطّلاع على الصّورة بأكملها وحالاً!

طالبت الملكة الأرملة بتقريرٍ مفصّلٍ وحصلت عليه.

وكان غولدبيرغ هو من قدّم التّقرير.

دعت الحاجة بعد حادثة الجزائر- وقد تعرّض الأسطول الدّنماركي الّذي أُرسِل إلى مياه المتوسط إلى تدمير عُشره تقريباً- إلى إعادة بناء ذلك الأسطول. عُرض الأمر على سترونزي، فردّ بتصريحين رسميّين. جاء في التّصريح الأوّل أنه يمنع إنتاج المشروبات الرّوحية المستخرجة من الحبوب وإنتاج الخمور في المنازل بواسطة تقنيّة الترشيح. أما التّصريح الثّاني، فأعلن من خلاله أنّه لن يكتفي بتقليص عدد العاملين في البلاط إلى النصف، بل إنّه سيقلص عدد العاملين في البحريّة أيضاً. بالتّالي فإنّ حوض بناء السفن في هولمن سيتوقف عن العمل. أمّا العمّال، خاصّة البحّارة النّرويجيون، الّذين تمّ استدعاؤهم من النّرويج، فقد تملّكهم الغضب. كان غولدبيرغ على اتّصال دائم بهم، وقام وفد منهم بزيارته.

أراد الوفد معرفة صحّة الإشاعة الّتي تقول بأنّ سترونزي يحتفظ بالملك سجيناً وأنّه ينوي قتله.

أشار غولدبيرغ عندئذ «إما بحركة بيديه أو بتعابير ارتسمت على وجهه» بما معناه أنّ ذلك صحيح بالفعل، ولكنّ العمل على حماية العائلة المالكة والمملكة ككلّ، يجب أن يتمّ بواسطة التّخطيط الصّحيح والعمل المناسب. أخبرهم بأنّه يشاركهم ألمهم وضيقهم تجاه فقدانهم لوظائفهم في حوض بناء السفن. أما بالنسبة

لستروِنزي وبغائه وعهره، فإن غولدبيرغ يتضرّع لله في صلواته كل ليلة، متوسلا من العليّ القدير أن يرسل صاعقه برق تقتل ستروِنزي وتريح الدّنمارك منه.

كان البحّارة يخططون لعصيان، وقد أزمعوا على التوجّه نحو هيرشهولم.

« وبعدها؟» سألت الملكة الأرملة. «هل سيقتلونه؟»

أجاب غولدبيرغ دون أن يبتسم:

«حين تقوم الجماهير الغاضبة بالعصيان ضدّ طاغية، فإنّ أحداً لا يستطيع التنبؤ بالنّتائج».

ثم، وكأنّما على سبيل الاسترسال قال:

«أما المستطاع فهو إشعال الثّورة، وتوجيهها».

كانت الطّفلة الوليدة تغطّ في نومها، وتتنفّس بهدوءٍ لم يتمكّن من سماعه إلا إن دنا منها بأُذنه. وجدها جميلةً جدّاً. ها هو أخيراً يُرزق بطفل.

كان كلّ شيء هادئاً في ذلك الصّيف.

آه، كم تمنّى لو كانت الأمور دائماً على هذه الحال.

لكن، في التّاسعة من مساء ذلك اليوم، الثامن من أيلول/ سبتمبر ١٧٧١، وصلت إلى حديقة القصر عربة وعبرت الجسر القائم على البحيرة قاصدةً القصر. كان الكونت رانتزاو داخل العربة وقد أتى كي يتحدّث مع ستروِنزي دون تأخير. كان رانتزاو غاضباً وقال إنه يريد «مواجهة صريحة مع ستروِنزي».

«أنت مجنون تماماً» قال له رانتزاو. «المنشورات الّتي تتحدّث بوضوح فاضح عن علاقتك بالملكة تملأ كوبنهاغن. لم يعد هناك أي حسّ بالحياء أو بالخجل. قرار منع تصنيع الخمور في البيوت أثار غضب النّاس. أمّا الجيش، الّذي كان يمكننا الوثوق ببعض عناصره في بعض الوحدات، فقد تمّ تسريحهم من الخدمة. لماذا تجلس هنا ولست في كوبنهاغن؟ أريد أن أعرف».

«إلى جانب من تقف؟» سأله ستروِنزي.

«أريد أن أسألك السّؤال نفسه. تعلم جيّداً أنّي أنوء تحت وطأة الدّيون. وهذا هو السّبب – هذا هو السّبب!!- أنت نفسك شرّعت قانوناً ينصّ على أنّه «يجب الخضوع للقانون في كل القضايا التي تتعلق بموضوع الّديون، دون الأخذ بعين الاعتبار مكانة أو سمعة من استدان المال». وهذا رائع إلا أنّني أعتقد أحياناً أنّك شرّعت هذا القانون ضدّي أنا على وجه الخصوص كي تنال منّي وتحطّمني. أتساءل عن الدّافع الخفيّ! الدّافع! ففي أي جانب تقف أنت؟ أريد أن أعرف، قبل...قبل...»

«قبل أن يهوي كل شيء؟»

«أجبني أولا».

«أنا لا أسنّ القوانين ضدّك ولا من أجلك، لا أنت ولا غيرك، كما لا أغيّرها من أجلك. الجواب إذن هو لا، لست ضدّك».

«لا؟»

«لا!»

تبع ذلك صمت طويل ثم قال رانتزاو:

«سترونزي، لقد حدث الكثير منذ أتيتَ من ألتونا. قطعتَ شوطاً طويلاً. إلى أين تظنّ أنّك ذاهب الآن؟»

«إلى أين تظن أنت أنّك ذاهب؟»

وقف رانتزاو وأجاب بكل بساطة:

«إلى كوبنهاغن».

غادر رانتزاو، تاركاً سترونزي وحده. دخل الطّبيب إلى غرفة نومه، استلقى على سريره، وحملق في السّقف، محاولا ألا يفكّر في شيء.

لكنّ الأفكار كانت تلفّ وتدور في رأسه. والسّؤال واحد:

«لا أريد أن أموت، فما العمل؟»

«حماية تكتنفنا»، قالت له.

ولكن كم من كنفٍ؟ لن يجد من يحميه؟ وما العمل وقد ألمّ به كلّ هذا الإرهاق؟ لم يترك الموكب الملكيّ في ألتونا. قرّر أن يذهب ويرى الواقع بنفسه. فكيف سيُكمل طريقه؟

الفصل الثاني عشر

عازف الناي

١

لم يبق حول سترونزي من زُمرة الشّباب المتنورين الذين جمعتهم ألتونا ذات يومٍ إلاّ واحد، هو أينيفولد براندت.

كان آخر أصدقاء سترونزي، وكان عازف ناي.

تم استدعاء إيلي سالومون فرانسوا ريفيرديل — «اليهودي الحقير»، كما وصفه رانتزاو — من منفاه في سويسرا. خلال السّنوات الّتي قضاها الرّجل منفيّاً في وطنه الأصلي، واظب على التّواصل مع أصدقاء له في الدّنمارك. كم أثّر به وكم حيّره ما تعرّض له من قبل الصّبي الّذي أحبّ جدّاً — أي كريستيان — خاصّة وأن السّبب وراء قرار الإبعاد الفجائيّ بقي غامضاً. لكن حين عُرض على ريفيرديل أن يعود إلى البلاط، قَبِلَ العرض دون أيّ تردّد. ستتمحور مهمّة ريفيرديل حول شرح الخطّة الّتي كان قد سبق ووضعها بهدف إلغاء قانون العبودية، وتمّ تجميدها.

لكنّ الأمور ستنحو بالرّجل منحىً آخر، وستوكل إليه حال وصوله مهام غير تلك الّتي أتى من أجلها، ولن يتحقق من أفكاره أو يُنَفَّذ من خطّته شيء.

السبب وراء قيام ريفيرديل بمهمّة غير الّتي أتى من أجلها، هو حادثة غريبة حصلت بين الملك وإينيفولد براندت، جعلت من إبقاء الأخير في وظيفته كمرافقٍ للملك، أمراً مستحيلاً. هذه الحادثة - والّتي دُعيت بـ«حادثة الإصبع» -أو «حادثة السّبابة»- ستكلّف براندت حياته فيما بعد.

على أثر هذه «الحادثة»، صار ريفيرديل هو الحارس الشخصي للملك، بعد أن كان في السابق خير معلم له بل وخير رفيق إذ رعاه بعنايته وأحاطه بمحبّة. أدرك ريفيرديل أن وضع الصّبي بات ميؤوساً منه وقد مزقته الثعالب المحيطة به إرباً وتركته أشلاء. صار كريستيان شخصا آخر وما عاد كما كان. استقبل كريستيان معلمه الأسبق بفتور، وأخذت الكلمات تنطلق من فمه كما لو كانت تنطلق من فم صنم جامد. أمّا بالنّسبة لريفيرديل، فإنّ الفكرة الّتي جذبته وأغرته بالعودة؛ فكرة تحقيق الإصلاح العظيم وإلغاء العبودية، قد بهتت!

ما عاد بمقدور ريفيرديل أن يؤثر في السّياسة قيد أنمله، وما استطاع أنّ يبدّل في قانون العبوديّة ولا أن يلغيه.

أمّا «الحادثة» الّتي تعرض لها الملك، فقد أسفرت عن جرح إصبعه.

في ذلك اليوم الأليم — «يوم السبابة» كما أُطلق عليه — كان ستروِنزي قد بعث بمرسوم إلى كوبنهاغن عن طريق البريد، يتعلّق بمحطّات حجامة الأطفال في المناطق المُختلفة، وبتمويل مؤسسة بيت اللقيط، إلى جانب توجيهات أخرى مفصّلة تتعلق بموضوع الحرّيات الدّينيّة التي تمّ الإعلان عنها والتي شملت مختلف الجماعات والطّوائف من مجدّدين وإصلاحيّين، كما شملت حقوق الكاثوليك وحتّى أتباع المذهب المورافي الّذين مُنحوا الحقّ القانوني في الإقامة بحرية في منطقة سليسفي. بالإضافة إلى ذلك حمل البريد ذاته تعليمات وخططاً لإنشاء مدارس دنماركية على نمط المدارس العلمية الألمانية التي تُسمى بالـ«ريل شولن».

هكذا، وُضعت ملفّات يستغرق العمل عليها أسبوعاً كاملاً في رزمة واحدة، وأرسلت كلّها في البريد الّذي كان يُرسل عادةً مرّة كلّ يومين.

اجتمعت صغائر الأمور مع كبائرها في ذلك اليوم بانسجام متكامل، فكانت صغائر الأمور هي الإصلاحات الّتي سنّها ستروِنزي، أما كبائرها فقد تبيّن أنها حادثة «السّبابة»، وبطلها أينيفولد براندت.

كان براندت عازف ناي.

عرفه سترونزي منذ أيام ألتونا، وفي أشيبيرغ بالتّحديد. في تلك الأيام كان النّاس يصعدون مشياً على الأقدام إلى كوخ روسّو، ويقرؤون كتابات هذا المفكّر بصوت عالٍ، ويتحدثون عن المستقبل وعمّا ستحمله الأيام القادمة؛ حين يسيطر الصالحون ويحكمون، ويتمّ القضاء على أخطبوط الرجعيّة، وتتحقّق الطوباويّة. تبنّى براندت كلّ هذه الأفكار الحديثة بحماس، رغم أنّها كانت تحطّ عليه بخفّة كالفراشات فتلمع حيناً، ثم ما تلبث أن تطير وتبتعد أحياناً، لتعود وتحطّ مرّة أخرى دون أن تترك عليه أيّ أثر فعليّ في قربها أو في ابتعادها. كانت الأفكار مجرّد زينة. اكتشف ويا لسعادته، أن السيّدات من معارفه قد سُحرن بها، وربّما كان هذا الجانب هو الأهمّ في الأمر برمّته. بدا لسترونزي أنّ براندت فنّان بالفطرة، شابٌّ رَخوٌ لكنّه يستحق أن يُحبّ، وأن التّنوير بالنّسبة لبراندت، حمل في طيّاته إغراءات جنسيّة ولوّن الحياة، إذ جعل لياليها متنوّعة ومثيرة. أمّا براندت نفسه فقد نظر للتّنوير كما نظر إليه الممثّلون الإيطاليّون، وكما نظر هو نفسه لعزفه على آلة النّاي.

كانت آلة النّاي هي ما جعل من وجود براندت في كوخ روسّو بين باقة المفكرين أمراً يُحتمل. وكان في استحواذ النّاي الصّامت على براندت، ما جعل سترونزي يحتمل ضحالة هذا الرّفيق. كشف عزف النّاي هذا عن جانب آخر من شخصيّة براندت. ما علق بذاكرة سترونزي من أيام الكوخ ولياليه في حدائق أشيبيرغ، لم تكن العلاقة السّطحية والمبتذلة بين براندت و»السّياسة» أو بين براندت و»الفنّ» إنّما تلك العزلة التي أحاطت بذلك الشاب المتنوّر بفضل معزوفاته على النّاي، والتي كانت تحتمل أي تفسير، حسبما تقتضي اللّحظة.

لم يبق من كلّ ذلك إلاّ البريق.

ربّما كان عزف براندت هو ما ميّز صيف عام ١٧٧١ بشكل من الأشكال، فانبعثت الألحان من هيرشهولم إلى أماكن أخرى. ألحانٌ للمرح وللحريّة، وعزف ناي تسلّل مثل تيّار من الشّهوة تحت السّطح السّاكن للمياه، فوصل كوبنهاغن

خلال ذلك الصّيف الحارّ ذي العواطف الجيّاشة. تمّ فتح الحدائق الملكيّة العظيمة لعامّة النّاس من خلال مرسوم أصدره سترونزي، كما شهدت النّشاطات الترفيهيّة تزايداً ملحوظاً. ربّما عاد السّبب في ذلك إلى منع الشّرطة من القيام بالزّيارات اللّيليّة أو بالأحرى مداهمة بيوت الدّعارة، فقد صدر مرسوم يمنع «زيارات» رجال الشّرطة المعتادة إلى بيوت الدعارة والحانات ما بعد السّاعة التاسعة ليلاً، كما يمنع الشّرطة من انتهاك خصوصيّة هذه الأماكن أو التّحقيق مع من فيها ،بدعوى المسّ بالأخلاق، منعا باتّاً. كانت الشّرطة تستغلّ هذه «الزّيارات» لابتزاز الزّبائن عادة، وهكذا كان أثَر الزّيارات باهتاً على الأخلاق، إنّما واضحاً جدّاً على جيوب رجال الشّرطة وما درّته من زيادة في وارداتها، خاصّة وأنّه سمح للزّبائن بدفع الغرامات لرجال الشّرطة في الحال، تجنّباً للاعتقال.

نظر عامّة النّاس إلى موضوع السّماح لهم بدخول المتنزّهات على أنّه حدث عظيم، فقد كان «انتهاك حرمة حدائق الملك» — وهو التّعبير الذي لمّح للعلاقات الجنسية التي مورست في الحدائق الملكية في كوبنهاغن في ساعات الليل — يعاقب باجتثاث عقلة أصبع الشخص الذي يُقبض عليه بالجرم المشهود، إن عجز ذلك الشخص عن دفع الجزاء حالاً، وقد دفع الجميع في نهاية المطاف تحاشيا للعقاب.

ها هي الحدائق تفتح في وجه العامّة الآن. وها هي حدائق روزنبورغ بشكل خاص، تتحول إلى مسرح أيروسي رائع في صيف كوبنهاغن الحارّ إيّاه. في ساعات اللّيل، تحوّلت المساحات المغطّاة بالعشب الأخضر وبالشّجيرات، والّتي تخفي وتغري في آن، إلى ملاعب للشّبق وللجنس، فسُمعت الهَمْهَماتُ والهمسات الضاحكة والوَتْوَتة. إلا أنّ متنزّهاً رائعاً آخر سرعان ما احتلّ الصّدارة بدل حديقة روزنبورغ، ألا وهو متنزّه فْريدِرِكْسْبِرغ، تلك الحديقة الّتي كانت الإنارة تغطيها بشكل جزئيّ.

فتحت الحديقة ثلاث مّرات أسبوعيّاً للأزواج المقنّعين على وجه الخصوص. أُعلن رسميّاً عن حقّ النّاس بارتداء الأقنعة في الحدائق العامّة وفي ساعات اللّيل. ما عناه ذلك في واقع الأمر، هو الحقّ بحريّة الجماع في مكانٍ عامّ، مع الحفاظ على نوع

من الخصوصيّة التي يمنحها القناع.

كان المشهد هكذا إذن: أقنعة تغطّي الوجوه، أفخاد منفرجة، وهمس. كانت الحدائق الملكية في السّابق حِكراً على سيّدات القصر اللّواتي كنّ يسرن فيها على مهل تحت مظلاّتهن. أمّا الآن، فها هي الحدائق تفتح للعامّة، وفي اللّيل! في اللّيل!!! غرقت الحدائق التي كانت مُحَرَّمة على الجماهير من قبل، بموجة من الشّغف. صار لكوبنهاغن ذات البيوت المزرية والمزدحمة جدّاً بالسّكّان، والّتي اقتصرت بها رغبات الجسد على ما تتيحه الغرف المكتظّة حيث يمكن سماع كل آهة رغبة وكلّ احتكاك جسد بجسد، بينما يكتم الباقون رغباتهم أو شعورهم بالخجل... صار لكوبنهاغن المخنوقة تلك متنفّس هو الحدائق الملكيّة الّتي صانت الشّهوة.

اللّيل والحدائق، منيٌّ سائلٌ ورائحةُ شهوةٍ.

كان في ذلك كلّ الفسق والمهانة، وكّل ما هو مناف للطّبيعة والمثير في آن، وقد علم الجميع أنّ هذه عدوى لآثام تعكس مصدرها الأصلي ألا وهو البغاء الملكيّ. أمّا اللوم فوقع على اثنين أساسا؛ ستروتزي والملكة. كلّ شيء صدر عنهما، كلّ مرسوم وكلّ حدث، كان يثير الصّدمة إلى أبعد الحدود ويثير في الوقت ذاته الإغراء!!! لكن إلى متى؟؟؟ بدا وكأنّ كوبنهاغن كلّها تلهث بثِقَلٍ وتحترق بلهيب: ستمرّ هذه الأيام وتمضي بعيداً! ستنتهي عمّا قريب!!!

كان الحذر واجباً. ما عادت هنالك غرامات و محرّمات. فقط سباق مع الزّمن. سرعان ما ستخمد ظاهرة الفسق هذه وستطهّر بالنّار.

لكن، وإلى أن يحين ذلك، فها هي الأسابيع تمرّ بسرعة! إنّما سيحين الوقت!!!

كانت الألحان المنبعثة من ناي براندت هي التي تضبط الإيقاع. في السّابق كان الرّقص والموسيقا والمسرح وكلّ ما له علاقة بالعروض وبالحفلات الموسيقيّة ممنوعاً أيّام السّبت والآحاد وخلال فترة الصّوم الصّغير والكبير أيضاً، إلاّ أنّ هذه الممنوعات كلّها والّتي كانت مُطبَّقة سابقاً في عهد التّقوى، صارت الآن من الماضي. منذ متى سُمِح بأيّ شيء أصلاً؟ لكن، كأنّ عصا سحريّةً أبطلت فجأة كلّ الممنوعات، وها

هي الحدائق تزخر بظلال الأجساد، بالأقنعة وبالشّهوة؛ وخلف المشهد موسيقا تنبعث من نايٍ خفيّ.

٢

وصل براندت إلى هيرشهولم متأخّراً عن الرّكب ثلاثة أيام، وفوجئ حين علم أنّه قد تمّ تعيينه مساعداً للملك، أو بالأحرى «ممرّض الملك» كما لُقّب. فجأة وجد الرّجل نفسه في قصر منعزلٍ تحيط به جزيرة، بعيداً عن الحفلات التّنكريّة وعن عالم المسرح وكواليسه. وبدل مراقبة عالم اللّهو والغناء، صار موقعه الجديد يتطلّب منه مراقبة عالم لهوٍ وغناءٍ من نوعٍ آخر، عالم لهو كريستيان ونوبات غنائه الجنونيّ. أثار هذا الوضع غضبه إذ أدرك عبثيّة هذا الدّور، فهو الـ» ميتر دو بليزير»! «وزير الثّقافة»! أين الثّقافة من كلّ هذا الجنون؟ وما علاقة حضانة الأطفال الملكيّة هذه بالثّقافة؟ كانت النّزهات في الطّبيعة والّتي توجّب عليه القيام بها برفقة الملك مرهقة بالنّسبة له، والعلاقة الغراميّة بين سترونزي والملكة لا تعنيه في شيء بل تثير الإحباط. شعر أنه منفي مُبعد عن عالم الممثّلات الإيطاليات الّذي أحبّ، وأنّ الألعاب الّتي لعبها سترونزي وكارولين ماتيلدا مع الصّبي الصّغير، كما افتتانهما بالطّفلة الوليدة، أمر سخيف.

اشتاق للقصر ولكوبنهاغن ولحياة المسرح. شعر بالإحباط. اقتصرت مهمّته الآن على التّرفيه عن الملك الّذي كانت تصرّفاته عجيبة غريبة كالعادة. تحوّل وزير الثّقافة إلى حارسٍ لملك معتوه.

كانت طموحات براندت تتعدّى هذا كلّه، مما خلق مزاجاً ملائماً للصّدام.

كان الحدث بعينه تافهاً، بل مضحكاً، بالمقارنة مع النّتائج الّتي ترتّبت عليه.

ما حدث هو التّالي: في أحد الأيّام، وبينما اجتمع أفراد الحاشية المتواجدون

في هيرشهولم للغداء على مائدة الملكة، جلس الملك صامتاً كعادته لا يشارك في الحديث الدائر على المائدة، خلا همهمات متقطعة صدرت عنه بين الحين والآخر. فجأة، قام الملك من مقعده وصرخ بصوت غريب مفتعل، كما لو كان ممثّلاً يقف على خشبة مسرح وأشار إلى براندت قائلاً:

«سأنهال ضرباً بالعصي على جلدك الآن. سأجلدك فأنت تستحقّ الجلد! أكلّمك يا كونت براندت. هل تسمعني؟!»

خيّم الصّمت التّام على الجميع. قام سترونزي والملكة بعد لحظات بسحب الملك جانباً والتّحدث إليه بجديّة وحذر دون أن يتمكّن الموجودون من سماع ما قيل له. عندها أجهش الملك بالبكاء وأشار بيده لمعلمه ريفيرديل أن يقترب بينما كان جسده ما زال يرتعد. خرج الرّجلان إلى غرفة الاستقبال المحاذية، حيث هدّأ ريفيرديل الملك بلطيف الكلام. ربما طمأن الملكَ بكلمات التّشجيع وبإبداء الرّغبة في الدّعم والمساندة، خاصّة أنّ ريفيرديل نفسه كان دائماً ينظر لبراندت نظرة احتقار، وربّما يكون قد عبّر للملك عن تفهّمه لنوبة غضبه وأنّ لها ما يبررها.

المُهمّ أنّ ريفيرديل، وهو المُربّي العطوف والمراقب، لم يقم بتعنيف الملك على فعلته، ممّا جعل هذا المعلم عرضة للانتقاد فيما بعد.

أمّا الباقون ممّن كانوا حول المائدة، فقد أجمعوا على ضرورة تلقين الملك درساً لمنع تكرار هذا التصرّف العدائي من جانبه نحو الغير. عبر سترونزي للملك وبحزم، عن ضرورة تقديم الاعتذار وردّ نوع من الاعتبار لبراندت، وقد تعرّض للإهانة علناً.

كل ما فعله الملك هو أن صرّ أسنانه، قرص جسده بأصابعه ورفض الاعتذار.

لاحقاً في ذلك المساء وبعد العشاء، دخل براندت إلى غرفة الملك وأمر مورانتي؛ صبي الملك، وفيبي؛ صبيّ الملكة اللّذين كانا يلعبان مع كريستيان، بالخروج من الغرفة. بعدها أغلق براندت الباب عليه وعلى كريستيان، وسأل الملك عن السّلاح الّذي يختاره للمبارزة الّتي يجب أن تتمّ بينهما في الحال.

هزّ الملك المرتعد من الخوف رأسه، بينما قال براندت أن قبضة كل منهما

ستكون كافية. ظنّ كريستيان، والّذي لطالما استمتع بمبارزات المصارعة على سبيل اللّعب، أنّه قد يتمكن من الإفلات من المواجهة عن طريق المزاح. أمّا براندت، والّذي سيطرت عليه مشاعر غضب عارم غير مبرّر، فقد صبّ جام هذا الغضب على كريستيان وطرحه أرضاً دون شفقة وصار يجأر بصوت أرعبه، بينما الملك يجهش باكياً. انتهى الأمر بهما يتصارعان على الأرض؛ وحين حاول كريستيان أن يدافع عن نفسه بيديه، قام براندت بعضّ سبابة الملك إلى أن سال منها الدّم.

ترك براندت الملك مطروحا على الأرض باكياً، وراح يبحث عن سترونزي كي يخبره بأنه قد استرد الاعتبار للتّو. تم استدعاء الخدم الذين سارعوا بتضميد إصبع الملك.

أصدر سترونزي أمراً للجميع بعدم ذكر الحادثة، وأوصى أن يكون الجواب لو سأل شخص ما عن الأمر، أن حياة الملك لم تكن في خطر، وأن الكونت براندت لم يحاول أن يقتل الملك، وأن الملك كان معتاداً على مبارزات الملاكمة على سبيل اللعب، لما في ذلك من تمرين لأعضاء الجسم. لكن، يجب الحفاظ على التّعتيم الكامل على ما جرى.

أما الملكة، فقد قال لها سترونزي وبقلق:

«الشّائعات حول رغبتنا في قتل الملك تملأ كوبهاغن. إن علم أحد بما جرى لن يحصل خير. لا أفهم براندت هذا أبداً».

في اليوم التّالي حلّ ريفيرديل محلّ براندت كمساعد رئيسي للملك. هكذا صار لدى براندت الوقت الكافي للعزف على النّاي، ذلك النّاي الّذي كان له وقعه على السّياسة، بينما فقد ريفيرديل — صاحب المبادرة للخطّة الشائكة والموضوع المفصلي ألا وهو إلغاء العبوديّة– فقد فرصة العمل على مشروعه ذاك بسبب حادثة الإصبع!

نسي براندت هذه الحادثة بسرعة.

لكن أمراً ما، سرعان ما سيعود ويذكّره بها .

٣

حلّ الخريف متأخّراً تلك السّنة، وكانت الأمسيات هادئة استمتع الجميع خلالها بنزهات المشي وباحتساء الشاي، والانتظار.

في الفترة نفسها من أواخر صيف السّنة السّابقة، كانت الأمور ما زالت في بداياتها ولها سحرها إذ جمعتهما حدائق أشيبيرغ. ها هما يحاولان استعادة تلك الأحاسيس من خلال قضاء الصّيف في عزلة في قصر هيرشهولم، كما لو كانا يعيشان في كرة من الزّجاج منعزلين عن العالم الخارجيّ.

هناك، في الخارج، حيث العتمة على أرض الواقع، كان الأعداء المتربّصون بهما في الدّنمارك آخذين بالازدياد. كانا يدركان ذلك جيّداً. ففي الصّيف الفائت كانت ما زالت مسحة من البراءة تكسو علاقتهما. أمّا الآن فقد شعرا كمن يقف مكشوفاً على خشبة مسرح، وأن دائرة الضّوء تضيق تدريجيّاً لتسلّط عليهما. العائلة الصّغيرة تحت الأضواء، وحولها عتمة لم تشأ العائلة أن تغرق بها.

أهمّ شيء كان الأطفال. كان الصّبي في الثالثة من عمره. حاول سترونزي أن يطبّق عليه كلّ أسس تربية الأطفال الّتي كان قد وضعها في السّابق من حيث الصّحة، الثّياب الطّبيعيّة المريحة، قواعد الاستحمام، قضاء الوقت في الهواء الطّلق واللّعب في الطّبيعة. سيأتي دور البنت الصّغيرة أيضاً، إلاّ أنّها كانت ما تزال صغيرة جدّاً. كانت طفلة قريبة إلى القلب، تأخذ الألباب إذ أحبّها كلّ من رآها. مع ذلك، فقد تحوّلت هذه الطّفلة – كما علم الجميع، دون أن يصرّحوا بذلك – للنّقطة الّتي صبّ الدّنماركيّون عليها جام غضبهم نحو سترونزي. هي ابنة العاهرة. يبدو أنّ الأخبار قد وصلت للنّاس أجمعين فلم يبق أحدٌ إلاّ وعلم بها.

اعتاد سترونزي والملكة أن يجلسا على أحد المقاعد الكثيرة التي وضعت عند الحافّة الضّيّقة الممتدّة على الطّرف الأيسر من الغابة، حيث نصبت المظلاّت فوق قطع أثاث الحديقة. من هناك، استطاع المرء أن يكشف ما يدور في الحديقة المنبسطة أمامه. جلس سترونزي والملكة في إحدى الأمسيات يراقبان المشهد من

بعيد، حيث ظهر الملك كريستيان ومرافقَيْه؛ الصّبيّ مورانتي والكلب، وكان كريستيان يتسكّع عند الطّرف المقابل من البحيرة، مُتشاغلاً بقلب التّماثيل وإسقاطها أرضاً.

كانت التماثيل التي نصبت في ذلك الجزء من الحديقة عُرضة لمزاج كريستيان الهادئ حيناً والثائر أحياناً أخرى. تمّ ربط التّماثيل بالحبال لتثبيتها بقواعدها منعاً من السّقوط، لكن دون جدوى. بعد كلّ نوبة تخريب جنونيّة، كانت التماثيل تُعاد إلى أماكنها دون إصلاحٍ لأيّ عطلٍ أو إعادة ترميمٍ لأيّ كسرٍ تسبّبت به سوداويّة الملك.

جلس سترونزي والملكة لفترة طويلةٍ هناك، يراقبان بصمت معركة الملك مع التّماثيل.

لقد اعتادا رؤية هذا المشهد.

«اعتدنا عليه» قالت كارولين ماتيلدا، «لكننا لا نستطيع أن نسمح لأحد من خارج القصر أن يراه».

«الجميع يعرف على أيّ حال».

«الجميع يعرف نعم، لكن يجب عدم الحديث في الموضوع،» قالت كارولين ماتيلدا. «إنّه مريض. يقولون في كوبنهاغن إنّ الملكة الأرملة وغولدبيرغ يريدان وضعه في مصحّ. لكن ذلك سيعني نهايتنا».

«نهايتنا؟»

«اليوم يقلب تماثيل لملوك وقع اختيار الله عليهم ليحكموا. غداً يقلبنا نحن».

«لا. لن يفعل ذلك» أجاب سترونزي.»لكن دون كريستيان لا قيمة لي. إن علم الدّنماركيّون أنّ الملك الّذي اختاره الله ليحكمهم ليس إلاّ رجلاً مُصاباً بالجنون، فلن يكون بمقدوره أن يمدّ ذراعه نحوي ويشير إليّ بيده قائلا: «أنت! أنت ذراعي ويدي اليمنى، وأنت من سيوقّع بمطلق الحرية ودونما رقيب على كلّ مرسوم وأيّ قانون». إنّه ينقل الصّلاحية الممنوحة له من الله إليّ. إن لم يكن بإمكانه أن يفعل ذلك فلن يبقى إلاّ...

«الموت؟»

«أو الهروب».

«أفضّل الموت على الهروب» قالت الملكة بعد لحظة صمت.

تناهت إلى مسامعها في تلك اللّحظة أصوات ضحكات عالية من الجهة الأخرى للبحيرة. كانت تلك ضحكات مورانتي المشغول بمطاردة الكلب.

«بلد في غاية الجمال، وشعب في غاية القبح» قالت. «هل بقي لنا ولو صديق؟»

«صديق واحد، أو ربما اثنان» أجاب سترونزي.

«أهو فعلاً مجنون؟» سألت كارولين ماتيلدا.

«لا» قال سترونزي. «لكنه لم يُصبَّ في قالب واحد».

«يا له من وصف مرعب» قالت. «صبّ النّاس في قالب واحد كالتماثيل».

لم يجب. ثم سأل:

«وماذا عنك؟»

صارت تجلس بجانب سترونزي بينما كان يزاول عمله.

ظنّ في البداية أنّها كانت ترغب في التواجد بالقرب منه. أدرك فيما بعد أنّ اهتمامها كان مُنصبّاً على العمل الّذي يقوم به.

أرادت أن تعرف ما الّذي كان يكتبه. في البداية أجابها بابتسامة. لكن فيما بعد، وحين أدرك أنّها تأخذ الأمور على محمل الجّد، بذل جهداً أكبر في الشّرح والتوضيح. أتته في أحد الأيام وبيدها لائحة بأسماء الأشخاص الّذين رغبت في الاستغناء عن خدماتهم. ضحك في بداية الأمر، لكنّها شرحت له الأسباب فاقتنع. لم تكن الكراهية هي الدّافع لوضع تلك اللّائحة، لا ولا الحسد. إنما تقديراتها لهيكلية مراكز القوى.

فاجأته تحليلاتُها.

ظنّ أن نظرتها البرّاقة والنّافذة جدّاً، نظرتها القاسية في فهم آليات القوّة، أتت من البلاط الإنجليزي حيث ولدت. لكنّها قالت له أن لا، وأنّها قد عاشت في دير. فمن أين لها الإلمام بكلّ هذا إذن؟ لم تكن واحدة من اللّواتي يمكن وصف تصرفاتهنّ بما كان براندت يصف المرأة وتصرّفاتها عامّةً حين يقول إنه: «كيد نساء». أدرك سترونزي أنّها ترى الأمور بطريقة تختلف عن طريقته. الحلم بمجتمع صالح مبنيّ على أسُسِ العدالة والمنطق كان حلمه هو. أمّا هي فقد شغلها موضوع التّحكّم بأداة الحكم أو ما سمّته بـ«اللّعبة الخطرة». ذلك كان هاجسها. كلما أتت على ذكر «اللّعبة الخطرة» شعر بعدم الارتياح، وكان يعلم السّبب. ذلك أن نبرة الصّوت الّتي ميّزت هكذا نقاشات، هي نبرة عرفها في الماضي، يوم كان يجالس عباقرة رجال الفكر التّنويريّ في ألتونا، ويوم أدرك أنّه مجرّد طبيب، فالتزم الصّمت!

ها هو الآن يصغي إليها، ويصمت.

في إحدى الأمسيات، وبينما كان يقرأ بصوت عالٍ من كتاب هولدبيرغ «مفهوم الأخلاق»، قاطعته قائلة إنّ هذا الكلام ما هو إلاّ كلام مجرّدٌ ومحض نظريّاتٍ وإنّ المبادئ صحيحة كلّها، لكنّ ما يحتاجه المرء هو فهم الآليّة اللّازمة لتحقيق ذلك. قالت إنّ عليه أن يدرك آليّة العمل وإنّه ساذج، قلبه طيّب أكثر من اللازم، وإنّ أصحاب القلوب الطيّبة مصيرهم الدّمار. قالت إنّه لم يعرف كيف يستغلّ النّبلاء ويستفيد منهم. كان عليه أن يفرّق صفوف أعدائه. ما قام به من تجريد كوبنهاغن من حقّها بالاستقلال إداريّاً، هو الجنون بعينه وهو ما خلق له أعداء كان في غنى عنهم. حملق فيها بصمتٍ وذهول. الإصلاح، حسب رأيها، يجب أن يطول بعض الأمور وأن يُبْقي على غيرها. أما هو، فقد تدفّقت من قلمه المراسيم دون أي تخطيط.

عليه أن يعرف كيف يختار أعداءه، قالت له.

كان قد سمع هذا الكلام من قبل. أجفل وسألها إن كانت قد تبادلت الحديث

مع رانتزاو. «سمعتُ هذا الكلام من قبل»، قال لها «لم يأت هذاالكلام من فراغ».

«لا» أجابت. «لم أكلمه، لكنّه قد يكون رأى ما أرى».

شعر سترونزي بالحيرة. كان كيث، السّفير الإنجليزي، قد قال لبراندت إنّه يعرف جيّداً أنّ «جلالة الملكة تحكم الآن بشكل مطلق عن طريق وزير الحكومة المكلّف شخصيّاً من الملك». قام براندت بنقل هذه الملاحظة لسترونزي. أكانت هذه هي الحقيقة التي حاول طمسها؟ كان قد أصدر في أحد الأيام مرسوما يقضي بإخلاء الكنيسة في شارع أماليا وبتحويلها لمستشفى للنّساء، دون أن ينتبه إلى أنّها كانت هي صاحبة ذلك الاقتراح. كان الاقتراح اقتراحها، وقام هو بنصّ المرسوم والتّوقيع عليه، معتقداً أنه هو صاحب الفكرة. الواقع أنّها كانت هي صاحبة الاقتراح.

هل فقد السّيطرة على الأمور؟ ما عاد متأكّداً. كان يطمس الحقائق. وكانت هي تجلس مقابله وعلى مكتبه، تستمع إلى ما يقول وتعلّق.

«يجب أن أعلّمك شيئاً عن هذه اللّعبة الخطرة»، كانت تقول له بين الحين والآخر، وهي تدرك جيّداً كم كان يمقت هذه العبارة.

مرة، وعلى سبيل الهمز، ذكّرها بالشّعار الّذي كانت ترفعه: «آه، دع البراءة لي، والعظمة لغيري».

«كان ذلك في الماضي» قالت. «كان يا ما كان. مضى زمن طويل على ذلك».

«كان يا ما كان» هي العبارة الغريبة التي كثيرا ما ردّدتها. أمور كثيرة حدثت في زمن «كان يا ما كان».

٤

أي صمت مُطبق خيّم على القصر! كأنّ ذلك الصّمت الّذي خيّم على القصر بحدائقه والبحيرة في الخارج، كان يعكس جزءاً من الصّمت الدّاخلي الّذي سيطر على سترونزي.

كان يجلس في أغلب الأحيان على طرف سرير البنت الصّغيرة يتأمل وجهها وهي نائمة. يا للبراءة ويا للجمال! هل ستدوم هذه الحال يا تُرى؟

«ماذا جرى لك؟» سألته كارولين ماتيلدا في إحدى الأمسيات. «إنّك بالكاد تتكلّم».

«لا أدري»، أجابها.

«لا تدري؟!!»

لم يستطع أن يشرح لها. كان حلمه الأكبر يدور حول إمكانيّة التغيير، تغيير كلّ شيء! يدور حول مقدرته في التّحكم بالأمور. ذلك كان حلمه الأكبر. أما الآن فقد بهتت حياته. ربما كان الموت هكذا. ربما كان الرّغبة بالاستسلام، بالإغفاء... تدريجيّاً.

«ماذا جرى لك؟» سألته ثانية.

«لا أدري. أشعر بالتّوق للنّوم أحياناً. فقط أن أنام. أن أموت».

«تحلم بأن تموت؟» قالت بصوت حادّ لم يألفه من قبل. « حسناً. أنا لا أحلم بذلك بتاتاً. أنا ما زلت شابّة».

«صحيح. اعذريني».

«الحقيقة أنّي...» قالت بصوت مشحون بغضب مكتوم»... بدأت أحيا للتّو!!!»

لم يستطع أن يُجيب.

« لا أفهمُك مطلقاً»، قالت له.

كان قد حدث سوء تفاهم بسيط بينهما في ذلك اليوم، سرعان ما تبخّر حين جمعتهما خلوة غرفة نوم الملكة.

جمع الحبّ جسديهما.

خلال تلك الفترة من أيّام نهاية الصّيف، كان يشعر، إثر كلّ جماع بينهما،

بإرهاق لا تفسير له يستحوذ عليه. لم يعرف السّبب. ترك مضجعها وتوجّه نحو النّافذة فأزاح السّتارة إلى الجانب ونظر نحو مياه البحيرة في الخارج. سمع صوت عزف ناي وعرف أنّ العازف ليس إلاّ براندت. لماذا كان يرغب في النظر إلى الخارج، إلى البعيد، إثر كل جماع بينهما؟ لم يعرف السّبب. ضغط بأنفه على زجاج النّافذة. أكان عصفوراً يرغب في الانطلاق؟ مستحيل! عليه أن يتمّم ما قد بدأ.

بقي صديق، وربما اثنان! بقي الموت وربّما الهروب! السّيّد فولتير...هو الآخر ساذج.

«بماذا تفكّر؟» سألته.

لم يُجب.

«أعرف الجواب»، قالت له. «تشعر بالفخر بنفسك. تعرف أنّك عاشق رائع. هذا ما تفكر به».

«بعض الناس يتقنون ذلك»، قال كما لو كان الأمر مفروغاً منه. «كنتُ دائماً واحداً من هؤلاء».

أدرك متأخّراً جدّاً ما قد تفوّه به وندم على ذلك. أمّا هي، فقد سمعت ما قال، فهمت المغزى، ولم تُعلّق في البداية. ثم قالت:

«أمّا بالنّسبة لي، فأنت الرّجل الوحيد الّذي عرفت. لذلك لا مجال لكي أقارن. وهذا هو الفرق».

«أعلم».

«إلى جانب المجنون إيّاه. نسيته صحيح. في الحقيقة أكنّ له نوعاً من الحبّ. هل تعرف ذلك؟»

نظرت إليه وقد أدار لها ظهره، محاولة رصد حركة تعبر عن تأثّره من كلامها هذا، لكنّها لم تلحظ شيئاً. كانت ستشعر بمتعة فائقة لو نجحت في جرح شعوره.

لا تعليق.

«ليس ماهراً مثلكَ. ليس بنفس الرّوعة، لكنّه ليس بالعاشق السّيء كما قد

تظنّ. هل جرحتك بكلامي هذا؟ كان كالطّفل يومها. كان في الأمر... إثارة ما. هل جَرحتُك؟»

«أستطيع أن أغادر إن أحببتِ».

«لا».

«بلى. سأغادر».

«تغادر عندما أريدك أن تغادر»، قالت بنبرة الصّوت الهادئة الودودة نفسها «عندئذٍ يمكنك أن تغادر. ليس قبل ذلك. ولو بمقدار ثانية واحدة من الزمن».

«ماذا تقصدين؟ صوتك يُشعرني بأنّك تُخفين رغبة بأمر تريدينه».

«أريدك أن تأتي إليّ».

وقف في مكانه دون أن يرغب في مغادرته رغم معرفته بأنّه في نهاية الأمر سيمتثل لرغبتها.

«أريد أن أعرف بماذا تفكّر» قالت بعد فترة صمت.

«ما أفكّر به» قال»،هو أنّني كنت أعتقد في السّابق أنّي أسيطر على الأمور. أمّا الآن، فما عدت أعتقد ذلك. أين اختفى كل ما اعتقدت به جازماً إذن؟»

لم تُجب.

«السّيد فولتير، والّذي تراسلت معه أنا أيضاً» قال، «السّيد فولتير ظنّ أنّي قد أكون الشّعلة. الشّعلة التي ستشعل البراري. أين اختفت تلك الشعلة يا تُرى؟»

«لقد أشعلتَها في داخلي». قالت، «في داخلي أنا. و سنشتعل الآن معا. تعال!»

«هل تعلمين» سألها قائلاً: «هل تعلمين بأنك جبّارة؟ أخاف منك أحيانا»

٥.

أُتيحَ لكريستيان أن يلعب بحرية ودون أن يزعجه أحدٌ أحياناً، وكانت تلك أفضل أوقاته.

الّذين أتيح لهم اللعب بحريّة كانوا: كريستيان، صبيّه الزّنجي «مورانتي»، صبيّ

الملكة المدعو «فيبي» والكلب. لعبوا في غرفة نوم الملك. كان السّرير عريضاً جدّاً يتّسع لأربعتهم. في أحد الأيّام، لفّ كريستيان جسم مورانتي بشرشفٍ حتى غطّى الصّبيّ تماماً. كانت التمثيليّة تتناول البلاط. لعب مورانتي دور الملك، وكان عليه أن يجلس عند رأس السّرير وهو مُلتفٌّ من الرّأس حتى القدم بالقماش ووجهه مغطّى كليّاً، إذ كان من المفروض أن يبدو كدودةِ قزٍّ لُفّت بشرنقتها. عند الطّرف الآخر من السّرير جلس كريستيان، فيبي والكلب. لعب هؤلاء دور الحاشية في البلاط، بينما قام الملك بواجبه إذ توجّه إليهم بالحديث وألقى عليهم بالأوامر.

أصدر الملك (مورانتي) الأوامر، وانحنت الحاشية سمعاً وطاعةً له.

كان المشهد مسليّاً جدّاً. ألقَوا بشعورهم المستعارة وبثيابهم جانباً وجلسوا عند طرف السّرير بثيابهم الدّاخلية ذات الحواشي المطرّزة.

صدرت الكلمات المبهمة والأوامر الغامضة من تحت القماش الأبيض الملتفّ. انحنى أفراد الحاشية بطريقةٍ سخيفةٍ. كان المشهد برُمّته مضحكاً.

هكذا كانت الأمور فيما اعتبر ... أفضل الأوقات.

في السّابع عشر من أيلول/سبتمبر، وبينما كان كريستيان ورفاقه يلعبون لعبة الملك والبلاط الهزيل، وصل من كوبنهاغن إلى هيرشهولم رسول وفي جعبته رسالة من باريس.

كانت الرّسالة عبارة عن قصيدة كتبها مسيو فولتير احتفاءً بالملك كريستيان السّابع. سوف تُنشر هذه القصيدة فيما بعد وتحمل رقم «الرسالة ١٠٩»، وستحظى بشهرة واسعة وستُترجم لعدّة لغات. أما في حينه، فقد وصلت الرّسالة الّتي كُتبت بخط اليد واحتوت على ١٣٧ بيتاً من الشّعر كقصيدة مديحٍ بعنوان: «حول حريّة الصّحافة».

كانت القصيدة موجّهة إلى كريستيان وقد أُلفت تكريماً له. أما المناسبة، فهي ما حملته الأخبار إلى فولتير حول تشريع ملك الدّنمارك لقانون حرّية الصّحافة في بلاده.

ما كان بإمكان فولتير أن يعرف أنّ كريستيان قد انزلق إلى حرّيّة من نوع آخر كليّاً، وأنّه قد غرق في حلم كبير لا علاقة له بالصّحافة أو بحرّيتها، بل بالهروب من الواقع، وأنّ الصّبيّ الّذي كان يلعب مع دمىً من لحم ودمّ، بالكاد أدرك أن سترونزي قد أنجز إصلاحاً كهذا. كما لم يدرك الصبيّ أنّ هذه الحرّيّة الّتي نالتها الصّحافة مؤخّراً، ارتدّت على صاحبها إذ انهالت كميّة هائلة من المناشير بمبادرة وتوجيه مجموعةٍ من الرّجعيّين الّذين عملوا بشكلٍ منهجيّ على تلطيخ سمعة سترونزي والقضاء عليه. في خضمّ هذا الجوّ الجديد من الحرّيّة، هاجمت المناشير عُهر سترونزي وصبّت الزّيت على نار الشّائعات حول لياليه المشينة مع الملكة.

لم يكن هذا هو الهدف من حرّيّة الصّحافة. لكنّ سترونزي رفض أن يسحب القرار الصادر بهذا القانون. وهكذا كان فيضان القذارة الّذي اجتاح الصّحافة من نصيبه هو شخصيّاً. لكن بما أن المسيو فولتير أيضاً لم يكن يعرف ذلك كلّه، فقد كتب قصيدته في مدح كريستيان. تناولت القصيدة ما أشاد به فولتير من قيم تتعلّق بالحقّ الّذي لا يصحّ دونه أمرٌ، والذي لأجله يستحق ملك الدّنمارك كلّ تكريم.

يا لها من أمسية رائعة في هيرشهولم.

انصبّ الاهتمام على كريستيان الذي أوقِفَ عن اللّعب وسُحِبَ من بين رفاقه وأُلبسَ الثّياب. التأم الجمع بعدها في أمسية تُتلى بها القراءات والقصائد. باشر سترونزي بالقراءة فتلا القصيدة بصوتٍ عالٍ، وعلى مسمع الجميع. بعدها صفّق الحضور وصوّبوا بظراتهم المفعمة بالمحبّة نحو كريستيان الّذي بدا مُحرجاً إنّما سعيد. أُوْعِزَ لكريستيان بعدئذ أن يقرأ القصيدة بنفسه. رفض في البداية، لكنّه ما لبث أن استجاب للطّلب وقرأ قصيدة فولتير بلغةٍ فرنسيّةٍ في غاية الأناقة، وبتأنٍّ ونبرة بها تشديد على الكلمات وفق طريقته الخاصة:

Monarque vertueux, quoique né despotique,
Crois-tu régner sur moi de ton golfe Baltique?
Suis-je un de tes sujets pour me traiter comme eux,
?Pour consoler ma vie, et me rendre heureux

أميرٌ عظيمٌ أنت، ولو ولدت في الأصل جبّار
أتقبلني ضمن رعاياكِ، يا ملك البلطيق من بين البحار؟
فأصير تحت إمرتك وأعامل كما يُعامل رعاياك
فتمسي همومي بعيدة، وتصبح أيامي سعيدة ؟

كان فولتير قد كتب قصيدته بأسلوب رائع جدّاً، معبّراً من خلالها عن فرحته بفرص حرّيّة الكتابة في الشّمال، وعن امتنان البشريّة أجمع لهذا الإنجاز العظيم.

Des déserts du Jura ma tranquille vieillesse
Ose se faire entendre de ta sage jeunesse;
Et libre avec respects, hardi sans être vain,
Je me jette à tes pieds, au nom du genre humain.
Il parle par ma voix.

إلى هنا، إلى الـ «جورا» الوعرة حيث أمضي شيخوختي
تناهت إلى مسامعي ويا لسعادتي
أخبارٌ عن شابّ تلوح حكمته هناك في البلد البعيد
شابّ محترم مقدام ومنزّه عن كلّ غرور
ومن هنا، من وعورة الـ»جورا» أنحني إجلالاً
عند قدمي مليكي، باسم النّاس كلّهُمْ وبكلّ سرور
فصوتي هو صوتهم، هو صوتنا أجمعين

وهكذا استمرّت القصيدة الرّائعة فتناولت عبثيّة الرّقابة على الصّحافة وعلى أهميّة الأدب والدّور الّذي يلعبه في تهديد من هم في السّلطة، مقابل عجز الرّقابة وافتقارها بطبيعة الحال لأيّ أفكار حقيقيّة وأصيلة. تطرّقت القصيدة أيضاً لاستحالة قتل الأفكار الرّائدة البرّاقة. (« أعظم الملوك أعجزُ من أن يسحق كتابا جيدا») وإن تمّ سحق فكرة ما في مكانٍ ما، فإنّما ستزدهر في مكان آخر. إن احتُقرت فكرةٌ في

بلد ما، فإنّها ستلقى التّقدير في بلد آخر.

Qui, du fond de son puits tirant la Vérité,
A su donner une âme au public hébété?
Les livres ont tout fait.

مَن مِن أعماق الآبار أخرج الحقيقة
وجعل الجماهير الهائجة تتحلى بروح رقيقة؟
لا مفر من أن تقول كلماتها الكتب!

ارتجف صوت كريستيان حين بلغ النّهاية. صفّق الحضور ثانيةً ولفترة طويلة.

جلس كريستيان بين الحضور مغتبطاً، بينما رماه الجميع بنظرات كلّها دفءٌ بل كادت تكون مفعمة بالمحبّة، ويا لسعادته!

كان صوت النّاي يصدح من على شرفة القصر في كلّ أمسيةٍ من أمسيات ذلك الصّيف تقريباً.

وكانت أنامل براندت هي التّي تداعب الناي.

صدحت ألحان السّعادة والحريّة في ذلك الصيف. وكان مصدرها آلة ناي تبعث الألحان من قصر هيرشهولم، ذلك القصر الصّيفيّ الرّائع والذي عاش لصيف، لصيفٍ واحدٍ فقط. ربما كان القدر على وشك أن يأتي بحدث ما، لكن ليس بعد. كان الكلّ في حالة انتظار. لاعب النّاي كان آخر الأصدقاء. عَزَفَ الألحان على النّاي لهم جميعا، لكن دون أن يراهم.

لعب الملك ولعب. مالت الملكة فحنت على طفلتها بمحبة. أما سترونزي، الصّموت والبعيد، فكان كالطّير، يضغط بجناحيه على زجاج النّافذة، كمن أوشك على أن يستسلم.

الفصل الثالث عشر

ثورة البحّارة

١

لا، لم يكن في قصيدة التّكريم تلك، والّتي نظمها فولتير احتفاءً بالملك ما يثير السّخرية. بل اعتُبرت القصيدةُ من أجمل ما نُظِمَ في مدح حريّة التّعبير على الإطلاق.

لكن، أن تُنْظَم القصيدةُ في مديح كريستيان؟! بحث النّاس في كلّ مكان عن «الشّعلة» الّتي ستوقد سراج الحرّيّة. كتب فولتير سنة ١٧٦٧ قائلاً: «سيضطّر النّاس من الآن فصاعداً للسّفر شمالاً بحثاً عن الأفكار النّموذجيّة، ولو لَم يخنّي الجسد لِما اعتراهُ من ضعفٍ أو يعيقني وهنٌ ألمّ بي، لكنت تبعت هواي حيث يقودني القلب وأتيتك لأرمي بنفسي عند قدميّ مليكي».

فولتير عند قدمي كريستيان؟! لكن هكذا كان الوضع وتلك كانت الظروف؛ ذلك أنّ ملوك شمال أوروبا كانوا يومها من الشّباب الّذين فتحوا المجال لرجال الفكر وقدّموا لهم العروض المغرية، والمربكة في الوقت نفسه. حافظ الموسوعيون على اتصالات جيّدة مع وليّ عهد السّويد أيضاً، والّذي سيصبح فيما بعد؛ الملك غوستاف الثّالث، ملك السّويد. كان ديديرو أحد المعجبين بغوستاف، وقد قرأ الأخير كلّ أعمال فولتير. شكّلت الممالك الصّغيرة في الشّمال مرتعاً لحركة التّنوير، أو بالأحرى كانت مرجّحة لأن تصير كذلك.

كم كان أمل أصحاب عقيدة التّنوير في ملوك الشمال كبيراً، بينما توزّعوا هم في المنافي المختلفة، إن في سويسرا أو في سانت بيترسبورغ. كانت كتبهم تُحرق في أوطانهم، وعين الرّقابة ترصد كلّ ما ينشرون! وكانت حريّة التّعبير بالنسبة لهم

هي المفتاح، ومثلها حرّيّة الصحافة. ها هم ملوك الشّمال من الشّباب الغربي الأطوار، من الفضوليّين القادمين من مجتمعات صغيرة متخلّفة، قابعة هناك في أقصى الشّمال، يستجيبون للفكر التّنويريّ. فجأة طُبّقت حرّيّة التّعبير في الدّنمارك. لم لا يكتب السيد فولتير، المضّطهد والملاحق باستمرار قصيدةً يائسة في مديح الملك أملاً بالتغيير إذن؟

من أين له أن يعرف الوضع على حقيقته؟

٢

أتى ردّ الفعل على مراحل، وباتّجاه معاكس في شتاء سنة ١٧٧١.

شهدت المرحلة الأولى من الأحداث ثورة البحارة النّرويجيّين، وكانت البداية حين قام ريفيرديل – المعلّم السّويسريّ الهزيل والمحنيّ الظّهر – بإسداء بعض النّصائح لسترونزي حول قرار يجب أن يُتّخذ بشأن المسألة الجزائرية. كان ريفيرديل في نظر سترونزي رجلاً عاقلاً. لكن كيف يمكن الاستفادة من العقلاء في مصحّ للمجانين؟ هل بتعيينهم حرّاساً على هؤلاء المجانين؟

تعيين ريفيرديل كحارس أوّل لكريستيان كان خطأ. لكنّ الملك بات يكره براندت، وكان لا بدّ من تعيين شخص يقوم بتلك المهمّة، فما العمل؟

وقع الاختيار على ريفيرديل إذن، إلاّ أن الاستفادة من معلوماته الدّقيقة عن حالة المصحّ العقلي هذا، خاصّة في أواخر صيف سنة ١٧٧١ في هيرشهولم، كانت متاحة. أُسندت إليه بالتّالي مهمّة تقديم تقارير «واضحة ومفصّلة» حول المسألة الجزائرية والتّقدم بالحلول التي يراها ممكنة. لكنّ المشاكل المتعلّقة بالمسألة الجزائرية تفاقمت خلال الشهور الأخيرة ككرة الثّلج وبات الـ «وضوح» الوحيد في الوضع برمّته هو حقيقة كون البلاط مأوىً لزمرة مجانين.

كان سترونزي قد ورث مصيبة اسمها المسألة الجزائريّة، ذلك أن أسطولاً من

البوارج الحربيّة المسلّحة بالعتاد الثّقيل، كان قد أُرسل إلى الجزائر قبل مجيء سترونزي بوقتٍ طويل. أُعلنت الحرب... مرّت السّنين... وفي نهاية المطاف صارت المصيبة واضحة للجميع. حين أتى الطّبيب إلى الدّنمارك كمرافق مؤقّت للملك، أو ك«طبيب زائر» كما قيل عندها، كانت المصيبة قائمة وبالتّالي، فقد ورثها. تغلّب الجنون على نور المنطق وأطفأ شعلة العقل، فشعر سترونزي بقلّة الحيلة وبالعجز أمام هذه التّركة.

منطقيّاً، وحسب ما فُهم ممّن هم في مستشفى المجانين هذا، فإنّ الدّنمارك كانت قد أعلنت الحرب على الجزائر وبعثت بأسطولها إلى المتوسّط لهذا الغرض. غاب هذا المنطق في طيّ النّسيان منذ زمن، وبقيت حقيقة أخرى مفادها أنّ للموضوع علاقة بصراع القوى، إذ حدثت في حينه مواجهة بين كلّ من روسيا وتركيا. ومن المنطق أن باءت هذه المحاولة الخالية من كلّ منطق بالفشل!

كانت التّقارير الّتي قدّمها ريفيردين، كما تطلّبت المهمّة الملقاة على عاتقه، مُحبِطة. ما كان الأمر بجديد عليه إذ اعتاد هذا النّوع من المواقف خلال تجاربه السّابقة في خدمة البلاط، واعتبر نفسه محظوظاً إذ تحرّر مَن مرافقة كريستيان ولو لأيّام. لكن ما العمل؟!! فبالإضافة للسّفن الّتي غرقت وللخسائر في الأرواح، إلى جانب الخسائر المادّيّة الهائلة التي هدّدت بتفاقم الدّين القومي وبالقضاء على كلّ الإصلاحات، كان هناك قلق آخر، قلقٌ من أن يقضي الجنون المتوارث في البلاط على كلّ شيء.

التّحليلات الواضحة جدّاً للوضع كما وصفه ريفيردين صعُبَ تصديقها، ذلك أنّ كلّ ما بقي من الأسطول الذي بدأ في مياه المتوسط كمفخرة للدّنمارك عند انطلاقه، انتهى كفرقة صغيرة من البحريّة الدّنماركيّة تحت إمرة الأدميرال هوغلانت ، تتلقّى الأوامر بملاحقة القراصنة الجزائريّين وتنتظر وصول الإمدادات. هذه الإمدادات، والّتي ستنقذ ماء وجه الأسطول الدنماركيّ، كان من المفروض أن تنطلق من كوبنهاغن. لكن قبل أن يتمّ ذلك، يجب أن تصنع السّفن. كانت صناعة السّفن تتمّ في حوض بناء السّفن المدعو «هولمِن». السّفن المزمع بناؤها كانت ستَضُمّ سفن

نقلٍ ضخمة كما سفناً حربيّةً تحمل المدفعيّة الثّقيلة والأسلحة الّتي يمكن استعمالها في ضرب الجزائر. سيشمل الأسطول؛ حسب تقدير قادة سلاح البحريّة، تسع سفن نقلٍ على الأقلّ، بالإضافة إلى سفنٍ بأحجامٍ مختلفة، منها الفراطق البحريّة الصّغيرة ومنها السّفن الأكبر حجماً والّتي قد تصلُ حمولتها إلى عشرة مدافع وما يزيد على المئة رجل.

تم استدعاء ستّمئة بحّار من النّرويج لغرض بناء هذه السّفن. مضى الوقت وهؤلاء الرجال يتسكّعون في شوارع كوبنهاغن بانتظار بدء العمل. بدت عليهم تدريجيّاً علامات عدم الرّضا، إذ إن أجورهم لم تدفع لهم. بالمقابل فإنّ العاهرات كنّ يطالبنهم بمقابلٍ جيّدٍ لقاء خدماتهن، وحيث لا نقود، لا عاهرات. لم تساعد الخمور المجّانيّة الّتي قُدّمت لهؤلاء البحّارة على تهدئتهم، بل تسبّبت بإتلاف عدد كبيرٍ من حانات المدينة.

كان البحّارة النرويجيّون مخلصين جدّاً للعرش، وقد أطلقوا على الملك الدّنماركي لقب «الأب الصّغير» كما جرت العادة عندهم. عبّر المصطلح عن صورة الملك التي كادت تكون أسطوريّة في النّرويج، كما استُخدم على سبيل التّلويح للسّلطة النّرويجيّة المحليّة بإمكانيّة طلب تدخّل السّلطة المركزيّة في كوبنهاغن، إن استدعى الأمر.

حين سمع هؤلاء البحّارة النرويجيّون ما تناقلته التّقارير عن «الألمانيّ» سترونزي وأنه قد وضع مليكهم «الأب الصّغير» قيد الأسر، ثارت ثورتهم. فعلت المناشير الّتي نُسخت ووزّعت بحرّيّة -بعد القرار حول حرّيّة التّعبير الأخير- فعلها. لقد انتُهكت حرمة سرير «الأب الصغير» المقدّسة، ويا للهول. صارت المصيبة على كل صعيد. بطالةٌ، عاهراتٌ متذمّرات، ومظاهر تشير إلى بداية انتشار الجوع. لا عاهرات إذن، لا عمل، لا نقود، والأب الصّغير تحت التّهديد. فجأة انفجر الغضب!

كان تقرير ريفيرديل واضحا بما لا يقبل الشّك، إذ أوصى بوقف الحملة على الجزائر نهائيّاً. أنصت سترونزي إليه. الخلاصة هي أن لا داعي لبناء أسطول من

السّفن. لكنّ البحّارة بقوا في كوبنهاغن، رافضين أن يتمّ ترحيلهم إلى بلدهم، النّرويج.

الرّجل الذي كان على اتصال بهؤلاء هو غولدبيرغ. في شهر تشرين الأول/ أكتوبر، قرّر البحّارة الانطلاق سيراً نحو هيرشهولم.

التّقارير التي صدرت حول الموضوع لم تكن مطمئنة بتاتاً. من الواضح أن ما آلت إليه الأحوال من سوء، كان ينذر بقرب النّهاية.

أحدها، كان التّقرير عن البّحارة الثائرين ومسيرتهم باتّجاه قصر هيرشهولم. استمع سترونزي لتلك التّقارير بصمت، ثم قصد الملكة وقال:

«سيصلون خلال أربع ساعات. إنّهم قادمون لقتلنا ولا نملك في مواجهتهم إلاّ خمسة عشر جندياً لا يتسلّحون إلاّ بزيّ عسكريّ أنيق. لن أستغرب إن فرّوا وقت الحاجة وتركونا وحدنا. لن يجد البّحارة من يقف في وجههم ويمنعهم من قتلنا».

«ماذا العمل إذن؟» سألته.

«نستطيع أن نهرب إلى السّويد».

«هذا جُبن». قالت «لَسْتُ بخائفة من الموت، لكنّي لن أجلس بانتظاره».

نظرت إليه نظرة زادت من التّوتر القائم بينهما.

«ولا أنا بخائفٍ من الموت» قال.

«مِمّ تخاف إذن؟ سألته.

كان يعرف الجواب، لكنّه بقي صامتاً.

لاحَظَ أن كلمة «خوف» أو «رعب» تردّدت كثيراً في محادثاتهما. ارتبط «الخوف» بشيء يعود إلى طفولته، إلى ذلك الزّمن البعيد، زمن الـ«كان يا ما كان»، كما كانت تقول بتعابيرها الدّنماركيّة الغريبة في وصف الماضي.

لماذا صارت كلمة الـ«الخوف» تتردّد الآن وعلى هذه الوتيرة؟ هل لذلك علاقة

بذكريات الطّفولة، وقد علقت في ذهنه صورة ذلك الصّبيّ الّذي خرج إلى العالم كي يتعّلم معنى الخوف كما تقول قصّة قرأها في حينه؟

كانت القصّة خياليّة على ما يذكر، ودارت حول صبيّ ذكيّ، سريع البديهة، مفعم بالقِيَم الإنسانيّة إلا أنّه شخص شَلَّهُ الخوف. وكان لهذا الصّبيّ الذّكيّ أخٌ. لكن؛ ما قِصَّةُ هذا الأخ يا ترى؟ القصّةُ أنَّ الأخ كان أحمق، إنّما كثير الحركة مُفْعَما بالطّاقة وبالحيويّة. بالمقارنة مع الصّبي، فإنّ هذا الأخ لم يكن يعرف للخوف معنى. افتقر الأخ إلى القدرة على فهم معنى الخوف أو الشّعور به، وكان بالتّالي هو بطل القّصة. انطلق الصّبيّ الأحمق إلى العالم كي يتعلّم معنى الخوف، لكنّ شيئاً من الرّعب أو الخوف، مهما بلغ مقداره لم يعرف طريقه إلى قلبه.

كان صبيّا لا يُقْهَر.

ما هو «الخوف» يا ترى؟ أهو القدرة على تخمين ما هو محتمل وما هو مستحيل؟ أهو مجسّ ينذر بما سيحدث أو إشارة تحذير داخل الفرد منّا، أم هو الرّعب الّذي يهدّد ويضعف ويمكنه بالتّالي القضاء على كلّ شيءٍ، كما كان سترونزي يدرك جيّداً؟

قال إنّه لم يكن يخاف الموت. ورأى حالاً أنّ ذلك أغاظها. لم تكن تصدّقه، وعدم ثقتها به انطوت على قدرٍ من الاحتقار.

«في الواقع، أنت تتمنّاه» قالت لسترونزي وبشكل مفاجئ. «أمّا أنا فلا أريد أن أموت. ما زلت صغيرة جدّاً كي أموت. لا أتمنّى الموت ولم تحن لحظة استسلامي بعد».

رأى أن في كلامها الكثير من الإجحاف، وعلم أنّها تضع إصبعها على الجرح.

«علينا أن نقرّر بسرعة»، قال، نائياً بنفسه عن الجواب.

فقط أولئك الأشخاص الّذين سُكبوا من قالبٍ واحدٍ منّا نحن معشر البشرِ، هم الّذين لا يعرفون للخوف معنى. لقد احتلّ الأخ الأحمق الّذي لم يعرف معنى الخوف العالم.

أمّا أنقياء القلب، فكان مصيرهم الهلاك.

اتّخذت القرار من كليهما بسرعة.

«سنبقى هنا» قالت باقتضاب. «أنا سأبقى هنا. الأولاد أيضاً سيبقون هنا. افعل ما تشاء. اهْرب إلى السّويد إن شئت. إنّك في الواقع ترغب منذ فترة في الهروب».

«هذا ليس صحيحا».

«ابقَ إذن!»

«سيقتلوننا».

«لا. لن يفعلوا».

خرجت بعدها من الغرفة كي تخطّط لاستقبال البحّارة الثّائرين.

٣

شعر سترونزي بعد ذلك أنّ تلك اللّحظة كانت أكثر اللّحظات إهانة له في حياته. كلّ ما حدث بعد ذلك مهما بلغت فظاعته، كان أسهل عليه من تلك اللّحظات.

مع ذلك فقد سارت الأمور على أفضل ما يرام.

سارت الملكة كارولين ماتيلدا على الجسر وبرفقتها بعض حاشيتها. وقفت عند طرف الجسر وحيّت البحّارة الثّائرين. كلّمتهم. كان الانطباع الذي تركته عليهم ساحراً، استحوذت على عقولهم. شكرتهم وبحرارة إذ أتوا للزّيارة، مشيرة إلى الملك كريستيان — الّذي وقف على بعد ثلاث خطوات خلفها يرتعد خوفاً لكن بصمتٍ مطبق ودون أن يأتي بأيّ حركة تشنّج أو أي تصرّف غريب. طلبت المعذرة بالنّيابة عنه إذ منعه التهاب الحنجرة والحمّى من التّحدّث إليهم.

لم تأت على ذكر سترونزي ولو بكلمة. كانت حقّاً في كامل الرّوعة.

أكّدت لهم مساندة الملك لهم وتقديره عالياً حسن نواياهم، داحضةً بقوّة الشائعات المغرضة حول عدم بناء السّفن. قبل يومين فقط قرّر الملك بناء سفينتين ستضافان للأسطول وستتمّ عمليّة البناء في حوض هولمن، وذلك في خطوة قصد منها جلالته تعزيز الأسطول في مواجهة العدوّ، أمّا ما عدا ذلك فكذب وافتراء. اعتذرت عن التّأخير في دفع أجورهم، وتعاطفت معهم إذ أصابهم الجوع والعطش بسبب مشقّة الرّحلة الطّويلة التي تكبّدوها للوصول إلى هذا المكان، مشيرة إلى أنّ المشروبات والأطعمة قد أعدتّ خصّيصاً لهم في المخازن، حيث البيرة واللّحوم المشويّة وقد شُكّت الخنازير كاملةً على الأسياخ بانتظارهم ضيوفاً أعزّاء. أملت أن يستمتعوا بوجبتهم وأكّدت لهم على أنّ زيارة النّرويج، بلدهم الجميل بجباله ووديانه والّذي لا تنفكّ الألسن تتحدّث عن «سِحْرِهِ»، هي أقصى ما تتمنّاه، فلطالما سمعت عن بلدهم في الماضي أو ربّما في زمن الـ «كان يا ما كان» كما كانت تقول عند الحديث عن الماضي!

انطلقت صيحات البحّارة تحيّة للملك وللملكة، توجّهوا بعدها قاصدين كلّ ما لذّ وطاب!

« هل أنت مجنونة؟» سألها. «سفينتان بحريّتان؟ من أين نأتي بالنّقود؟ هناك بالكاد ما يكفي لدفع أجور هؤلاء الرّجال. هذه وعود جوفاء. مستحيل. أنت مجنونة».

«لا، بل ذكيّة» أجابت. «وسأصبح أكثر ذكاءً».

جلس سترونزي مغطّياً وجهه براحتيّ يديه.

«ما شعرتُ يوماً بالإهانة كما الآن» قال سترونزي. «هل من الضّروريّ أن تهينيني؟»

«لا أهينك»، قالت له.

«بلى» أجاب.

تناهت إلى مسامعهما أصوات جلبة عالية من الجهة الأخرى من البحيرة، حيث البحّارة النّرويجيّون يزدادون سُكراً، وقد أتوا المكان ثائرين وباتوا فيه موالين. لم يلمحوا سترونزي. ربما حسبوه غير موجود. ستكون تلك ليلة طويلة، فالجعةُ متوفّرة بكمّيّات هائلة. غداً سيغادرون. لقد أجهضت ثورتهم.

جلست بالقرب منه، وداعبت بلطف شعره.

«أحبُّكَ» همست قائلة. «أحبُّك حبّاً جمّاً. لكنّني لا أنوي الاستسلام، ولا الموت، ولا قبول الهزيمة. هذا هو لبّ الموضوع. بل إنه هو الموضوع. لا شيء سواه. أنا لا أنوي الاستسلام».

٤

نقل غولدبيرغ المعلومات حول ما أفضت إليه ثورة البحّارة إلى الملكة الأرملة وابنها الّذي سال اللّعاب من فمه كالعادة، وقد أصغت الملكة باهتمامٍ وبوجه جامدٍ كأنّه قد نُحت من الصّخر.

«لقد فشلتَ» قالت الملكة الأرملة لغولدبيرغ». يبدو أنّنا أخطأنا التّقدير، فالعاهرة الإنجليزيّة أصلب مما ظننا».

لم يجد غولدبيرغ ما يقول، وأجاب على سبيل التملُّص بأن الله يقف إلى جانبهم وبأنّه سيعينهم بكلّ تأكيد.

جلس الثّلاثة بصمتٍ لوقتٍ طويل. نظر غولدبيرغ إلى الملكة الأرملة، ومرّة أخرى شعر بالصّدمة لهذا الحبّ الذي طالما حيّره والّذي كانت تكنّه لابنها المعتوه، وقد أمسكت بيد الصّبيّ كأنّما لم تشأ أن تدعه يبتعد عنها. لم يستطع أن يفهم السّر، لكنّها أحبّت الصبيّ، بل آمنت بالفعل وببرودٍ أثار قلق غولدبيرغ، بأنّ هذا الصّبيّ المتخلّف، سيكون هو من سيختاره الله ملكاً له نفوذ كليّ وسلطة مطلقة، وبأنّه سيكون من الممكن التغاضي عن منظره الفظيع ورأسه المشوه، عن رجفاته، والأغاني

السَّخيفة التي حفظها وردّدها باستمرار، كما عن حركاته البلهاء مثل دورانه على قدمٍ واحدةٍ حول نفسه؛ بل أنّها بدت كما لو كانت تتجاهل منظره كليّاً وترى أن في داخله شعاعاً من الضوء لم يتسنَّ له أن ينبثق حتّى تلك اللّحظة.

رأت هذه الأمّ أنّ نور الله يشعّ على هذا الجسد الحقير، وأنّ اختيار الله قد وقع على هذا الصّبيّ، وأنّ مهمتها الوحيدة، هي ومن معها، تتلخّص في تمهيد الطريق. وعندها سينبثق النّور. كأنّما سمعت وأدركت ما يدور في خاطر غولدبيرغ، إذ مسّدت على صفحة وجه الصّبيّ، وليّ العهد، فوجدتها لزجة دبقة. تناولت عندئذٍ منديلاً مزيّناً بالحياكة على أطرافه، ومسحت به اللّعاب الذي سال وغطّى ذقنه قائلة:

«نعم. سيعيننا الله. وإنّي لأرى نور الله جلّ جلاله في هذا الصّبيّ الوضيع».

تنفّس غولدبيرغ، تنفّس بعمق. نور الله في هذا المخلوق البائس! لكنّها أمٌّ تتحدّث عن ابنها. وكان يدرك أنّ الأمر ينطبق عليه هو أيضاً. هو أيضاً من أكثر النّاس بؤساً، وأقلّهم شأناً، وقد حمل هو أيضاً نور الله في داخله. أخذ نفساً عميقاً، بدا كما لو كان بكاءً مكبوتاً، لكن لا، لم يبكِ.

حاول أن يتماسك، ثم أخذ يَشْرَح الخطّتين اللّتين كان قد وضعهما لمواجهة الخصم، فإن فشلت الأولى وهي ثورة البحّارة، استعملا الثّانية. لسوء الحظ فقد حدث وفشلت ثورة البحّارة بالفعل. لكنّ هذا الرّجل الحقير، قليل الشّأن، والذّي به نور من الله رغم كل صفاته الوضيعة، لن يتوقّف عن مواجهة الأعداء وذلك دفاعاً عن الطّهارة.

٥

تمّ إرسال رانتزاو دون تأخير في مساء ذلك اليوم إلى هيرشهولم، بغرض تنفيذ الخطّة البسيطة الثّانية بعد فشل خطّة ثورة البحّارة النّرويجيّين.

كانت الخطّة بسيطة جدّاً، فقد اعتقد غولدبيرغ أن الخطّة البسيطة الّتي تتطلّب

عدداً صغيراً من النّاس، ولا تحتاج لجيوشٍ جرّارةٍ ولا لجماهير غفيرةٍ بل لبضعة رجالٍ من النّخبة ليس إلاّ، هي الخطّة الّتي تنجح إن حالفها الحظّ.

اشتملت هذه الخطّة البسيطة على صديقيّ سترونزي ؛ رانتزاو وبراندت.

التقى الرّجلان في خان على بعد كيلومترين من هيرشهولم.

شرح رانتزاو لبراندت أنّ الوضع بات حرجاً ولا بدّ من القيام بعملٍ ما. ربّما كان قانون سترونزي حول منع تصنيع الخمور في المنازل قراراً حكيماً، إلاّ أنّه كان قراراً غبيّاً في الوقت نفسه، وقد تسبّب في خروج النّاس في مظاهرات ملأت الشّوارع. لن يمرّ وقتٌ طويل حتى يُعْزل سترونزي. لقد عمّت الفوضى، وأُلصقت المناشير المتهكّمة الّتي تتعرّض لسترونزي وللملكة بالإهانة في كل مكان. إنَّ البلد يعيش حالة غليان.

«يظنّ نفسَه رجلَ الشّعب» قال براندت بمرارة، «والشّعب يكرهه. لقد فعل كلّ شيءٍ لأجل عامّة النّاس، والنّاس تمقته. ستلتهم الجماهير الرّجل الذي أحسن إليها. ورغم كل شيءٍ، فإنّه يستحق ذلك. لقد أراد أن يحقّق كلّ شيءٍ في وقت واحد».

«إنّ فراغ صبر النّاس الطّيبين» أجاب رانتزاو «أسوأ من صبر النّاس السّيئين. اتّقِ شرّ الحليم إن غضب! لقد علّمته كلّ شيء، كلّ شيء! إلاّ هذا!».

بعد هذه المقدّمة، شرح رانتزاو لبراندت الخطّة، والتي سيقوم براندت بموجبها بإخبار الملك أنّ كلّا من سترونزي والملكة يخطّطان لقتله، ولذلك يجب إنقاذه منهما. الملك هو المفتاح. ما أن يصل الملك إلى كوبنهاغن سالماً ويصبح بعيداً عن سيطرة سترونزي، حتّى تصير البقيّة سهلة.

«وبعدها؟»

«بعدها يجب أن يلاقي سترونزي حتفه».

في اليوم التّالي فشلت الخطّة، وما حدث كان من العبث بمكان، لدرجةٍ تثير

الضّحك، فما كان لأحدٍ أن يتخيّل أن تتطوّر الأحداث على هذه الشّاكلة.

ما حدث هو التّالي:

في السّاعة الخامسة مساءً، أصيب الملك فجأة بنوبة غضب لم يفهم لها أحدٌ سبباً، وراح يركض على الجسر المؤدي إلى خارج الجزيرة المحيطة بالقصر وهو يصرخ قائلاً إنّه سوف يُغرِق نفسه. تبعه سترونزي راكضاً، وما إن وصل إليه حتّى جثا كريستيان على ركبتيه فجأةً، وتمسّك برجلي سترونزي وأخذ يجهش بالبكاء، سائلاً إيّاه إن كان يريد قتله بالفعل. حاول سترونزي أن يهدّئ من روع كريستيان فأخذ يمسّد على شعره وعلى جبينه، لكنّ الأخير صار أكثر انفعالاً وكرّر السّؤال مستفسراً عن صحّة الأمر.

«ماذا تقصد جلالتك؟» سأله سترونزي.

«هل صحيح أنّك تنوي قتلي؟» سأل الملك بصوتٍ مرتجفٍ. «ألستَ أحد السّبعة؟ أريد أن أعرف. ألست أحد السّبعة؟»

هكذا بدأ المشهد: وقف الرّجلان على الجسر، والملك ينادي سترونزي بالاسم المرّة تلو الأخرى.

«سترونزي؟» قال الملك هامساً، ثم «سترونزي، سترونزي، سترونزي؟».

«ما بك يا صديقي؟» سأل سترونزي.

«أصحيح ما أسَرَّ لي به براندت؟»

«وما الّذي أسرّ لك به؟»

«أراد أن يأخذني سرّاً إلى كوبنهاغن بعد أن يهبط الليل. واللّيلة!!! أصحيح أنّك تريد قتلي؟»

وهكذا فشلت الخطّة الصّغيرة، والبسيطة جدّاً. لم يدرك واضعو الخطّة أن سترونزي كان بالنّسبة للملك واحداً من «السّبعة». كانت هذه نقطة أخرى غابت عنهم، وسبباً إضافيّاً لفشلهم ولكشف غبائهم، وجعلت الملك يقف حاجزاً بينهم وبين تنفيذ مكائدهم.

ستروِنزي وحده كان يفهم الملك. مع ذلك لم تتّضح له الصّورة إلاّ بعد أن سأل كريستيان السّؤال التّالي:

«إن كنت تعتقد أنّي أنوي قتلك فعلاً، فلماذا تخبرني؟»

أجاب كريستيان بكلّ بساطة:

«براندت هو العدوّ اللّدود لكاترين أمّ البوط. لقد افترى عليها. وهي سيّدة الكون. لذلك أكرهه».

وهكذا فشلت ثانية الخطّتين!

استُدعِيَ براندت للتّحقيق، فاعترف في الحال!

جثا على ركبتيه رغم أنّه لم يُؤمَر بذلك. تمّ هذا كلّه في الصّالة الكبرى إلى اليسار من مكتب ستروِنزي في قصر هيرشهولم، في الأيام الأخيرة من شهر تشرين الثاني/نوفمبر. وبينما كان براندت جاثياً على ركبتيه منكّساً رأسه، وقف ستروِنزي وقد أدار له ظهره كما لو أنه لم يطق أن يرى صديقه وقد وقع في هذا المأزق.

«عليّ أن أقتلك» قال ستروِنزي.

«صحيح».

«ها هي الثّورة تأكل أبناءها. لكن إن التَهَمَتْك أنت أيضاً لن يتبقى لي ولو صديق واحد».

«صحيح».

«لن أقتلك».

تبع ذلك صمت طويل، بينما كان براندت جاثياً على ركبتيه ينتظر.

«الملكة» قال ستروِنزي، «تريد العودة إلى كوبنهاغن بأسرع وقت ممكن. لا يوجد لدينا الكثير من الأمل، لكنّها تريد العودة. إنّها رغبتها. أمّا أنا فلا رغبات أخرى لديّ. هل تأتي معنا؟»

لم يتفوه براندت بحرف.

«أيّ صمت بات يخيّم على كلّ ما حولنا» قال سترونزي. «تستطيع أن تتركنا وتذهب إن رغبت. تستطيع أن تذهب إلى...غولدبيرغ، وإلى رانتزاو. لن ألومك».

لم يُجب براندت، لكنّه أخذ يبكي بصوتٍ عالٍ.

«نحن في مفترق طرق» قال سترونزي. «مفترق طرق، كما يقولون. فماذا ستفعل؟»

تبع ذلك صمتٌ طويلٌ؛ ثم استقام براندت واقفاً على قدميه.

«سأذهب معك»، قال لسترونزي.

«أشكرك. أحضر النّاي معك وأسمعنا عزفك في العربة».

في مساء اليوم التّالي، اجتمعوا في الصّالة الدّاخليّة لإجراء محادثة مقتضبة فيما بينهم، ولتناول الشّاي قبيل مغادرة القصر والعودة إلى كوبنهاغن في العربات.

كانت النّار قد أُوقدت في المدفأة، وكان الضّوء المنبعث منها هو المصدر الوحيد للنّور. استعدّوا جميعاً للرّحيل. الحاضرون هم الملك كريستيان السّابع، الملكة كارولين ماتيلدا، إينيفولد براندت وسترونزي.

ونورٌ وحيدٌ، هو ذاك المنبعث من المدفأة.

أخيراً سأل سترونزي: «لو مُنِحنا فرصة اختيار حياة غير حياتنا. لو سُنح لنا أن نحيا مرّة أخرى، لو أعطينا فرصة ثانية، فما كان يتمنى كلّ منّا أن يصير؟»

«سأصير رسّامة، ألوّن قطع الزّجاج لفسيفساء كاتدرائيّة في إنجلترا» قالت الملكة.

«سأصير ممثّلا» أجاب براندت.

«سأصير فلاّحاً يبذر الحقول» قال الملك.

«وأنت؟» توجهت الملكة لسترونزي سائلةً: «ماذا كنت ستصير؟»

رمق سترونزي أصدقاءه بنظرةٍ متأنّية في مساء ذلك اليوم الأخير في هيرشهولم، قام من مكانه، وقال:

«طبيبا!»

أضاف بعدها قائلاً:

«ها قد وصلت العربة».

في تلك اللّيلة، انطلقوا جميعاً نحو كوبنهاغن.

جلس أربعتهم في العربة: الملك، الملكة، براندت وسترونزي.

سيتبعهم الباقون لاحقاً.

بدت العربة في اللّيل مثل ظلّ أسود يتحرّك.

عزف براندت على النّاي، عزف بلطف وبعذوبة، كما لو كان يعزف لحناً جنائزيّاً أو ترنيمةً حزينةً، أو لعلّه كان يعزف لحناً وُضع لملكة الكون، كما بدا لأحد هؤلاء الرّكّاب.

الجزء الخامس

الحفل التّنكّري

الفصل الرابع عشر

العشاء الأخير

١

بات غولدبيرغ يرى الأمور بشكلٍ أوضح. صار بإمكانه الآن، فك رموز دوّامة ذلك الغموض الّذي سرى تحت سطح مياه النّهر.

استفاد من الخبرة التي اكتسبها أثناء عمله على تحليل كتاب مليتون «الفردوس المفقود». لقد اعتاد على تفسير الصُّور وشرح معانيها عند تحليل النّص، مع المحافظة على المسافة التي يحتاجها الناقد كي يحافظ على موضوعيّته.

صورة المشعل الذي يبعث الظلمة، وهي صورة مرض كريستيان كما وصفه سترونزي، يجب بريمو (أولا): أن تُسْتَثْنى لأنّها تتعارض مع المنطق. لكنّها سيكوندو (ثانيا): يُمكن أن تُقبل كصورة من نسج فكر التنويريين.

كتب غولدبيرغ شارحا الفرق بين رؤية كل من الشاعر والسياسي لهذه الاستعارة المجازية. فالشاعر يخلق صورة مزيفة، صورة تنبع من سذاجته. أما السياسي فصاحب نظرة ثاقبة، يرى من خلال الصورة ويشكّل، بتحليله للأمورِ، مجالاً رحباً لتطبيق استنتاجات قد تثير استغراب الشاعر. وهكذا يصير السياسي سنداً للشاعر وصاحب فضل عليه.

بالتالي، من الممكن اعتبار الظلمة النابعة من المشعل على أنها صورة لأعداء الطهارة، أولئك الذين تحدثوا باسم النّور والتنوير، وكل ما في جعبتهم هو ظلام في ظلام.

من خلال ثغرة في المنطق يكون قد انتقد المنطق، وتكون قذارة الحياة، قد بانت

من خلال الحلم بالنور. هكذا حلّل غولدبيرغ الصّورة.

كان باستطاعته أن يأتي بأمثلة من تجربته الشّخصيّة.

أدرك تماماً أن الخطيئة مُعْدية وأنها قد تصيبه هو أيضاً.

تكمن العدوى في الرّغبة، والّتي هي مُعديةٌ حقّاً. بالتّالي كان استنتاجه أنّ «العاهرة الإنجليزية قد تكون هي المشعل المظلم».

كان غولدبيرغ قد علّم تاريخ شّعوب الشّمال حين عمل أستاذاً في جامعة سورو. استمتع جدّاً في عمله ذاك. نظر إلى أيّ تأثير أجنبيّ على العرش الدّنماركي كما لو كان وباءً، ولذلك احتقر اللّغة الفرنسية، والّتي كان متمكّناً منها تماماً، وحلم بأن يصبح اسمه مخلّداً في الّذاكرة يوماً ما. سيُطلق اسمه على هذه الفترة فتُسمّى عصر غولدبيرغ، كما أمل، وسيبدأ سرد حكايته على طريقة حكايا السّاجا (الحكايا الشعبية) الأيسلندية.

كان مرة رجلٌ وكان اسمه غولدبيرغ»، هكذا ستُستهلُّ الحكَاية»

اختيار الكلمات الأولى للسّرد مهم لأنه يحدد طبيعة الفحوى. ستتحدث الحكاية عن رجل بلغ مراتب الشّرف بقواه الذّاتيّة على طريقة بطولات الحكايا الأيسلندية، وليس لدفاعه عن الأبطال والعظماء. سينظر إليه من اختارهم الله للحكم، على أنّه بطلٌ، بل وأحد العُظماء ولو كان ضئيل الجسد.

حماية شرف الملك واجب، وعليه أن يقوم بالمهمّة. كان غولدبيرغ قد عمل في أكاديمية سورو إلى أن أتى وقت صار فيه للتقوى المُعدية موطئ قدم، وما عادت رائحة الطائفة المورافية الكريهة أو رائحة أهل التقوى تُحْتَمَل. عندها، ترك غولدبيرغ منصبه كأستاذ جامعي، خاصة وأن أطروحته حول ميلتون كانت قد عبّدت له الطريق من أجل تحقيق طموحه السّياسيّ. ترك خلفه عملاً آخر أيضاً وهو التّأريخ،

رغم أنّه كان قد نشر سلسلة من الدّراسات التّاريخية. أكثر أعماله أهميّة كانت ترجمته لكتاب بليني بعنوان « في مدح تروريان»، والّتي قدّم لها بشرح عن نظام الحكم عند الرّومان.

بدأ كتابه بفترة فجر التّاريخ وأنهاه عند عهد بليني. كان بليني هو من أوجد عظمة تروريان وهو من دافع عن تلك العظمة.

.» كان مرّة رجل وكان اسمه بليني»

لكن غولدبيرغ كان شخصاً عاطفياً. كره العاهرة الإنجليزية بشدّة. ربما نبعت تلك الكراهيّة من عاطفة تتعلّق بالجسد. حين تناهت إلى مسامعه أخبار انحلالها الأخلاقي، انتابته نوبة غضب عارم لم يعرف له مثيلاً من قبل. الجسد الّذي كان من المفروض أن يتمتّع به الملك، اخترقه عضو ألمانيّ قذر. اتّحدت قمة الطّهارة والبراءة بقمّة الرّذيلة. صار جسدها المقدس مرتعاً لأمّ الخطايا. أثاره الأمر، وقد كره هذه الإثارة. شعر بأنه يفقد السّيطرة. اختلطت مشاعر الكراهية والعاطفة معاً في داخله؛ وهو شعور لم يألفه أبداً من قبل .

لم يكن هناك أي تغيير في مظهره الخارجي. حافظ على صوتٍ منخفضٍ وهادئٍ عند الحديث. أثار استغراب الجميع حين تكلّم فجأة بصوت عالٍ وحادٍّ هو أقرب للزعيق، أثناء التّخطيط الأخير لمحاولة الانقلاب.

وكما في الحكايا الأيسلاندية، كان عليه الدّفاع عن شرف الملك. لكن منذ متى بدأ المصباح يرمي بشعاعه المظلم على روحه؟ تلك كانت نقطة التّحوّل في الحكاية. ربّما حدث ذلك لحظة مالت العاهرة الإنجليزية نحوه وهمست دون حياءٍ تسأله عن الرّغبة وعن العذاب. كأنّما اجتثّت منه الرّغبة والعذاب! لكن، منذ تلك اللّحظة وبشرتها البيضاء المغرية لا تفارق خياله، وصدرها! صدرُها أيضاً.

في إحدى اللّيالي انشغل فكرُهُ بها بشدّة، فكّر في خيانتها للملك وفي كراهيّته لها، إلى أن مسّ عضوه مداعباً حين تملّكته الرّغبة وما كان بإمكانه أن يتوقّف. خجل من نفسه إلى درجة لا تُحتمل. ركع طويلاً على ركبتَيه عند طرف سريره باكياً

طالباً المغفرة من العليّ القدير .

أدرك عندها أن هناك حلاً واحداً لا غير. عدوى الخطيئة أصابته أيضاً. يجب القضاء عليها

لم يكن سترونزي أصل العدوى، بل العاهرة الإنجليزية الصّغيرة، الملكة كارولين ماتيلدا

فشلت الخطّة الصّغيرة إذن. لكن الخطّة الكبيرة، الخطّة الثّالثة، لن تفشل

٢

وصلت العربة الّتي أقلّت الملك والملكة إلى قصر فريدريكسبورغ عند منتصف الّليل تقريباً، وبما أنّه لم يُعلن عن وصولهما مُسبقاً، لم يلفت الأمر انتباه من في القصر. لكن الخبر سرعان ما انتشر وأحدث جلبة في المكان.

بعد ذلك، تبدّد الاضطّراب وساد هدوء تامّ، لكنه غير مُطَمئن

استدعت الملكة الأرملة كلاً من رانتزاو وغولدبيرغ .

سألت الرّجلين في البداية وبكلّ اهتمام عن أدقّ التّفاصيل حول عدم إخلاص الملكة، كما عن وجود دليل ملموس وأنّ الأمر ليس مجرّد شائعة. طالبت بالدّليل .

بدأ غولدبيرغ يتلو عليها ما توصّل إليه من براهين

كانت اثنتان من الخادمات العاملات في جناح الملكة واللّتان قامتا بتنظيف غرف الملكة يوميّاً، قد باشرتا التّجسّس عليها قبل رحلة هيرشهولم بفترة ما. وضعت الخادمتان الشّمع في فتحات الأبواب وأحياناً لفائف من الورق في مفاصل الأبواب. في الصّباح وجدت الخادمتان الشمع وقد زال والأوراق وقد سقطت. في ساعات متأخّرة من اللّيل كانتا ترُشّان الطّحين قرب عتبة الباب وعلى الدّرج المؤدّي إلى مخدع الملكة، وفي صباح اليوم التّالي كانت علامات خطوات الأقدام واضحة. لم

يكن هناك أدنى شكّ في أن صاحب علامات الأقدام ما هو إلا سترونزي. وحين فحصت الخادمتان سرير الملكة، ووجدتاه في حالة من الفوضى حيث شهدت حال الملاءات الملتفّة المجعّدة وبشكل واضح على أن أكثر من شخص كان في السّرير. لم يكن كريستيان هو الشّخص الآخر بالتّأكيد. وجدت الخادمتان على الملاءات بُقعاً، منعهما حياؤهما الأنثويّ من ذكرها. وجدتا على المناشف والمناديل نفس نوع البقع من نوع السّائل الجّاف إيّاه. وفي صباح أحد الأيّام وجْدنَ الملكة عاريةً في سريرها، في حالة ما بين النّوم واليقظة، وكانت ثيابها مبعثرة على الأرض.

دلائل الإدانة متوفّرة وبكثرة إذن.

ما حدث عندها كان مفاجئاً على نحوٍ ما، إذ قامت إحدى هاتين الخادمتين، ربّما بسبب تأنيب الضّمير أو بسبب مشاعر التّعاطف الذي لم يكن له أيّ داعٍ، بإخبار الملكة بما كانت تعرفه وبما فعلته ولماذا. استحوذ الغضب على الملكة، فهدّدت الخادمة بالطّرد فوراً، ثم انفجرت الملكة بالبكاء، لكنّها — وهنا الغرابة في الأمر — اعترفت مبدئيّاً بالممارسة المتكرّرة لذاك الأثم، ثم رَجَت خادمتها بأن تتكتّم على الموضوع. بعدها، وفي لحظة من المشاعر الجيّاشة، فتحت الملكة قلبها لخادمتيها المذكورتين. سألت جلالتها الخادمتين إن كانتا قد عرفتا طعم الحبّ يوماً، أو كان قلب أي منهما قد مال لرجل، «لأنّكما، لو كنتما قد ذقتما طعم الحبّ، لكانت الواحدة منكما قد عرفت كيف يشدّها الحبيب إليه فتتبعه حيثما شاء، تتبعه ولو إلى حبل المشنقة والعذاب، بل حتّى إلى الجحيم».

استمرّ الفسق بعد هذه الحادثة كأنّ شيئاً لم يكن، أو كأنّ الملكة، بكبريائها، قد تجاهلت الخطر الّذي كانت تعلم جيّداً بأنّه يهدّدها. عجيب حقّاً أمرها.

استمرت رغم كلّ شيء إذن، متجاهلة الخطر. إنّه لتصرف محيّر!

افترض غولدبيرغ أنّها لم تخبر عشقيها الألماني بما حدث. فما الّذي كانت تخبّئه هذه العاهرة الإنجليزية الصّغيرة في رأسها؟ استعصى الأمر على الفهم وقد اجتمعت قمّة السّذاجة بقمّة السّلطة.

كان من المفروض أن تدرك كارولين ماتيلدا ما الذي سيحدث بعد ذلك. لقد ذهبت الخادمة إيّاها إلى غولدبيرغ كي تقدم له -كما يقتضي منها الواجب- تقريراً بكلّ ما حدث. فعلت ذلك والدّموع تنهمر من عينيها.

الدّليل موجود إذن، وهناك شاهدة مستعدّة للتّقدّم بشهادتها إن استُدْعِيَت للمحكمة.

«هذا يعني»، قالت الملكة الأرملة بتمعّن، «أنّ التّهم الموجّهة ضدّه ستخوّلنا الحكم عليه وفق القانون»

«والملكة؟» سأل غولدبيرغ.»

لم تجب الملكة الأرملة غولدبيرغ على سؤاله، كما لو أن الأمر لم يكن يعنيها، ممّا أثار استغرابه.

«سيُحكم عليه بالموت وفق القانون»، أكملت قائلة بتمعّن، كما لو أنّها كانت تفحص وقع الكلمات. « وفق القانون، سنبتر يده ونقطع رأسه بسَبب هذه التّهم، سنقطّعهم قطعاً ونبتر العضو الّذي لطّخ سمعة الدّنمارك، نسحق جسده، ونعلّقه على العمود، ونطحن عظامه على دولاب التّعذيب. وسوف أقوم شخصيّاً...»

نظر إليها كل من غولدبيرغ ورانتزاو باستغراب، ثم أقحم رانتزاو سؤالاً في معرض الكلام فقال:

«بمشاهدة كلّ ذلك؟»

«بمشاهدة كلّ ذلك.»

«والملكة»؟ سأل غولدبيرغ مرّة أخرى، إذ استغرب اهتمام الملكة الأرملة بمصير سترونزي لهذا الحدّ، وتغاضيها عن العاهرة الإنجليزية الصّغيرة، التي هي في نظره أساس الشر. بدل الإجابة عن السّؤال، استدارت الملكة الأرملة نحو رانتزاو وقالت بابتسامة غامضة:

«بالنّسبة للملكة ستسير الأمور كالتّالي: أنت، أيها الكونت رانتزاو، بما أنّك

كنت الصّديق المميّز لسترونزي منذ ألتونا وشاركته الرأي، وكنت كذلك صديق الملكة إذ تملّقت لها فأمنت جانبك، ثم عدت الآن لتتراجع وتعترف بأخطائك وخطاياك نحو الله ونحو الوطن، فستقوم أنت بالمهمة الحسّاسة وتعتقل الملكة. ستتأمّل طويلاً وعميقاً في عينيها الجميلتين المخطئتين، كما ينظر الصّديق الصّدوق في عينيّ صديق عمره، وستقول لها إنّ كلّ شيء قد انتهى. هذا ما ستقوله لها: كلّ شيء قد انتهى».

لم ينبس رانتزاو بحرف .

«ولن يروق لك الأمر»، أضافت، « لكنّ ذلك سيكون عقابك الوحيد. ما ستناله بالمقابل، سيكون عظيماً. وستعرفه لاحقاً.»

٣

قَلّت زيارات كريستيان لسترونزي بالتّدريج.

لم يعد توقيع الملك ضرورياً في الواقع، فتوقيع سترونزي أصبح يفي بالغرض. لكن كريستيان جاء في أحد الأيام من تلك الفترة الصّعبة، باحثاً عن سترونزي لينقل له رسالة هامّة كما قال.

دعا سترونزي الملك للجلوس مصغياً لما سيقوله.

« وصلتني هذا الصباح» قال كريستيان،» رسالةٌ من سيدة الكون»

نظر إليه سترونزي بابتسامة تُدخل إليه الاطمئنان وسأله:

«من أين وصلت الرسالة؟»

«من كييل».»

«من كييل؟؟! وماذا تقول؟»

«تقول إنها شفيعتي»، أجاب كريستيان، « وإنني تحت حمايتها.»

كان كريستيان هادئاً؛ لا أصابع متوترة تنقر بغضب، ولا هذر أو اختلاجات .

«يا صديقي»، قال سترونزي، «عندي عمل كثير الآن، ومع أنّي أحبّ أن أناقش معك هذا الأمر، إلاّ أنّنا مضطّرون لتأجيل ذلك. ثم أنّنا كلّنا تحت حماية العليّ القدير».

«العليّ القدير» قال الملك، « لا وقت لديه من أجلي. أمّا شفيعتي، سيّدة الكون، فقد أخبرتني في رسالتها إنّه حين لا يكون عند أيّ شخص آخر وقتٌ كافٍ لي، أو حين يكون الله مشغولاً جدّاً، فلديها هي كلّ الوقت من أجلي».

«جميل»، قال سترونزي. «ومن تكون سيّدة الكون؟»

«تلك الّتي لديها الوقت»، أجاب الملك.

٤

الخطة الثّالثة والأخيرة، تلك الّتي لن تفشل، كانت هي أيضاً بحاجةٍ لتغطية شرعية .

من أجل سحق «نظام سترونزي الدامي والفاسق»، أقنع غولدبيرغ الملكة الأرملة بضرورة الكشف عن الخطّة الوقحة الّتي رسمها وخطّط لها كلّ من سترونزي والعاهرة الإنجليزية الصّغيرة معاً، ألا وهي خطّة الإطاحة بالملك. هدفت خطّة سترونزي إلى قتل ملك الدّنمارك؛ كريستيان السّابع.

هذه الخطّة المزعومة كانت ملفّقة من الأساس ولا وجود لها. لكن ابتداع وهمٍ كهذا ليبدو فيما بعد حقيقة يمكن تصديقها، هو أمر ممكن.

وهكذا ألّف غولدبيرغ خطّة نُسبت لسترونزي. وكانت الخطوة التّالية وضع نصّ مخطوطٍ بهذا الخصوص، ويكون ذلك النصّ نصّاً مُصدّقا عليه. بعدها يُتلفُ الأصل، ويتمُ استعمال هذه النصّ المصدّق كبرهان لإقناع كلّ من يساوره شكٌّ بالأمر. سيكون موضوع القضيّة عندها: منع انقلابٍ مخجل على النظام.

كانت هذه هي الخطة التي وضعها غولدبيرغ ونسبت إلى سترونزي، خطة تحمل الكثير من المنطق المقنع. نصّت الخطة الموضوعة على أن سترونزي قد قرّر

الثّامن والعشرين في كانون الثاني/يناير ١٧٧٢ ليكون يوم الإطاحة بالحكومة. في ذلك اليوم سيُجْبَرُ الملكُ كريستيان السابع على التنازل عن عرشه، وستُسمّى الملكة كارولين ماتيلدا وصيّةً على العرش، وسيتولى سترونزي منصب حامي العرش.

تلك كانت العناصر الرئيسيّة للخطّة.

أضـاف غولدبيرغ لهذه الخطة التي بدت ذات مصداقية، تعليقاً يشرح للمتشكّكين ضرورة القيام بهجوم مضادٍ وسريع.

«يجب عدم إضاعة الوقت»، كتب غولدبيرغ، «لأنّ من يتقاعس عن حماية العرش لن يتردّد عن ارتكاب جريمةٍ أسوأ. إنْ قُتِل الملك فسوف يضمن سترونزي لنفسه سرير كارولين ماتيلدا، وسيتمّ إبعاد الأمير الصّغير؛ ولي العرش، أو وضعه في عُهدة مُربين قساة، مما سيترك المجال مفتوحاً أمام أخته، التي هي ثمرة علاقة سترونزي المخجلة بالملكة، كما تشير كلّ الدلائل. ثم، هل هناك تفسير آخر لقيام سترونزي بإلغاء القانون الذي يمنع زواج امرأة مطلّقة من شريكها في الإثم؟».

كان الوقت ضيّقا جدّاً. يجب التّحرك بسرعة، ويجب الإبقاء على سريّة الخطّة.

اجتمعوا في غرفة الملكة الأرملة في الخامس عشر من كانون الثاني/ يناير. كان غولدبيرغ قد صاغ عدداً من أوامر الاعتقال والّتي كان الملك سيُجبر على التّوقيع عليها.

تمت مراجعة الخطّة ثانية في صبيحة السادس عشر من كانون الثاني/يناير. أضيفت تعديلاتٌ عديدة لا قيمة لها، وصدر القرار بتنفيذ الانقلاب في اللّيلة التّالية.

ستكون ليلة طويلة جداً. تُفتَتَح بوجبة العشاء. يليها تناول الشّاي. يتبع ذلك حفلة تنكّريّة. ثم... الانقلاب!

٥

جلس ريفيرديل -المربّي السّويسريّ الصّغير الحجم، اليهوديّ النّحيل الّذي كان قد أخفى اسمه الأول، الرّجل الّذي أحبّه كريستيان يوماً ما إلى أبعد الحدود، والّذي أُبْعِدَ عن البلاط ثم أعيد إليه، كاتب المُذكرات، رجل التنوير الحذر جدّاً، المصلِحُ المحترم- جلس ريفيرديل هذا خلف مكتبه كلّ صباح ولبضع ساعات كي يكمل خطتّه العظيمة لتحرير الفلاّحين الدّنماركيّين من نظام العبوديّة.

كان سترونزي هو من أوكل إليه هذه المهمّة، الّتي اعتُبرت تتويجاً للعمليّة الإصلاحيّة.

العديد من القوانين والمراسيم الّتي أقرّها سترونزي، والّتي بلغت الـ ٦٣٢ مرسوماً في حينه، مهمّة في غالبيتها. ومرسوم القرار ٦٣٣ هو الأهّم على الإطلاق. أمّا من وجّه قلم سترونزي، فكان ريفيرديل. لم تذكر كتب التّاريخ هذه الحقيقة، الّتي كان يعلمها هو، وكان ذلك بالنّسبة له كافياً بحدّ ذاته .

في صباح هذا اليوم، اليوم الأخير من فترة سترونزي، جلس ريفيرديل كالعادة، يعمل على نصّ القانون العظيم؛ قانون منع الرّقّ.

لم يُكْمِل النّصّ. لا ولَنْ يُكمل النّصّ. كتب واصفاً شعوره ذلك الصّباح فقال إنّه كان يشعر بالهدوء التّام. لم ينتبه أيّ شكّ. لم يقل إنّه كان سعيداً. لا لم يذكر كلمة «سعيد» في مذكّراته، على الأقلّ ليس فيما يخصّه هو.

إنّه مؤلّفٌ مجهول. ما كان نصّه العظيم حول منع الرّقّ ليكتملَ أبداً.

مع ذلك، وقبل أن ينتبه لذلك، شعر في يوم ما قبل الانهيار الأخير ذاك، بالسّعادة. المشروع مهمٌّ جدّاً والفكرة بحدّ ذاتها حقّ. إنّه لمن الصّواب العمل على هذا المشروع، حتى ولو في صبيحة ما قبل الانهيار الأخير. شعر بالسّعادة طوال فترة عمله.

بعد سنوات عديدة سيكتب مذكّراته، ولن يستعمل كلمة «سعيدا»، على الأقلّ ليس فيما يتعلّق به هو.

لا شكّ أنّ الرّجل كان متواضعاً خجولاً.

كان لديه ما يقوله في نقد سترونزي الّذي «تحرك بسرعة كبيرة» حسب رأيه. رأى ريفيرديل أن عمليّة التّغيير، عمليّة التّحرير الحذرة ممكنة. كان خجولاً وحذراً. لم تشوّش أحلامه ظلمة انبعثت من مشعل داخليّ مظلم. اعتقد أنه علم بأثر رجعي، كيف كان يجب على الأمور أن تسير.

كان عليهم التّقيّد بمقدار أكبر من الاعتدال.

٦

«لم ينتبه أيّ شكّ» في صبيحة ذلك اليوم. يبدو أن الشّك قلّما وجد طريقه إليه، رغم أنّ التحرّك المتعجّل وغير المتروّي الّذي قام به البعض، سبّب له نوعاً من عدم الارتياح.

جلس يتناول العشاء في الرّابعة من بعد ظهر ذلك اليوم، مع الحلقة الضّيقة من الخاصّة في البلاط، والّتي كان ينتمي إليها بالرّغم من كلّ شيء. «تركت الملكة انطباعاً غير مسبوق يومها إن بالجّو المرح الذي خلقته أو بمشاركتها الحيويّة في الحديث».

إنّه العشاء الأخير.

سُجّلت تفاصيل ذلك العشاء بشكل دقيق جدّاً. شارك به أحد عشر شخصاً هم: الملك والملكة، زوجة الجنرال جاهلر، كونتسية هولشتين وفابريشيوس، سترونزي وبراندت، كبير أمناء القصر؛ بييلك، رئيس الإسطبلات الملكية؛ بولو، الكولونيل فالكينسكيولد وريفيرديل. تناولوا العشاء في «الصّالة البيضاء»، والّتي اتّخذت هذا الاسم نسبة للون الأُطر الخشبيّة الّتي غطت حواف الجدران والنّوافذ والأبواب وكانت هذه الأطر قد طليت بالأبيض، بينما اكتست الجدران بالمخمل الأحمر. أما الحفر على الخشب فقد طلي بالذهب. كان سطح المائدة من الجرانيت النرويجي،

وعلى الحائط أعلى الموقد علقت لوحة «مثابرة سكيبيو»، للرّسام الفرنسيّ بيير، والّذي تناولت لوحاته المواضيع التّاريخيّة. اللوحة ضخمة، بلغ ارتفاعها حوالي المترين والنصف. أضاء الغرفة نورٌ انبثق من اثنتين وعشرين شمعة. وعلى عكس البروتوكول القديم، الذي نصّ على أن يجلس الرّجال على يمين الملك والسّيدات على يساره، فقد أُجْلس الرجالُ والنّساءُ بالتّناوب جنباً إلى جنب. اعتُبرَ هذا التغيير غاية في التّطرف، وقد سُحبت القُرعة لتحديد أماكن الجلوس. كذلك حدث تعديل على عدد طاقم الخدم القائم على خدمة الحاضرين، وذلك بحسب مرسوم صدر عن سترونزي في الأوّل من نيسان/ أبريل سنة ١٧٧١. بحسب هذا «النّظام الجديد» اختُصر هذا الطّاقم إلى النّصف. مع ذلك فقد بلغ عدد الخدم أربعة وعشرين خادماً. قدّم الخدمُ الطعام بالتّناوب، إذ وقفوا في الغرفة المجاورة أو في المطبخ وكلّ مرّة سُمح لواحدٍ منهم فقط بالظُّهور، يقدّم الطَّبق وينصرف، وهكذا. كان العشاء عبارة عن تسعة أطباق، أربعة من السَّلَطات، ووجبة رئيسيّة حيث الاختيار ممكن ما بين طبقين.

كانت الملكة مُذهلة، كما كتب ريفيرديل في مدوّناته. انزلق الكلام للحظة إلى الحديث عن أميرة بروسيا والّتي كانت «تسترسل في الكلام»، وقد طلّقها زوجها وها هي تقبع في سجنها في شتيتّين. علّقت الملكة باقتضاب قائلة إنّ هذه الأميرة تستطيع حتى من سجنها أن ترفع رأسها عالياً إذ «حقّقت حريّتها الدّاخلية الخاصة بها».

هذا كان كلّ شيء. حين اتّخذوا مقاعدهم حول المائدة، كان الظلام الشتائي الّذي يهبط باكراً، قد أرخى أستاره في الخارج. أضاءت الشموع بعض أجزاء الغرفة. كان براندت وسترونزي صامتين بشكلٍ لافت للانتباه. كتب ريفيرديل قائلا إنّهما ربّما كانا قد توجّسا ريبة من شيءٍ ما أو ربّما كانا قد تسلما رسالة ما.

لكن لا يمكن الخروج بأي استنتاج مؤكّد. لم يبدر أي فعل من أيّ منهما. كان الانتظار سيّد الموقف، وكانت الوليمة عامرة. في الواقع كان كل شيء كما كان في

العادة. حلقة ضيّقة من النّاس، تزداد ضيقاً مع الوقت. نورٌ في المكان وما حوله ظلمة. الملكة في أوج تألّقها، أو ربّما في أوج خيبتها.

في السّابعة من مساء ذلك اليوم، وبعد الوليمة، قام ريفيرديل بعملٍ مثيرٍ للاستغراب، فقد زار الملكة الأرملة.

تحادثا لساعة من الزّمن. لم يلحظ على الملكة الأرملة ما يُثير الرّيبة، رغم أنّها كانت قد أعطت الأوامر قبل ذلك بساعاتٍ قليلة فقط، بتنفيذ الانقلاب تلك اللّيلة. انقلابٌ شمل إلقاء القبض على ريفيرديل ذاته وسجنه. جلسا يتحادثان إذن، وكانت محادثتهما ودّية بل احتسيا الشّاي معاً.

كان الطّقس بارداً وعاصفاً في الخارج. راقبا معاً من خلال النّافذة طيور النّورس وهي تحاول الطّيران إلى الأمام فتدفعها الرّيح العاصفة إلى الخلف وتعيق طيرانها. قالت الملكة إنّها تشعر بالعطف على تلك الطّيور، لأنها تدرك أن لا أمل لها في مقاومة العاصفة. فسّر ريفيرديل هذا الكلام مجازيّاً فيما بعد. اعتقد أنّها أرادت أن تحذّره؛ فلسوف تجرفه العاصفة هو أيضاً إنْ لم يستسلم في الوقت المناسب ويحلّق بالاتّجاه الصّحيح، ليس ضدّه.

لم يفهم المغزى. كل ما قاله هو أنّه معجب بطيور النّورس في وضعها ذاك. فهي لم تستلم وما زالت تحاول رغم أنّ العاصفة تلقي بها إلى الخلف.

ربّما كان فيما بعد، حين سجّل مذكّراته، قد حمّل جوابه لها في تلك اللّيلة معنىً يحمل مسحة مجازية. يجب ألاّ ننسى أن الرّجل كان خجولاً. لم يكن من النّوع الّذي يعارض. كان هادئاً، منطوياً، منكبّاً على أوراقه، يُستَبعد حيناً ويُستدعى للعودة حيناً آخر. كان رجلاً يراقب في حُزنٍ صامت، بينما الذئاب تُمزّق الّصبيّ الحبيب إلى قلبه إربًا. رجلٌ اعتقد بأنّ التّنوير يجب أن يأتِي مثل فجرٍ يبزغ ببطءٍ وبحذر شديدين.

جلس كلُّ من سترونزي والملكة جنباً إلى جنبٍ إلى طاولة العشاء وقد أمسك

الواحد منهما بيد الآخر دون أيّ حرج. لم يعترض الملك، والّذي بدا مشلولاً بأفكاره.

أمّا ريفيرديل، الجالس قبالة الملك، فقد كان لديه الوقت الكافي ليراقب تلميذه أثناء العشاء. أثار ما رآه «حزنه الشديد»، فقد تذكّر لقاءه الأول بكريستيان، والثّقة التي أولاه كريستيان أيّاها: ذلك الصّبيّ الحسّاس المتّقد الذّكاء الذي عرفه ذات يوم. أما الجالس قبالته الآن، فظلّ رجل عجوز باهت اللّون غير مبالٍ بشيء. أقعده الرُّعب فشَلَّهُ كما يظهر دون أن يدري أحد سبب ذلك كلّه..

لم يزد عمر كريستيان يومها على الثّانية والعشرين ربيعاً.

بعد الوليمة، غادر الجميع كي يُجهّزوا أنفسهم للحفلة التّنكريّة. كان ريفيرديل آخر من غادر الغرفة. سبقه إلى ذلك براندت، الّذي استدار وقال لريفيرديل بابتسامة خفيفة غريبة:

«أعتقد أنّنا اقتربنا جداً من نهايتنا الآن. لن يدوم الأمر طويلاً «

لم يطلب منه ريفيرديل شرحاً لما قال. ذهب كلٌّ في طريقه.

٧

كانت الخطّة بسيطة جدّاً.

لطالما اعتقد غولدبيرغ بأنّ البساطة البحتة في الخطط المعقّدة هي السّر في نجاحها. سوف يتمّ القبض على الملك. سوف يتمّ القبضّ على سترونزي أيضاً. سيتمّ القبض بالمعنى الفعلي للكلمة ومن المفترض أن أحداً من الرجلين لن يقاوم أو يعرقل تنفيذ العمليّة.

الخطوة الثّالثة هي القبض الفعلي على الملكة أيضاً. هنا كَمَنَ نوع من عدم الارتياح صعُبَ شرحه. ذلك أن التغّلب عليها يجب أن يتمّ دون أن يثير أي مشكلة. وكي يتمّ ذلك، فإنّه من غير المقبول أن يُسمح لها بتاتاً وتحت أيّ ظرف،

أن تتّصل بالملك. يجب ألا يتعرّض الملك لأيّ تأثير من أي طرفٍ كان. يجب أن يتم إفهامه وبالقوّة، أنّه مستهدفٌ لعملية تهديد مروعة، وأن سترونزي والملكة أرادا قتله. لكن، إن حدث ورمقت العاهرة الإنجليزية الصّغيرة الملك بنظراتها، فقد يصيبه التّردّد.

كانت المخاطرة الكبرى تكمن في العاهرة الإنجليزيّة الصّغيرة. كل شيء بدأ وانتهى بتلك المرأة الشّابة. كان غولدبيرغ هو الوحيد الذي أدرك ذلك، ولذلك أراد أن يحطمها ولن يسمح لعدوى الغريزة أن تصيبه مرة أخرى. لا ولن يركع ثانية عند سريره باكياً إذ ثارت غريزته فاندفعت سائلاً دَبِقاً التصق بجسده بذوراً من الشّهوة، بينما انهمرت دموعه في عتمة اللّيل.

كانت تلك ليلة قارصة البرد.

اضمحلّت العاصفة التي هبت من الشّرق خلال نهار ذلك اليوم، وتلاشت بحلول اللّيل. تجمّدت الرّطوبة وارتَدَت كوبنهاغن غشاءً من الجليد.

كل المذّكرات والسّير الذّاتية الّتي أتت على ذكر تلك اللّيلة، تحدثت عن هدوءٍ عظيم خيّم عليها.

لا عاصفة. لا صوت لفِرَق العسكر وهي تتّخذ مواقعها. ولا طيور تدفعها الرّيح الشعواء إلى الخلف.

ما زالت قوائم الطّعام التي أُوصي بأعدادها لذلك العشاء الأخير موجودة: ستُّ أوزّات، أربعة وعشرون حنكليسا، ثلاثمئة وخمسون حلزونة، أربعة عشر أرنباً وعشر دجاجات. في اليوم السّابق كان قد أُرسل طلبٌ بلائحة أسماك كالبقلة، الشّبوط والجَوْزَل.

مضت تلك السّاعات من العشاء الأخير للثورة الدنماركية بطريقة طبيعيّة جدّاً، بتنوّعٍ وغنىً، لكن بحضور أربعة وعشرين خادماً لا غير.

عادوا بعد العشاء إلى غرفهم في القصر. غيّروا ثيابهم وارتدوا الملابس التّنكريّة للحفل.

استقلّ كريستيان، وسترونزي، والملكة، العربة نفسها، قاصدين الحفل التّنكريّ. كان سترونزي هادئاً جدّاً وقد لاحظت الملكة ذلك.

«إنّك قليل الكلام» قالت.

«أبحث عن حلّ ولا أجد.»

«أقترحُ إذن» قالت كارولين-ماتيلدا، أنْ نخطّ رسالة باسمي إلى قيصرة روسيا. على عكس كل الملوك الآخرين فهي تؤمن بالتّنوير. إنّها تريد «التقدّم». إنها صديقة محتملة، وتعرف ما الّذي جرى في الدّنمارك خلال السّنة الأخيرة. لقد ترك هذا لديها انطباعاً حسناً. أستطيع أن أكتب لها كامرأة تؤمن بالتنوير لامرأة تشاركها هذا الإيمان. قد نؤسّس لتحالف بيننا. نحن بحاجة لحلفاء عظام. علينا التّفكير بطريقة أشمل. كلّ ما لدينا هنا هو الأعداء. قد تُصبح كاترين صديقة لي».

لم يجب سترونزي بل اكتفى بالنظر إليها.

«إنّك تنظرين للمدى البعيد» قال. «السّؤال إن كان لدينا الوقت لننظر للمدى البعيد»

«يجب أن نرفع نظرنا إلى الأعلى» قالت باقتضاب « وإلا ضِعنا»

حين وصل جلالتهما إلى المسرح الملكيّ بصحبة سترونزي، كان الرّقص قد بدأ

الفصل الخامس عشر

رقصة الموت

١

تذكّر سترونزي فجأة مسرحيّة «زئير»، والّتي كانت قد عُرضت هي أيضاً على خشبة المسرح الملكيّ حيث لعب كريستيان دور السّلطان.

ألم يحدث ذلك بعد وصوله إلى كوبنهاغن حال انتهاء الجولة الأوروبيّة الطويلة مباشرةً؟ أو ربّما بعد ذلك بشهرٍ واحدٍ؟ ما عاد يذكر بالضّبط، لكنّ ما يذكره جيّداً هو قيام كريستيان بأداء ذلك الدّور. كريستيان؛ بجسده النّحيل الصبيانيّ، وبتلاوته الواضحة جدّاً للنّص مع تمهّل في الإلقاء حيناً وعدم وضوحٍ أحياناً، تحرّك بحريّة ولياقةٍ على خشبة المسرح الكلاسيكي الطّراز وبين الممثّلين الفرنسيين، كما لو كان يرقص رقصة مقدّسة على وتيرة جدّ بطيئة، وقد بدت حركاته طبيعيّة جدّاً على المسرح وجزءاً لا يتجزّأ من المسرحيّة. لم تشبه حركاته المضبوطة تلك لا من قريبٍ ولا من بعيد، تحركاته غير الموفّقة في حياته العاديّة البائسة أبداً.

أبدى مهارةً فائقةً في التّمثيل. لا بل كان أفضل من كلّ الممثّلين. بدا هادئاً مُسيطراً على الوضع تماماً فنجح في إيهام المشاهد بصدق الدّور الّذي لعبه، فكأنّ خشبة المسرح، المسرحيّة، والتّمثيل، كانت كلّها عالمه الطّبيعيّ بل كأنّها قد خُلقت له.

لم يستطع كريستيان في واقع الأمر التّمييز مطلقاً بين الحقيقة والخيال. لم تكن قلّة الذّكاء هي السّبب، بل كثرة المخرجين الّذين تولوا التّحكّم في نصوص حياته.

فهل صار سترونزي أحد هؤلاء المخرجين يا ترى؟ أصل الحكاية أنه جاء في

زيارة وقد عهدت إليه مهمّة محدّدة ولزمن معلوم. لكنّه قام بمهمّة أخرى تماماً نحو كريستيان، مهمّة قد تكون ملائمة أكثر للصّبي المسكين المرتعد خوفاً.

ربّما كان على سترونزي أن يصغي بشكل أفضل في البداية؛ ربّما كان كريستيان، مثله مثل باقي الممثّلين، يريد أن ينقل رسالة ما، عن طريق المسرح.

كان ذلك منذ زمن قديم جدّاً، منذ ثلاث سنوات.

ها هو كريستيان الآن، وفي ١٦ من كانون الثّاني/ يناير سنة ١٧٧٢، يرقص رقصة المينويت؛ تلك الرّقصة البطيئة الوقورة. لطالما كان راقصاً ماهراً بجسده الخفيف كما لو كان طفلاً. ها هو يتبع خطوات الرّقصة وحسب الأصول، إنّما بحريّة ظاهرة للعيان. لماذا لم يُسمح له بأن يصبح راقصاً؟ لماذا لم يستطع أحد أن يرى الممثّل أو الراقص أو أيّ شيء آخر في كريستيان؟ أيّ شيء، عدا أن يكون الملك الّذي بيده السّلطة المطلقة والّذي وقع اختيار الله عليه لهذا الدّور.

في النّهاية، قاموا جميعهم ورقصوا. كان كلّ منهم قد ارتدى ثيابه التّنكرية وغطّى وجهه بقناعه. الجميع رقص، حتّى الملكة. في هذا المكان بالذّات، في المسرح الملكيّ إيّاه، وخلال حفلة تنكريّة راقصة ما، كانت الملكة قد أعطت سترونزي الإشارة الأولى.

حدث ذلك في يوم من أيّام فصل الرّبيع بلا شك. كانا يرقصان وكانت تنظر إليه طيلة الوقت وعلى وجهها تعبير واضح على أنّها تريد أن تقول له شيئاً ما. ربّما لأنّ سترونزي كلّمها باحترام كإنسانة، فشعرت نحوه بالامتنان. وربّما كان في الأمر أكثر من ذلك، بل إنّه بالفعل كان أكثر من ذلك. قامت فيما بعد وسحبته معها بعيداً عن عيون الجميع، حتى انتهى بهما الأمر خارج الصّالة وفي أحد الدّهاليز الضّيقة للمسرح الملكيّ. هناك، التفتت حولها متفحّصة المكان بسرعة ثم قبّلته.

لم تتفوه بكلمة، فقط رمته بقبلة. وبعدها ارتسمت على وجهها تلك الابتسامة الصّغيرة الغامضة، الّتي ظنّها في البداية تعبيراً عن براءة الطّفولة السّاحرة، ولكنّه أدرك فجأة أنّها كانت في الواقع ابتسامة امرأة بالغة ناضجة، لسان حالها يقول: «أحبّك. وعليك ألا تستهين بي.»

كانوا جميعاً هناك عدا اثنين؛ الملكة الأرملة ورانتزاو.

كان كلُّ شيء عاديّاً تماماً. بعد فترة توقّف الملك عن الرّقص، وجلس ليلعب لعبة الـ « لوب» (التّعلب) مع الجنرال غاهلر وآخرين. كان الرّقص قد جعل الملك يبدو فرحاً سعيداً لبعض الوقت، إلاّ أنّه سرعان ما بدا شارد الذّهن غارقاً في سوداويته. لعب الملك دون أن يفكّر ودون أن يحمل معه نقوداً كالعادة؛ وحين خسر ما قيمته ٣٣٢ قطعة من العملة، قام الجنرال بدفعها مضطراً، ولم يستعدها للأسف، بسبب المصيبة التي حلّت فيما بعد.

في جزءٍ آخر من المسرح جلس الكولونيل كولر، والّذي أُلقيت على عاتقه مهمّة إعطاء الأمر بما يخصّ الجزء العسكريّ من الانقلاب في تلك اللّيلة. كان الرّجل يلعب «التاروت» مع بيرغر -المسؤول عن مؤن ومساكن الجيش- وما كان بالإمكان رصد أيّ توتّر على وجه كولر الذي بدا منضبطاً تماماً.

الجميع حضروا إذن، إلاّ الملكة الأرملة ورانتزاو.

كانت الأقنعة التي وضعوها هي الأقنعة التي باتت معروفة للجميع. قناع سترونزي، الذي رمز لمهرج باكٍ. غطى نصف وجهه. قيل فيما بعد إنّ القناع الّذي وضعه تلك اللّيلة كان في الواقع عبارة عن جمجمة.

لم يكن هذا الكلام صحيحاً. فقد وضع بالفعل قناع مهرّجٍ يبكي.

انتهت الحفلة قرابة الثّانية صباحاً.

اتّفق الجميع فيما بعد على أنّ هذه الحفلة التّنكريّة لم تكن ذات أهمية أبداً. كان الأمر غريباً جدّاً، فالكلام الكثير الّذي دار حول هذه الحفلة وأهمّيتها، ثم اتّفاق الجميع على أنّ لا أهميّة تذكر لها، لهو أمر غريب! لا أهميّة للحفلة إذن. بدا الجميع عاديّاً تماماً، رقصوا، وانتظروا لا شيء!

رقص سترونزي والملكة ثلاث رقصات. لاحظ الجميع وجهيهما المبتسمين بهدوء، وانسجامهما في الحديث دون قلق.

عمّ تحادثا يا ترى؟ فيما بعد، لم يستطيع أيّ منهما أن يتذكّر موضوع ذلك الحديث.

راود سترونزي طيلة تلك اللّيلة شعورٌ غريبٌ بالعزلة عن كل ما حوله، فكأنه في حلم يقظة، أو كأنّه يعيش لحظات قد سبق وأن عاشها من قبل، وها هو الآن يحلم بها من جديد، فيستعيد كلّ مرّة مقطعاً من الزّمن الماضي. كان الكلّ يتحرّك ببطءٍ شديد في الحلم. رأى أفواهاً تفتح وتغلق دونما صوت، وكانت الحركات بطيئة، كما لو كان المشهد يحدث تحت الماء. كأنّ شخصيّات الحلم تطفو على وجه الماء، والمشهد الوحيد الذي عاد مرة تلو الأخرى هو مشهد الملك يمثّل دور السّلطان في مسرحية زئير، بحركاته وتوسّلاته الغريبة الّتي بدت شبيهة بحركات ممثّل على المسرح، إنّما أصدق حتى من حركات ممثّل. وكأن الملك كان يغرق وكان يفتح فمه ويغلقه كمن يريد أن يوصل رسالة، لكنّه لم يستطع أن يطلقها. ثم هناك الجزء الآخر من حلم اليقظة هذا؛ وجه الملكة وقد قرّبته جدّاً من وجهه، وقد أخذت تقبّله بهدوء المرّة تلو الأخرى، لتعود وتبتعد خطوة إلى الخلف، وعلى وجهها تلك الابتسامة الّتي تقول إنّها تحبّه وإنّ عليه عدم الاستهانة بها، فما كلّ هذا إلاّ بداية لشأنٍ عظيم، وها هما قد اقتربا من الحدّ، حيث المتعة الكبرى والموت المؤكّد، وإنّهما لن يندما أبداً لو تخطّيا الحدّ.

بدا وكأنّ كليهما؛ كريستيان الممثّل وكارولين ماتيلدا الّتي وعدت بالرّغبة التي حدّها الموت، قد انسابا معا في رقصة الموت تلك، على خشبة المسرح الملكيّ.

رافقها في طريق العودة.

كانت برفقتهما وصيفتان. في الممرّ وعند باب غرفة نومها تناول يدها وقبّلها بصمت.

« هل سننام اللّيلة؟» سألته.

« نعم يا حبيبتي. اللّيلة نوم. اللّيلة نوم».

« متى سأراك؟»

« دائماً « قال. «وإلى أبد الآبدين».

نظر كلّ منهما إلى الآخر، ثم رفعت راحة يدها فلامست خدّه وابتسمت له ابتسامة صغيرة.

كان ذلك اللّقاء هو الأخير بينهما. بعد تلك اللّحظة، لم تقع عيناه عليها ثانية أبداً.

٢

عند الثانية والنّصف صباحا، أي بعد نصف ساعة من توقّف صوت الموسيقا الصّادح، لا أكثر، وُزّعت خراطيش فارغة على اللّواء الثّاني من فرقة الحرس التابعة لكتائب «فلاستر» واتّخذ الجنود مواقعهم المحدّدة.

وضعت حراسة على كلّ مخارج القلعة.

بعدها، قام قائد العملية المكلّف بتنفيذ الانقلاب؛ الكولونيل كولر – والّذي كان قبل ذلك بساعة واحدة فقط، قد أنهى لعبة التّاروت مع بيرغر – مسؤول المؤن العسكرية كما سبق وذُكر– قام كولر بإعلام اثنين من ملازميه العسكريّين بوجود بلاغ صادر بخطّ يد الملكة الأرملة، تأمر فيه بإلقاء القبض على عدد محدّد من الأفراد بالاسم. جاء في البلاغ ما يلي: «بما أنّ جلالة الملك يرغب في تأمين سلامته الشّخصيّة و أمن بلده، كما بمعاقبة أشخاص محدّدين من مقربيه، فقد عهد جلالته إلينا نحن بتنفيذ تلك المهمّة. بهذا، فإنّنا وباسم الملك، نصدر إليكم أيّها الكولونيل كولر، الأمر بتنفيذ رغبة الملك هذه اللّيلة بالتحديد. كذلك، يرغب جلالته بوضع حرس مسلّح على كل المخارج المحيطة بجناح الملكة». كان غولدبيرغ هو من خطّ هذه الرّسالة التي حملت توقيع الملكة الأرملة ووليّ العهد.

النّقطة الأهم في العمليّة تتلخّص في القبض على الملك والملكة وبسرعة، بحيث

تبقى منفصلة عن الملك ولا يحدث أي اتصال بينهما. أُسندَ إلى الكونت رانتزاو دور مهمّ في هذه العمليّة، لكنّه اختفى!

أُصيب الكونت بانهيار عصبيّ.

أقام رانتزاو في منزل فخم فصلته عن قصر كريستيانسبورغ قناة مائيّة. يُعرف هذا المسكن اليوم باسم قصر الأمير. بقي رانتزاو بعيداً عن الأنظار طيلة ذلك اليوم. لكن، بينما كانت الحفلة التّنكريّة في أوجها. أُوقف رسولٌ على مدخل المسرح الملكيّ وقد أثار الرّيبة بسبب توتّره الحادّ. وعندما سُئلَ عمّا به، أجاب بأنّه يحمل رسالة من الكونت رانتزاو إلى سترونزي.

تمّ إبعاد الرّسول بواسطة الحرّاس المتواطئين، واستُدعي غولدبيرغ في الحال.

انتزع غولدبيرغ الرّسالة دون استئذانٍ ورغم اعتراض الرّسول وفتحها. قرأ غولدبيرغ الرّسالة. جاء فيها أنّ رانتزاو يرغب في لقاء سترونزي قبل منتصف اللّيل «وتذكّر جيّداً أنّك ستندم أشدّ النّدم إن أخلفت هذا الموعد».

كان هذا كلّ ما حملته الرّسالة. من النّاحية الأخرى فقد بدا الأمرُ واضحاً، ذلك أنّ الكونت رانتزاو رغب في إيجاد مخرجٍ لهذا الوضع المحيّر الّذي وقع به، فأراد الخروج سليماً من عرين الأسد.

قرأ غولدبيرغ

«يهوذا صغير، يتمنّى أن يصبح أحد الملاّكين في لولاند مقابل هذا الموقف، دون شكّ. لكن ذلك لن يحصل».

دس غولدبيرغ الرسّالة في جيبه وأمر بوضع الرّسول تحت الحراسة.

بعد ثلاث ساعات كان المتآمرون في مواقعهم، والجنود على أهبة الإستعداد، لكنّ رانتزاو لم يحضر. توجّه غولدبيرغ بسرعة وبرفقة ستّة من الجنود إلى مكان إقامة رانتزاو فوجده بكامل ملابسه، يجلس على كرسيّه الكبير ويدخّن غليونه وأمامه

فنجان من الشّاي.

«كنّا نبحث عنك» قال غولدبيرغ.

أسند رانتزاو قدمه على صندوق يشبه مسنداً صغيراً للأقدام، وأشار بيده وعلامات الغضب والألم تكسو وجهه. لقد أُصيب بألم في المفاصل نتيجة نوبة نُقْرُس فانتفخ إصبع قدمه الكبير، كما قال متلعثماً، ولم يستطع الوقوف على قدمه. بالتّالي فهو يأسف لما حصل ولا شيء يفوق حزنه لما تعذّر عليه القيام به، إلاّ أنّه لن يستطيع القيام بالمهمّة.

«أيّها الجبان الحقير»، قال غولدبيرغ بصوتٍ هادئ دون أن يحاول التّخفيف من حدّة اللّهجة الوقحة الّتي توجّه بها إلى الكونت. «إنّك تحاول التملّص من واجبك».

ابتعاد غولدبيرغ عن استعمال الألقاب، كما عن مخاطبة رانتزاو بلهجة رسميّة كان مقصوداً.

«لا، لا» قال رانتزاو معترضاً بحرجٍ. «أنا ملتزمٌ بما اتّفقنا عليه، لكنّه النّقرس، وإنّي لأعاني...»

أمر غولدبيرغ الحاضرين بمغادرة الغرفة. ما إن خرجوا حتّى سحب الرّسالة من جيبه ممسكاً بها بين الإبهام والسّبّابة كما لو أنّها كانت نتنة الرّائحة وقال:

«قرأتُ رسالتك أيّها الجرذ. لآخر مرة أسألك: هل أنت معنا أم علينا؟»

حملق رانتزاو في الرّسالة وقد صار لونه أبيض كالجثّة، إذ أدرك أنه لا به من وجود مستجّدات حصلت في تلك الأثناء.

«معكم طبعا» قال رانتزاو. «لا أدري إن كان من الممكن أن أُحمَلَ كي أقوم بالمهمّة... على كرسيّ...»

«حسنا» قال غولدبيرغ. «وسوف أحتفظ بهذه الرّسالة. لن يطّلع عليها أحد غيري لكن على شرطٍ واحد. بعد أن تنتهي مهمّة التّطهير هذه ويتمّ إنقاذ الدّنمارك، لن تزعجني. بل من الآن فصاعدا لن تزعجني ، صحيح؟ وإلا اضطّررت إلى أن أري

هذه الرّسالة لأشخاص آخرين.

تبع هذا الكلام لحظة صمت، ثم قال رانتزاو بصوت منخفض جدّاً:

«طبعاً طبعاً. طبعاً لن أزعجك».

«أبداً؟»

«أبداً»

«حسنا» قال غولدبيرغ. «بتنا نعرف ما يحمله المستقبل من مواقف إذن. من المفيد أن يعرف المرء هويّة حلفائه المخلصين».

استدعى غولدبيرغ الجنود وأمر اثنين منهم أن يقوما بحمل الكونت رانتزاو إلى موقع العمليّة عند القنطرة ناحية المخرج الشّماليّ. حملوه عبر الجسر، لكن رانتزاو أكّد لهم أنّه يستطيع أن يمشي وحده، رغم الألم الشّديد، فأخذ يعرج إلى أن وصل إلى الموقع الذّي حدِّد له عند القنطرة الشّماليّة للقصر.

٣

في صبيحة الـ ١٧ من كانون الثاني/ يناير ١٧٧٢ وفي تمام الساعة الرابعة والنصف، نُفّذَت العمليّة.

أجهزت مجموعتان من الجنود، واحدة منهما بقيادة كولر والأخرى بقيادة بيرنغسكيولد، وبشكل متزامن، على مخدعَي سترونزي وبراندت. كان سترونزي ينام نوماً هادئاً لحظة الاقتحام. جلس على سريره ونظر إلى الجنود متعجباً، وحين أُخبره الكولونيل كولر بأنّه قيد الاعتقال، طلب سترونزي أن يرى مذكّرة الاعتقال.

رُفض الطّلب إذ لم تكن قد صدرت مذكّرة كهذه أصلاً.

نظر إليهم سترونزي عندها نظرة عدم اكتراث، وارتدى الضروريّ من الثّياب ببطءٍ ثم تبعهم دون أن يتفوّه بكلمة إضافيّة. وُضع في عربة مُستأجرة واقتيد إلى الثّكنة العسكريّة في القلعة.

أما براندت، فكلّ ما طلبه حين أُخبر بأنّه قيد الاعتقال، هو إن كان مسموحاً له أن يأخذ النّاي، دون أن يكترث حتّى بالسُّؤال عن مذكّرة اعتقال.

وُضع هو الآخر في عربة مستأجرة.

بسرعة وعلى حين غرّة، تم إيقاظ القيادة المرابطة في القلعة من النّوم، ذلك أنّه لم يتمّ إعلامها مسبقاً بالحدث، ويقال إنّها استقبلت الرّجلين بسرور. تفاجأ الجميع باستسلام سترونزي بهذه السّهولة. كلّ ما فعله هو أن جلس في العربة وأخذ يتأمّل يديه.

بدا كما لو كان جاهزاً.

كشفت إحدى الرّسومات الّتي وُضعت فيما بعد لوصف عمليّة اعتقال سترونزي، عن عنف أكبر بكثير ممّا جاء في التّقارير الرّسميّة.

نرى في الرّسم خادماً من القصر يحمل شمعداناً بثلاثة أذرع يضيء بها الغرفة. يقتحم الجنود الغرفة من خلال الباب المهشّم وبنادقهم مرفوعة نحو سترونزي بتهديد واضح. يصوّر الرّسم أيضاً الكولونيل كولر واقفاً قرب سرير سترونزي حاملاً بيساره مذكّرة التّوقيف. أمّا على الأرض، فقد أُلقِيَ بقناع على شكل جمجمة ترمز إلى الموت، وهو من مخلّفات الحفلة التنكّريّة. نرى الثّياب مبعثرة في المكان والسّاعة تشير إلى الرّابعة صباحاً. الكتب مرصوصة رصّاً على الرّفوف. أدوات الكتابة على المكتب. وسترونزي يجلس على السّرير بثياب نومه، رافعاً يديه مفتوحتين بتضرّع يتوسّل للعليّ القدير الّذي طالما أنكر وجوده، بأن يمنح عبده الفقير الخاطئ الرّحمة في ساعة الضّيق.

لكنّ الصّورة الواردة في الرّسم لا تنقل الحقيقة. لقد سمح لهم سترونزي باقتياده بكلّ سهولة، كالشّاة تُساق إلى ذبحها.

ما كان الملك ضمن قائمة المطلوبين بالطّبع.

بالعكس، فالهدف من العمليّة هو إنقاذ الملك كريستيان السّابع من جريمة

اعتداء آثم كان سيتعرّض لها، وما عليه بالتّالي إلّا التّوقيع على الأوراق الّتي تقضي باعتقال المتّهمين حتّى يتم اعتقالهم بغطاء قانونيّ.

يكاد المرء ينسى والحال هذه، أنّ المعنيّ بهذا الكلام هو أحد الحكّام من أصحاب السّلطة المطلقة الّذين تمّ اختيارهم لهذا المنصب من الله ليس إلاّ.

أمّا الّذين اندفعوا إلى غرفة نوم الملك المعتمة في تلك الليلة فكانوا عديدين. منهم الملكة الأرملة وابنها فريدريك، ومنهم رانتزاو وآيشستيد كما كولر وغولدبيرغ، إلى جانب سبعة رجال من لواء الحرس الملكيّ الخاصّ، والّذين أُمروا بمغادرة الغرفة والانتظار خارجاً عند الباب، بسبب ردود فعل الملك الهستيريّة وخوفه من منظر الجنود والسّلاح إلى حدّ يخرج عن حدود السّيطرة.

ظنّ كريستيان أنّهم قاتِلوه، فصار يبكي ويصرخ بصوتٍ حادّ كالأطفال. في الوقت نفسه بدأ كلبه الشناوزر، والّذي كان ينام في سريره في تلك اللّيلة كما في كلّ ليلة، بدأ ينبح بغضبٍ، إلى أن تمّ إخراجه من المكان. أما الصّبيّ الزنجيّ مورانتي، والذي تكوّر نائماً عند طرف السّرير حيث الأقدام، فقد اختبأ مذعوراً في زاوية الغرفة.

نجحوا في تهدئة الملك في نهاية الأمر، فحياته لم تكن في خطر ولم يريدوا قتله. لكنّ ما قيل له بعد ذلك أثار نوبة بكائه من جديد. أخبروه أنّ سبب تلك الزّيارة اللّيليّة كان مؤامرة هدّدت حياته، وأنّ من خطّط للمؤامرة كان الملكة وسترونزي، وأنّه كان من الضّروريّ إنقاذه، وما عليه إلا توقيع بعض المستندات.

أمّا المستندات، فكان غولدبيرغ هو من نصّها. أخذ غولدبيرغ بيد كريستيان واقتاده بثياب النّوم إلى طاولة الكتابة وجعله يوقّع على سبعة عشر مُستنداً.

كان كريستيان يجهش بالبكاء طيلة الوقت وكان جسده يرتعد. مستندٌ واحدٌ فقط أشعره بالارتياح. إنّها مذكّرة اعتقالٍ بحقّ براندت.

«هذا هو العقاب» تمتم كريستيان، «لمن يحاول انتهاك حرمة سيّدة الكون. هذا هو العقاب».

لم يفهم أي من الموجودين – ما عدا غولدبيرغ، ربما!– ما الذي قصده كريستيان بهذا القول.

٤

أما الملكة، فقد أُلقيت مهمّة القبض عليها إلى رانتزاو.

أخذ رانتزاو معه خمسة جنود وضابطاً؛ حاملاً بيده إحدى مذكّرات الاعتقال الّتي وقّعها الملك واتّجه إلى جناح الملكة. أُرسلت وصيفةٌ كي توقظ الملكة من نومها، وقد جاء في تقرير لرانتزاو: «إنّ الاحترام منعه من اقتحام غرفة نوم الملكة»، رغم أنّ الضّابط المرافق والمدعو «بيك» يصف ما حدث بطريقة أكثر حيوية: «أيقظت الوصيفة الملكة الّتي خرجت مندفعةً بسرعةٍ ولم يكن يَسْتُر جسدها إلّا ثياب داخليّة خفيفة، وسألت رانتزاو بغضبٍ عمّا يحدث. ماكان من رانتزاو عندها إلّا أن مدّ يده بمذكّرة الاعتقال».

جاء في المذكّرة ما يلي: « لقد وجدت من الضّروريّ أن أبعث بك إلى قصر كرونبورغ، وقد أجبرتني تصرّفاتك على اتّخاذ هكذا قرار. أشعر صدقاً ببالغ الأسف، إذ اضطّررت لاتّخاذ هذا القرار الّذي لا أُلام عليه، متمنّياً أن تُعبّري عن النّدم العميق عن أفعالك».

التّوقيع: كريستيان.

أخذت الملكة الورقة بيدها وصاحت في وجه رانتزاو قائلة له إنّه سيندم على فعلته، وسألت عن أسماء من شملهم الاعتقال. لم تلقَ منه جواباً. عادت مسرعة إلى حجرة نومها ورانتزاو في أثرها، يتبعه الضّابط بيك واثنان من الجنود. بينما كانت تصرخ معنفة رانتزاو، خلعت ثوبها الداخلي ودارت عارية في الغرفة تبحث عن ثيابها. انحنى رانتزاو وقال لها بأناقته المعروفة:

«أرجو من جلالتها أن ترأف بي وتحميني من عبق الشّهوة الّتي يثيرها سحرها الآسر».

«لا تقف هكذا وتراقبني محملقاً بي أيّها الضفدع المتزلّف»، قالت الملكة الإنجليزية الأصل، مستغربة تصرّفه وشاتمة إيّاه بلغتها الأمّ. في تلك اللحظة دخلت وصيفتها «آرينسباخ» الغرفة وبيدها قميص داخلي طويل، عباءة نفيسة، وزوج من الأحذية. انتزعت الملكة الملابس بسرعة وألقت بها بسرعة على جسدها.

ظلّت تهاجم رانتزاو وهي في أقصى درجات الغضب وتنهال عليه بالكلام الحادّ إلى أن اضطّر في إحدى اللّحظات أن يحمي نفسه بعكّازه التي رفعها ليدرأ عن نفسه ضربات الملكة، وليس أكثر. كان رانتزاو قد أحضر عكّازه ليستند إليها وقد اشتدّ عليه الألم بسبب النّقرس في تلك اللّيلة بالذّات، وهو أمر لم تأخذه الملكة في خضمّ ثورة غضبها بعين الاعتبار.

ادّعى رانتزاو في تقريره أنّه غطّى وجهه بقبّعته الّتي حملها بيده طلية الوقت، ريثما وضعت الملكة عليها ثيابها كاملة، وذلك لأسباب تتعلّق باحترام الخصوصيّة، ولعدم مسّ حرمة جلالتها أو تلطيخها بنظراته. بالمقابل، صرّح الضّابط بيك بأنّه ورانتزاو كما أربعة من الجنود، حملقوا بتمعّن شديد في جسد الملكة العاري بينما هي تشتعل غضباً وارتباكاً، وأنّهم راقبوها وهي ترتدي ثيابها، كما يصف بيك الثياب التي ارتدتها الملكة.

لم تذرف كارولين الدّموع، إنّما إنهالت بالشتائم على رانتزاو الّذي أكّد في التّقرير الّذي قدّمه إلى لجنة التّحقيق القضائيّ بأنّه شعر بالغضب الشّديد لـ«أسلوب التّحقير الّذي استعملتّه الملكة في حديثها عن الملك».

بعد أن أتمت ارتداء ثيابها – إذ أدخلت قدميها العاريتين في الحذاء بسرعة ودون جوارب مما صدم الجميع- واندفعت خارج الغرفة دون أن يستطيع أحد أن يوقفها، نزلت الدرج بسرعة وحاولت أن تقتحم غرفة سترونزي. إلا أن الحارس الواقف على باب غرفة سترونزي، أخبرها أن الكونت قد اعتُقل وأُخذ إلى القلعة. انطلقت ثانية تبحث عن المساعدة فركضت متّجهة نحو جناح الملك. لم يعترضها رانتزاو أو أيّ من الجنود.

بدا واضحا للجميع أنّها صاحبة عزيمة هائلة، فغضبها المحتدم وإخلالها بأصول الحشمة وحتّى جسدها العاري، أخافهم.

لكنّها فهمت في الحال ما الذي حدث. لقد أفقدوا كريستيان صوابه، وكان هو أملها الوحيد.

اقتحمت باب غرفته ورأت الجسد الصّغير مكّورا عند رأس السّرير ففهمت كلّ شيء. لقد لفّ نفسه بالشّرشف حتى لم يظهر منه شيء، لفّ رأسه وجسده وقدميه ولولا حركة ارتعاد الجسد لظنّت أنّ ما تراه هو تمثال قُمّطَ بشرشف أبيض مجعّد.

بدا مثل مومياء بيضاء متوترة ترتجف وأنه تحت رحمتها.

توقف رانتزاو عند فتحة الباب وأشار على جنوده بأن يبقوا في الخارج.

توجهت كارولين ماتيلدا نحو المومياء الصّغيرة المقمّطة بالقماش الأبيض والّتي كانت ترتعد وصرخت:

«كريستيان. أريد أن أكلّمك! الآن!».

لم تلق جواباً، وبقيت المومياء ترتعد من تحت الغطاء.

جلست كارولين ماتيلدا على حافة السّرير وحاولت أن تتكلم بهدوء، رغم أنّها كانت تلهث ولم يكن من السّهل عليها أن تتحكّم بصوتها.

«كريستيان» همست بصوت ناعم حتى لا يتمكّن رانتزاو الواقف عند الباب من سماعها « توقيعاتك الأخيرة هذه لا تعجبني، ولكن لا بأس، أَعْلم أنّهم قد خدعوك، لكن عليك أن تنقذ الطّفلة! اللّعنة! عليك أن تنقذها يا كريستيان. ماذا تظن؟ أعلم أنّك تسمعني ويجب أن تصغي جيّداً لما سأقوله. إني أسامحك على توقيع تلك المستندات لكن عليك أن تنقذ الطّفلة! وإلّا أخذوا الطفلة منّا وأنت تعلم جيّداً ما الّذي سيحدث بعد ذلك. أنت تعلم ويجب أن تنقذ الطّفلة!»

استدارت فجأة نحو رانتزاو الواقف عند فتحة الباب وجأرت صارخة به:

«اخرج من هنا أيها الجرذ المقرف. الملكة تأمرك، اخرج!!» ثم عادت تكلم كريستيان بهمس قائلة له: «آه... يا كريستيان. تظنّ أنّي أكرهك، لكنّ ذلك

ليس صحيحاً. لطالما أحببتك في الواقع، هذا صحيح. أقول الصّدق. اسمعني. أعلم أنّك تسمعني! كنت سأحبّك لو أتيحت لي الفرصة، لكنّ ذلك لم يكن ممكناً في مستشفى المجانين هذا. نعم في مستشفى المجانين !!!» صرخت وقد استدارت نحو رانتزاو، ثم عادت لتهمس لكريستيان «كانت الأمور بيننا ستكون رائعة لو كنّا في مكان آخر، فقط لو كنّا..، آه كم كانت ستكون رائعة، فقط لو لم يُجبروك على أن تقدّم خدماتك لي كما لو كنتُ بقرة. لم تكن غلطتك. لم تكن غلطتك أعلمُ، لكنّ عليك أن تفكّر بالطّفلة يا كريستيان ولا تختبئ هكذا. إنني امرأة ولست ببقرة. يجب أن تنقذ الطّفلة. سيقتلونها. أعلم ذلك. سيقتلونها لأنّها ابنة سترونزي وأنت تعلم ذلك ولم تعترض، بل أردتَ أن يحدث ذلك، بل طلبته بنفسك. كلّ ما أردتُه هو أن أسبِّبَ لك بعض الأذى حتى تراني وتعترف بوجودي، وكانت الأمور ستكون جيّدة بيننا، أما الآن فعليك أن تنقذ الطّفلة. في الواقع لطالما أحببتك وكانت الأمور ستسير على أحسن وجه بيننا. هل تسمع ما أقول يا كريستيان. أجبني يا كريستيان. أجبني! يجب أن تجيبني يا كريستيان. كنت دائماً تحاول أن تختبئ. لا تستطيع أن تختبئ مني لذلك أجبني يا كريستيان !!!»

ثم مزقت الشرشف الذي كان يلتفّ به.

لكنّه لم يكن كريستيان. بل كان الصّبيّ الأسود الصّغير، مورانتي، والّذي نظر إليها بعينيه المحملقتين رعباً.

نظرت هي بدورها إليه مصعوقة كما لو كان قد أصابها الشّلل.

«أحضروها» قال رانتزاو للجنود.

حين مرت برانتزاو الواقف عند فتحة الباب، نظرت إليه مليّا وبعد أن أطالت النظر قالت له بهدوء:

«ستتعذّب إلى الأبد في القعر الأسفل لجهنّم حيث يُرمى الخونة، وهذا ممّا يثلج صدري. إنّه الأمر الوحيد الّذي يُسعدني لأقصى الحدود في هذه اللحظات».

لم يجد رانتزاو ما يقوله ردّاً على هذا الكلام.

سُمح لها أن تأخذ طفلتها الصغيرة معها في العربة إلى قلعة كرونبورغ. ا١١ ... ،
الساعة التاسعة صباحاً حين غادروا المدينة عبر بوابة نوربورت. سلكت العربة شارع
الملوك الطويل نحو هيرشهولم، لكنها تجاوزته.

جلست معها في العربة إحدى وصيفاتها التي اختيرت لترافقها رغم أنّها كا... ،
أقلّ الوصيفات قرباً إلى قلب الملكة.

أخذت كارولين ماتيلدا ترضع طفلتها. في تلك اللّحظة راحت الدّموع تنهمر
من عينيها.

انتشرت الأخبار كالنار في الهشيم. ولإعطاء الإشاعة التي قالت إن ستروينزي
كان يخطط لجريمة قتل الملك صبغة رسمية، أمر غولدبيرغ الملك بأن يظهر للعلن.

استجابة لأوامر غولدبيرغ، أُحضرت عربةٌ زجاجيّة تجرها ستة خيول ويرافقها اثنا
عشر فارساً على جيادهم. جال الموكب لمدّة ساعتين ونصف في شوارع كوبنهاغن،
ولم يجلس في العربة إلا كريستيان وولي العهد الأمير فريذريك.

كان وليّ العهد مُشرق الوجه فَرِحاً وهو جالسٌ في العربة فاغراً فاه واللّعاب
يسيل منه كالعادة، وقد انشغل يلوّح بيده للجماهير التي اصطفّت للتحيّة، بينما
جلس كريستيان متكوّراً في زاوية العربة، شاحب اللون كما لو كان جثّة لا حياة
فيها، وقد تمكّن منه الخوف فأخفض رأسه محدّقاً في يديه.

ما عدا ذلك، كان الفرح عارماً.

٥

انفجر الوضع في كوبنهاغن في تلك اللّيلة.

انطلقت الشّرارة الأولى حين سار موكب النّصر حاملاً ملك البلاد المُهان،
والّذي تمّ إنقاذه وقد جلس مرتعداً خوفاً في العربة الّتي جرّتها ستّة من الخيول
البيضاء. ها هي الصّورة تتّضح للجماهير إذن: قامت ثورة وتمّ إخمادها. والزّيارة

القصيرة الّتي قام بها الطّبيب الألمانيّ إلى البلاط فوجد فراغاً في السّلطة، تصل إلى خواتيمها. تمّ القضاء على الثّورة، وتمّ وضع الطّبيب الألمانيّ في السّجن مقيّداً بالسّلاسل، كما تمّ عزل رجال العهد البائد – أو ربّما الحديث؟ - وعلم الجميع أنّهم على حدّ نقطة فاصلة في التّاريخ. لقد انفلتت الأمور من زمامها وجنّ النّاس.

بدأ الأمر بأعمال شغب قام بها بعض الغوغاء. أمّا الملاحون النّرويجيّون والّذين كانوا قبل بضعة أشهر قد عادوا أدراجهم بسلام من قصر هيرشهولم بعد أن قابلتهم الملكة الصّغيرة الفاتنة، فقد أدركوا أنّه لم يعد هناك وجود لا لقانون ولا لنظام الآن. بدا وكأنّ الشّوارع قد فرغت من رجال الشّرطة والجيش، وأنّ الطّريق إلى بيوت الدّعارة والحانات صارت مشاعاً للجماهير. أمّا سبب هذا الهجوم، فكان انتقاماً من النّاس السّيّئين في نظر الجماهير، والّذين كانوا تحت أمرة سترونزي وكادوا أن يقضوا على الأب الصّغير، فهؤلاء هم من أمّن الحماية لبيوت الّدعارة تلك في العادة.

انتهى زمن الدّعارة المنظّمة وحان وقت الانتقام.

لقد تمّ إنقاذ الأب الصغير، الملك والحاكم الصالح، الذي لقّبه رعاياه النّرويجيّون هناك في أقصى الشّمال، بحامي الحمى. أُنقذَ الملك، وحين فتح عينيه على الحقيقة استنكر كلّ ما له علاقة بأصدقاء السّوء. والآن سيتمّ تطهير بيوت الدّعارة دون تأخير. قاد خمسمئة جنديّ نرويجيّ الحملة دون أن يوقفهم أحد. انتشر الحريق في كلّ مكان وخرجت الجماهير الفقيرة الّتي لم تكن تحلم بالثّورة يوماً وقد واتتها الفرصة لتقوم بأعمال العنف الآن، دون عقاب ودون هدف. لقد ثاروا دون غاية واضحة، وحجّتهم الوحيدة هي تحقيق الطّهارة والقضاء على الخطيئة كليّاً. حطّمت الجماهير الهائجة نوافذ بيوت الدّعارة واقتحمت الأبواب وقذفت بالأثاث في الشّوارع واغتصبت الفتيات بالمجان، فأخذن يركضن في الشوارع وهن يصرخن نصف عاريات. تم خلال أربع وعشرين ساعة فقط، الاعتداء على ستّين بيت دعارة مما تسبّب في تحطيمها وإتلافها وحرقها. كما تمّ الاعتداء السّافر على بعض

البيوت المحترمة أثناء تلك الأحداث وذلك بطريق الخطأ، كما اعتدي على نساء فاضلات في خضمّ طوفان الجنون الجماعيّ الّذي استعر في كوبنهاغن في ذلك اليوم.

بدا الأمر كما لو أن موجة طاغية من الحشمة الجماعيّة أو عدوى العفّة قد انتشرت بين النّاس، فانطلقوا في الشّوارع للانتقام من كوبنهاغن؛ المدينة الّتي شهدت الانحطاط الأخلاقي زمن سترونزي بنظرهم. كما هو متوقع، بدأوا بالمدعو غابل، الألماني (مثل سترونزي)، والذي أشرف على تقديم المشروبات الرّوحية الخفيفة في حديقة قصر روزنبورغ؛ إحدى الحدائق التي فتحت أبوابها للجماهير بمرسوم صادر عن سترونزي نفسه، فصارت مرتعاً لممارسات عامّة الشّعب الخليعة وتهتّكهم خلال الصّيف الحارّ لسنة ١٧٧١. اعتُبر منزل غوبل مركزاً للفسق ومنه انطلقت العدوى، وأنّه كان مرتعاً لسترونزي ولزمرته فمارسوا المجون والجنس هناك دون شكّ، وبالتّالي وجب تطهيره. نجا غوبل بنفسه، لكن عمليّة التّطهير قد تمّت بالفعل، تطهير الهيكل من الباعة المتجوّلين. أما القصر نفسه –قصر روزنبورغ– فقد اعتُبر محرّماً، لذا لم يُمسّ ولم يُنهب. إلاّ أنّ أماكن أخرى لها علاقة بالقصر وبالبلاط، تعرّضت للسّطو. الهدف الثّاني للجماهير الهائجة كان بيت الممثّلين الإيطاليين. لقد تمّ تنظيفه هو أيضاً، ما عدا قلّة من الممثّلين الّذين صنّفوا من المحرمات لإنّ الأب الصغير استخدمهم أحياناً كما قيل، بينما اعتُدي على آخرين عن قصد كبادرة عرفان تجاه الأب الصّغير أيضاً. إلا أنّ السّبب وراء كلّ هذا العنف ما عاد واضحاً، بل إنّ شيئاً من كل ما جرى ما عاد واضحاً. كأنّ مشاعر الكراهية والاحترام للبلاط قد اختلطت معاً لتنفلت مشاعر متناقضة في فوضى تغتصب كوبنهاغن في حمّى الغضب. لقد حدث شيء ما في الطبقة الحاكمة، شيء فضائحي وماجن، وها هو المجال قد فُتح من أجل إجراء تنظيف كل ذلك، وقد بوشر بالعملية إذ سمح للناس بأن تنتهك حرمة الأماكن والنّاس بغرض التّطهير، كما سُمح لهم بشرب الكحول الخفيفة بالمجان، فلم يوفّروا منه شيئاً. ربما كان السبّب الخفيّ هو حقيقة غياب

العدالة لما يزيد على الألف سنة، أو ربّما بسبب غياب العدالة عن موضوع سترونزي، الموضوع الّذي صار رمزاً لغياب أيّ عدالة كانت. تمّ السطو على قصر شيميلمان وتجريده من محتوياته لأسباب غير معروفة، لكنّها مرتبطة بسترونزي وبالخطيئة دون شكّ. هكذا، فجأة، تحوّلت كوبنهاغن كلّها إلى جحيم من الاغتصاب والتّخريب والسُّكر والعربدة؛ حرائق في كلّ مكان، شوارع مكسوّة بالزّجاج المهشّم، ولم تسلم من الاعتداء ولو حانة واحدة من بين مئات الحانات في المدينة. لا رجال شرطة ولا استدعاء للجيش! كأن لسان حال من وقف خلف هذا الانقلاب؛ أي الملكة الأرملة ومن معها من المنتصرين يقول: «بهذا الاحتفال الانتقامي الكبير والخليع، سيتمّ الآن حرق الرّذيلة في العاصمة الدّنماركية».

سيسمح الله بذلك. سيسمح لوحشيّة النّاس أن تنفلت من عقالها فتكرّس تلك الوحشيّة لتطهير البلد من بيوت الدّعارة ومن الحانات، كما من كلّ مرتع استخدمته زمرة الخلاعة تلك لممارسة الجنس ولتدنيس القيم والأخلاق بدل التزام الحشمة والتقوى.

استمرت الفوضى على مدى يومين وليلتين. ثم تراجعت أعمال الشّغب، نتيجة التّعب وربّما الحزن. لكن المؤكد أنّ شيئاً ما قد انتهى. انتقم الناس مما كان قائماً، وولّى عهد المجرمين من رجال التنوير. لكن هذا الاستنزاف ولّد الحزن الشّديد أيضاً، فلا متنزّهات مُنارة بعد اليوم، ولا مسرح أو ترفيه. سيكون القرار بيد حكم يؤمن بالتّقوى وبالسّراط المستقيم. هكذا يجب أن تسير الأمور.

إنه الأسى، ليس إلاّ. أسى ساخط وحزن حانق. ولن يعاقب النّظام الجديد، الخلوق والمحتشم، الجماهير على ما قامت به من أعمال انتقامية أتت نتيجة يأسها وحزنها.

في اليوم الثّالث، بدأ رجال الشّرطة يظهرون للعيان في الشوارع وانتهى الأمر.

أُبْعدت الملكة الشّابّة إلى قصر كرونبورغ تحت حراسة مشدّدة، وبرفقة ثمانية فرسان على صهوات جيادهم. داخل العربة، جلست الملكة، والطّفلة الصّغيرة، ووصيفة واحدة هي عبارة عن كل حاشية كارولين–ماتيلدا.

جلس ضابط واحد خلف سائس العربة وبيده سيف مسلول.

أسرع الضابط المسؤول في قلعة هاملت القديمة؛ «فون هوخ» بإشعال النّار على عجلٍ لتدفئة بعض غرف القصر الكبير الذي لم يكن مجهّزاً لاستقبال الضيوف. كان شتاء تلك السّنة قارس البرد وقد عصفت الرّياح من جهة بحر أورسند. لم تقل الملكة شيئا، بل ضمت طفلتها بقوّة إلى صدرها والتفّت جيّداً بمعطف الفرو الذي كانت تضعه حول جسمها رافضة أن تخلعه.

وقفت لوقت طويل عند النّافذة الجنوبيّة للغرفة في المساء، ويمّمت نظرها باتّجاه كوبنهاغن. لم تقل لوصيفتها شيئاً. فقط سألتها سؤالاً واحداً لا غير عن طبيعة ذلك الضّوء الغريب الخافت لشيءٍ يتوهّج في السّماء من جهة الجنوب.

«إنّها كوبنهاغن تشتعل» أجابت الوصيفة. «النّاس تحتفل لأنّها تحرّرت من اضّطهاد سترونزي وزمرته».

التفّت الملكة بسرعة وصفعت الوصيفة على أذنها، ثم انفجرت باكية ورجتها المعذرة. لكنها عادت لتقف عند النّافذة محملقة لوقت طويل في العتمة حيث بدت كوبنهاغن مضاءة بلهيبٍ خافتٍ، بينما كانت صغيرتها تنام على صدرها.

الفصل السادس عشر

القلعة

١

ما كان سيشعر بالأصفاد في قدميه لو ثنى ساقيه وأنزلهما بتمهّل للأسفل. بلغ طول السّلاسل التي قُيّد بها حوالي ثلاثة أمتار تقريباً، ممّا سمح له ببعض الحركة. لم تكن تلك السّلاسل ضروريّة في الواقع، فإلى أين سيهرب؟ -*«إلى أين أهرب من وجهك يا ربّي وأين أجد مأواي في ساعة الضّيق»*- قول كان يتلوه والده المتجهّم؛ آدم سترونزي، مقتبساً إيّاه من التّوراة، وقد قفزت الصّورة بعبثية إلى ذاكرة سترونزي وهو في زنزانته. كيف تذكّر فجأة هذا القول؟ ألم يمر أمدٌ طويلٌ مُنذ سمعه؟ كان وقع عذاب السّلاسل كبيرا جدا على عقله، بينما اعتاد آلام الجسد. بذل جهده كي يبقى مجاملاً. كان من المهمّ ألا يُظهر أيّ يأس أو يبدر عنه أيّ انتقاد وأن يبقى هادئاً. تعاملوا معه بدقّة وباحترام، وقد أثنى على معاملتهم تلك، فكانوا هم يحسنون معاملته وهو يرغب حقيقة في تأكيد ذلك. أما في ساعات اللّيل، وحين كان البرد يتسلّل إلى الزنزانة، فإنَّ الرُّعب كان يتجمّد داخله كما لو كان كتلة من الثّلج تسحب منه كلّ طاقة فتمنعه من أن يكون إيجابيّاً أو ليبقى فيه للطّيبة مكان. ما كان حتّى التّظاهر بذلك ممكناً. أحياناً حدث ذلك في النّهار أيضا، فكلّما رفع بصره ورأى سقف الزّنزانة الكئيب وقد تكثّفت الرّطوبة عليه مشكلّة نقاطاً تجمّعت لتنسلخ عن السقف في أيّ لحظة وتسقط ثقيلة على من تحتها، كانت يداه ترتجفان بشدّة فلا يستطيع السّيطرة عليهما. كم عذّبته حيرته فيما حلّ بكارولين ماتيلدا والطّفلة، وإن كانت كارولين ماتيلدا قادرة على إنقاذه. *يا إلهي، الذي لا وجود له،*

نعم لا وجود له، أسألك إن كانوا سيَعَرِضونني لاختبارات قاسية وإن كانوا سيغرزون مسامير الحديد في خصيتي وإن كنت سأستطيع تحمّل ذلك كله. ما عدا ذلك كان كلّ شيء على ما يرام؛ الطّعام جيّد وله طعم، خدمة الحرّاس لطيفة، ولا سبب للتّذمر أو للشّكوى حول المعاملة. كان قد عبّر للضّابط عن تعجّبه في الواقع من الطّريقة الإنسانيّة التي عومل بها. *لكن مجرّد التفكير في تلك الرّحلة الحلم، إلى جزر الهند الشّرقيّة البعيدة حيث الحاجة للأطباء شديدة جدّاً، تلك الرحلة لتي لم تتحقق! لو كنت تركتهم في التونا، لو أنني فقط ترجّلت من العربة*... وهناك الطّنين المستمر الذي عاوَدَهُ في ساعات اللّيل، والكوابيس التي بدأت تتلبّسه حول الرّقيب مورل كما كانت تظهر لكريستيان من قبله، كوابيس جعلته يفهم ما كان يراه كريستيان في منامه. *لم يكن التعذيب شبيهاً بالغوص في جراح الحَمَل، بل غرزوا المسامير في جسده فصاح بألم عظيم، قال له كريستيان واصفاً الحدث*،لكن سترونزي بقي هادئاً وممتناً لحسن المعاملة بل إنّه نجح في سرد بعض النّكات للحرس بين الوقت والآخر، معتقداً أنّها نالت إعجابهم.

في اليوم الثّالث لاعتقاله، أتاه غولدبيرغ زائراً.

سأله إن كان كلّ شيء على ما يُرام، فأجاب سترونزي بالإيجاب. حمل غولدبيرغ معه قائمةً بالمُمتلكات الّتي تّمت مصادرتها وطلب من سترونزي التّثبت من صحّة الفحوى. إنّها تلك القائمة الّتي استُهلّت بـ: «٣٥ قطعة ذهبية دنماركيّة» ثمّ: «علبة من مسحوق الأسنان» (كتبت بالدّنماركية!) وانتهت بـ: «مشط واحد» مع تعليقٍ غريبٍ يقول بأن «سترونزي يثبّت شعره دائماً إلى الخلف بمشطٍ مثل النّساء». تظاهر سترونزي بعدم رؤيته لهذا التّعليق وهزّ رأسه موافقاً على فحوى ما ورد في القائمة.

لم يحمل معه الكثير عندما أُعتُقِل. لقد فاجأوه إذ وقفوا في الغرفة وبأيديهم مشاعل متوهّجة. في تلك اللّحظة قال في نفسه: «لا مفر. لا مناص». لم يعد يذكر كيف حدث كلّ ذلك أصلاً. صعقه الخوف!

توجّه غولدبيرغ إلى سترونزي بالسّؤال حول إصابته بجروح في رأسه وكيفيّة حصول ذلك. لم يجبه سترونزي. أعاد غولدبيرغ السّؤال قائلاً إنّه وحسب تقرير الحرّاس، فقد حاول سترونزي الانتحار وذلك بضرب رأسه بقوة بالحائط وقد اندفع بكليّته مصطدماً به.

« أعرف وسيلة تجعل رغبتك في الحياة تزداد» قال غولدبيرغ، «وأنت في هذا الوضع الذي استجدّ عليك».

عندها مدّ غولدبيرغ يده لسترونزي وسلّمه كتاباً. كان الكتاب بعنوان قصة حياة مفكّر حر تائب، بقلم أوفه غولدبيرغ. تاريخ النشر: سنة ١٧٦٠.

شكره سترونزي.

«لكن لماذا أتيت؟» سأل سترونزي بعد صمت طويل.

ثم أضاف:

«سوف أموت على أي حال. وكلانا يعرف ذلك».

«صحيح. كلنا نعرف ذلك» قال غولدبيرغ.

« لماذا أتيت إذن؟»

كان اللقاءُ حقّاً غريباً.

بدا غولدبيرغ مهتما بأحوال سترونزي، وقد أقلقته عدم مبالاة السّجين. دار بقلق وتوتّر في الزّنزانة يشمشم مثل الكلب. نعم، بدا الأمر وكأنّ كلبا مميّزاً بشكلٍ خاص، قد حصل على بيتٍ جديدٍ، وأنّ صاحب هذا الكلب يتفقد البيت بعدم رضا. أمر غولدبيرغ بإحضار كرسيّ له كي يجلس عليه. أخذ الرّجلان؛ غولدبيرغ وسترونزي، يحدّقان في بعضهما.

استغرب سترونزي وقاحة الرّجل فقال بينه وبين نفسه: «إنه يرمقني دون خجل. دون خجل!»

قال غولدبيرغ لسترونزي بلهجة لطيفة: «إنه عملٌ متواضع لي، كتبته حين

كنت أدرِّسُ في أكاديمية سورو، وستجد فيه حكاية توبة ممتعة».

«لست خائفاً من الموت» قال سترونزي. «ومن الصّعب جدّاً أن أتراجع عن أفكاري».

«لا تقل ذلك» أجاب غولدبيرغ.

قبيل مغادرته الزّنزانة، أمسك غولدبيرغ بصورة محفورة على النّحاس، تصوّر كارولين ماتيلدا والأميرة الطّفلة -ابنة سترونزي- وهي في الشّهر الرّابع من عمرها.

«ما الذي تريده؟» سأله سترونزي.

«فكّرْ بالأمر!» قال غولدبيرغ.

«ما الذي تريده؟» سأل سترونزي ثانية.

بعد يومين، عاد غولدبيرغ لزيارة سترونزي مرّة أخرى.

«ساعات النّهار معدودة والضّوء شحيح» قال سترونزي. «لم أتمكّن من قراءة الكتاب. حتّى أنّني لم أبدأ بعد».

«أفهمك» قال غولدبيرغ. «هل تنوي أن تبدأ بالقراءة؟»

«أعود وأقول إنّه من الصعب أن أعود عن رأيي.»

دار ذلك الحديث في ساعات ما بعد الظّهر، وكانت الزّنزانة باردة جدّاً لدرجة أنّهما استطاعا رؤية الزّفير يخرج من فميهما.

«أريدك أن تتمعّن في صورة الفتاة الصّغيرة بتمهّل ورويّة» قال غولدبيرغ. «ابنة غير شرعيّة، صحيح. لكنّها حلوة جدّاً بل فاتنة».

قالها وخرج.

ماذا الّذي قصده يا ترى؟

الوقت يمضي تحت وطأة صمت مطبق، لا يتخلّله إلا تلك الزّيارات المتكرّرة والخاطفة. ما عدا ذلك: صمت! لم يقل له الحرّاس شيئاً. كانت نوافذ الزّنزانة

عاليةً جدّاً، والكتاب الوحيد المتوفّر للقراءة هو الكتاب الّذي أعطاه أيّاه غولدبيرغ إلى جانب الكتاب المقدّس. أخيراً، وبنوع من الشعور بالقهر، بدأ يقرأ في كتيّب غولدبيرغ. كانت القصّة مؤثّرة، لكنّها تثيرُ الضيّق بسطحيّتها ولغتها الوعظيّة، مما أفقدها عنصر الدراما. وصفت القصّة شخصاً صالحاً جدّاً، ذكيّاً، صريحاً لا يعرف المواربة، وله عددٌ كبيرٌ من الأصدقاء المقرّبين، حدث وأنّ وقع هذا الرّجل في شرك التّفكير الحّر ودُعاته. إلى أن اهتدى إلى الصّواب وأدرك خطأه فتاب وعاد عن فكر الضّلال.

هذا كان كلّ شيء.

بعد جهدٍ جهيدٍ وصل سترونزي إلى صفحة ١٨٦ من الكتاب والمكتوب باللّغة الدّنماركية، الّتي استطاع سترونزي فكّ رموزها بصعوبة بالغة دون أن يفهم مما قرأه شيئاً.

ما الّذي يريده غولدبيرغ بالضّبط؟

عاد غولدبيرغ بعد أربعة أيّام، فأُدخِلَ الكرسيّ الصّغير للزّنزانة كي يجلس عليه. نظر نحو السّجين الجالس على السّرير.

«قرأتُ الكتاب» قال سترونزي.

لم يجبه غولدبيرغ. جلس بهدوء تامّ وبعد صمتٍ طويل قال بصوتٍ هادئ لكنّه واضح:

«ذنبك عظيم. لقد لوّثت بعضوك عرش البلاد، وعليك أن تجتثّه باشمئزاز وترميه بعيداً. لكنّ ذلك ليس ذنبك الوحيد، فضميرك يحمل من الذّنوب المتراكمة ما هو أكثر بكثير. لقد زعزعت أمن البلاد وألقيت بها في حالة من الفوضى. وحده الله الواسع الرّحمة من لديه المقدرة على إنقاذ البلد. لقد تم إنقاذ الدّنمارك. لقد أُبطلت كلّ المراسيم الّتي أصدرتها، وتسلمت الآن حكومة قويّة زمام البلاد. ستعترف الآن وخطيّاً، بالعلاقة الحميمة، الشّائنة والشّنيعة التي أقمتها مع الملكة. يجب أن تعترف بالذّنب. بعدها، وبإشراف القسيس «بَلثاصار مونْتَر» الألماني مثلك، ستكتب

مسودة تصرح فيها خطيّاً عن تراجعك عن آرائك وتصف كيف اهتديت إلى التوبة عن كل أفكار الكفر والهرطقة التي ينادي بها رجال التنوير، وتعترف بالمقابل بحبك للمخلص؛ السّيد المسيح».

«أهذا كل ما في الأمر؟» سأل سترونزي بسخرية مبطّنة مقصودة.

«هذا كل ما في الأمر».

«وإن رفضتُ؟»

جلس غولدبيرغ، بجسمه الضئيل ولونه الرماديّ الشّاحب، محملقاً في سترونزي دون أن يرمش، كما هي حاله دائماً.

«لن ترفض. وبالتّالي، وبما أنّك ستوافق على هذه العودة إلى الصّواب، وستكون خير مثال للتّقوى كما وصفتها في كتابي المتواضع، فإني سأهتمّ شخصيّاً بألّا تُصاب طفلتك، ابنة الحرام، بالأذى. بألاّ تُقتل، وبألاّ ينجح الكثيرون – الكثيرون!!!- ممّن يودّون التأكّد من أنّه لن يتاح لها يوماً فرصة المطالبة بالعرش، بحلّ الموضوع على طريقتهم.»

أخيرا فهم سترونزي القصد.

«ابنتك» أضاف غولدبيرغ بصوت هادئ «هي الخلود كما تعتقد. أليست هذه هي نظريّة أصحاب الفكر الحرّ حول الحياة الأبديّة؟ ألا يعتقدون أنّها لا تتحقّق إلاّ من خلال النّسل؟ وبالتّالي فإنّ حياتك الأبديّة تعتمد على وجود هذه الطفلة؟»

«لن يجرؤوا على قتل طفلة بريئة».

«لا ينقصهم من الجرأة شيء».

جلسا لوقت طويل صامتين. ثم تساءل سترونزي بحماس تعجّب حتى هو نفسه منه، قائلاً:

«وماذا تعتقد أنت يا ترى؟ أتعتقد أن الله اختار كريستيان؟ أم أنّه اختار ولي العهد، صاحب اللّعاب السائل؟؟؟»

عندها قال غولدبيرغ بصوت هادئ ومنخفض:

«بما أنّك ستموت... فإنّي سأخبرك بأنّني لا أشاركك الرّأي بأن هؤلاء «الملوك البائسين» هم في الجوهر – وهو ما يُفهم من كلامك! في الجوهر! – محرومون من بركة الله. أعتقد أن هؤلاء الصّغار لهم أيضاً دورٌ أنيط بهم وحدهم. دور لم يُمنح للمتعجرفين وللفاسقين، أو للّذين يحصدون الإعجاب ويتمتّعون بالطّلعة الحسنة من أمثالك، ممّن ينظر لأولئك على أنّهم بائسون».

«أنا لا أنظر إليهم هكذا» قال سترونزي معترضاً بشدّة.

«كما أنّي أرى أن الله قد ألقى على عاتقي مهمّة حماية هؤلاء من رجال يُجسّدون الشّر من أمثالك. وأن مهمّتي، مهمّتي أمام التّاريخ، هي أن أُنقذ الدّنمارك».

وقف غولدبيرغ عند فتحة الباب وقال:

«فكّر بالأمر. غداً سيستعرضون أمامك الآلات».

أخذوه إلى الغرفة حيث آلات التّعذيب الّتي تستعمل في «التّحقيق المركّز».

أخذ الدّليل؛ وهو ضابط مسؤول عن الحرس، يشرح بإسهاب طرق استعمال الآلات المختلفة. أشار أيضاً إلى استعداد المجرم في حالات عديدة، لأن يتعاون مع المحقّق بعد لحظات قليلة من بدأ التّحقيق، رغم أنّ القانون يُلزم بفترة قد حُدّدت مسبقاً لكلّ جلسة تحقيق مركّز. تلك هي القوانين، ومن الضروريّ أن يُقرّ بها الطرفان، لتجاوز خطورة ما قد يحصل أثناء التّحقيق، إذ قد يظنّ الشّخص الّذي يتعرّض للتّحقيق لوهلة أنّ بإمكانه إيقاف عمليّة التّعذيب فجأةً إنْ رغب في ذلك، وهو خطر يبقى ماثلاً أمام المحقّق. الشّخص الخاضع للتّعذيب ليس هو من يقرّر مدّته. بعد أن يبدأ التّعذيب لا يمكن اختزال فترته المحّددة، حتّى لو حصل المحقق على اعتراف كامل، إلا إذا تمّ الاتّفاق على ذلك مسبقاً مع لجنة التّحقيق.

بعد الجولة الاستطلاعيّة على آلات التّعذيب، أُعيد سترونزي إلى زنزانته.

لم يعرف النّوم في تلك الليلة، وكانت تنتابه بين الحين والآخر نوبة من البكاء الحادّ.

أعاقته القيود من أن يصل الحائط ويشجّ رأسه به.

كان سجنه مُحكماً، وكان يدرك ذلك تماماً.

في اليوم التّالي سألوه إن كان يوافق على زيارة رجلٍ هو القس مونتر؛ رجل الدّين الّذي أعلن عن رغبته في أن يكون مرشداً لسترونزي، والّذي طمح إلى أن يسجّل قصة عودة سترونزي عن ضلاله.

أجاب سترونزي بنعم.

٢

عين قسٌّ آخر للحديث مع براندت وكان اسمه «دين–هيه». عبّر براندت حالاً عن استعداده للتّعاون الكامل ولتقديم تقرير يصرّح به عن عودته عن أفكاره وشرح ذلك للنّاس، ووصف الذّنب الّذي اقترفه وكيف أنّه تاب وها هو الآن يجثو بخشوعٍ عند أقدام المخلّص، سيّدنا المسيح.

أعلن براندت أيضا عن استعداده للتّبرؤ من كلّ أفكار التنويريّين، خاصّة تلك الّتي كان فولتير نصيرها. أما عن فولتير الرجل، فقد كان بإمكانه التّحدث عنه حديث العارف إذ سبق وزاره مرّة قبل أن يقوم الملك بجولته الأوروبيّة بزمن طويل، وأقام عند الرّجل أربعة أيّام بلياليها. لم يكن براندت مهتمّاً في تلك الفترة بمناقشة أفكار التّنويريّين بل بأمور الجماليّات الفنّية المتعلّقة بالمسرح، والّتي أثارت اهتمامه أكثر مما فعلت السّياسة. لم يرغب القسّ دين–هيه بالاستماع إلى المزيد من النّقاش حول المسرح، قائلاً إن ما يهمّه حقيقةً هو أمور براندت الرّوحيّة.

لم يكن براندت يعتقد بأنه سيُدان فعلاً أو سيُحكم عليه.

أكّد في رسالة كتبها لوالدته بأنْ «لن يغضب مني بعد اليوم أحدٌ ولوقت طويل. لقد سامحت الجميع كما سامحني الله».

في الأسابيع الأولى من سجنه، أمضى براندت الوقت وهو يصفر ويغنّي ألحاناً

أوبراليّة معتبراً الأمر عادياً لمن أوكلت إليه وظيفة ميتر دو بليزير أو ما سمي فيما بعد بـ «وزير الثقافة». بعد السابع من آذار/ مارس أُعيد له نايهُ فرقّةَ عن الجميع بعزفه الرائع.

كان يعتقد أن مسألة إطلاق سراحه هي مسألة وقت. وفي رسالة كتبها من سجنه للملك كريستيان السّابع، طلب منه أن يعيّنه في وظيفة حكومية «مهما قلّ شأنها».

فقط عندما أخبره محاميه بأن التُّهمة الرّئيسيّة وربّما الوحيدة التي سوف توجّه ضدّه هي تهمة تعدّيه جسدياً على الملك، وبالتّالي إهانة السّلطة الملكيّة، تنبّه براندت إلى خطورة الوضع.

أما قصة التّعدي على الذّات الملكيّة فكانت قصّة الإصبع تلك.

كان الحادث غريبا جدّاً لدرجة أن براندت نفسه أوشك على أن ينساه. لكن الواقع أنه قام فعلاً بعضّ سبابة كريستيان حتى أسال دمه. ها هي القصّة العابرة تعود للواجهة الآن. لهذا، بذل جهداً أكبر، وبمساعدة دين–هيه، لوضع نص ينقض به ويرفض التّفكير التّحرري ويعبّر عن احتقاره للفلاسفة الفرنسيّين، وقد نُشر النص المذكور في ألمانيا فانتشر بسرعة فائقة.

اطّلع على هذا الاعتراف ،الّذي كتبه براندت ونُشر في جريدة ألمانية، طالب شابٌ في الثّانية والعشرين من عمره من مدينة فرانكفورت يدعى «وولفغانغ غوته». وصف غوته تحفّظه على الأمر برمّته باعتباره تملّقاً للدّين، واضعاً فرضيّة تقول إنّه لا شكّ في أنّ براندت عاد عن أفكاره نتيجة التّعذيب أو التعرّض لنوع من أنواع الضّغط. لم يكن هذا الكلام صحيحاً فيما يتعلّق ببراندت. لكنّ هذا الشّاب؛ غوته، والّذي ثار غضباً للمصير الّذي لقيه سترونزي فيما بعد، تناول ريشةً وحبراً وراح يخطُّ مسودّة لرسم مرفق بمقال. صوّر الرّسم براندت وقد قُيّد بالأغلال في زنزانة سجنه وقد وقف أمامه القّس دين–هيه وهو منشغلٌ يشرح له بحركات يديه ضرورة العودة عن آرائه.

ذيل غوته الرسم بقصيدة ساخرة ربّما كانت أوّل ما نشره الرّجل على الإطلاق، وجاء فيها ما يلي:

دين–هيه:

«عن قريب، أيها الكونت، ستصطلي بالنّور الملائكيّ العظيم»

كونت براندت:

«يا للهول أيها القس، آية بلوى هذه التي تحسبها نعيما».

بالرّغم من كل ذلك، فقد تمّت السّيطرة على الأمور.

الطريقة الفعّالة، بل الفعّالة جدّاً للسّيطرة على السّجناء، كانت بتقييد قدم السّجين اليسرى بذراعه اليمنى بوساطة سلسلة لا يزيد طولها على المئة والثلاثين سنتمترا، وبتثبيت هذه السّلسلة بالحائط بوساطة حلقات متينة جدّاً. بعدها، كان يجرى ترتيب الأمور القانونيّة وبسرعة. في الـ ٢٠ من كانون الثّاني/ يناير شُكّلت محكمة للتّحقيق في القضيّة، تلتها تسمية للجنة التّحقيق المؤلّفة من اثنين وأربعين عضواً.

بقيت مشكلة واحدة فقط. كان من الواضح تماماً أنّ عقوبة سترونزي يجب أن تكون حكماً بالإعدام، وسيُحكم عليه به. لكنّ إشكالاً دستوريّاً كبيراً بقي معلّقاً. كان هذا الإشكال يتعلّق بالعاهرة الإنجليزيّة.

سجنت كارولين ماتيلدا في كرونبورغ، وبينما أُخذ منها ابنها؛ وليّ العهد البالغ من العمر أربع سنوات، سُمح لها بالاحتفاظ بالبنت الصّغيرة «لأنّها كانت ما تزال رضيعة». الإشكال هنا، أنّ طبيعة الملكة الصّلبة اختلفت عن طبيعة باقي السّجناء. كانت ببساطة من معدن أكثر صلابة. لم تعترف بشيء. ثم أنها في نهاية الأمر، أخت ملك إنجلترا.

أجريت بعض الاستجوابات الأولية، لكنّها لم تكن مشجّعة.

كانت الملكة هي المشكلة الحقيقيّة.

أُرسل غولدبيرغ إلى قلعة هاملت ومعه بعثة مكونّة من ثلاثة أعضاء هم لجنة التّحقيق الّتي ستساعده في إيجاد حلّ.

كان اللقاء الأول قصيراً جدّاً ورسميّاً. أنكرت فيه أيّ علاقة حميمة لها مع سترونزي أو أنه والد الطفلة. كانت في حالة غضب شديد ولكنّها تصرّفت بشكلٍ رسميّ منضبطٍ تماماً، مطالبةً لقاء السّفير الإنجليزي في كوبنهاغن.

استدار غولدبيرغ عند الباب وقال لها:

«إنّي أسألك مرّة أخرى: هل الطّفلة ابنة سترونزي؟»

«لا» أجابت بشكلٍ قاطع كالسّوط.

امتلأت عيناها بالخوف فجأة. استطاع غولدبيرغ أن يلمح ذلك الخوف.

وهكذا انتهى اللّقاء الأوّل.

الفصل السابع عشر

دائس المعصرة

١

بدأ التّحقيق مع ستروِنزي في ٢٠ شباط/ فبراير، السّاعة العاشرة صباحاً واستمرّ حتّى الثّانية من بعد الظّهر، دون الخروج بنتيجة.

أُكمل التّحقيق في ٢١ شباط/ فبراير، حيث ووجِه ستروِنزي بالمزيد من البراهين الّتي تثبت وجود علاقة حميمة وغير أخلاقيّة بينه وبين الملكة. قال الادّعاء إنّ الدّليل واضح لا لبس فيه. حتّى أكثر خدّام ستروِنزي وفاءً شهد ضده؛ وإن اعتقد أنّه كان محاطاً بدائرة ضيّقة من المخلصين الحريصين على حمايته، فلا بد من أنّه قد أدرك الآن، أن لا وجود لدائرة كهذه. بعد نهار طويل من التّحقيقات المضنية الّتي استمرّت طيلة اليوم الثّالث، وعندما أوشكت تلك التّحقيقات على الانتهاء، سأل ستروِنزي إن كان الوقت قد حان لأن تعطي الملكة الأمر بإنهاء تلك المهزلة المخزية في الحال. أتاه الجواب عندئذٍ بأنّ الملكة رهن الاعتقال وأنّها تقبع في معتقل قلعة كرونبورغ، وقد بدأ الملك بإجراءات الطّلاق، وإن كان ستروِنزي يعتقد أنه يستطيع الاعتماد عليها فإنّه يطلب المُحال.

نظر ستروِنزي إليهم غير مصدِّق، وسرعان ما أدرك الوضع.

انفجر فجأة ببكاء حادّ مرير، وطلب أن يعاد إلى زنزانته ليفكّر مليّا في الأمر.

رفضت لجنة التّحقيق طلبه بالطّبع، إذ اعتبرت أنّه لم يعد متّزناً وبالتالي فإن ساعة الاعتراف قد دنت، بل قرّرت تمديد فترة التّحقيق المقرّرة لذلك اليوم.

استمر ستروِنزي بالبكاء وقد بلغ به اليأس مداه، فاعترف بشكل فجائي

«وباستسلام وقنوط» أنّه كان على علاقة حميمة مع الملكة وأن علاقة جنسيّة («جماعا») - وهو المعنى الحرفي للكلمة كما وردت باللّغة الألمانية - جمعت بينهما.

في ٢٥ شباط/ فبراير وقّع سترونزي على نصّ اعتراف كامل.

انتشر الخبر بسرعة في أوروبا كلّها.

تراوحت التعليقات بين الغضب والاحتقار. أُدينت أفعال سترونزي، وإن لم تكن العلاقة مع الملكة هي سبب الإدانة، بل حقيقة أنه اعترف. علّق مراقب فرنسي بالقول: « لو كان فرنسيّاً لقال كلّ شيء ممكن أن يقال، إلاّ أن يعترف».

بات واضحاً أيضاً بأن سترونزي قد أصدر على نفسه الحكم بالموت لحظة وقّع على الاعتراف.

تمّ إرسال أربعة رجال إلى قلعة كرونبورغ، وقد كُلّفوا بمهمّة تقديم الاعتراف المكتوب بخط يد سترونزي إلى الملكة. يحقّ للملكة - وفقاً للمسؤولين الإداريّين - أن تطّلع على نسخة مصدّقة وأن تقرأها. حملت البعثة معها النُّسخة الأصليّة، كي تتحقّق الملكة بالمقارنة، من مصداقيّة النّسخة الّتي ستعرض عليها، دون أن يحقّ لها بأيّ حال من الأحوال أن تمسّ النسخة الأصليّة؛ وهكذا، سيرفع أحد أعضاء البعثة تلك النُسخة الأصليّة أمامها كي تتمكّن من رؤيتها، لكنّها لن توضع بشكل مباشر بين يديها.

كانوا يدركون جيّداً قوّة التّصميم الّتي تتمتّع بها ويهابون ثورات غضبها.

٢

كانت تجلس دائماً عند النافذة، تمدّ نظرها عبر بحر أورسند، والذي تجمد للمرّة الأولى خلال السّنوات الّتي قضتها في الدّنمارك، فكسته طبقةٌ سميكة من المياه المتجمّدة تلك السّنة.

كانت الثلج يتساقط كالحبال الدّقيقة على سطح الجليد مشكّلاً منظراً جميلاً جدّاً. وجدت أنّ المنظر الّذي تشكّله تلك الكثبان على سطح المياه المتجمّدة هو منظرٌ جميلٌ بالفعل.

لم تعد تعتقد أنّ هناك الكثير من الأمور الجميلة في هذه البلاد. كّل شيء كان في الواقع بشعاء رماديًا باهتا مقزّزا وعدائيا. لكنّها تمسّكت بكلّ ما هو جميل. الثّلج على شكل كثبان تتساقط فترسم على سطح الجليد خطوطاً، هو منظر جميل. يحدث ذلك ولو أحياناً، كما حدث يوماً حين أشرقت الشّمس فجأةً في ساعات ما بعد الظّهر لدقائق معدودة، فبدا كل شيء... جميلاً.

لكنّ حنينها كان للطّيور. كانت قد تعلّقت حبّاً بها قبل أن تلتقي بسترونزي، إذ اعتادت الوقوف عند شاطئ البحر تراقب الطّيور « تتدثّر بأحلامها» — وهو التّعبير الذي استعملته فيما بعد حين حدّثت سترونزي عن الطّيور– أو ترتفع عن الأرض لتختفي في الضّباب الّذي كاد أن يرفرف ملامساً سطح الماء.

غدت الفكرة القائلة إنّ الطّيور تستطيع هي أيضاً أن تحلم فكرة مهمة جدّاً: للطّيور أسرار إذن ولها أحلام. تعرف الطّيور الحبَّ كما تعرفه الأشجار، وقد يكون لها «توقّعات» وآمال، وقد تنهض يوماً وتنتفض ضاربةً بأجنحتها سطح المياه الرّماديّة اللون الزئبقيّة الثّقيلة وتختفي نحو شيء ما! نعم نحو شيء ما، نحو حياة ما، مختلفة. كم بدت الصورة رائعة!

أما الآن فلا أثر للطيور هنا.

إنّها قلعة هاملت! سبق أن حضرت عرضاً لمسرحيّة هاملت في لندن. كان هاملت ملكاً مجنوناً أرغم حبيبته على الانتحار. بكت أثناء العرض، وحين زارت كرونبورغ لأوّل مرّة بهرتها عظمة البناء الضّخم. أمّا الآن، فلم يعد عظيماً. ما هو إلاّ سجن زُجّت به والقصّة برمّتها مخيفة مرعبة. كرهت هاملت. لا تريد أن تصبح حياتها مادّة لمسرحيّة. تخيّلت أنّها ستكتب قصّة حياتها بنفسها. إن كانت أوفيليا قد قضت «سجينة الحبّ»، فسجينة ماذا هي الآن؟ أسجينة حبّ مثل أوفيليا؟ نعم،

إنّه الحبّ. لكنّها لا تنوي الوصول إلى مرحلة الجنون والموت. لا تريد بأيّ شكل من الأشكال أن تتحوّل إلى أوفيليا أخرى مهما كانت الظّروف.

رفضت أن تتحوّل إلى مادّة لمسرحيّة.

كرهت أوفيليا والزّهور الّتي زينّت شعر أوفيليا وموتها كشهيدة، كما كرهت أغنية أوفيليا السّاذجة المعتوهة الّتي تثير السّخرية. كانت تردّد في نفسها: «أنا ابنة عشرين ربيعاً لا غير». ابنة عشرين ربيعاً كانت. لم تكن سجينة مسرحيّة دنماركيّة كتبها إنجليزيّ، ولا سجينة أي مجنون. كانت ما تزال شابّة.

«آه، دع البراءة لي والعظمة لغيري». هذا المنطق هو منطق أوفيليا – هاملت. ياااا للسّخافة.

لكنّ الطّيّور تركتها فباتت وحيدة. أفي ذلك إشارة ما؟

كرهت أيضاً كلّ ما له علاقة بالأديرة وبالأسوار.

كان البلاط ديراً مسوّراً، وكانت أمّها ديراً، والملكة الأرملة أيضاً دير، وها هي الآن في كرونبورغ، ديّر آخر مسوّر. حيث الأسوار لا مكان للموهبة. هولدبيرغ لم يكن ديراً! لا ولا الطّيور كانت ديراً. ولا ركوب الخيل بملابس الرّجال كان ديراً. سترونزي هو الآخر لم يكن ديراً. عاشت في دير أمّها خمس عشرة سنة افتقدت خلالها لأيّ موهبة. ها هي الآن تجلس مرّة أخرى فيما يشبه الدّير، وبين هذا وذاك عاشت عهد سترونزي. جلست عند النّافذة تتأمّل كثبان الثّلج وتحاول أن تفهم طبيعة فترة سترونزي تلك.

كانت وبكلّ بساطة مرحلة نضوج، من طفلة ظنّت أنّها ابنة خمسة عشر ربيعاً إلى امرأة بلغت المئة من العمر. لقد تعلّمت الكثير.

كلّ شيء تغيّر خلال أربع سنوات.

أوّلاً كان ذلك المشهد المروّع حين قام الملك الصّغير المجنون بواجبه نحوها، ثمّ هناك البلاط المختلّ عقليّاً، حاله كحال الملك الّذي شعرت نحوه رغم ذلك بنوع

من الحبّ أحياناً. لا، لا، ليست هذه هي الكلمة الصحيحة فما شعرت به تجاه الملك لم يكن حبّاً، استبعدَتْ الكلمة. أوّلاً كان الدّير، تلته تلك السّنوات الأربع. حدث كلّ شيء بسرعة؛ وتبيّنت أنّها ليست بلا مواهب مُطلقاً، والأغرب من ذلك كلّه أنّها قد لقّنتهم درساً — لقّنتهم هم... درساً!!!— مفاده أنّها لا تفتقر للمواهب، وبالتّالي علّمتهم معنى الخوف.

هي إذن الفتاة الّتي انطلقت للدّنيا كي تعلّم النّاس الخوف.

كان سترونزي قد حكى لها مرّة حكاية شعبيّة ألمانيّة قديمة، تدور حول صبيّ خرج للدّنيا كي يتعلّم معنى الخوف. كان لهذا التّعبير، بصوت سترونزي وبلغته الألمانية، وقعٌ خاصّ وجميل، بل ساحر. لماذا حكى لها تلك الحكاية؟ هل أراد أن يخبرها قصّته؟ أن يُلمح لها بعلامة سرّيّة؟ وجدت فيما بعد أنّه كان يتحدّث عن نفسه. كان في القصّة صبيّ آخر بالطّبع. كان الصبيّ ذكيّاً، موهوباً، طيّباً ومحبوباً، لكنّه لم يقدر على الحركة بسبب الخوف. كان يخاف كلّ شيء. كلّ شيء. كلّ شيء أخافه. امتلأ بالمواهب القيّمة، لكنّ الخوف شلّ حركته. الخوف هو الّذي شلّ الصبيّ الموهوب.

أما الأخ الأحمق فلم يعرف للخوف معنى.

الأحمق هو الّذي انتصر.

ما المعنى الّذي أراد سترونزي أن يوصله لها عبر تلك الحكاية؟ أكان هو المقصود بها؟ أم أنّه قصدها هي؟ أم قصد الأعداء وكيف يجب أن يتصرّف المرء كي يعيش؟ أم رمى إلى الظّروف المحيطة بهم والّتي رفضوا أن يتأقلموا معها؟ ما الهدف من فعل الخير لأجل الخير؟ لماذا لم يجتثّ أعداءه، يُعدمهم، يَرْشِهم، ولماذا لم يخضع لقوانين لعبة الكبار؟

أَلأنّه كان يخاف الشرّ؟ هل خافه لدرجة أنّه لم يرغب في تلويث يديه بالإثم، وبالتّالي خسر كلّ شيء؟

حضرت بعثة مكوّنة من أربعة رجال لتخبرها أنّ سترونزي قد أودع السّجن وأنّه قد اعترف.

لابدّ من أنّهم عذّبوه. كانت شبه متأكّدة من ذلك. بعدها اعترف بكلّ شيء طبعاً. ما كان على سترونزي أن ينطلق للعالم الواسع في رحلة لاكتشاف الخوف، كان الخوف دائماً في أعماقه، لمحت ذلك بوضوح. أمّا ما لم تفهمه فهو عدم رغبته في أن يكون سائس جهاز السّلطة، محرّكها. شعرت بلذّة مميّزة حين أدركت هي بالمقابل ولأوّل مرّة أنّها تستطيع أن تبثّ الخوف في قلوب الآخرين.

أما هو فلا. كان هناك خطأ جوهريّ في طبعه. لماذا يقع الاختيار دوماً على الأشخاص غير المناسبين للقيام بالأفعال الصّالحة؟ لا يمكن أن يكون الله وراء ذلك. لابدّ من أنّه قد عُهد للشيطان باختيار من يصلحون أدوات لفعل الخير، ودائماً يختار للخير أصحاب الطّبيعة النّبيلة ممّن يعرفون معنى الخوف. لكن إن كان الطيّبون الأخيار غير قادرين على القتل والتّدمير، فإن الخير يبقى ضعيفاً لا قوّة ولا حيلة له.

يا للهول. هل يجب أن تكون الأمور فعلاً على هذا الشّكل؟ هل صحيح أنّها وأمثالها ممّن لم يعرفوا معنىً للخوف وتلذّذوا بسياسة الآخرين وتوجيه دفّة السّلطة وشعروا بالسّعادة لرؤية الآخرين يرتعدون خوفاً، هم من كان يصلح للقيام بالثّورة الدّنماركيّة؟

لا طيور في الخارج. لماذا اختفت الطّيور الآن وهي في أمسّ الحاجة إليها؟

حكى لها حكاية صبيّ كان لديه كلّ شيء، لكن الخوف سيطر عليه. الصبيّ الآخر كان هو بطل القصّة. الصبيّ الشّرّير، الخبيث، الأبله، الّذي لم يعرف معنى الخوف: ذاك من انتصر!

كيف يستطيع المرء أن يحتلّ العالم بالخير وحده إن لم يقوَ على الشرّ؟ كيف يمكن وضع ذراعٍ رافعة تحت بيت لرفعه، حين يكون البيت هو العالم كله؟

الشّتاء طويل، طويل لا ينتهي. والريح تندف الثلج على بحر أورسند.

متى سينتهي هذا كلّه؟

أربع سنوات كانت كلّ حياتها. بل أقلّ من ذلك في الواقع. بدأت حياتها يوم قرّرت أن تقبِّله حين كانا في المسرح الملكيّ. ألم يكن ذلك في ربيع سنة ١٧٧٠؟ عاشت سنتين إذن.

بأيّ سرعة كبرت. بأيّ سرعة ماتت.

لماذا كُتب عليها أن تذوب عشقاً بيوهان فرذريخ سترونزي، وقد حُكم على الطّيبين الصّالحين بالسّقوط وعلى الآخرين الّذين لا يعرفون الخوف بالنّصر؟

«آه، دع البراءة لي والعظمة لغيري».

كان هذا بالتّأكيد في «كان يا ما كان، في قديم الزمان».

٣

لم تتوصل بعثة الأربعة إلى شيء.

بعد أربعة أيّام، وصل غولدبيرغ.

حضر وحده، مشيراً للحرس بأن ينتظروا في الخارج. جلس على كرسيّ وأخذ يحدّق في عينيها مباشرة دون أن يرمش. لا، هذا الرّجل الضّئيل ليس رانتزاو، ليس بخائنٍ جبان، ويجب عدم الاستهانة به، إنّه ليس الشّخص الّذي يمكن التّلاعب به. كانت تنظر إليه في السّابق كما لو كان مثاراً للسخرية، بحجمه الضّئيل ولونه الرّمادي الباهت؛ لكن يظهر أنّه تغير؛ فما الذي تغيّر فيه يا ترى؟ ليس بالرّجل السّهل. إنّه خصم فاتك قاتل، وقد أساءت تقديره. ها هو الآن يجلس على كرسيّه محملقاً بها دون أن يرمش. ما هذا الّذي في عينيه؟ قال النّاس إنّه لا يرمش أبداً، لكن أليس في الأمر ما هو أكثر من ذلك؟ تحدّث إليها بهدوء وتأنٍّ، مصرّحاً ببرود

بأنّ الملك – وقد اعترف سترونزي كما سبق وأُعْلِمت– يرغب في الطّلاق وبالتالي فإن اعترافها بات ضرورة ملحّة.

«لا»، ردّت قائلة بالهدوء نفسه الذي تحدّث إليها به.

«في هذه الحال» قال غولدبيرغ، «فإنّنا نعتبر أن سترونزي قد لطّخ سمعة ملكة الدّنمارك، وسيلقى العقاب المناسب لهذه التّهمة، بما يفوق ما سبق وأُقرّ بكثير. علينا أن نحكم عليه بالموت البطيء سحقاً بدولاب تهشيم العظام».

نظر إليها بهدوء تام.

«أيّها الخنزير» قالت له كارولين ماتيلدا. «وماذا بخصوص الطّفلة؟»

«هناك دائماً من يدفع الثّمن» قال. «من يدفع...الثّمن!».

«مما يعني؟»

«أن طفلة الحرام ابنة العاهرة، يجب أن تُؤخذ منك».

كانت تعلم أن عليها الحفاظ على رباطة جأشها، فقد اعتمدت حياة طفلتها عليها، ولذلك يجب أن تبقى هادئة وتفكّر برويّة ووضوح.

«شيء واحد فقط أعجز عن فهمه»، قالت بصوت أحسنت التّحكم به جيّداً، رغم أنّه بدا لها صوتاً مرتجفاً ضعيفاً: «رغبة الانتقام هذه، لا أفهمها. من أيّ مادة خلق شخص مثلك؟ هل أنت صنيعة الله؟ أم أنّك صنيعة الشّيطان؟»

نظر إليها وأطال النّظر.

«للفسق ثمن. ومهمّتي هي أن أقنعك بالتّوقيع على الاعتراف».

«لكنّك لم تجبني» قالت له.

«أتريدين حقّاً الجواب؟»

«نعم، حقّا أريد الجواب».

عندها سحب بتمهل كتاباً من جيبه، نظر بتمعّن في الكتاب مقلّباً صفحاته وبدأ يقرأ. كان الكتاب هو العهد القديم. تنبّهت فجأة إلى أنّ صوته جميلٌ في الواقع، لكنّ شيئاً ما، شيئاً مروّعاً ما، يكمن في هدوئه وتحكّمه بأعصابه كما في

النّص الذي اختار أن يقرأه على مسامعها: «هذا سفر أشعياء» قال. «الأصحاح الرّابع والثلاثون. هل أقرأ عليك بعضاً منه؟» ثمّ تلا قارئا: *«لأنّ للرّبّ سخطاً على كلّ الأمم وحموّاً على كلّ جيشهم، قد حرّمهم دفعهم إلى الذّبح. فقتلاهم تطرح وجيفهم تصعد نتانتها وتسيل الجبال بدمائهم. ويفنى كلّ جند السّموات وتلتف السّموات كدرج وكلّ جندها ينتثر كانتثار الورق من الكرمة والسّقاط من التينة»*.

ثم قلب الصّفحة ببطء شديد وتأمّل كما لو أنّه كان يستمع للحن الكلمات. «يا إلهي» فكّرت كارولين ماتيلدا في نفسها «كيف استهنتُ يوماً بهذا الرّجل؟». *«لأنّه قد رويَ في السّموات سيفي. هو ذا على أدوم ينزل وعلى شعب حرّمته للدّينونة. للرّبّ سيف قد امتلأ دماً طلي بشحم بدم خراف وتيوس بشحم كلى كباش»*. *«نعم»* أردف غولدبيرغ مؤكّداً وقد تصاعد صوته قوّةً، بينما لم تستطع كارولين ماتيلدا أن تتجنّب النّظر إليه بما يُشبه الإعجاب أو الرُّعب أو كليهما معاً.

« لأنّ للرّبّ ذبيحة في بصرة وذبحاً عظيماً في أرض أدوم. ويسقط البقر الوحشيّ معها والعجول مع الثيران وتروى أرضهم من الدّم وترابهم من الشّحم يسمّن. لأنّ للرّبّ يوم انتقام سنة جزاء من أجل دعوى صهيون.

وتتحوّل أنهارها زفتاً وترابها كبريتاً وتصير أرضها زفتا مشتعلاً. ليلاً ونهاراً لا تنطفئ. إلى الأبد يصعد دخانها. من دور إلى دور تخرب. إلى أبد الآبدين لا يكون من يجتاز فيها. ويرثها القوق والقنفذ. والكركيّ والغراب يسكنان فيها ويمدّ عليها خيط الخراب ومطمار الخلاء. أشرافها ليس هناك من يدعونه الملك وكلّ رؤسائها يكونون عدماً. ويطلع في قصورها الشّوك. القريص والعوسج في حصونها فتكون مسكناً للذئاب وداراً لبنات النّعام. وتلاقي وحوش القفر بنات آوى ومعز الوحش يدعو صاحبه. هناك يستقرّ اللّيل ويجد لنفسه محلاً. هناك تحجر النّكارة وتبيض وتفرخ وتربي تحت ظلّها. وهناك تجتمع الشّواهين بعضها ببعض». «نعم» أكمل بنبرة الصّوت الهادئة والعميقة ذاتها. «هذا ما جاء على لسان النّبي، أقرأها عليك فقط حتّى أعطيك فكرة عن العقاب الّذي سيجده مرتكبو الفحشاء والمعاصي.

الفحشاء والمعاصي» كرّر برتابة وهو يحملق بها. فجأة، رأت عينيه. لا، ليس بصحيح أنّهما لا ترمشان، إنّما السرّ في لونهما الباهت والقريب من الأزرق الفاتح جدّاً كلون الجليد، أو كلون عينيّ الثّعلب، ذلك اللّون الباهت جدّاً والخطير. هذا هو ما أخاف كلّ من نظر إليه. إنّه اللّونُ إذن. وأكمل غولدبيرغ قائلاً: «نصل الآن إلى الفقرة التي أوصت الملكة الأرملة بقراءتها في كلّ كنائس المملكة يوم الأحد القادم – وذلك حسب نصيحتي – تعبيراً عن شكرنا لله الّذي حال دون أن تلقى بلادنا مصيراً كمصير أدوم. أقرأ عليك الآن النّص وهو من سفر أشعياء النّبيّ، الأصحاح الثّالث والسّتون: «*مَنْ ذا الآتي مِنْ أُدومَ بثيابٍ حُمْرٍ مِنْ بُصْرَةَ، هذا البهيُّ بملابسه المُتعظّم بكَثْرَةِ قوّته. أنا المُتَكلّم بالبِرِّ العظيمُ للخلاصِ. ما بالُ لباسكَ مُحْمَرٌّ وَثيابُكَ كدائسِ المِعْصَرَةِ. قَدْ دُسْتُ المِعْصَرَةَ وَحْدي وَمِنَ الشُّعوبِ لَمْ يَكُنْ مَعي أَحَدٌ. فَدُسْتُهم بغَضبي وَوَطِئْتُهم بغَيظي فَرُشَّ عَصيرُهم على ثيابي فَلَطَّخْتُ كُلَّ ملابسي. لأَنَّ يَوْمَ النَّقمَةِ في قَلْبي وَسَنَةَ مفديّيَّ قد أتت. فَنَظَرْتُ وَلَمْ يكُنْ مُعينٌ وَتَحَيَّرْتُ إذْ لم يكُن عاضِدٌ فَخلَصَتْ لي ذراعي وَغَيْظي عَضَدَني. فَدُسْتُ شعوباً بِغَضَبي وَأَسْكَرْتُهم بغَيظي وَأَجْرَيْتُ عَلَى الأرْضِ عَصيرَهم.*»

ثم توقّف عن القراءة ونظر إليها.

«دائسُ المعصرة» قالت، كأنّما بينها وبين نفسها.

«كان قد وُجّه إليّ سؤالٌ لم أرغب في التّهرب من الإجابة عنه» قال غولدبيرغ. «وها أنا الآن قد أجبت».

«وما الجواب؟» همست.

«ما قلتُ».

فكرت في نفسها للحظة، بينما كانت تراقب دائس المعصرة يقرأ متأنيّاً وبرتابة، أنّ ما كان يحتاج إليه سترونزي إلى جانبه هو ربّما دائس معصرة كهذا.

عينا ثعلب بلون الجليد، ثيابٌ ملطّخةٌ بالدّماء، هدوءٌ وسكونٌ ومزاجٌ جاهز

لتنفيذ مهام اللّعبة الكبرى. شعرت بالغثيان حين راودتها تلك الفكرة. لم تكن فكرة كهذه لتغري سترونزي. لكنّ مجرّد أنّ الفكرة أغرتها هي، أمرٌ أشعرها بالغثيان. فهل تكون نكّارة متوحّشة كالوارد ذكرها في التّوراة؟ هل كان في داخلها دائس معصرة صغير؟

قالت في نفسها أن «لا»، فهي مقتنعة بذلك. لكن إلى أين سينتهي بها الأمر؟ إلى أين؟

في النّهاية... وقّعت على الاعتراف!

لم يُذكر شيء عن ولادة الطّفلة. لكن ورد ذِكر الزّنى، وقد كتبت بيدٍ ثابتةٍ وبغضبٍ دون ذكر التّفاصيل أنّها تعترف « بما اعترف به الكونت سترونزي».

كتبت بيد ثابتة كي لا يتعرّض سترونزي للتّعذيب البطيء حتّى الموت، وقد اتّهمها بالكذب وبالتّالي أهان الخاصّة الملكية، وكانت تعلم مدى عذابه، لكن الأمر المُلحّ الّذي سيطر على تفكيرها كان: الأولاد، فماذا بخصوص الطّفلين؟ الصّبيّ كبير لكنّ البنت الرّضيعة تحتاج لرعايتي، البنت صغيرة جدّاً، سيأخذونها منّي، وستحيط بهما الذّئاب، فماذا سيحصل؟ صغيرتي لويزا، ما مصيرها؟ سيأخذونهما منّي فمن سيرعى لويزا يا ترى؟ من سيحْبوها بالعاطفة ويحيطها بالحبّ وهي بين دائسي المعاصر هؤلاء؟

لقد وَقَّعَتْ. أدركت تماماً أنّها لم تعد الفتاة الجريئة الّتي لا تعرف الخوف. لقد وجد الخوف طريقه إليها في نهاية الأمر، وها هي قد عرفت الخوف في نهاية المطاف.

٤

أخيراً سُمح للسّفير البريطاني؛ السّيد كيث، بزيارة الملكة السّجينة.

رُفعت القضيّة إلى مستوىً أرفع، وبدأت اللُّعبة الكبرى الّتي لم تعبأ بالسّجينين

الآخرين وكلّ منهما يحمل لقب «كونت»، أو بغيرهم من الخاطئين الصّغار ممّن سُجن بالمعيّة. هؤلاء، لاقوا مصائر مختلفة، فمنهم من أُطلق سراحه ومنهم من أُبعد وحُرم من حقوقه وممتلكاته ومنهم من حَصل على عفوٍ ومُنح إقطاعيّة صغيرة، وبالإضافة إلى ذلك أُنهيتْ خدماته.

اختفى هؤلاء الصغار بهدوء.

أحد المُبعدين كان ريفيرديل؛ ذلك المعلم الحذر، مربّي كريستيان المقرّب إلى قلبه ومرشده المفضّل، الرّجل الّذي اعتنى بالصّبيّ طيلة الوقت ونصحه يوم كان للنّصيحة مكان. أُبعد هذا الرّجل أيضاً. وُضع بداية الأمر في حبسٍ منزليّ لمدّة أسبوع، فجلس بهدوءٍ وانتظر. كانت تصله رسائل متناقضة، انتهت بوصول أمر مختصر ولكنّه مؤدّب، يحمل قرار الإبعاد ويعلمه أنّ عليه العودة بالسّرعة الممكنة إلى مسقط رأسه، حيث سيجد الرّاحة.

فهم المغزى. انسحب من عين العاصفة ببطءٍ شديدٍ وحذر في رحلة العودة، لأنّه لم يشأ أن يبدو كالهارب، كما كتب. هكذا انسحب من التّاريخ، خطوة خطوة، اضّطر للهروب مقموعاً، أُبعد للمرّة الثّانية، نحيلاً، صغير الجسم، حزيناً ولكن دوماً صاحب رؤية واضحة. لقد اختفى على مهلٍ كما شمس الغروب. الصّورة بسيطة، لكنّها لاءمت إيلي سالومون فرانسوا ريفيرديل. لو كان هو من وصف الحال، لكان وصفه هكذا، ولكان استخدم هذه الصّور الّتي أحبّ لوصف تلك الحال. أحبّ الحديث عن التّمهل في تحقيق الفضيلة، عن الثّورة الحذرة، عن الانسحاب البطيء، وعن الفجر والغسق في مسألة التّنوير.

لم تعبأ اللّعبة الكبرى بالشّخصيات الصغرى.

بل اهتمت اللّعبة الكبرى بالعاهرة الإنجليزية، أو الأميرة الصّغيرة، ملكة الدّنمارك المتوّجة وشقيقة الملك جورج الثّالث، المرأة المتنوّرة الجالسة على عرش الدّنمارك والّتي قدّرتها كاثرين – قيصرة روسيا– أحسن تقدير. إنّها السّجينة الشّابّة الباكية، والواقعة

في حيرة كبرى وغضب عارم؛ إنّها كاترين ماتيلدا.

إنّها الجنيّة الشّريرة، ملاك الضّلال. هل هي فعلاً كلّ ذلك؟ ولو كانت بالفعل كذلك، أليست أمّ طفلين من العائلة المالكة يشكّلان بالنّسبة لها مصدر قوّة؟

كان تحليل غولدبيرغ واضحاً لا غبار عليه. في اللحظة التي توقّع بها الملكة على الاعتراف بعلاقتها مع سترونزي، يصبح طلاقها ضرورة ملحّة، تُمنع بموجبه، وكذلك ابنتها، من المطالبة بالعرش. اعترف غولدبيرغ بأنّ الطّبقة الحاكمة باتت نسخة طبق الأصل من تلك التّي كانت موجودة أثناء فترة حكم سترونزي، فهي مثلها، تعتمد في وجودها على شرعيّة الملك المجنون وحضوره الصّوري. الله هو من يمنح السّلطة. لكنّ كريستيان ما زال هو اليد التّي يحرّك بها الله الأمور، يمنح الحياة، ويمدّ بالقوّة من يمتلك الجرأة على ملء الفراغ المُعتم الذي تسبّب به مرض الملك.

حل طبيب الملك زائراً على حالة الفراغ ذاك، فملأه. لقد رحل الطّبيب الآن، لكن زوّاراً آخرين سيحلّون مكانه، وسيملأون الفراغ.

بقي الوضع على حاله إذن، لم يتغيّر شيء. كلّ ما حدث هو قلب الأدوار.

اللعبة الكبرى كانت تتعلّق بمصير الملكة.

اعترف كريستيان بأنّه هو والد الطّفلة الصّغيرة، فالتّصريح بأنّها ابنة زنى كان سيُسبّب له إهانة أخرى، وسيُفقده السّلطة التّي كان لا يستطيع أن يمنح الشّرعية للحكومة الجديدة إلاّ بواسطتها. لو كانت الطّفلة ابنة زنى، فقد يُسمح للأم أن تحتفظ بها، وفي هذه الحال لن يكون هناك سبب لإبقاء الطّفلة في الدّنمارك، وذلك ما يجب ألاّ يحدث بتاتاً. كذلك يجب ألاّ يُعلن عن حقيقة جنون الملك، وذلك للسّبب نفسه؛ أي أنّ السّلطة كلّها ستنتقل إلى الابن الشّرعي، وبالتّالي، وبشكل غير مباشر، لوالدة ذلك الطّفل، أي إلى كارولين ماتيلدا.

لذلك، ثُبِّتَتْ علاقة الزنى، والتّي بسببها صار الطلاق واجباً.

بقي السّؤال المهّم حول طبيعة ردّ فعل الملك الإنجليزي، وقد تعرّضت شقيقته للإهانة.

مرّت فترة كانت فيها الحيرة سيّدة الموقف، فهل ستقوم الحرب؟ أم أنه لن تكون هنالك حرب؟ أمر الملك جورج الثّالث بتجهيز فرقة بحريّة تكون مستعدّة للهجوم على الدّنمارك في حال حرمت شقيقته من حقوقها. في الوقت نفسه، قامت الصّحف الإنجليزية وبعض المطبوعات بنشر مقاطع من اعترافات سترونزي. تمتّعت حريّة الصّحافة في إنجلترا بالتّقدير لكنّها اتصّفت أيضاً بالتّشهير، وقصّة جذّابة مثل قصّة الطّبيب الألماني والملكة الإنكليزية الشّابّة، كانت بالتّأكيد قصّة لا تُقاوم.

أمّا أن تقوم حرب – فلماذا؟

بات واضحاً بعد عدّة أسابيع، بأنّ الدّخول في حرب كبرى بسبب إهانة الكبرياء القوميّ، هو ليس بتلك السّهولة، وأخذت فرص الحرب تقلّ مع مرور الوقت. لم يكن التّأييد الشّعبيّ للتورط في حرب سببها عدم وفاء كارولين ماتيلدا لزوجها جنسيّاً بالأمر المضمون!. صحيح أنّ حروباً كثيرة سبق وأن قامت لأسباب أقلّ شأناً وأكثر غرابةً من إهانة الكبرياء القوميّ، لكنّ إنجلترا باتت متردّدة حول هذه المسألة.

توصّل الطّرفان إلى تسوية في نهاية المطاف. لن تُسجن الملكة في أولبورغ–هوس مدى الحياة. ستتمّ الموافقة على الطّلاق وسيُؤخذ منها الولدان. سيتمّ إبعادُها نهائيّاً عن الدّنمارك وسيتوجّب عليها أن تختار طوعاً الإقامة تحت المراقبة في أحد القصور التّابعة للملك الإنجليزي على التّراب الألمانيّ، وتحديداً في تسيلي التّابعة لمنطقة هانوفر.

ستحتفظ كارولين ماتيلدا بلقبها كملكة.

في ٢٧ أيار/ مايو سنة ١٧٧٢، وصلت إلى ميناء هيلسينغور فرقة صغيرة من البحريّة الإنجليزيّة تضمّ فرقاطتين، زورقاً بحريّاً ويختاً ملكيّاً.

وفي ذلك اليوم، أُخذت الطّفلة الصّغيرة من حضن أمّها.

قبل ذلك بيوم واحد فقط، أُبلغت كارولين-ماتيلدا أنّ عليها التّخليّ عن الطّفلة في اليوم التّالي. كانت تعرف منذ وقت طويل أنّ ذلك سيحدث، دون أن تعرف متى سيحدث مما جعلها تعيش حالة من القلق المستمر. لم تترك الطّفلة بسلام وحدها ولو للحظة، فقد حملتها على ذراعيها أينما تحركت وطوال الوقت. صار عمر الطّفلة عشرة شهور الآن وصار بإمكانها أن تمشي لو أَخَذَ أحدٌ بيدها. تمتّعت الطّفلة بطبيعةٍ هانئة، وقد رفضت الملكة رعاية أيّ وصيفة للصّغيرة خلال تلك الأيّام الأخيرة. حين ملّت الطّفلة من الألعاب البسيطة الّتي ابتكرتها أمّها لتسليها، ولتتسلّى بها هي أيضاً، احتلّت الثّياب دوراً مهمّاً كبديلٍ للتّسلية. بل إنّ الأمر قارب الهوس، اعترفتُ بكلّ ذنبٍ اقترفتُهُ عَلّني أَحْتفظُ بالطّفلةِ، بالطّفلة فقط، فيا إلهي يا دائس المعصرة، إنّي أراهم قادمين بثيابهم الملطّخة بالدّم و الآن سيقبض هؤلاء الذّئاب على زمام الأمور، لكنّ عملية إلباس ابنتها الثّياب ثم خلعها لتبديلها، لم تكن دائماً ضروريّة، بل إنّ تلك الحركة كانت في معظم الأحيان غير ضروريّة أبداً، إن لم نقل إنّها كانت نوعاً من الطّقوس الّتي مارستها تعويضاً عن حرمانٍ سيأتي، وكسباً لمحبّة الفتاة حين ستُباعد الأيّام بينهُما. في صباح ٢٧ أيّار/ مايو، وعندما رأت الملكة الزّوارق الثّلاثة ترسو في الميناء، كان عدد المرّات الّتي بدّلت بها الثّياب لطفلتها قد بلغ العشر مرّات ودونما سبب. وكلّما اعترضت الوصيفات، جابهتهُنّ بكلام حادّ وبثورة من الغضب العارم مصحوبٍ بسيلٍ من الدّموع.

في اللّحظة الّتي وصلت بها بعثة الحكومة الدّنماركية، فقدت الملكة أعصابها تماماً. صارت تصرخ دون أن يستطيع أن يردعها شيء. رفضت التخلي عن الطفلة. استمرت بالبكاء لولا نصائح البعثة وحثها بوضوح على عدم إثارة رعب الطّفلة البريئة، وأن تتصرّف بشجاعة وبعزّة نفس، يا للمهانة، ليتني كنت دائسة معصرة في هذه اللّحظة... وهذه المسكينة.

نجحوا أخيراً بانتزاع الطّفلة من بين يديها دون التّسبّب بالأذى، لا للطّفلة ولا للملكة.

وقفت بعدها عند النّافذة كالعادة وكانت تبدو هادئة، بينما اتجهت أنظارها جنوباً، نحو كوبنهاغن.

الفراغ في كلّ مكان. كل شيء ينضح بالفراغ، حتى في الأفكار فراغ. لقد سلّمت لويزا الصّغيرة لعصابة من الذّئاب الدّنماركيّين.

٥

في الثّلاثين من أيّار/ مايو وفي السّاعة السّادسة مساءً تمّ التّسليم. نزل الضّباط الإنجليز إلى الشّاطيء، وبمعيّتهم حرّاس مسلّحون من البحّارة الإنجليز؛ خمسون رجلاً قويّاً. أتوا كي يُرافقوا كارولين ماتيلدا في رحلة إبعادها.

كان اللّقاء مع فرق الحرس العسكريّ الدنماركيّ في قلعة كرونبورغ غير عاديّ أبداً. لم يُلق الضّباط الإنكليز التّحيّة على الحرس الدّنماركيّ حسب العُرف المتّبع. لم يتبادلوا ولو كلمة واحدة مع رجال البلاط أو الضّباط؛ بل قابلوهم ببرود وبمنتهى الازدراء. شكّلوا بالمقابل حرس شرفٍ أحاط بالملكة، وألقوا عليها التّحيّة العسكريّة، ثم أطلقت المدفعيّة من على السّفن وابلاً من الطّلقات تحيّة لها.

حين وصلت إلى الميناء، مشت بين الحرس الإنجليزيّ الّذي اصطفّ في صفّين متقابلين وألقى عليها التحيّة.

تمّت بعد ذلك مرافقتها نحو سفينة شراعيّة إنجليزيّة صغيرة، ومنها انتقلت إلى البارجة.

كانت الملكة هادئة جدّاً ومتماسكة. تحدّثت إلى مواطنيها بودّ، وقد عبّر هؤلاء عن ازدرائهم لفرق الحرس الدّنماركيّ ورغبوا في إظهار رفضهم للطّريقة الّتي عوملت بها. لقد أحاطوها برعايتهم. لا يمكن وضع التّصرفات الّتي قاموا بها في خانة القيام بالواجب العسكريّ، إنّما كانت تعبيراً عن الحبّ. لا شكّ في أنّهم، ورغم كلّ شيء، اعتبروها ابنتهم الصّغيرة. كلّ ما قاموا به كان يعبّر عن ذلك.

لقد أساء الدّنماركيّون معاملتها وأراد أبناء جلدتها أن يعبّروا للدّنماركيّين عن ازدرائهم لهم بسبب ذلك.

بهدوءٍ وعزمٍ. هكذا سارت بين طاقم الحرس من البّحارة الإنجليز الّذين اصطفّوا على الجانبين وقدّموا لها التّحيّة. لا ابتسامات ولا دموع! هكذا، اختلفت لحظة مغادرتها للدّنمارك كليّاً عن لحظة وصولها إليها. بكت يومها دون أن تعلم السّبب. لم تبك الآن رغم وجود سببٍ واحدٍ على الأقلّ، لكنّها كانت قد اتّخذت قرارها.

لقد رافقوها في رحلة الإبعاد. بهيبةٍ عسكريّةٍ واضحةٍ رافقوها. وإن باحتقارٍ جليّ لمن تركت، فبكلّ الحبّ لها رافقوها. هكذا انتهت زيارة الفتاة الإنجليزيّة الصّغيرة إلى الدّنمارك، وهكذا أعيدت إلى الوطن.

الفصل الثامن عشر

النهر

١

سيحين وقت الانتقام، وسيأتي اليوم الّذي سيقوم به دائس المعصرة بمهمّته.

رغم محاولة تجميل صورة دائس المعصرة، فإنّ الشّعور بوجود خلل ما، بقي حاضراً. لم يستطع غولدبيرغ أن يستدلّ على الخلل. تُلي النّصّ التوراتيّ الّذي اختاره غولدبيرغ من رسالة أشعياء النّبيّ أثناء القدّاس في الكنائس ذلك اليوم، وكان كلّ تعبير ممّا ورد في النّص لتفسير مهمّة دائس المعصرة يثير الصّدمة أكثر من سابقه. اعْتَبر غولدبيرغ النّصّ مناسباً للحدث، ووافقته الملكة الأرملة باعتبار أنّ يوم الانتقام قد حان بالفعل. «... *دُسْت شُعوبا بِغَضبي وَأَسْكَرْتُهُم بِغَيظي وَأَجْرَيتُ عَلى الأَرْضِ عَصيرَهُم*». كانت هذه الكلمات في نظر غولدبيرغ والملكة الأرملة هي الكلمات الصّحيحة والمعبّرة، فهكذا تتحقّق العدالة. مع ذلك، بدت تلك الكلمات فظيعة مروّعة لحظة قرأها غولدبيرغ على مسامع العاهرة الإنجليزيّة في سجنها. لماذا رمقته بتلك النّظرة؟ كانت هي من أحضر عدوى الخطيئة إلى المملكة الدنماركيّة كما اعتقد غولدبيرغ، فقد كان على يقين من أنّها جنيّة خبيثة، «نكّارة اللّيل» كما جاء في النّصّ أو الملاك الشّيطان. «*فتَكونُ مَسْكَنا للذّئاب ودارًا لبنات النّعام. وَتُلاقي وُحوش القَفر بَنات آوى وَمَعْزُ الوَحْش يَدْعو صاحِبَه. هُناكَ يَستَقِرُّ اللّيلُ وَيَجِدُ لِنَفسِه مَحلاً. هُناكَ تُحْجِرُ النَّكارَة وَتبيضُ وَتُفْرِخ وَتُرَبّي تَحت ظِلّها.*» إنّها لتّستحقّ ذلك فهي تعرف أنّها نكّارة اللّيل، وقد سبق وأن كانت السّبب الّذي جعله يجثو على ركبتيه عند حافّة السّرير استغفاراً حين أثارته بقوّة سحرها،» فيا

إلهي كيف السّبيل إلى أن نحافظ على أنفسنا من المعصية وارتكاب الفواحش؟»

لكنّه رأى وجهها. لحظة رفع عينيه عن النّصّ الصّادق العادل ذاك من الكتاب المقدّس، رأى وجهها! وجهها مجرّداً! فصار ذلك كل ما يراه، لا نكّارة ليل بل مجرّد طفلة. رأى البراءة مكتملةً ومتمثّلةً... بطفلة.

بعد أسبوعين من لقاء غولدبيرغ بكارولين ماتيلدا ذاك، وقبل أن يصدر الحكم، أُصيب الرّجل فجأة بنوبة من الشّك. كانت تلك أوّل مرّة يصاب بها غولدبيرغ بحالة كهذه في حياته، وقد اعتبر الأمر نوعاً من اليأس وضياع الأمل. لم يجد كلمات أخرى يصف بها حاله.

ما حدث كان الآتي:

أوشكت التّحقيقات مع سترونزي وبراندت على أن تكتمل. بات ذنب سترونزي واضحاً، والعقاب الوحيد هو الموت. قام غولدبيرغ عندها بزيارة للملكة الأرملة وتباحث معها عمّا اعتبره الحكم الأنسب والأكثر حكمة.

بدأ غولدبيرغ الكلام قائلاً: «من منظور سياسيّ فإنّ الإعدام لن يكون الحكم الأنسب، وسيكون من الأفضل إصدار حكم أقلّ صرامة...».

«أعربت قيصرة روسيا عن أملها بإرجاء تنفيذ الحكم، وهذا ما لا أريد أن سماعه»، قاطعته الملكة الأرملة قائلة. «كذلك فعل ملك إنجلترا وبعض الملوك الآخرين ممّن أصابتهم عدوى التّنوير. جوابي لكلّ هؤلاء واحد».

«وهو؟»

«لا!».

كانت عنيدة صعبة المراس. صارت تتحدّث فجأة عن النّار المستعرة المشتعلة في البراري والّتي ستنتشر في العالم أجمع وتقضي على كلّ شيء وتمحو أيّ أثر يتعلّق بفترة سترونزي. عندها لن يكون هناك مكان للعاطفة. استمرّت تتكلّم وهو يصغي! وكأنّ كلّ كلمة قالتها كانت صدىً لما سبق وأن قاله لها هو من قبل *لكن يا إلهي*،

أحقاً لا مكان للحبّ في عالمنا هذا، وأنّ لا شيء هناك إلا الفسق والقرف؟ لم يستطع غولدبيرغ إلاّ أن يوافق الملكة الأرملة. عاد بعدها يتحدّث عن القرار الحكيم والأكثر عقلانية الّذي يجب اتخاذه، وعن قيصرة روسيا وملك إنجلترا، وما قد يجرّه القرار الصّارم من خطر الوقوع في تعقيدات جدّيّة. ربّما لم يكن ذلك ما قصده بالفعل، إنّما *لماذا علينا أن ننأى بأنفسنا تماماً عمّا يُسمّى حبّاً؟ ولماذا يجب أن تكون مشاعر الغضب المحتدم كالّتي يتّصف بها دائس المعصرة هي المقبولة فقط؟* لم تسمع الملكة الأرملة ما انطوت عليه الكلمات من معنى.

شعر فجأة بنوع من الوهن الذي أخذ يسيطر عليه وينمو في أعماقه، وبأنّه وقع فريسة الإحباط ومشاعر اليأس.

بقي مستيقظاً قلقاً لساعاتٍ متأخّرة من اللّيل، يحدق في العتمة علّه يجد الله الرّؤوف، المحبّ، والعادل. في تلك اللّحظات تملّكه اليأس.

أي حياة هذه، الّتي ينتصر بها الانتقام باسم العدالة بينما أبحث في العتمة عن الحبّ، الحبّ الّذي هو هبة من الله، فلا أجد إلا الفراغ واليأس؟

لكنّه عاد واستجمع قواه في اليوم التّالي.

في اليوم التّالي، ذهب لزيارة الملك.

كان واضحاً أنّ كريستيان قد استسلم تماماً لواقع الحال. كلّ شيء كان يرعبه، فيقضي وقته في جناحه يرتجف ويرتعد، لا يقرب الطّعام الّذي يُحمل إليه إلاّ على مضض، ولا يتحدّث إلاّ مع كلبه.

أمّا الصّبيّ الزّنجيّ مورانتي، فقد اختفى. ربّما حاول الهروب في ليلة الانتقام تلك، حين اختبأ وقد لفّ نفسه بالملاءات كما علّمه كريستيان. لكنّه لم ينجح في الهرب ولا أحد يعرف ماذا حصل معه، فهل سلّم أمره أم حاول العودة إلى حيث لا أحد يعلم أين؟! أم أنّه لاقى حتفه ليلة انفجرت كوبنهاغن بغضبٍ غير مفهوم وقد أدرك النّاس أنّ وضعاً ما قد تغيّر، وأنّه لا بد لهم من توجيه غضبهم إلى شيءٍ ما،

وإنْ لأسباب لم يفهموا حقيقتها؟ لكنّ الغضب كان موجوداً والانتقام قد حصل. على كلّ حال، لم تقع عينا أحد على مورانتي بعد تلك اللّيلة. لقد اختفى مورانتي من التّاريخ. أمر كريستيان بالبحث عنه، لكن دون جدوى. لم يبق لكريستيان إلاّ الكلب!

التّقارير الّتي وصلت غولدبيرغ حول حالة الملك أقلقته، فأراد أن يتحقّق بنفسه مما يحدث. ذهب لرؤية كريستيان، وبادره الحديث بلطف مطيّباً خاطره، ومؤكّداً له أنّ كلّ التّهديدات لحياة الملك لم تعد قائمة وأنّه بات في مأمن.

بعدها بلحظات، اقترب منه الملك وأخذ يهمس في أذن غولدبيرغ «مؤتمناً» إيّاه على بعض الأسرار.

كان كريستيان قد عانى في الماضي من بعض التّهيؤات، منها أن لأمّه؛ الملكة لويزا، عشيقا إنجليزيّا، وأنّ هذا العشيق هو في الواقع والده. أحياناً أخرى اعتقد أنّ أمّه الحقيقيّة هي كاثرين العظيمة؛ قيصرة روسيا. ما كان مقتنعاً به في كلّ الأحوال، هو أنّه قد تمّ «استبداله» بطفل آخر عند الولادة، وأنّه على الأرجح ابن أحد الفلاّحين، تمّ استبداله حين أُخِذ من حضن أهله ووُضع مكانه الطّفل البديل. استعمل كريستيان باستمرار كلمة «بديل»، ممّا عنى أنّ عمليّة تبادل أو مقايضة بطفلٍ آخر قد حصلت.

ما كان يشكّ فيه، بات الآن مؤكّداً. والملكة كارولين ماتيلدا هي بلا شكّ أمّه. أمّا خبر سجنها في كرونبورغ فهو بالنّسبة إليه خبر مقلق ومخيف. لكن لا جدال في أنّها هي أمّه.

أصغى إليه غولدبيرغ وهو يزداد فزعاً وارتباكاً.

يبدو أن كريستيان، وقد بات «متأكّداً» الآن، أو ربّما متأكداً من أنّه قد نسي هويّته الحقيقيّة، صار يخلط ما بين شخصيّته هو، وعناصر من شخصيّة «آملث» كما وردت في قصّة ساكسو. من المؤكّد أن كريستاين لم ير مسرحية «هاملت» لشكسبير، والّتي كان غولدبيرغ على معرفةٍ جيّدةٍ جدّاً بها (وهي المسرحيّة الّتي لم

تُعرض أمام الملك عند زيارته للندن، بالتّأكيد)، ولم تُعرض في الدّنمارك أبداً حتّى ذلك اليوم.

لم تكن أوهام كريستيان تلك وارتباكه بشأن ولادته بالأمر الجديد. منذ ربيع سنة ١٧٧١ والأمر يزداد وضوحاً بالتّدريج. كان الجميع يعلم أنّ كريستيان يعتبر الواقع مسرحاً. لكن إن كان يعتقد أنّه يمثّل الآن دوراً في مسرحيّة تلعب بها كارولين ماتيلدا دور الأمّ، فالسّؤال الّذي كان على غولدبيرغ أن يطرحه على نفسه ويقلق هو عن طبيعة دور سترونزي في تلك المسرحيّة.

كيف سيمثّل كريستيان في هذا المسرح- الواقع؟ أي نصّ سيعتمد وكيف سيُفَسِّر ذلك النّصّ؟ أيّ دور سيعطي لنفسه؟ أن يقوم شخص مختلّ معتوه بالاعتقاد أنّه يمثّل مسرحيّة على خشبة، ليس بالشّيء الجديد. لكن الممثّل هنا، لم ينظر للتّمثيل على أنّه استعارة رمزيّة لما يحدث على أرض الواقع، كما أنّه لم يكن رجلاً عاديّاً لا سلطة له. لو ظنّ هذا الرّجل أنّه يؤدّي دوراً على خشبة المسرح، فإنّ بمقدوره أنْ يجعل من المسرح واقعاً. ما زالت السّلطة المطلقة في يده ولا يحتاج الأمر لأكثر من كلمة تصدر عنه فتنفّذ في الحال. السّلطة كلّها بيده وأمره مُطاع.

لو أتيحت له فرصة زيارة «أمّه» الحبيبة، وقامت هذه باستغلاله، لبات كلّ شيء ممكناً. عندها يكون من السّهل بمكان قتل أيّ من روزنكراتز، جيلدينشتيرن أو غولدبيرغ نفسه، وبكلّ سهولة.

«كم أودّ جلالتك أن أسدي إليك النّصح حول هذا الموضوع الشّائك». قال غولدبيرغ.

حملق كريستيان في قدميه العاريتين — وكان قد خلع حذاءه — وتمتم:

«لو كانت سيّدة العالم هنا الآن. لو كانت هنا فقط، واستطاعت أن... استطاعت أن...»

«استطاعت ماذا؟» سأل غولدبيرغ. «ماذا؟»

«لو استطاعت أن تمنحني وقتها» همس كريستيان.

عندئذ غادر غولدبيرغ. أصدر أمراً بتشديد الحراسة على الملك، وبعدم السّماح له بالاتّصال بأيّ كان وتحت أيّ ظرف إلا بأمر خطيّ من غولدبيرغ نفسه.

شعر غولدبيرغ بارتياح وقد تراجعت مشاعر الضّعف المؤقّت الّتي انتابته، وأنّ مشاعر اليأس قد اختفت، وها هو يستطيع التّصرف مرّة أخرى بطريقة عقلانيّة تماماً.

٢

استجاب رجل اللاّهوت – قسّيس الطائفة الألمانية الّتي تنتمي لكنيسة بطرس الرّسول– المدعو دكتور بالتاصار مونتر، لطلب الحكومة، فقام بزيارة سترونزي في زنزانته في الأوّل من آذار/ مارس سنة ١٧٧٢ وذلك للمرّة الأولى.

مرّت ستّة أسابيع منذ تلك اللّيلة الّتي اعتقل بها سترونزي. تحطّم تدريجيّاً. أصابته نوبتان من الانهيار. كانت الأولى والخفيفة منهما قد حدثت حين انهار أمام لجنة التّحقيق، فاعترف مضحّياً بالملكة. تلتها النّوبة الثّانية، النّوبة الكبرى حين انهار من الدّاخل.

في البداية، بعد الانهيار أمام لجنة التّحقيق، لم يشعر بشيء أبداً، مجرد يأس وفراغ. أمّا فيما بعد، فقد شعر بالخزي. تملّكه الشّعور بالذّنب وبالخزي يأكله من الدّاخل كالسّرطان. لقد اعترف معرّضاً إيّاها لأسوأ أنواع المهانة على الإطلاق. فما الّذي سيحدث لها الآن؟ وماذا سيحدث للطّفلة؟ وصل به الأمر إلى حافّة الجنون ولم يستطع الكلام مع أيّ كان. لم يكن لديه إلاّ التّوراة، وقد كره فكرة اللّجوء إليها. أمّا كتاب غولدبيرغ عن التّائب السّعيد الّذي عاد عن الفكر التّحرّريّ، فقد قرأه ثلاث مرّات، وكلّ مرّة كان يجده أكثر سذاجة وسطحيّة وتعبيراً عن الغرور. لكنّه كان وحيداً، لا يوجد من يحادثه. في اللّيل، كان البرد قارساً وكانت الأغلال تحتكّ بجروحه النّازفة عند الكاحل والمعصم، ولم يكن ذلك كلّ شيء.

بل الصّمت.

في أحد الأيّام، منذ زمنٍ بعيد، أطلقوا عليه لقب «الرّجل الصّموت» لأنّه أصغى. أمّا الآن فها هو يدرك أنّ للصّمت معنىً آخر. فالصّمت وحش عدائيّ يقبع منتظراً. ها هي الأصوات قد اختفت وما عاد إلا الصّمت.

بينما هو على هذه الحال، وصل القسّ مونتر.

مع كل ليلة أخرى مرت عليه، كانت الذّاكرة تأخذه نحو نقطة أبعد في الماضي. أخذته الذّاكره إلى أيّام ألتونا، وإلى ما قبل ألتونا، إلى أيّام الطّفولة الأولى، الّتي مال إلى عدم الرّغبة في التّفكير بها أبدا، لكن ها هي تعود إلى ذاكرته الآن. عاد إلى أيّام خلت من البهجة، وإلى منزلٍ مثقل بالتّقوى. إلى أمّ لم تكن قاسية إنّما مفعمة بالحبّ. أثناء اللّقاءات الأولى بينه وبين القسّيس، حمل إليه الأخير رسالة من والده، عبّر بها الأب عن اليأس الّذي شعر به لِما قام به سترونزي: «لم تنل كلّ تلك التّرقيات التي حصلت عليها والّتي قرأنا عنها في الصّحف إعجابنا « وأضاف الأب قائلاً أنّه ووالدة سترونزي في حالة من اليأس المطلق. ذيّلت أمّه الرّسالة ببضع كلمات عبّرت بها عن حزنها وعطفها، لكنّ جوهر الرّسالة كان ضرورة العودة عن أفكاره وتسليم أمره للمخلّص يسوع المسيح كي ينقذه برحمته.

كان الوضع لا يحتمل.

جلس القس على كرسيّه بهدوء ونظر إلى سترونزي محاولاً وبصوت خفيض، وَضْع مشاكله في سياق منطقيّ. لم يكن كلامه قاسياً بل حمل شيئاً من العاطفة. لقد رأى القِسُّ جراح سترونزي وبكى لما سبّبته المعاملة القاسية من ألم، ممّا جعل سترونزي يبكي لحاله أيضاً. لكنّ شعوراً غريباً من الدونيّة تحرك فجأة لديه حين تكلّم القسّ. شعر أنّه ليس مفكّراً ولا منظّراً، بل مجرّد طبيب من ألتونا وأنّ ما رغب به دوماً هو الصّمت.

شعر أنْ لا حيلة له.

لكن أفضل ما في الأمر، هو أن القسّيس الصّغير بوجهه النّحيل وعينيه الهادئتين، قد وضع معادلة للمشكلة، تاركاً الأخطر والأسوأ جانباً. لم يكن ذلك الجانب هو الموت أو الألم أو حتى احتمال تعرّض سترونزي للتّعذيب إلى أن يسلم الرّوح، بل الأسوأ كان السّؤال الّذي أخذ ينهشه من الدّاخل ليل نهار.

وكان السّؤال: «ما الخطأ الّذي ارتكبته يا ترى؟»

في أحد الأيّام، تعثّر القسّيس بسؤالٍ عابرٍ حين قال:

«كونت سترونزي، من أين لك أن تعرف الصّحيح من الخطأ وأنت منعزل في مكتبك؟ لماذا اعتقدت أنّك تملك الحقيقة بينما أنت لا تعرف عن الواقع شيئاً؟»

«عملت في ألتونا لسنين عديدة» أجابه سترونزي، «وكنت على اتّصال بالواقع».

«صحيح» ردّ القسّ مونتر بعد برهة صمت «عرفت الواقع كطبيب في ألتونا. لكن ماذا بخصوص الـ٦٣٢ مرسوم قانون؟»

وبعد لحظة صمت عاد القسّ ليسأل بفضول:

«من قام بالبحث والتقصيّ؟»

أجاب سترونزي ولمحة ابتسامة على وجهه:

«الموظّف المخلص لواجبه يقوم بالبحث الملائم، حتى لو كان في الأمر بترٌ لأوصاله».

هزّ القسُّ برأسه، كمن وجد التّفسير صحيحاً والدّليل الأصدق عليه هو ما يحدث.

لم يرتكب أيّ خطأ.

قام بتوجيه الثّورة الدّنماركيّة بصمتٍ وهدوءٍ من مكتبه، دون أن يقتل أو يسجن أو يبعد أحداً، ودون أن يجبر أحداً على شيء. فعل ذلك دون أن يتلوّث بالفساد

أو أن يجزي أصدقاء له، أو يحقّق منافع شخصيّة. لم تكن له شهوة السّلطة بغرض تحقيق منافع ذاتيّة. مع ذلك، فلا بدّ من أن يكون قد اقترف خطأً ما. كانت حال الفلاّحين المزرية في الدّنمارك تطارده دوماً في المنام، وكذلك قصّة ذلك الصّبيّ الفلاّح الّذي عُلّق على الجحش الخشبيّ حتّى الموت.

وهنا تكمن العقدة. إنّما تتعلّق بذلك الحادث الّذي بقي يلاحقه.

لم يَخَف من المجموعة الهائجة الّتي اتّجهت نحوه. لكنّها كانت المرّة الوحيدة الّتي كان بها قريباً بشكل فعليّ من الشّعب. ما فعله يومها هو أن استدار على أعقابه مبتعداً ولحق بالعربة في الظّلام والوحل.

لقد خان مبادئه في الواقع. كثيراً ما تمنّى لو أنّ رحلته توقّفت عند ألتونا. والواقع أنّه أنهاها فعلا في ألتونا.

حين قدّم أطروحته لنيل الدّكتوراة، وضع على الحاشية مسوّدات لوجوه أشخاص. كان لهذا معنىً مهماً يبدو أنّه قد نسيه. والمعنى هو وضع الآليّة نصب عينيه لرؤيتها، دون أن ينسى النّاس، أن يرى وجوه النّاس. ألم يكن هذا هو القصد؟

كان عليه أن يبعد هذه الأفكار عن رأسه. قام القسّ النّحيل ذو المنطق الرّاجح بعرض مسألة أخرى أمامه. إنّها مسألة الخلود، وإن كانت هناك حياة أبديّة. وهنا مدّ سترونزي يده إلى القسّ الصّغير متقبّلاً منه عطيّته.

هكذا تخلّص من السّؤال الآخر، والأسوأ، وشعر بالامتنان.

قام القسّ مونتر بزيارة سترونزي في زنزانته سبعاً وعشرين مرة. أثناء الزّيارة الثّانية أخبره أنّه قد علم علم اليقين أنّ الحكم الذي سيناله سترونزي هو الإعدام. ثارت إذ ذاك المسألة الفلسفية التّالية: إن كان الموت يعني الفناء التّام — فهو النّهاية إذن. لا حياة أبديّة، لا إله، لا جنّة ولا هو عقاب أبديّ. وكلّ ما قام به سترونزي من ابتهال في تلك الأسابيع الأخيرة لا معنى له. إذن! بريمو! أولاً: على سترونزي أن يركّز على الإمكانية الوحيدة الثّانية، والّتي تقول بوجود حياة بعد الموت؛ و سيكوندو!

ثانيا!: فحص الفرص المتاحة له ضمن هذه الإمكانيّة، إن أتيحت له فرص كهذه، واقتناص الأفضل من بينها.

وجه القسّ وبكل تواضع، السّؤال لسترونزي حول إن كان يوافق على هذا التّفسير. راح سترونزي مستغرقاً في صمت طال، إلى أن وجه للقسّيس السّؤال التّالي:

«إن كانت الفرضية الثّانية صحيحة، فهل ستتردّد عليّ بالزّيارة أيّها الأب مونتر، كي نقوم بتحليل الإمكانيّات المتاحة ضمنها؟»

«نعم» قال مونتر .» سأزورك كل يوم، ولعدّة ساعات كلّ مرّة».

هكذا بدأت محادثاتهما. وهكذا بدأت قصّة عودة سترونزي عن مواقفه.

تتّخذ وثيقة التّوبة والعودة عن الضّلال والّتي تغطّي مئتي صفحة، شكل السّؤال والجواب. يقرأ سترونزي الكتاب المقدّس بمثابرة، فيكتشف عُقَداً تحتاج لإجابات وحلول، يطلب الجواب ويحصل عليه.- «قل إذن أيها الكونت سترونزي، ما الذي تعترض عليه في هذا الجزء؟». « إنّه هذا المقطع حيث يقول المسيح لأمه: « ما لي ولك يا امرأة؟» فهذه اللّهجة تبدو قاسية، وأكاد لولا الحياء أقول غير لائقة». يتلو السّؤال جواب تحليليّ مستفيض للقسّ، رغم أنّه من غير الواضح إن كان الجواب قد سُلّم لسترونزي مباشرة أو صيغ وأضيف للنّصّ لاحقاً. لكن هناك صفحات عديدة من التّفسيرات اللّاهوتية المستفيضة. يتلوها سؤال مقتضب مرّة أخرى ثم جواب مستفيض، وفي نهاية كلّ سجلّ، تقرير يوميّ وملاحظة في ذيل التّقرير تقول إنّ الكونت سترونزي يستوعب الأمر الآن ويفهمه تماماً.

أسئلة مقتضبة وأجابات مُسهبة، تنتهي دائماً بتفاهم متبادل. أما بالنّسبة لأفكار سترونزي الّتي تتعلق بالسّياسة فلا ذكر لها بتاتاً.

أخيراً، نُشرت توبة سترونزي واعترافاته بعودته إلى الصّواب، وبلغات عدة.

لا يعلم أحد حقيقة الحوار الّذي دار بين الرّجلين فعلاً. جلس القسّيس مونتر عند سترونزي يوماً بعد يوم، مُنْكبّاً على كرّاسته. فيما بعد سيُنشر الحوار على أنّه اعتذارٌ وتوبة المفكّر الشّهير الحرّ ورجل التّنوير، وسيَتّخِذ شهرة واسعة.

كان مونتر هو من دَوَّن كلّ شيء. راجعت الملكة الأرملة النصّ بإمعانٍ فيما بعد، قبل نشره، وأمرت بإلغاء بعض الفقرات ومُنعت تبعاً للرّقابة بعض المقاطع.

بعد ذلك نُشر النّص.

شعر غوته بالسّخط حين قرأ نـصّ التّوبة، ومثله فعل الكثيرون. لم يكن سبب غضب وسخط هؤلاء هو التّراجع عن الأفكار بحدّ ذاته؛ إنّما الحصول على الاعتراف تحت التّعذيب. ورغم أنّه لم يكن صحيحاً أنّ سترونزي قد تنكّر لفكره التّنويريّ، إلاّ أنّه على ما يبدو بات مستعدّاً لأن يلقي بنفسه بين ذراعيّ المخلّص بفرح، وأن يختفي في جراح المسيح. رغم أنّ الّذين تحدّثوا عن الارتداد والتّملّق بسبب التّعذيب، لم يستطيعوا تخيّل الوضع، وقد تحدّث هذا القسّيس المتعاطف بصوتٍ هامس، هادئ، وقدّم التّفسير المطلوب، وبلهجة ألمانيّة لطِيفةٍ عذبة، نعم ألمانيّة! أخيراً تحدّث إليه شخص بلغته الألمانيّة! تحدّث إليه وَوَجّهَهُ نحو الوضوح في المسائل الأكثر تعقيداً —كسؤال: لماذا فشل في هذا العالم الأرضي؟ —كما حدّثه عن الحياة الأبديّة، والّتي هي النّاحية السّهلة والمليئة بالرّحمة. هذا الكلام كلّه، وباللّغة الألمانيّة، كان يأخذ سترونزي على ما يبدو، نحو نقطة البداية، نقطة دافئة وآمنة: نحو أيّام جامعة هال واللحظات الّتي كان يواجه بها تحذيرات والدته التّقية ورسالة والده إليه، وحقيقة أنّهما سيسمعان الآن عن عودته إلى الصّلاح وإلى الرّاحة الأبديّة في حضن المسيح وجراحه، وما سيحقّقه ذلك من فرح لهما. كان مونتر يأخذه صَوْبَ ألتونا وصوب الحجامة وأصدقائه في جامعة هال، ونحو كلّ شيء. كلّ شيء مما بدا بعيداً، بعيداً جدّاً عنه وكأنّه قد ضاع منه.

ها قد وجد كلّ ذلك الآن، وقد أيقظ به القسّ مونتر، الجالس قبالته على الكرسيّ، كلّ ذلك خلال تلك الأيّام والسّاعات وهو في منفاه في كوبنهاغن

المروعة المُفزعة الباردة كالثّلج، والّتي ما كان عليه أن يزورها أبداً. لم يُحرّر «الرّجل الصّموت» – الطّبيب القادم من ألتونا– من الخوف الذي كان سِمَة ضعفه وربّما في نهاية الأمر أيضاً قوتّه، إلاّ تلك المحادثات المنطقيّة، الثّقافيّة واللّاهوتيّة الّتي استمرّت لعدّة ساعات وبلغته الأمّ. ولذلك كلّه شعر سترونزي بالامتنان.

٣

قامت لجنة التّحقيق بالتّوقيع على قرار الحكم الصّادر بحقّ سترونزي في الـ ٢٥ من نيسان/ أبريل.

لم تكن تهمة ارتكاب الزّنى مع الملكة هي السّبب في صدور ذلك الحكم، إنّما نتائج أعمال سترونزي والّتي قام بها عن سبق إصرار بدافع إرضاء نهمه للسّلطة وما ترتّب عليه ذلك من حلّ للمجلس الاستشاري. لقد أحبّ الملك شعبه جدّاً، لكن وبسبب سترونزي فقد خسر ثقته بالمجلس المذكور، ممّا أثار بدوره أعمال شغب عديدة نتيجة أنانية سترونزي، واحتقاره للدّين وللحشمة كما للأخلاق الحميدة.

لم يَرِد أي ذكر للخيانة، بل مجرّد تلميح بـ «عمل شائن آخر قام به إذ أهان الخاصّة الملكيّة على أعلى المستويات». لم يرد في القرار أيّ ذكرٍ لجنون كريستيان إطلاقاً.

كما أنّ القرار لم يأت على ذكر الطّفلة الصّغيرة. كل ما ورد هو «إهانة للخاصّة الملكيّة» ووصف تلك الإهانة على أنها «على أعلى المستويات». صيغَ نصُّ الحكم حسب القانون الدّنماركي، الفقرة الأولى من الفصل الرّابع في الكتاب السّادس، وجاء فيه:

«إنّ الكونت سترونزي والّذي يستحق العقاب لما ارتكبه من جرم، سيضطّر للتّضحية بشرفه وبحياته وبأملاكه كما سيجرّد من لقبه كـ «كونت» ومن كلّ الألقاب الرّفيعة الأخرى التي أسبغت عليه؛ وسيقوم من سينفّذ الإعدام بتحطيم

ختمه الذي يحمل نقشاً برتبته، كي يتّعظ أمثاله ويكون عبرة لمن اعتبر. سيتمّ بتر يد فريذريخ سترونزي اليمنى وهو على قيد الحياة، ثم يُقطع رأسه. سيقطَّع جسده عضواً عضواً وتعلّق الأعضاء على دواليب تُرفع على أعمدة، أما يده ورأسه فسيتمّ وضعهما على عمود».

صدر حكم مشابه على براندت؛ قطع اليد، ثم الرّأس، تقطيع الأعضاء وتعليقها.

الأسباب التي ارتأتها المحكمة لإصدار هذا الحكم كانت مختلفة تماماً عن سابقه، فالاتّهام هنا هو «قضية الإصبع» أو «السبّابة» والّتي تسبّبت بإعدام براندت كما حدّدت طريقة الإعدام.

لقد أهان براندت الخاصّة الملكيّة في شخص الملك بالتّحديد.

بعد أربع وعشرين ساعة، أي بعد ظهر الـ ٢٧ من نيسان/ أبريل، كان من المقرّر أن يصدّق الملك كريستيان السّابع على قراري الحكم. كان توقيع الملك على القرارين ضرورياً. ساد شعور بعدم الارتياح؛ لوجود احتمال بطلب تأجيل الحكم وانطوى الأمر على مجازفة. لهذا السّبب، تمّ إبقاء كريستيان في حالة انشغال كامل، ربّما بقصد إنهاكه، أو شلّ قدرته على التّركيز بافتعال مراسيم مختلفة ومرافقته إلى المسرح بطقوسٍ احتفاليّة مع انتقاء عروض لا علاقة لها بالواقع الرّاهن ولا تتعرّض لموضوع الحكم بالموت بالتّحديد.

في ليلة الـ ٢٣ من نيسان/ أبريل، أقيمت حفلة تنكّريّة كبيرة، قام بها الملك بمعيّة الملكة الأرملة بالتّرحيب شخصيّاً بالضّيوف وكانا بمنتهى اللّطف. وفي الـ ٢٤ أقيم حفل موسيقي في قاعة المسرح، حضرته العائلة المالكة. أمّا في الـ ٢٥ من الشّهر فقد تمّ تسليم القرارين بحقّ كل من سترونزي وبراندت. في مساء ذلك اليوم، حضر الملك أوبرا بعنوان أدريان في سوريا. وفي الـ ٢٧ منه، وعندما بلغ الملك كريستيان مرحلة الإرهاق الكامل وحالة من التّيه وعدم التّركيز، وذلك حسب شهود عيان، ذهب بمعيّة أفراد من البلاط للعشاء في ضاحية شارلوتنلوند، التي أعيد منها في السّابعة

مساءً، فوقّع على الأحكام، ثمّ اقتيد إلى دار الأوبرا مباشرة، ليستمع إلى أوبرا أيطاليّة وهو ينام ويصحو تحت وطأة النّعاس.

تملّك الخوف البعض من أن يَمنح الملك تخفيفاً أو تأجيلاً للحكم. قلق هؤلاء من قيام انقلاب معاكس، يؤدّي إلى دحرجة بعض الرّؤوس. قُمعت كل إمكانية تدخّل قد تقوم بها قوى خارجيّة، خاصّة حين وصل في الـ ٢٦ من نيسان / ابريل رسول من سانت بيترسبورغ يحمل رسالةً لملك الدنمارك.

تمّت دراسة الرّسالة جيّداً.

شعرت كاترينا العظيمة بالقلق، لكنّ رسالتها لم تحمل أيّ تهديد. تقدّمت برجاء من الملك قائلة بأنّ «الرّأفة الّتي هي السّمة الطبيعيّة لكلّ ذي قلبٍ مرهفٍ ونبيلٍ» لا يمكنها إلاّ أن «تُرجّح اللّين على الشّدّة والعطف على القسوة» تجاه متعثّري الحظّ « ممّن أثاروا غضب جلالته «وإنْ كان لغضبه ما يُبرّره».

لم يُسمح لكريستيان بالاطّلاع على الرّسالة بالطّبع. اتّسمت الرّسالة بلهجةٍ وديعةٍ. لن تتدخّل روسيا إذن. ولا ملك إنجلترا سيتدخّل. سيتمّ التّخلص من هؤلاء الفاسقين بسهولة.

المشكلة الأخيرة كانت كريتسان نفسه.

فقط لو استطاعوا الحصول على توقيع كريتسان الآن وهو في حالة التّيه التّام هذه، وإن لم يتسبّب بأيّ مشكلة! فدون توقيعه لا شرعيّة قانونيّة للحكم.

لكنّ الأمر تمّ بكلّ سلاسة. جلس كريستيان خلف مكتب اللّجنة وهو يتمتم ويتحرك إلى الأمام وإلى الخلف، وقلّة التركيز واضحة عليه. فجأة، وكمن استيقظ للحظة، تذمّر من اللّغة المعقّدة والغريبة للوثيقة الطّويلة جدّاً الّتي وضعوها بين يديه، وعلّق متسائلاً عمّن كتب وثيقة كهذه، بالقول إنّ من كتبها يستحّق «أن يُجْلد مئة مرّة بالسّوطِ» كعقابٍ.

استمرّ يتمتم كعادته، ووقّع دون أيّ اعتراض.

فيما بعد، وفي طريقه إلى العربة الّتي كانت ستقلّه إلى دار الأوبرا، استوقف غولدبيرغ، سحبه جانباً وهمس في أذنه «مؤتمناً» إيّاه على سرّ.

أسر لغولدبيرغ بأنّه لم يكن متأكّداً من أنّ سترونزي أراد فعلاً قتله. لكنْ، إنْ كان هو نفسه؛ أي كريستيان، ليس من البشر العاديّين إنّما شخصاً اختاره الله، فإنّ حضوره شخصيّاً في موقع تنفيذ الحكم لن يكون ضروريّاً كي يُصدر العفو عن الرّجل الّذي سيُنفّذ فيه الحكم. ألا يكفي أن يسأل الله، الّذي انتدبه لحكم الشّعب، أن يقوم هو بالمهمّة فيعفو عن الرّجل؟ هل يجب أن يظهر هو نفسه -أي كريستيان- في المكان؟ ثم أسرّ لغولدبيرغ بأمر آخر، خاصة وأنّه شكّ ومنذ زمن طويل في إن كان حقّاً من البشر العاديّين، من لحم ودم، عندها، فقد يكون طفلاً بديلاً لوالدين هما في الحقيقة مزارعان من جزيرة يولاند. بالتّالي ألن يعطي هذا الإعدام الدّليل على حقيقته؟ نعم دليل! دليل !!! فلو استطاع أن يُصدر العفو بمجرّد التّفكير به ودون الحضور في مكان تنفيذ الحكم شخصيّاً، فإنّ ذلك سيكون دليلا وبرهانا على أنّه فعلاً ليس من البشر. لكن! إن لم يحصل ذلك فسيكون ذلك دليلا! نعم دليلا! على أنّه فعلاً من البشر. عندها سيكون الإعدام هو الدّليل الّذي طالما انتظره، الإشارة الّتي طالما أراد من الله أن يزوّده بها، والّتي تشير إلى أصله وأنّه حقّاً بشر.

قال لغولدبيرغ كل ذلك بهمس وجزم، وأخيراً قال بكل بساطة:

«علامة!!! أخيراً ستكون هناك إشارة، علامة !!!

أصغى غولدبيرغ لهذا الفيض من الكلام المضطرب دون أن يكشف عن أيّ ردّ فعل. لكنّه لاحظ أن الملك لم يذكر كارولين ماتيلدا الّتي سبق وقال إنّها أمّه.

«هذا تحليل دقيق وعبقري» كان جواب غولدبيرغ الوحيد.

عندها، أقلّت العربة كريستيان إلى دار الأوبرا.

لاحق غولدبيرغ العربة بعينيه لوقت طويل، ثم سارع لاتّخاذ التّدابير الاحتياطيّة لما يتعلّق بالإعدام، والّتي اعتبرها ضروريّة جدّاً، خاصّة بعد هذا الحوار.

٤

أُعدّ الموقع حيث سيتم الإعدام، كما لو كان خشبة مسرح.

بعد الحصول على توقيع الملك، باشروا بتركيب صقالة من الخشب في حديقة «أسترفيليذ». أُقيم مسطّح خشبيّ يرتفع عن الأرض خمسة أمتار، وعليه رُفعت منصّة تسمح لمن يقف في الحديقة برؤية المحكوم عليه ومن سيقوم بتنفيذ الحكم. على ارتفاع أعلى، وُضع صندوق خشبيّ سيتمّ قطع الرّأس واليد عليه.

أقيمت المنصّة على عجل، واستُدعيت فرقة موسيقيّة صغيرة أُمرت بعزف موسيقا تمنح مسرح الموت هذا جوّاً احتفاليّاً. انتشر الخبر بسرعة؛ فستتمّ عمليّة الإعدام في تمام التّاسعة من صبيحة الـ ٢٨ من نيسان/ أبريل. بدأ تحرّك الجماهير قُبيل تنفيذ الحكم ببضع ساعات. باشر ما يقارب الثلاثين ألفاً من سكّان كوبنهاغن بمغادرتها في السّاعات الأولى من صباح ذلك اليوم، إمّا سيراً على الأقدام أو على ظهور الدّواب أو بالعربات، وكانت الوجهة هي أوسترفيليذ، ذلك الحقل الواقع خلف السّور الشّمالي للمدينة بالضّبط.

تم استدعاء الفرق العسكريّة المختلفة الموجودة في كوبنهاغن بمناسبة الإعدام. قُدّر عدد العساكر الّذين سيتّخذون مواقعهم حول حقل أوسترفيليذ بخمسة آلاف، منهم من سيحرس موقع تنفيذ الحكم، ومنهم من سينتشر حول الحقل لمنع أيّ تشويش قد يحصل فجأة.

وصل القسّيسان، «مونتر» و»هي»، منذ ساعات الصّباح الأولى إلى موقع الحدث، كي يكونا مع المحكومين. سيغادر المحكومان القلعة في تمام الثّامنة والنّصف بمعيّة موكب من العربات التي يقوم على حراستها مئتا جنديّ من المشاة وحرابهم مرفوعة استعداداً لأيّ طارئ، إلى جانب مئتين وثلاثين فارساً على صهوات جيادهم.

ركب السّجينان، كل منهما في عربة مستأجرة.

كان براندت يعزف على نايه خلال السّاعات الأخيرة.

بدا مبتهجاً وغير خائف. ابتسم حين قرأ الحكم والمسبّبات الّتي ارتأتها المحكمة لإصدار ذلك الحكم قائلاً إنّه يعرف حيثيّات هذه المراسيم الهزليّة، وإنّه سينال العفو دون شكّ، فمن غير المعقول أن يصدر حكم بهذا الحجم على تهمة بهذه البساطة والعبثيّة. حين انتزعوا منه النّاي قبل مغادرة القلعة، قال ببساطة:

«اللّيلة، وحين تنتهي هذه المهزلة وأنال العفو وأستعيد حرّيّتي، سأكمل عزف هذه السّوناتا».

حين أعلموه بأنّه سينال الإعدام قبل سترونزي، بدا مرتبكاً للحظة، أو ربّما تنبّه لأمر، فقد اعتقد أنّه من الطّبيعي عند منح العفو، أن يتمّ إعدام المتّهم الأخطر أولاً، والّذي هو في هذه الحال سترونزي، بعدها ينال البريء العفو، والّذي هو في هذه الحال براندت نفسه.

عند سماعه هذا الكلام، افترض أن العفو سيكون من نصيبهما كليهما.

بينما كان يضع قدمه ليدخل العربه، قال إنّه كان يفضّل أن يرى قرار العفو وهو في الطّريق إلى المنصّة كي لا يتعرّض لإمكانية هجوم عنيف من الغوغاء. شعر أنّ موقعه كـ «ميتر دو بليزير» وكمسؤول عن كلّ ما له علاقة بالتّرفيه والثّقافة في البلاط بل في العاصمة، أي بمعنى آخر منصبه كوزير للثّقافة، قد أثار عداء عدد كبير من الجماهير. عداء العامة للثّقافة كان قويّاً، وإن حصل على عفو وهو على المنصّة وليس قبل ذلك، فإنّ ردّ فعل النّاس لن يكون مضموناً: «أخشى أن تقوم الجماهير بسلخ جلدي».

اطمأنّ براندت على كلّ، حين وصلته الأخبار بأنّ خمسة آلاف جندي قد استدعوا إلى المكان وأنّهم سيتولّون حمايته من الجماهير. كان يرتدي معطفاً أخضر طُرّز بخيوط من الذّهب عند الحواف، لفّ فوقه معطفاً من الفراء الأبيض.

سارت العربتان ببطء شديد.

هناك، عند الدّرج المؤدّي إلى المنصّة، وقفت آخر عشيقة من عشيقات براندت. ألقى براندت عليها التّحيّة بكلمات تعبّر عن الفرح والحبور، سائلاً الحرس

إن كان عليه فعلاً أن يصعد قُبيل نيل العفو، لكنّه سرعان وأن انصاع وصعد الدّرج.

رافقه القسّ دين-هيه وهو يصعد الدّرج.

حين وصل براندت إلى المنصّة، تم منحه الغفران عن ذنوبه، ثم تلي الحكم. تقدّم «غوتشولك موهلهاوزن» - وهو الرّجل الذي سيقوم بتنفيذ الحكم- من براندت وحمل وسام النّبالة الّذي يدلّ على مكانة براندت مستعرضاً إيّاه أمام النّاس، ثم قطعه قطعتين وتلا الديباجة المتعارف عليها ونصّها: « لم نقم بهذا الفعل جزافاً إنّما استحقاقاً». توجّه «دين-هيه» بالسّؤال لبراندت عندها حول ما إذا كان يشعر بالنّدم لإهانة الخاصّة الملكيّة، فأجاب براندت بالإيجاب؛ وهذه الأمور كلّها من مستوجبات ما قبل العفو، والّذي يتبع هذه المراسيم. قبل أن يتمّ النّطق بالعفو، أُمر براندت بخلع معطف الفرو، القبّعة، والمعطف الأخضر، وأخيراً الصدريّة؛ ففعل كلّ ذلك عن طيب خاطر، معتبرا الأمر برمّته غير ضروريّ. اضطّر بعد ذلك لأن يركع ثم يضع رأسه على المكعّب الخشبي (النّطع) ويمدّ يده إلى نطع آخر قريب منه. صار لون وجهه باهتاً ومع ذلك حافظ براندت على حبوره، إذ إنّ هذه بالضّبط هي اللّحظة الّتي ينُطق بها بتلك الدّيباجة الّتي تقول: «صدر العفو»!.

لكنّ ما حدث في تلك اللحظة تماماً، هو أن قام منفّذ الحكم ببَتْر يد براندت بفأس.

فقط عندها أدرك براندت أنّ الأمر خطير فعلاً. انتفض وأدار رأسه وحملق في يده المقطوعة والّتي كان الدّم يتدفّق منها، ثم أخذ يصيح برعب، لكنّهم ثبّتوه وضغطوا على رأسه كي يلتصق بالنّطع، وبالضّربة التّالية كان رأسه قد انفصل عن الجسد. رُفع الرأسُ حتّى يتمكّن الجميع من رؤيته.

خيّم الصّمت على الجماهير الحاضرة، وقد فوجئ بعضهم ممّا رأى.

تمّت تعرية الجثّة من الثّياب، وقطع الأعضاء التّناسليّة والإلقاء بها في عربة كانت على بعد خمسة أمتار أسفل المنّصة. بُقرت بطنه وانُتزعت أحشاؤه وألقي بها، ثم قطّعت الجثّة لأربعة أجزاءٍ وألقي بذلك كله في العربة.

لقد أخطأ براندت، فلم يكن هناك تخطيط لأيّ عفو، على الأقل ليس عنه، وليس على يد أيّ ممن أمسك بالسّلطة الآن.

ربّما كانت هناك فرصة ما، لكنّ هذه الفرصة كانت قد أُحبطت.

كان الملك كريستيان السّابع قد أمر في اللّيلة السابقة بأن يتّم إيقاظه باكراً صبيحة اليوم التّالي. خرج وحده في الثّامنة صباحا، ودون أن يقول شيئاً عمّا كان ينوي أن يفعله. مشى عبر باحة القصر نحو الاسطبلات الملكية.

أمر بعربةٍ وسائس.

بدا عليه التّوتّر فقد كان جسمه يرتعد كأنّه كان يشعر بالخوف والقلق لما هو مقدم عليه، لكنّه كان مصمّما على الاستمرار حتى ولو جُوبه بالمعارضة أو الرّفض. كانت هناك عربة جاهزة تنتظره بالفعل، وكانت الخيول مسرجة، وقد أحيطت العربة بفريق من ستّة جنود تحت إمرة ضابط من الحرس الملكيّ. لم يُبد الملك أي تشكّك حول هذا الأمر، إنما أمر السّائس أن يأخذه إلى موقع تنفيذ الحكم في أسترفيليذ.

لم يعترض أحد، وانطلقت العربة بمن فيها.

جلس الملك متكوّرا في زاوية العربة أثناء سيرها وأخذ يحملق في قدميه طول الوقت كالعادة. كان مشوّش الذّهن باهت اللّون، ولم يرفع ناظريه إلاّ بعد حوالي نصف ساعة حين توقّفت العربة. عندها نظر إلى الخارج وعرف إلى أين وصل. لقد وصل إلى جزيرة «أمايز». رمى بجسده نحو باب العربة الأوّل ثم الثّاني فوجدهما مغلقين. فتح النّافذة وصرخ في مرافقيه قائلاً إنّه قد اقتيد إلى المكان الخطأ.

لم يتلقّ جواباً، لكنّه فهم الموضوع. لقد اقتادوه خارج المدينة نحو جزيرة أمايز. لقد خانوه، وها هي العربة تقف على بعد مئة مترٍ من الشّاطئ، وقد تمّ فكّ لجام الخيل وحُلّت أسرجتها. سأل عن معنى كلّ هذا؛ فاقترب منه الضّابط المسؤول وهو على صهوة جواده وأخبره بأنّهم مضطرّون لأن يستبدلوا الخيول المنهكة، لكنّهم سيستمرّون في الرّحلة لحظة تصل خيول جديدة، وانطلق بسرعةٍ مبتعداً عن الملك.

كان بابا العربة مُغلقين والخيول غير مسرجة. امتطى الفرسان خيولهم ووقفوا على أهبة الاستعداد على بُعد مئة متر، ينتظرون.

جلس الملك وحده في عربته وقد فُكّت عنها الخيل. توقّف عن الصّراخ وغطس في كرسيّ العربة مُتعجبا مما يحدث. نظر إلى الشّاطئ عبر بقعة الأرض الّتي أمامه والّتي كانت عارية من الأشجار، وكان ماء البحر ساكناً جدّاً. تنبّه إلى أنّ هذا الوقت هو ساعة إصدار العفو عن المحكومَيْن. لن يستطيع أن يخرج من العربة. لن تصل صرخاته إلى أيّ مكان. رآه الفرسان عبر النّافذة المفتوحة يشير بذراعيه ويديه نحو شيءٍ بعيدٍ، كأنّه يشير نحو السّماء، نحو الله الّذي ربّما كان قد اختاره كابن له، ابن قادر على الحكم وعلى السّلطة، أو ربّما قادر على العفو. لكنّ ذراعيه تعبتا بعد حينٍ كما يبدو وقد استبدّ به اليأس، فهوت ذراعاه إلى الأسفل.

كان ما زال يجلس عند زاوية العربة. ظهرت الغيوم من الشرق محمّلة بالأمطار وكانت تزحف نحو جزية أماير. انتظر الفرسان بصمتٍ. لا خيل وصلت، ولا الله أظهر مجده.

ربما فهم الوضع الآن. ربما تسلم الإشارة الّتي كان ينتظرها. إنّه بشر إذن، ليس إلاّ! بدأ المطر ينهمر ويزداد غزارة. قد تصل الخيل في الحال، وعندها سيعودون أدراجهم، ربما مباشرة نحو القصر. ومن يدري، فربّما كان الله موجودا ويتكرّم على البشر» لكن لماذا لم تُرني وجهك ولم ترشدني أو تنصحني؟ لماذا لم تمنحني بعض الوقت، بعض وقتك؟» كان لسان حال كريستيان. ها هو المطر يتحوّل إلى بَرَدٍ ينهمر بسرعة وبقوّة.

لم يسمع صراخَه أحد. لا الجياد وصلت. ولا الله أسعفه. لا شيء حوله إلاّ... بشر!

٥

تُوّجَ غوستاف الثّالث ملكاً على السّويد سنة ١٧٧١، أي في منتصف ما عُرف بفترة سترونزي، والّتي راقب الملك السّويديّ مجرياتها بمزيج من المشاعر المختلطة وباهتمام كبير. هناك لوحة مشهورة تصوّر حفلة التّتويج بعنوان غوستاف الثالث يتوّج ملكا واللّوحة بريشة الرّسام كارل غوستاف بيلو. وبيلو هذا كان أستاذ كريستيان في موضوع الرّسم، وأقام في البلاط في الفترة الّتي كان بها سترونزي حاضراً، لكنّه أُبْعد سنة ١٧٧١ فعاد إلى ستوكهولم. هناك، بدأ برسم لوحته الشّهيرة لمناسبة تتويج غوستاف الثّالث، والّتي لم ينجح بإتمامها، فكانت آخر أعماله.

ربّما أراد بيلو التّعبير عن أمرٍ مؤلم لأبعد الحدود في لوحته تلك.

نرى الملك السّويديّ والّذي ما يزال شاباً في وسط اللّوحة، وهو يجسّد الوقار والتّربية الصّالحة، لكنّه واقع تحت تأثير الفكر التّنويريّ حتّى النّخاع. ستمرُّ سنوات عديدة قبل أن يتغيّر الملك، وقبل أن يُقتل أثناء حفلة تنكّريّة. نرى في اللّوحة شخصيات أخرى تحيط به من رجالات البلاط ممّن لا يقلّون عنه هيبةً ووقاراً.

ما يثير الحيرة في اللّوحة هو ما يظهر في الخلفيّة.

تشير اللّوحة إلى أنّ الملك وحاشيته لم يكونوا في قاعة العرش حين رُسمت اللّوحة، إنّما وسط غابة مظلمة، حيث جذوع الأشجار ضخمة، فكأنّ مشهد التّتويج قد حدث وسط غابة من العصور القديمة وفي مناطق طبيعيّة من براري شمال أوروبا.

لا صرح معمارياً، لا أعمدة ضخمة في كنيسة، بل هي ظلمة، وجذوع أشجار غير محدّدة الملامح في غابة بدائيّة بها عتمة تنذر بالشؤم، وفي الوسط تظهر المجموعة التي تخطف الأبصار .

فهل العتمة هي ما يُبرز الضّوء أم أن الضوء نفسه معتم؟ تبقى الاحتمالات مفتوحة على أكثر من جواب، كما هي الحال بالنّسبة لكلّ ما يتعلّق بالتّاريخ. يختار النّاس تأويل ما يرون؛ فإمّا أن يعتبروه نوراً وإما أن يعتبروه ظلاما.

٦

نام سترونزي بسلام في تلك اللّيلة، وحين استيقظ كان هادئاً جدّاً.

بات يعرف ما الّذي سيحدث الآن. اضطجع وعيناه مفتوحتان، وحملق طويلاً في سقف زنزانته الحجريّ الرماديّ اللّون، لا يشغل باله إلاّ فكرة واحدة لا غير؛ كارولين ماتيلدا! احتلّت كاروين–ماتيلدا تفكيره، فراح يستذكر تلك العلاقة الرّائعة والحبّ الّذي جمع بينهما، وكيف أنّها سامحته على اعترافه أمام لجنة التّحقيق كما جاء في الرّسالة الّتي وصلته منها بهذا الخصوص. تذكّر أيضاً لحظة أخبرته أنّها حامل وأنّه والد الجنين والمشاعر الّتي انتابته حينها. لقد أدرك ومنذ تلك اللّحظة أنّه قد خسر في الواقع كلّ شيء، لكنّ ذلك لم يكن مهماً. سيكون لديه طفل، وسيعيش هذا الطّفل فيمنحه الخلود. الطّفل الّذي سيعيش سينجب أطفالاً وبهذا يتحقّق الخلود. كلّ ما عدا ذلك لا قيمة له.

هذه هي الأفكار الّتي شغلت فكره فاستغرق متأمّلاً في ذاك الصباح.

عندما دخل القسّيس مونتر إلى زنزانة سترونزي، قرأ عليه مقطعاً من التّوراة بصوتٍ مرتجف، وقد غاب عنه المنطق الّذي اتّصف به عادة حين استسلم لموجةٍ من العواطف الجيّاشة. وإن دلّ هذا التّصرف المفاجئ على شيء، فهو أن القسّ لم ينظر إلى سترونزي نظرة عداء بل على العكس، فقد أضمر له مشاعر المحبّة. لكنّ سترونزي قال له وبلطف شديد إنّه كان يتمنى أن يحظى بالصّمت والسّكون في ذلك الصّباح؛ الصّباح الأخير من حياته، فيتأمّل عميقاً في معاني الحياة الأبديّة، وإنّه يقدّر عالياً تفهّم القسّيس.

هزّ القسّيس رأسه بشدّة وتأثر موافقاً على كلام سترونزي. وهكذا أمضيا ساعات ذلك الصّباح بهدوءٍ وصمت، إلى أن حانت ساعة الرّحيل!

لم يرافقه القسيس في العربة التي أقلّته إلى حيث المنصّة، لكنّه انضمّ إليه حين وصل الموقع. وقفت عربة سترونزي على مقربةٍ شديدةٍ من المنصّة وكان معه القسّيس، فاستطاعا من موقعهما ذاك رؤية براندت وهو يصعد منصّة الإعدام.

كذلك استطاعا سماع كلمات القسّيس دين-هيه وكلمات منفّذ عمليّة الإعدام من خلال نافذة العربة، تلتها صرخات براندت حين قُطعت يده على حين غرّة، متبوعة بصوت خبطٍ ثقيلٍ إذ قُطّعت أوصال براندت وأعضاؤه وألقي بها في العربة أسفل المنصّة.

وجود مونتر قرب سترونزي لم يفده كثيراً، فقد حملق القسّ في الكتاب المقدّس ثم صار يرتجف وانهار باكياً؛ بينما حاول سترونزي تطييب خاطره دون نتيجة. بكى القسّ وارتعد جسده، وهو يتمتم بكلمات حاول أن يقرأها من الإنجيل، فناوله سترونزي منديلاً. بعد نصف ساعة انتهت عمليّة تقطيع أوصال براندت وتوقّف خبط الفأس الّذي طال جسده، وحان الوقت!

وقف سترونزي على المنصّة وألقى بنظره إلى بحر من النّاس تجمّعوا هناك. عدد هائل من البشر! بحرٌ لا نهاية له؛ إنّهم هم، إنّهم النّاس الّذين قدم إلى الدّنمارك زائراً من أجلهم، والّذين من المفترض أن يكون قد ساعدهم بما قام به. لماذا لم يقدّموا له الشّكر؟ لكنّ الحقيقة أنّها كانت المرة الأولى إذ يراهم.

الآن يراهم... كنت قد رأيت- يا إلهي الذي قد تكون موجودا- ثغرة ما في التّاريخ، كوّة ما من واجبي أن أبذل كلّ جهدي كي أدخل عبرها. ألم يكن الهدف هو هؤلاء النّاس؟ ألم أبذل وقتي من أجلهم؟ فهل يذهب كلّ شيءٍ سدى؟ أكان عليّ أن أسألهم الرّأي يا إلهي؟ها أنا أراهم ويرونني لكن أليس ذلك متأخراً جدّاً. ربّما كان عليّ أن أتحدّث إليهم وأن يتحدّثوا إليّ وليس أن أعزل نفسي عنهم. لكنّي جلست هناك في غرفتي. لماذا كان عليّ أن ألتقي بهم للمرّة الأولى بهذه الطّريقة والآن فقط، الآن وقد بات الوقت متأخراً جدّاً... نزعوا عنه وسام النّبالة وتلَوا نفس الكلام الّذي تلوه على براندت ثم نزعوا ثيابه. كان النّطع ملطّخاً تماماً بدم براندت، ففكّر في نفسه... ها هو براندت، قطعة اللّحم هذه وهذا الدّم والدّبق، ما هو الإنسان إن فارق المقدّس الجسد، ليس إلاّ لحماً ودماً وطيناً، وهكذا صار براندت الآن، فما الإنسان إذن؟... أمسكوا بذراعيه بقوّة فانصاع كالحمل الوديع

المُعَدّ للذّبح ووضع رأسه على النّطع ويده على النّطع الأخر ونظر إلى الأمام، نحو العدد الهائل واللاّنهائي من وجوه من أتاهم زائراً، أصحاب الوجوه الشّاحبة والرّماديّة الفاغرين أفواههم المحملقين به. هوت الفأس على رسغه فبترت يده.

ارتدّ جسده منتفضاً بقوّة بفعل الضّربة لدرجة أن منفّذ الحكم أخطأ علامة الرّأس حين هوى بالفأس؛ فجثا سترونزي على إحدى ركبتيه معتدلاً رافعاً رأسه وفتح فمه كما لو أنّه أراد مخاطبة تلك الآلاف التي يراها الآن لأوّل مرّة... كلّ ما في خاطري الآن هو صورة تلك الطّفلة، طفلتي، يا إلهي، لكن لو استطعت أن أكلّم كلّ هذه الجماهير الّتي لم تفهمني، والّتي تعتبرني زانياً، فأنا لم أزنِ... أعيدَ رأسه ليلاصق النّطع ثانية، وحين رفع الجلّاد فأسه للمرّة الثّانية جاءت الكلمات التي تفوّه بها سترونزي في تلك اللّحظة الأخيرة مرتعشة إذ قال... إلى أبد الآبدين... واهتدت الفأس إلى الرّأس هذه المرّة فهوت وقطعت رأس طبيب صاحب الجلالة الألمانيّ، وبهذا انتهت الزيارة.

بدت الغيوم وهي تقترب من جهة الشّرق محملة بالأمطار، وحين باشر الجلاّد بتقطيع جسد سترونزي، كان المطر قد بدأ يهطل. لكنّ المطر المنهمر لم يكن السّبب الّذي دفع الجماهير لأن تغادر المكان.

ربّما كان ما شهدوه أكثر من كاف، أو ربّما كان لسان حالهم يقول إن هذا ليس ما أرادوا رؤيته، فهناك خطأ ما. لم يكن هذا ما أرادوه بالضّبط.

«هل خُدعنا؟»، كان السّؤال الّذي عبّرت عنه طريقة مغادرتهم للمكان.

لم يهربوا، بل تحركوا ببطء. بدأ المئات منهم بمغادرة الموقع ثم تحرّك الآلاف إلى أن لم يبق منهم أحد. كأنّ ما حدث كان أكثر من اللّازم وأنّهم لم يستمتعوا بما رأوا، لا ولا شعروا بتلك السّعادة اللّئيمة؛ سعادة الانتقام، بل إنّ كلّ شيء بات غير محتمل. كانوا في البداية حشداً لا نهاية له، يحدق بصمتٍ مراقباً ما سيحدث. لماذا صمتوا ثم تراجعوا، ببطءٍ أوّلاً، ثمّ بسرعة وربّما بحزن؟ عادوا إلى المدينة سيراً على الأقدام

أو هرولة، والمطر ينهمر عليهم ويشتد غزارة. لكنّهم كانوا معتادين على المطر، ولا بدّ من أنّهم أدركوا أخيراً حقيقة هذه الدّراما، فرفضوا أن يكونوا طرفاً فيما حصل.

أكانت القسوة هي ما لم يستطيعوا احتماله؟ أم أنّهم شعروا أنّهم خُذلوا بالفعل؟

أمر غولدبيرغ سائس عربته أن يتوقّف على بعد مئة خطوةٍ من المنصّة. لم يخرج من العربة، لكنّه أمر عشرين جنديّاً أن يقفوا على أهبة الاستعداد للحراسة. الحراسة مِن مَن يا ترى؟ كل شيء سار حسبما خُطِّطَ له، لكن شعوراً بما يشبه العدائيّة قد خيّم فجأة حين تراءى له أنّ الأمور قد خرجت عن السّيطرة. فما الذي حدث لهذه الجماهير؟ لماذا تركوا المكان؟ ما الذي أثار هذه الوجوه المتعبة، المرهقة والحزينة كي تغادر المكان هكذا؟ مشوا من أمامه ككتلة بشريّة يلفها الهمّ والمرارة، كنهر من النّائحين في مسيرة جنائزيّة مرّوا. لا كلام ولا عواطف إنّما هو الحزن خيّم عليهم... نعم إنّه الحزن. كان حزناً صامتاً كالموت، ولكنّه حزنٌ لا يمكن لأحد أن يتحكّم به. حضروا وشهدوا النّهاية الحتميّة لفترة سترونزي، لكنّ ملامح الخطر لم تزل موجودة. تساءل غولدبيرغ إن كانت حمّى الخطيئة قد تسرّبت إليهم أيضاً. لم تخمد الأنوار السوداء المنبعثة من مشاعل التّنويريّين. أصابتهم هذه الأفكار بالعدوى بطريقة غريبة، حتّى ولو لم يكونوا قادرين على القراءة، وفي أغلب الأحيان على الفهم، ولن يفهموا. لذلك يجب إبقاؤهم تحت السّيطرة، ولذلك أيضاً يجب التّحكم بهم، لكن آثار العدوى ما زالت موجودة. ربّما لم تنتهِ فترة سترونزي بعد. كان يعلم تمام العلم أنّ عليه أن يبقى متيقّظاً.

لقد قطع الرّأس لكنّ الأفكار ما زالت هناك. لم يرغب النّاس في البقاء. لماذا يا ترى؟ لماذا غادروا؟

اعتبرها إشارة تحذير. هل ارتكب خطأً ما؟ ما الّذي كان بإمكانه أن يقرأه على تلك الوجوه المرهقة التّعيسة؟ هل أراد النّاس أن يسحبوا أيديهم من الموضوع؟ ربّما كان هذا بالفعل ما أرادوه. فليكن! جلس غولدبيرغ في العربة بينما المسيرة الحاشدة للجماهير تحيط به كالنّهر. لم يكن على الضّفة بل وسط النّهر! في الوسط! تماماً في الوسط! ولم يدر كيف سيفسّرون تصرّفه.

يجب اتّخاذ أقصى درجات الحذر الآن. انتهت فترة سترونزي، لكنّ المشكلة تكمن في العدوى.

لم يهتف الثّلاثون ألفاً فرحاً بالرّأس المقطوع! بل هربوا، ركضوا، تعثّروا، بينما كانوا يسحبون أطفالهم الّذين أحضروهم معهم بعيداً عن المنصّة، التي تبلّلت بماء المطر المنهمر بغزارة. لم يريدوا رؤية المزيد. هناك خطأٌ ما. جلس غولدبيرغ في عربته محاطاً بحراسة مشدّدة. لكنّ ما سيتذكّره دائما هو كيف سار هذا الحشد اللّامتناهي بصمتٍ. وكيف أحاط الحشد بالعربة كما النّهر بينما جلس هو في الوسط تماماً. لم يجلس على الضّفة كمراقب، إنّما في الوسط. ولأوّل مرّة أدرك أنّه لا يحسن فهم الدّوامة الّتي تجري تحت سطح ماء النّهر.

أيّ مشاعر ملأت قلوبهم يا ترى؟ ألم تنتهِ حقبة سترونزي؟

مؤخّراً، في الأشهر الثلاثة الأخيرة، ساد شعور رائع حين سارت الأمور بانسجام تامّ. في كانون الثاني/ يناير ثارت أعمال الشّغب الّتي يذكرها جيّداً. كان غضبُ النّاس عظيماً. وها هم الآن يغادرون المكان وآثار الصّدمة كما الصّمت وملامح الحزن تخيّم عليهم دون أيّ أثر للفرحة المتوقّعة. مشوا صامتين في موكب جنائزيّ هائل جعل غولدبيرغ يشعر ولأوّل مرّة بالخوف.

هل أفلت من يديه شيء لا يمكن للفأس أن تقطعه؟

وقفت العربة تحت المنصّة.

حين امتلأت العربة الّتي كانت ستحمل القطع المبتورة إلى حقل أوسترفيليذ كي يُعلّق الرأسان والأيدي على أعمدة بينما ستوضع الأعضاء التّناسليّة والأحشاء على الدّولاب، كان النّاس قد تركوا الحقل — ما عدا الخمسة آلاف جنديّ الّذين وقفوا صامتين، دون حراك، تحت المطر الغزير، يحرسون الحقل الذي هجره الثّلاثون ألف مواطن منذ حين، حيث اعتَقدَ أن فترة سترونزي قد أُعدمت وأن رأسها قد قُطع وبالتّالي استؤصلت وانتهت.

في اليوم التّالي، علمت كارولين ماتيلدا بأمر الإعدام.

وفي ٣٠ أيّار/مايو، رست في هيلسينغور ثلاث سفن إنجليزيّة قدمت لاصطحاب كارولين ماتليدا إلى تسيلي القريبة من مدينة هانوفر. كانت القلعة الواقعة وسط مدينة تسيلي قد شّيدت في القرن السّابع عشر، ولم تكن مأهولة، ستصبح هذه القلعة مسكناً لكارولين-ماتيلدا. يُقال إن الملكة الشّابّة حافظتَ على حيويّتها، وإنّها أظهرت اهتماماً واضحاً بأحوال فقراء تسيلي. يُقال أيضاً إنّها حافظت على ذكرى سترونزي وطالبت الآخرين باحترام تلك الذّكرى، فتحدّثت عنه بوصفه « الكونت المرضي عنه»، ولم يمض وقت طويل حتّى استمالت مشاعر النّاس في تسيلي، فباتوا يحبّونها ويتعاطفون معها وتبنّوا الفكرة القائلة بأنّها قد ظُلمت.

اهتمّ كثيرون بالدّور الّذي يمكنها أن تلعبه مستقبلاً في مجال السّياسة.

بقي كريستيان – الّذي وقع فريسة لمرضه العقليّ بشكل كامل- ملكاً على الدّنمارك، وعيّن ابنه من كارولين-ماتيلدا وليّاً للعهد. تسبّب المرض العقلي للملك بوجود فراغ في مركز السّلطة، تماماً كما في الماضي، فملأه آخرون، غير سترونزي.

المسيطر الفعلي على السّلطة كان غولدبيرغ. تحوّل غولدبيرغ في الواقع إلى صاحب السّلطة المطلقة، حاملاً لقب رئيس الوزراء. مع ذلك فإنّ عدم الرضّا كان يختمر في بعض النّفوس ضمن دوائر معيّنة في الدنمارك، وقد عمل هؤلاء بمثابرة

وهدوء كي تستعيد كارولين-ماتيلدا السّلطة ومعها ابنها، وذلك بانقلاب يطيح بغولدبيرغ وبزمرته.

في ١٠ أيار/مايو ١٧٧٥، تمّ تعليق هذه الخطط التي كانت قد وصلت إلى مراحل متقدّمة، حين وافت المنيّة كارولين-ماتيلدا فجأة، وبشكل غير متوقع إثر تعرّضها لـ «حمّى معدية». أمّا الشّائعات الّتي قالت إنها قد سُمّمت بأمر من الحكومة الدّنماركيّة، فلم يتمّ تأكيدها.

كانت في الثّالثة والعشرين من عمرها. ولم تر ولديها منذ أن تمّ إبعادها.

أما الثّورة الّتي بادر ستروِنزي إلى تحقيقها، فقد تمّ القضاء عليها بسرعة، وعاد كلّ شيء بعدها إلى ما كان عليه في فترة ما قبل الإصلاحات، وذلك بعد أسابيع قليلة من غياب الرّجل،صاحب المبادرة، إن لم يكن أقل. كأن الـ ٦٣٢ مرسوماً الّتي سنّها ستروِنزي خلال السّنتين اللّتين أُطلق عليهما «فترة ستروِنزي» كانت أشبه بطائرات من ورق، سقط بعضها أرضاً، بينما بقي بعضها يرفرف على ارتفاع منخفض فوق سطح الحقول، دون أن ينجح في الهبوط ليلامس أرض الرّيف الدنماركيّ في حينه.

تبع ذلك فترة غولدبيرغ، والتي استمرت حتى سنة ١٧٨٤، حين عُزل الرّجل من منصبه. كان من الواضح أنّ كلّ شيء سيتقهقر في فترته. كذلك كان واضحاً أنّ فترته لن تُخلّف شيئاً يُذكر.

الإرث السّياسيّ الغزير الّذي قام به ستروِنزي كان مثيراً للإعجاب. لكن كم من هذا الجهد تحقّق على أرض الواقع؟

صورته كمفكّر لا يفارق مكتبه وقد وُهب قوة خارقة للعمل، هي صورة بعيدة عن الصّواب. لم تعد الدنمارك بعد فترة ستروِنزي كما كانت عليه من قبل أبداً. أثبتت تقديرات غولدبيرغ للوضع صحّتها، فقد تركت حركة التّنوير آثارها، ولم تستطع فأس الجّلاد قطع رأس الفكرة ولا بتر يد الكلمة. وأحد أهم إصلاحات

سترونزي، والّذي لم ينجح في إخراجه إلى حيز التنفيذ، كان قانون «منع الرق» الّذي تطلّع إلى تحرير الفلاّحين من نير أصحاب الأرض. صار هذا الحلم حقيقة سنة ١٧٨٨، أي قبل الثّورة الفرنسيّة بسنة واحدة.

ستُخلَّد ذكرى سترونزي بطريقة أخرى أيضاً.

ابنته، لويزا- أوغوستا؛ الطّفلة الّتي أنجبتها له كارولين-ماتيلدا، والتي نشأت وكبرت في الدّنمارك، ستُخلّد ذكراه. لقد شارك أخوها، ابن كريستيان الوحيد، بانقلاب سنة ١٧٨٤ الذي أطاح بغولدبيرغ، وفي سنة ١٨٠٨ سيخلف هذا الأمير أباه الخَرِف على العرش.

أما الفتاة، فقد كان مصيرها مختلفاً. وُصفت بأنّها جميلة جدّاً، وصاحبة حيوية «قلقة». كانت أفكارها السّياسيّة المبدئيّة شبيهة بأفكار والدها، وقد أبدت اهتماماً واضحاً بالثّورة الفرنسيّة. تعاطفت مع روبسبير، وفي وصفها لوالدها قالت إن خطأه تلخّص في أنّ «دماثته فاقت دهاءه».

قد تكون أصابت في هذا التّحليل. ساهم جمالها وحيويّتها في الجاذبيّة الّتي تحلّت بها، رغم أنّها لم تكن دائماً شريكة هادئة ووديعة حين تعلق الأمر بعلاقاتها الشّخصية. تزوّجت من فريدريك-كريستيان، دوق آوغوستنبرغ، الّذي لم يكن بأيّ شكل من الأشكال نداً لها. مع ذلك فقد أنجبت منه ثلاثة أولاد، منهم كارولين-أماليا، الّتي تزوّجت سنة ١٨١٥ من الأمير كريستيان-فريدريك؛ وليّ العهد الدّنماركي والّذي أصبح فيما بعد ملكاً على بلاده. هكذا تكون الدّائرة قد اكتملت فيما يتعلّق بالبلاط الّدنماركيّ. وبهذه الطّريقة يكون كثيرون من أحفاد سترونزي قد تسرّبوا ليشكّلوا مكوّناً مهمّاً في العائلات الملكيّة الغريبة والعجيبة في أوروبا، والتي تفككت بعد فترة وجيزة، رغم أنه جاء بالأساس زائراً ولفترة وجيزة ولم يكن ضيفا مرحّباً به. أما أوغوستا فيكتوريا، وهي حفيدة حفيد سترونزي، فقد تزوّجت من القيصر الألمانيّ فيلهلم الثاني وأنجبت منه ثمانية أولاد. من الصّعوبة بمكان أن نجد اليوم عائلة مالكة أوروبيّة واحدة لا توجد بينها وبين يوهان فريدريخ سترونزي

وأميرته الإنكليزيّة وطفلتهما، رابطة دمّ، بمن فيهم العائلة المالكة في السّويد.

لعلّ الأمر ليس بتلك الأهميّة. لكن إن كان سترونزي قد حلم من حين لآخر وهو في سجنه بأبديّة ما، بتخليد بيولوجيّ ما، من منطلق أنّ الحياة الأبديّة تكمن في الذريّة، فإنّ أمنيته قد تحقّقت بلا شكّ. أمّا حلم الأبديّة والطّبيعة الإنسانيّة، فتلك مسائل لم يستطع البتّ بها — والّتي عرّفت الإنسان وفق نظريّة سترونزي بـ «الآلة الإنسانية»-. ويبقى السؤال: ما هي حقيقة الكائن البشريّ، الّذي يُقطع وتبتر أعضاؤه ويُعلّق على الدّولاب والعامود، ومع كلّ ذلك يبقى حيّاً بشكل من الأشكال؟ ما هو المقدّس يا ترى؟ «المقدسّ هو ما صنعه من حَظِيَ بالقداسة». لقد نظر إلى الإنسان على أنّه خليط من اختيارات وجوديّة ومن أعمال يقوم بها. لكن ما بقي من فترة سترونزي في نهاية الأمر كان مختلفاً جدّاً، كان أكثر أهميّة. لم يكن البيولوجيا ولا ما صنعه الإنسان، بل الحلم نفسه، الحلم في إمكانيّات البشر الدّفينة، ذلك هو الأكثر قداسة والأصعب تحقيقاً. إنّه الأثر الّذي يبقى مثل نوتة لحن من عزف ناي مثابرٍ، مصمّم على البقاء، رافض لأن يُجتثّ.

أرسل السّفير الإنجليزيّ السّيد كيث، تقريراً لحكومته حول حادثة جرت في صالة المسرح الملكيّ في إحدى أمسيات أيلول/ سبتمبر ١٧٨٢.

سرد كيث أنّه التقى بالملك كريستيان السّابع ورئيس وزرائه غولدبيرغ. لمّح كريستيان عندها إلى أنّ سترونزي ما زال حيّاً. لاحظ كيث كم استفزّ هذا الكلام غولدبيرغ، وإن حاول الأخير جاهداً أن يكبت غضبه.

الجميع تكلّم عن فترة سترونزي. لا عدل فيما حدث. لا عدل في ذلك قطّ!!!

اختفى كريستيان لاحقاً في تلك الأمسية.

لا نعرف إلى أين ذهب في تلك اللّيلة. لكنّ المكان الذي اعتاد الذّهاب إليه كان معروفاً. كان من المعروف ضمناً أيضاً عند من ذهب. وبالتّالي فإنّه من الممكن أن نتخيّل ماذا حدث في تلك الأمسيّة كما في غيرها؛ وكيف أنّه مشى تلك

المسافة القصيرة ما بين المسرح الملكيّ والبيت الكائن في وسط كوبنهاغن، في شارع ستوديسترذ، وإنّه دخل بعد الحادثة الّتي وصفها كيث، إلى البيت في الشّارع المذكور وقابل المرأة التي أطلق عليها بعناد لقب «سيّدة الكون»، والّتي عادت إلى كوبنهاغن الآن. إنّها الوحيدة الّتي استطاع أن يشعر معها بالأمان، والوحيدة الّتي أحبّ على طريقته الغريبة في الحبّ، الشّفيعة والمحسنة الوحيدة لهذا الطّفل البالغ الثّالثة والثّلاثين من عمره، والّذي عاملته الحياة بقسوة بالغة.

إنّها كاترين أم البوط، الّتي عادت إلى كوبنهاغن قبل ذلك بسنوات، بعد أن قضت زمناً في مدينتي هامبورغ وكيل. وحسبما وصفها معاصروها، فإن الشّيب قد خطّ شعرها وبدت أكثر سمنة، وربّما أكثر حكمة.

لا بدّ من أن نفترض أنّ المراسيم القديمة قد مورست في تلك اللّيلة أيضاً، وهي نفس مراسيم الحبّ الّتي مكّنت كريستيان من أن يعيش في مستشفى المجانين ذاك. جلس على الكرسيّ عند قدميها كما اعتاد أن يفعل دائماً، أزال شعره المستعار ووضعه جانباً، وبلّل قطعة قماش بالماء ليزيل المساحيق عن وجهه، ثم أخذت هي تمشّط له شعره وهو جالس على الكرسي الصغير المنخفض، بهدوء تام، وبعينين مغلقتين، بينما جلس هناك، عند قدميها، متّكئاً برأسه على ركبتها.

كان يعلم أنّها سيّدة الكون، أنّها شفيعته والمحسنة إليه، وأن لديها الوقت اللّازم له، كلّ الوقت، بل هي الوقت.

أجمع النقاد الأوروبيون على أن هذه الرواية واحدة من أفضل ما أُلِّف في القرن الماضي. تدور أحداثها في العاصمة الدنماركية كوبنهاغن خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وهي الفترة التي حكم فيها الملك كريستيان السابع الذي اقترن اسمه بالجنون والإصلاحات في آن معا.

من خلال رصد علاقة الملك بطبيبه الخاص – وهو أحد رجال التنوير في أوروبا- تشهد الرواية على واحدة من أكثر الحقب التاريخية غنى وإمتاعا وإثارة للدهشة.

تجمع الرواية الخيوط التي تربط الفكر التنويري وما طرحه من تساؤلات حول المعرفة والوجود والمعتقد والحب والرّغبة والمفاهيم المختلفة من خلال الأدب والفنّ والفلسفة من جهة، بالحركات السياسية والمؤامرات التي كانت تحاك في البلاطات الملكية الأوروبية من جهة أخرى.

هذه الرواية لا تحاكم تاريخيا أبطالها بقدر ما تقدم تحليلا للشخصيات الإنسانية، وترصد عميقا كيف يؤثر الوعي والدوافع الفردية على مصائر البشرية.. إنها ببساطة رواية تحتفي – من خلال الحدث التاريخي- بالإنسان الفرد وأسئلته المصيرية، وكيف يؤثر سؤاله الفردي على مصير أمّة بل عالم بأكمله، وهذا ببساطة أساس فلسفة التغيير في أوروبا في القرن الثامن عشر.

حصدت الرواية العديد من الجوائز ، منها جائزة « أوغست» السّويديّة وجائزة « الإنديبندنت» البريطانيّة. ترجمت الرّواية إلى عدة لغات، كما وجدت طريقها للسينما والأوبرا.

ISBN 978-91-87333-30-9
9 789187 333309

دار المنى

Mathematician
25.10.2018